غول سيران بوضايجي أوغلو

طبيبة نفسية

GÜLSEREN BUDAYICIOĞLU

إذا خسِر الملك

KRAL KAYBEDERSE

رواية



الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

إذا خسِر الملك

KRAL KAYBEDERSE

مكتبة | 1217

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل التركي

ردمك 978-614-01-3457-7



إصدار

الدار العربية للعلوم ناشرون م م ح

مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر

المنطقة الحرة، الشارقة

الإمارات العربية المتحدة

جوال: 585597200 971+ - داخلي: 0585597200

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التوزيع في المملكة العربية السعودية

دار إقـــراء للـنـشـــر




facebook.com/ASPArabic twitter.com/ASPArabic www.aspbooks.com asparabic

غول سيران بوضايجي أوغلو
طبيبة نفسية
GÜLSEREN BUDAYICIOĞLU

إذا خسِر الملك

KRAL KAYBEDERSE

رواية

مكتبة | 1217

ترجمة

محمد عبد القادر عبداللي

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

مقدمة

ولدت الطبيبة غول سيران بودايجي أوغلو، في أنقرة كأول الأطفال الثلاثة لعائلة موظف حكومي. بعد أن تخرجت من كلية جمعية التعليم التركية في أنقرة (TED) دخلت كلية الطب في جامعة أنقرة. وخلال حياتها الطلابية عملت مذيعة ومقدمة تلفزيونية في مجموعة تلفزيونات TRT. عملت أستاذة جامعية مدة عشر سنوات في جامعة حجي تِبه حيث تخصصت في الطب النفسي. بعد عملها كطبيبة ممارسة لسنوات، أنشأت في العام 2005 عيادة ماداليون (مركز ماداليون للطب النفسي) وهو أول مركز للطب النفسي في تركيا، والذي ما يزال يمارس نشاطه في أنقرة وإسطنبول.

في تلك الفترة نُشرت عدة كتب لها تحت اسم "ما داخل ماداليون"، "الألوان الثلاثة للخطيئة"، "عُد للحياة"، و"إذا خسِر الملك".

ما تزال بودايجي أوغلو، وهي أم لطفلين، رئيسة عيادة مادليون من جهة، وتواصل من جهة أخرى تقديم علم الطب النفسي للناس من خلال القصص والروايات.

إلى أغلى من في حياتي، (يَغمور) و(حسن)،

اللذَين لم يتركاني وحيدة في الحياة،

وكانا دائمًا بجانبي من خلال محبتهما ودفئهما.

(1)

أغلق الشاب هاتفه مقطّبًا وجهه ثم نهض مغادرًا الطاولة. وبعد أن أومأ بيده بمعنى "الله يلعن الـ.."، وهربًا من نظرات أصدقائه في لعبة الورق المذهولة قليلًا، المليئة بالغضب، التفت إلى الوراء، وصرخ بصوت يشبه الزئير على نادل الملهى:

- حسين، ناولني معطفي، سأخرج.

وقف أصدقاؤه حائرين لا يدرون ماذا يفعلون بأوراق اللعب التي في أيديهم. فما يسمى قمارًا لا يمكن إنهاؤه بهذا الشكل. ثمة قاعدة لكل شيء. وإلا فسيقولون عن الرجل "ضَرب وهَرب". وهل الرجل هو من يتخلى عن أصدقائه بكلمة من امرأة؟ إنها ليست المرة الأولى أو الثانية، فكم مرة حدث هذا؟ ومع ذلك فإن حظه في الورق يصيب كل مرة. ألا يقولون "إن من يفوز بالعشق يخسر بالورق؟" يا لها من كذبة. فهذا الشخص يفوز في العشق وفي الورق أيضًا.

بعد أن رمى أضخمهم الورق على الطاولة بقوة، أزاح الكرسي، ونهض على قدميه. أمسك سترته من الياقة، ووضعها على ظهره، ثم تلفّت يمنة ويسرة وهو يأخذ نفسًا كأنه يقول "لا حول ولا قوة إلا بالله" متجولًا في الأرجاء. كان مستاء جدًا. فكلما غادر كنان بهذا الشكل يخرّب الرباعي من جهة، ويفسد متعة اللعب بسبب الأموال الكثيرة الموجودة أمامه من جهة أخرى. بعد أن حشرج مرة أو مرتين بصوتٍ عالٍ التفت نحو كنان وقال له لائمًا:

- كم مرة حدث هذا يا أخي؟ لن أجلس معك إلى هذه الطاولة بعد الآن مهما حصل. لم تستطع الإفلات من هذه المرأة. ويا لها من امرأة! كم مرة قلنا لك دعها وشأنها. ستقع في مشكلة كبيرة إذا استمررت على هذا المنوال. ألا ترى بأنها قد أَسرتك حقًا؟ إنك لم تعانِ من زوجتك ما عانيته

من هذه العاهرة. وإن مثل هذه العلاقات لا تدوم طويلًا. تنتهي عاجلًا أم آجلًا. من يرك يظن أنك لم يسبق لك أن قابلت امرأة في حياتك.

- اتركني كرمى لله يا سميح. أنا مستاء خلقة الله. لذلك لا تزعجني أكثر بهذا الحديث في الأماكن العامة.
- ماذا يزعجك بالتحديد يا أخي؟ منذ أن جلست هنا وهاتفك لم يهدأ. لم نفهم ما غاية هذه المرأة... إن كانت عزيزة عليك إلى هذا الحد، وتخاف منها إلى هذه الدرجة، لا تجلس معنا إلى الطاولة مجددًا. إنها ليست لعبة أطفال. جئنا إلى هنا لنشرب ونلعب قليلًا. أنت تعكر مزاجنا هكذا. لم نعد فتية. كلنا ارتكبنا أخطاء في حياتنا، وتُبنا. ما شاء الله أنت لم تفلت امرأة من شرّك، ألم تمل أو تسأم؟

سميح كان محقًا. لقد شعر بالإحراج أمام أصدقائه مرة أخرى. ليته لم يأتِ إلى الملهى نهائيًا هذا المساء. لكنه ليس من النوع الذي يخرج من العمل ويذهب إلى المنزل مباشرة. إلى جانب ذلك، لم يكن معتادًا على حياة مستقرة كهذه. عند المساء، وبعد الخروج من العمل، اعتادوا، على مدى سنوات، أن يجتمعوا في هذا الملهى، يأكلون، ويشربون، ويتحادثون عن النساء، وأحيانًا عن قضايا البلد، وأحيانًا أخرى عن العمل، ثم يجلسون إلى الطاولة ويقامرون في حلقة صغيرة. ولا يعودون إلى المنزل قبل أن ينتصف الليل. وعندما لا يتمكن واحد منهم، أو أكثر، أحيانًا، من التحايل على زوجته، فإنه لا يستطيع العودة إلى المنزل. كان كنان واحدًا من المواظبين على الملهى. عند خروجه من العمل، يبحث عن أي وسيلة لكي يخطو ولو خطوة واحدة إلى هنا قبل عودته إلى المنزل. لكن هذه المرأة أغوته مؤخرًا بشكل كبير. في الحقيقة هي تعامله كملك عند عودته إلى المنزل، وكلمته لا تصير اثنتين، تلبي جميع احتياجاته كمضيفة حقيقية، ولكنها في الآونة الأخيرة كانت تحتج بشدة على عودته في وقت متأخر من الليل. تجد، على الدوام، حيلة تحضره بموجبها إلى المنزل باكرًا. اليوم، وعند قولها "أم أنكَ نسيت عيد ميلادي؟"، لم

يجد كنان أي خيار سوى مغادرة الطاولة على عجل. وكيف ينسى عيد ميلاد "فادي"؟[1]

يعشق هاته النساء من جهة، ولا يستطيع تحمل نزواتهن التي لا نهاية لها من جهة أخرى. المناسبات كـ عيد ميلاد، ويوم التعارف، ورأس السنة لا تنتهي، وإن انتهت يأتي وراءها العيد. على الرغم من أنه، مثل غيره من الرجال، لا يهتم بمثل هذه الأشياء، إلا أن معظمهم يجدون طريقة للتحايل، ولكن هذه الأيام ثمة توتر بينهما لم يستطع السيطرة عليه. فعلى الأقل سيكون من الرائع وجوده معها في عيد ميلادها.

- حسنًا، حسنًا، أنتم محقون فيما تقولونه، ولكن اليوم هو عيد ميلاد فادي. وقد نسيت. في الواقع، لم يكن يجدر بي المجيء إلى هنا نهائيًا اليوم، ولكن عقلي مشوش. انشغلت بالعمل ونسيت يا أخي.

كان الجالسون إلى الطاولة يضحكون مستهزئين تارة، ويغمغمون تارة أخرى. اتخذْ لنفسك عشيقة من جهة، وانسَ عيد ميلادها من جهة أخرى. والله لم نشهد شيئًا كهذا من قبل!

قال سامي:

- ومع هذا فأنت حاذق. لو كنا مكانك لرمتنا نساؤنا على عتبة الباب. هل تعمل سحرًا للنساء؟ حتى إنه يستحيل علينا أن نفهم كيف تتدبر أمر زوجتك. ألم تلاحظ هذه المرأة شيئًا خلال كل هذه السنوات؟ الله وحده يعلم إن كنت تذهب إلى بيتك ليلًا.
- اتركوني وشأني كرمى لله، واهتموا بشؤونكم. خذوا هذه "الفِيَش"[2] وتقاسموها. لا أريد أية نقود.

بعد أن أزاح كنان "الفيش" إلى وسط الطاولة لبس معطفه البيج الأنيق الذي أحضره النادل، وأخذ حقيبته الجلدية السوداء في يده ثم خرج من الصالة مسرعًا.

---

(1) فادي: اسم مؤنث، أصله فادِمة، وللتحبب ينادونها بـ "فادي". (المترجم)

(2) الفيش: جمع فيشة، المقصود بها رقائق البوكر. (المترجم)

يتم عادة استقبال شخصيات الملهى المرموقة في صالة رجال الأعمال "VİP". وهؤلاء إما إنهم بيروقراطيون في دوائر الدولة أو رجال أعمال كبار. لم يتركوا عملهم طيلة سنوات. يعملون جيدًا ويكسبون جيدًا. وبالطبع، وبعد كل هذا العمل فلا بأس بالقليل من المتعة. ومن ناحية أخرى هم ما عادوا شبانًا تمامًا. إنهم في أواخر الأربعينيات من العمر. أولادهم كبروا، وكل واحد منهم صار في الجامعة. ولم تكن أي من زوجاتهم تعمل. في الحقيقة، هنّ أيضًا خريجات جامعيات، ولكن رغم كسب أزواجهنّ الكثير من المال، فإن الاهتمام بالأولاد هو من نصيب الأمهات. لم يكن من السهل جني الكثير من المال في هذا الزمن. فإما أن تطوف الجبال والمنحدرات مثل كنان، أو تخدم الدولة حتى أنصاف الليالي. الموظف الصغير يخرج عندما يحين وقته، أما بالنسبة إلى البيروقراطيين الكبار فليس لمفهوم الوقت عندهم وجود. في بعض الأيام تستمر الاجتماعات حتى منتصف الليل.

أصبح هذا الملهى ملاذًا لهم. ولأنهم يجلسون في غرفة منعزلة فلا يمكن لأحد أن يراهم، وبهذا يتجنبون الصحافة. يأكلون ويشربون حتى ساعات متأخرة، يتبادلون أطراف الحديث رجلًا لرجل، ويفعلون ما يحلو لهم. منهم من كان وزيرًا، أو مستشارًا، أو رئيس دائرة. أما في الوقت الحالي، وعلى الرغم من عدم وجود وزير بينهم، إلا أنهم ما زالوا في مناصب عالية جدًا. لا يسمحون لأي شخص جديد بالدخول بينهم نهائيًا، ولا يسمحون أيضًا بتغيير النُدُل الذين يخدمونهم. وبالمقابل فإنهم يدفعون ثمنًا باهظًا مقابل هذه الخدمة، ويتركون إكراميات كبيرة للنُدُل كل يوم، ويساعدون كل واحد منهم في معاملاته الحكومية.

كان كنان يعمل في الدولة لوقت طويل. ولو بقي هناك لكبر شأنه، ولكنه جشع ويحب المال. أراد كسب المال بأسرع وقت ممكن، ولذلك ترك عمله في الدولة منذ سنوات عدة. دراسته الهندسة المدنية كانت سببًا لإنشائه شركته الخاصة، وباستخدام علاقاته القديمة بدأ رويدًا رويدًا بالتعامل مع الدولة. ومع الوقت كبرت الشركة، زاد عدد العاملين فيها يومًا بعد يوم، وفي النهاية أصبح يملك شركة

إنشاءات ضخمة. لم يكن من السهل الوصول إلى ما وصل إليه، فقد أنشأ عدة مواقع بناء في مختلف المدن التركية، وخاصة في شبابه حيث لم يكن ليستطيع العودة إلى منزله وكان يضطر للسفر كثيرًا. في الواقع لم يكن يشتكي أبدًا من تلك الرحلات. فهو على أية حال لم يكن من محبي الاستقرار. يخوض دائمًا في المغامرات، وخاصة تلك التي تلعب النساء فيها دور البطولة.

وبفضل رحلات العمل هذه تمكن من العيش بالشكل الذي يريده دون أن يكون مسؤولًا أمام أحد، كما كثرت النساء في حياته. لم يكن أيضًا من النوع الذي يستطيع قضاء حياته مع امرأة واحدة، وعلى أية حال كانت النساء يقعن في شباكه من تلقاء أنفسهن. في الحقيقة لم تكنّ مخطئات، فلا يوجد في البلد ولا حتى فنان أوسم منه. وكأن الله تعامل معه بطريقة خاصة جدًا أثناء خلقه له. وكأن قامته الممشوقة وعينيه الخضراوين وأنفه المستقيم لم تكن كافية، فكان صوته مؤثرًا للغاية. ولإدراكه ذلك لم يكن مضطرًا لبذل أي جهد لجذب النساء.

حتى في طفولته كان له تألق مختلف. كان طفلًا قوي البنية وأكثر بريقًا وفطنة مقارنة مع أقرانه. كانت والدته تحبه بشكل خاص، حتى عندما صار رجلًا كبيرًا كانت تُظهر حبها له بقولها: "ابني الجميل، ابني الوسيم، فداك كل النساء". وكأن التميز مكتوب عليه. وبالطبع، ونظرًا لكونه شخصًا مميزًا ومختلفًا عن الآخرين، أو بالأحرى مرموقًا، فإن الأشخاص الذين من حوله كانوا يتعاملون معه باحترام وحب.

أثناء قفزه على الدرج كان مستاءً في الحقيقة. لم يكن يحب المناسبات الخاصة كهذه. وفوق هذا فإنه لم يأخذ هدية معه. وعليه الآن أن يجد الكثير من الأعذار بسبب نسيانه هذه المناسبة، وعدم إحضاره هدية أيضًا. سيكون من الأفضل الاتصال بزوجته قبل الخروج. ضغط على الهاتف على عجل. وبعد رنّتين فُتح الهاتف.

- ما أخبارك يا هاندان، كيف حالك؟

- مرحبا كنان، بخير. وأنت كيف حالك؟ هل أتيت؟
- بخير، بخير. أتيت ولكن...
- على ما يبدو، وبسبب اتصالك في هذه الساعة، فإنك لن تأتي إلى البيت، أليس كذلك؟
- لا تسألي... تعرفين أنني متعب جدًا. وصلت لتوي. دخلت لأسلم على الأصدقاء وحال خروجي اتصلوا من موقع البناء في سامسون. حدثت مشكلة كبيرة.
- ما هذه المشكلة؟
- لا أستطيع أن أشرح لك بشكل مطول الآن. ربما وقع حادث. يجب أن أذهب فورًا.
- على الأقل مر على المنزل، استحم وبدّل ملابسك...
- لا، لا... لا أملك وقتًا لهذا. سأتصل بك مجددًا. خذي راحتك ولا تقلقي عليّ.
- ولكن هذا لا يمكن... على أية حال، تمام... نلتقي لاحقًا.

كان يجد صعوبة في الاتصال بالمنزل واختلاق الأعذار كل مرة. خرج من الملهى بسرعة مباعدًا أطراف معطفه. كان يسير دائمًا ورأسه مرفوع، وكتفاه للخلف، وعيناه تمشّطان الأرجاء، مترنحًا قليلًا. كان سائقه إسماعيل ينتظره على الباب كالمعتاد. ركض فورًا وأخذ الحقيبة التي بيده وانحنى باحترام ثم فتح باب السيارة المرسيدس ذات اللون الكحلي. وفور ركوب كنان السيارة كان أول عمل له هو طلبه من إسماعيل الوقوف أمام أحد بائعي الزهور: "قل له أن يعمل باقة أزهار جميلة، لتكن فاخرة".

من ناحية أخرى، فقد بقي عقله عند هاندان. كانت هاندان امرأة جيدة. وكان يحترمها دائمًا. كانت تغمض عينيها دائمًا متجاهلة الكثير من الأشياء. في الحقيقة لم يكن من الممكن أن تسير هذه العلاقة لولا ذلك، وهي مدركة لهذا الآن.

قبل سنوات، انفصلا بسبب نوبة من الغيرة. في الحقيقة كانت المرأة على حق. فهذه المرة كانت مع أقرب صديقاتها، ولكن الخطأ لم يكن خطأ كنان، فالمرأة هي من سقطت في حضنه، وهو بدوره استسلم لجمالها، هذا كل شيء. لو لم تقترب المرأة منه لما حدث كل هذا. في الواقع ثمة في تلك الفترة نساء أخريات في حياته. فمن ناحية الجمال كانت (اوزلام) جميلة، ولكنه لا يملك عمرًا كافيًا للحاق بكل الجميلات... على الأقل لو لم يكن في حياته أحد. لنتابع على أية حال...

بما أن اوزلام صديقة هاندان المقربة فقد كانت تذهب إلى منزلهما كثيرًا، وكلما عاد كنان إلى منزله مساء يجد اوزلام عندهم. وكيف يمكن لشخص مثل كنان أن يرفض هذه المرأة التي تطلق الضحكات المرحة على طاولات العَرَق وهي تشعّ شهوة. بعد مدة قصيرة ضاجعها. كانت اوزلام تملك عملًا جيدًا وتجني نقودًا جيدة. وفوق هذا جميلة. ورغم وجود كل هذا العدد من الرجال أصرت على اللهاث وراء كنان، وفي النهاية حصلت على مرادها، ونجحت في إغوائه. كانت عازبة وجميلة وجذابة بما يكفي لتجد أربعين زوجًا، ولكنها أصرت على كنان ولا أحد غيره. معرفة كنان لكل هذا داعب كبرياءه، واستمتع بكونه محبوبًا ومحط اهتمام امرأة مثلها.

بدأ العشق بينهما بسرعة. لم تكن عيونهما ترى الدنيا، مما جعل هاندان تقبض عليهما. فلو كانا أكثر حذرًا لما شعرت هاندان بشيء. في الواقع كان هو الشخص الوحيد الذي يريد لهذه العلاقة أن تكون بعيدة عن الأنظار. أما اوزلام فلم يكن لديها أي مشكلة. على العكس تمامًا كانت تريد أن يطفو هذا الأمر بأسرع وقت ممكن، لأنها وقعت في حب كنان وهدفها الوحيد هو الزواج منه واستمرار علاقتهما إلى الأبد. كانت هاندان صديقتها المقربة، ولهذا لم تستطع تقبل الأمر على نفسها، ولكن العشق شيء مختلف تمامًا. لا يعرف عيبًا أو خطأ. ولذلك لم تَلُمْ نفسها نهائيًا. انجذبت إلى كنان لدرجة أن العالم بالنسبة إليها كان في كفة وكنان في الكفة الأخرى.

في تلك الأيام، حزنت هاندان وبكت كثيرًا. أتت الخيانة، وبالأخص من أقرب صديقاتها، ثقيلة جدًا عليها. في النهاية اعترف زوجها وأكد ذلك، ولكنه لم يعتذر حتى. فكنان كان حبها الوحيد في الحياة، وهي تعلم أنها لن تستطيع نسيانه، ولكنها لم تعد تستطيع الدوس على كبريائها أكثر. وبغضب وانكسار انفصلا بجلسة واحدة، ولكن عند سماعها بزواجه من اوزلام انهارت الدنيا على رأسها. في ذلك الوقت فكرت بالانتحار كثيرًا، لأن الدنيا بدت لها فارغة جدًا دون كنان. لا تمر الأيام بأية وسيلة، تشعر بالاختناق في ليالي الأرق المظلمة والمنعزلة.

كانت تغضب من اوزلام أكثر من كنان، ومن نفسها أحيانًا. كيف تسمح لتلك المرأة بالدخول إلى بيتها، وإغواء زوجها وأمام عينيها؟ كيف لا تعرف صديقتها التي رافقتها لسنوات؟ كيف لم تشعر بما تنوي له منذ البداية؟ يا لها من امرأة غبية! فلت زوجها من يدها على مرأى منها. علاوة على ذلك، ألم تكن تعرف بعض الأشياء التي حدثت خلال سنوات الجامعة؟ ألم ترَ نظرات جميع البنات إلى كنان، وكيف غرقن به؟

هي أيضًا كانت فتاة جميلة، وثمة كثير من الرجال أُعجبوا بها وأرادوا الزواج منها، ولكن كنان كان مختلفًا. لا مثيل له. في ذلك الوقت أيضًا كانت تعلم بحب النساء له. ألم نقل إن زوجها ليس قليلًا؟ وهو بدوره لم يكن يرفض مثل هذه الرغبات، فهو في النهاية رجل. يتسكع معهنّ قليلًا، ولكنه في النهاية يعود إلى منزله وزوجته. ألم تتزوج هي من كنان رغم معرفتها بكل هذا؟ فلماذا تغضب الآن كل هذا الغضب؟ لقد وصلت معه إلى هذا الحد، ثم خسرته لصالح أعز صديقاتها. كيف أمكنها أن تكون بهذا الغباء؟

كان كنان رجلًا صعبًا. صعب ولكنه فريد... لو لم تحبه إلى هذه الدرجة لما تحملت العيش معه أبدًا. ينتظر من زوجته كل شيء، لا يجلب لبيته حتى رغيف خبز. إهماله لم يكن تجاه منزله فقط، بل حتى تجاه زوجته أيضًا. عقله دائمًا في مكان آخر. يتجول كالأشباح، يجد ذريعة للتهرب من المنزل دائمًا. بقيا متزوجين

مدة خمس سنوات ولم ينجبا أطفالًا. لو أنجبا أطفالًا لما فعل كلاهما ما فعلاه، واضطرا أيضًا لمواصلة حياتهما الزوجية. لقد ارتكبت هاندان خطأ.

كان عليها إيجاد عذر ما للاتصال بطليقها، وإعادة بناء العلاقة معه. فهي لم تتقبل الحياة دون كنان. وهكذا فعلتها في النهاية، وبدأ كنان بالرد على مكالماتها بسعادة. عندما التقيا أول مرة، شعر كلاهما بالغرابة. يلتقي الآن كنان مع هاندان سرًا ويخون اوزلام. بدأت بينهما علاقة مثيرة أكثر من السابق. كما لو أنهما يمحوان شوق السنين، ويتحرقان لبعضهما البعض.

في الواقع كانت هاندان ابنة عائلة مرموقة، وتربّت برعاية كبيرة. درست في الكلية أولًا ثم أصبحت معمارية. ولكنها بعد زواجها من كنان تركت وظيفتها، وأصبح عملها الوحيد هو خدمة زوجها بأفضل شكل. لم تواعد أي رجل قبل تعرفها إلى كنان، ولم تفعل شيئًا بالسر عن عائلتها، ولكنها شعرت بدفء يتدفق فيها بمجرد رؤيتها كنان من بعيد. كانت عيناها في بحث دائم عنه في حديقة الجامعة. كان وسيمًا ورائعًا جدًا، فبينما كان جميع الرجال يركضون خلف النساء، فهو على عكس ذلك لم يكن يستطيع الإفلات حتى برأسه من الفتيات. كان يبدو رجلًا جديًا ورومانسيًا بنفس الوقت. ما يسمى الحب لا يمكن عيشه إلا مع رجل كهذا. لم تستطع الاقتراب منه زمنًا طويلًا، لأن كنان لم يستطع التنفس بسبب الفتيات، فثمة دائمًا فتيات جميلات حوله. لزم الأمر مرور عدة سنوات حتى يتزوجا. بقيت مع كنان بإصرار متطلعة إلى ذلك اليوم الذي سيشكل منعطفًا في حياتها. هذه الفتاة الجميلة الرائعة التي لم تقترب منه كثيرًا مثل الفتيات الأخريات ولكنها لم تبتعد عنه نهائيًا، أصبحت في النهاية هي الفائزة بالحرب وتزوجت كنان. في الواقع، لقد حققت انتصارًا جادًا. كما لو أنها دخلت بين عشرات الحيوانات المفترسة وحصلت عليه. مهما تفاخرت بذلك فهو قليل. لذلك كانت تمشي بجانب زوجها دائمًا مرفوعة الرأس، ولم تنسَ أبدًا استثنائية الزواج برجل مثله. كانت تعلم أيضًا مدى رغبة بنات جنسها بأن يكنّ مكانها، وكانت تحاول التلذذ بذلك إلى أقصى حد.

في الحقيقة، إن إفلات كنان من اليد هو أمر لا يغتفر، وهي تعلم الآن عدم وجود أي رجل يمكنه ملء مكان كنان، لذلك كانت تأكل نفسها من الداخل. ألن يقول الجميع "انظروا إلى هذا الرجل الذي وجدته بعد كنان"؟ وعلاوة على ذلك، فقد تزوج كنان من اوزلام، التي كانت على الأقل جميلة مثله، وحسنة السمعة ولها عمل جيد، وتتقاضى أجرًا جيدًا. فإما أن تغادر هذه الدنيا، أو تجد طريقة ما لاستعادة زوجها. وكنان بدوره كان ميّالًا لذلك. هذا يعني أنه ندم على الانفصال، ويحبها. أن يحبك كنان، يا له من شعور رائع! مع تطور العلاقة اقتنعت هاندان تمامًا أن كنان قد أحبها. كان كنان يتصرف معها بشفقة، يتصل بها كل يوم ويطمئن عليها، ويلتقيان كثيرًا. والآن أتى الدور على اوزلام لتعاني. فعلى أية حال ستسمع بهذه العلاقة وتنفجر من غضبها. اوزلام امرأة لها كبرياؤها. وهي مثلها، لا تتحمل الخيانة. فينفصلان فورًا، ويعود كنان لها من جديد.

حدث كل شيء كما خططت له هاندان تمامًا. انفصلت اوزلام، التي سمعت بهذه العلاقة، عن كنان بجلسة واحدة. بينما كانت هاندان تحلق في الهواء من سعادتها، لم تستطع اوزلام استجماع شتات نفسها لسنوات. حتى إنها أمضت شهرًا كاملًا في جناح الطب النفسي في إحدى المشافي خارج إسطنبول. وتلقت علاجًا بالصدمات الكهربائية ثماني أو عشر مرات لأن الأدوية التي استخدمتها لم تشفِ اكتئابها. وعلى الرغم من محاولات عائلتها إخفاء ذلك، إلا أن هاندان علمت بذلك من مكان ما. كانت تعلم أيضًا أنها حاولت الانتحار مرتين أو ثلاث ولكنها لم تذكر ذلك لكنان نهائيًا.

تزوجت كنان بحفل بسيط. وحصلت أخيرًا على رغبتها ولمت شملها من جديد مع الرجل الذي أحبته. كان كنان سعيدًا ولكنه ما زال كنان القديم. يأتي إلى البيت متأخرًا، رحلات عمله لا تنتهي أبدًا، وإن لم يكن لديه سَفرة فإنه يشرب الخمر، ويمرح، ويلعب القمار مع أصدقائه في الملهى حتى الصباح. ألم يكن هناك نساء أخريات؟ هي ليست متأكدة من ذلك الآن، ولكنها تعرف زوجها جيدًا. فحتى

لو تصرف بأدب فإن النساء لن يسمحن له بذلك، وسيجدن طريقة ما للاقتراب منه. لسانها احترق مرة، ولذلك لن تنفصل عن كنان مرة أخرى، أو تدعه يفلت منها إلى نساء أخريات أبدًا. ولهذا لم تتفوه بأي كلمة على الرغم من تأكدها من أن زوجها كان يكذب عليها في ذلك المساء.

توقف السائق إسماعيل أمام بائع الأزهار المعتاد، ونزل من السيارة على عجل ليصنع باقة فاخرة. وبينما كان كنان ينظر إلى بائع الزهور من مقعده الخلفي الأيمن، وقعت عيناه على شابة ترتدي سترة بيضاء كانت منحنية نحو أزهار البابونج الموضوعة بعناية في المزهريات. ترجل من السيارة على الفور. لم ينسَ أن يأخذ حقيبته التي كانت بجانبه. وبينما كان يتظاهر بدخوله الدكان وهو يمر بجانب المرأة، أسقط متعمدًا حقيبته التي في يده. ولدى وقوعها بسرعة في بركة الماء المتكومة في الأرض تناثرت المياه. ليس فقط بنطال الشابة هو الذي أخذ نصيبه من ذلك، بل أيضًا السترة البيضاء الجلدية التي كانت ترتديها.

انحنى كنان نحو المرأة بإحراج وارتباك شديدين. لم يستطع رؤية وجهها من السيارة، ولكنه الآن وبعد أن لاصق أنفه أنفها أتيح له إمكانية فحصها بدقة. شعرها الأشقر مسحوب إلى الخلف على هيئة ذنب حصان. عمرها فوق الثلاثين. ودون أن يشعرها بذلك، نظر إلى يديها المكدومتين من البرد. لم تكن ترتدي خاتمًا. مما يعني أنها ليست متزوجة. تمتم في نفسه قائلًا: "فتاة بجمالها غير متزوجة يعني أنها حزينة ومجروحة". إقامة علاقة مع فتاة مثلها أمر سهل. وإن فتاة مثلها أيضًا لن تتوقف عن بناء الأحلام وانتظار الفارس على حصان أبيض.

- أنا آسف، أنا آسف جدًا... يا الله، تناثر الطين حتى على سترتك. يا لي من رجل أحمق.
- غير مهم...

وأثناء قوله ذلك الكلام، كانت المرأة تحاول تنظيف الطين المتناثر عليها من جهة، وتفكر بأن ما حدث لها قد يكون علامة خير من جهة أخرى. هي أيضًا

تفحصت الرجل بدقة في اللحظة التي لاصق أنفها أنفه. كم كان لطيفًا، وكم كانت رائحته رائعة، ونظرته جميلة. بدا من هيئته ولباسه وحديثه وحقيبة يده أنه رجل أعمال. ثم وبردة فعل طبيعية نظرت المرأة إلى يدي كنان. لم يكن يرتدي خاتم زواج. هذا يعني أنه أعزب!

وعلى الفور، أخرج كنان من جيبه منديلًا حريرًا. كم عدد الرجال الذين يحملون في جيوبهم مناديل حريرية في هذا الزمن؟ شعرت وكأنها في حلم لا تريد الاستيقاظ منه. كان كنان يحاول مسح البقع التي على سترتها بالمنديل الحريري بأناقة وإثارة وخجل. وفي هذه الأثناء أتى السائق إسماعيل مع صاحب المحل الشاب. أوحت نظراتهما بعدم فهمم ما حصل، وباستعدادهما لتقديم المساعدة.

رفع كنان صوته على الفور، وبدأ بإمطار الأوامر بأسلوب رئيس:

- إسماعيل، خذ رقم هاتف السيدة وعنوانها، واذهب في الصباح الباكر أوصل السترة والبنطال إلى محل التنظيف عندنا. لينتبهوا للسترة جيدًا لئلا يخدشوا الجلد.
- على رأسي يا سيدي.
- وأنت يا ابني، اصنع باقة جميلة من زهرات البابونج هذه، ولنعطِها للسيدة. وإلا فلن نعرف كيف نكفر عن خطئنا.
- على رأسي يا سيدي.

في غضون ذلك، حمل إسماعيل حقيبة رئيسه التي سقطت على الأرض، وأخذها إلى الداخل لتنظيفها. أما كنان، وبعد محاولتين من التنظيف، وضع المنديل الحريري في يد المرأة. كانت قد خيطت على المنديل الأحرف الأولى من اسمه، وكالعادة قبل أن يضع المنديل في جيبه يقوم برش العطر الذي يستخدمه حتمًا. بقي المنديل في يد المرأة، وهي تحدق بدهشة لا تعرف ما تقوله حول هذا كله. بعد ذلك لم ينظر كنان في عيني المرأة أبدًا. حتى إنه ابتعد عنها قدر الإمكان، ولم يستطع رفع رأسه من الخجل.

نُظّفت الشنتة، وأعطيت باقة الأزهار المعدّة بعناية إلى الشابة. وأثناء ذلك، وبعد وضع الأزهار التي أرادها كنان في صندوق السيارة، حان وقت ركوبها.

- سيدتي تفضلي من فضلك. لنوصلك إلى حيث تريدين الذهاب.
- لا، لا... إن منزلي قريب. وإنكم قد اشتريتم هذه الأزهار. لم يكن هناك حاجة لذلك حقًا.
- وكيف يمكن ذلك؟ حتى إنني لا أستطيع النظر في وجهكم من شدة الخجل. أتمنى ألا يبقى أثر على سترة حضرتكِ. سوف يأتي إسماعيل صباحًا ويأخذها. أنا حقًا أحمق. أكره سلوكي هذا بشدة. ليس من حقي النوم هذه الليلة أيضًا...
- لا يا روحي، لا تبالغوا. مثل هذه الأشياء تحدث...

وأثناء حديثها هذا، لم تكن الفتاة الشابة تعلم ما تفعله بالمنديل الذي في يدها. كان المنديل الحريري قد اتسخ. والآن من العيب أن تعيده. وبينما كانت تقلب المنديل الذي في يدها صعدت إلى السيارة من الباب الخلفي الذي فتحه كنان بانحناءة خفيفة. رأت الأحرف التي على المنديل. "ك.ب." لا بد أنه رجل مهم!

كان كنان جالسًا بجانب المرأة ولكن بعيدًا عنها قليلًا وكان يتحدث باختصار. الفتاة تدل إسماعيل على الطريق، وإسماعيل يفعل ما يقال له وهو يضحك سرًا. كان معتادًا على مثل هذه الأشياء. فرب عمله هذا كان موهوبًا جدًا. هذا يعني أنه رأى المرأة من السيارة في تلك الأثناء، وفعل ما فعله.

كان منزل المرأة قريبًا فعلًا من بائع الأزهار. عندما توقفت السيارة أمام البناء الوردي في الزاوية، قفز كنان من السيارة على الفور. ترجل إسماعيل أيضًا، ووقف خلف رئيسه متخذًا وضعية الاستعداد. فتح كنان الباب للمرأة. ومد يده إليها دون أن ينظر في وجهها مرة أخرى قائلًا: "أنا آسف مرة أخرى يا سيدتي. أنا كنان. كنان باران." وبينما كانت تعصر هذه اليد الكبيرة الأنيقة، المليئة بالدفء، التي امتدت إليها، قالت: "وأنا سراب. أعمل مدرّسة. أعيش في هذا المنزل مع أمي. لا أستطيع

إعادة المنديل إليكم، لأنه متسخ." دفع كنان رأسه إلى الوراء قليلًا مطلقًا ضحكة صغيرة. ضحكة صغيرة لكنها صادقة، وعاطفية... "لا يهم. ليبقَ معكم كذكرى لهذا المساء. سعدت بلقائكم. عمتم مساء."

وبينما كانت المرأة تضغط حقيبة كتفها وباقة أزهار البابونج الكبيرة على صدرها بقوة، وتمسك بيدها الأخرى منديل كنان، بدأت بالسير نحو البناء. عندما أومأ كنان برأسه لإسماعيل، تبع المرأة فورًا، وأخذ الأزهار من يدها. وبعد أن صعد بالمصعد حتى بيتها وعلم موقعه جيدًا، نزل إلى الأسفل.

كان كنان قد ركب السيارة منتظرًا إسماعيل.



- هل عرفت في أي شقة تعيش بالضبط؟
- عرفت يا سيدي.
- حسن إذن. اذهب غدًا في الصباح الباكر، وخذ السترة والبنطال إلى المنظف. وقبل ذهابك مر على بائع الأزهار واشترِ باقة من البابونج، ولا تنس أن تضع بطاقتي داخلها. تقول إنها مدرّسة. مما يعني أنها تذهب للعمل باكرًا. إياك أن تتأخر. هاا، هل كانت باقة الزهور التي اشتريتَها لفادي جميلة؟ لم تسنح لي رؤيتها وسط تلك الزحمة.
- جميلة يا سيدي. جعلته يضع أغلى أزهار الدكان، ثم ربطها بشريط مخملي. ستحبها أختي الكبيرة.

شعر كنان بالارتياح، فقد ضرب عصفورين بحجر واحد. تخلص من نقيق "فادي" من جهة، وظهرت أمامه حورية جديدة عند المساء من جهة أخرى. هذه الفتاة كانت جميلة. لم يعد بحاجة لفعل أي شيء بعد الآن. فالفتاة ستتصل به عاجلًا أو آجلًا، وهو بدوره سيدعوها للعشاء بحجة الاعتذار والتكفير عن خطئه. ثم تجري الأحداث من تلقاء نفسها.

بعد أن دخل كنان البناء حاملًا في إحدى يديه باقة زهور ضخمة، وفي اليد الأخرى حقيبته الجلدية السوداء، وأثناء صعوده أدراج الطابق الأول فُتح الباب. ففادي تنتظره

على النافذة كالعادة. بعد أن أخذت الزهور والحقيبة من يد حبيبها كنان، انسحبت جانبًا منتظرة دخوله ثم لفت ذراعيها حول رقبته قائلة: "أهلًا بك يا عزيزي."

على الرغم من أن كنان كان يشعر بالملل قليلًا من تينك الذراعين اللتين التفتا حول عنقه حتى قبل أن يخلع معطفه، إلا أنه قال بلطف: "أهلًا يا روحي، عيد ميلاد سعيد." لماذا كانت هذه المرأة في عجلة من أمرها؟ هل كان سيهرب؟.. أما من ناحية فادي فقد كانت سعيدة جدًا برؤية كنان لدرجة أنها وضعت على عجلة الحقيبة في الصالون والأزهار على طاولة المطبخ ثم ركضت إليه مرة أخرى. وظيفتها الآن كانت مساعدة كنان على خلع ملابسه. أخذت المعطف من يده وعلقته في الخزانة الموجودة جانبًا، ثم رافقته ليجلس على الكنبة الموجودة في صدر الصالون. إنها تحب هذا الرجل، تحبه كثيرًا. ومع أنه نسي عيد ميلادها وعقله دائمًا في مكان ما، إلا أن تركه بالنسبة إليها موت حقيقي. كم كان وسيمًا ورائعًا حبيبها. كان لديه نوع مختلف من الشحنات الكهربائية. بعد أن جلس كنان على حافة الكنبة وعند معانقتها له استنشقت رائحة عطر كنان الممزوجة برائحة السجائر. الحقيقة أن الأمر كان يستحق مجرد شم تلك الرائحة.

- كيف حالك يا روحي؟ كيف كان يومك؟ هل تعبت مجددًا؟ ليتك لا تتعب نفسك إلى هذه الدرجة. مدد رجليك، استرح قليلًا. انظر، يا لروعة الطعام الذي طبختُه لك. هل تعرف كم ساعة استغرق معي صنع هذه الأطباق؟ لماذا؟ لأن حبيبي يستحق الأفضل في كل شيء.
- تمام، تمام. سلمت يداكِ... نعم، أنا متعب قليلًا، فقد أتيت من طريق طويل. كان لدي بعض العمل، ولم أستطع المغادرة قبل إنهائه.
- ولكنك لم تكن في الشركة، لقد ذهبتَ إلى الملهى مرة أخرى، أليس كذلك؟
- كان عليّ التحدث مع سميح. وفي تلك الساعة لا يمكن أن أجده إلا في الملهى. عندما ذهبت إلى هناك لعبنا شوطًا أو شوطين.

- ولكنك نسيت حتى عيد ميلادي!
- لا يا روحي، ومن أين طلعتِ بهذا؟ عندما اتصلتِ كنت على وشك الانتهاء. كنت قادمًا بالفعل.

كانت فادي معتادة على مثل هذه الأشياء. لم يفِ كنان بوعوده قط، وإذا لم تذكّره هي بالمناسبات الخاصة، ينساها تمامًا، فهو غير مهتم بأشياء كهذه. أليس معظم الرجال هكذا؟ علاوة على ذلك فإن رجلًا مهمًا مثل كنان يمكن له أن ينسى مثل هذه الأشياء وسط انشغاله، وهو يتصرف تجاه ذلك بشكل طبيعي، ولكنه لا يستطيع إلا أن يوبّخها.

اقتربت مدة عيشهم سوية من عشر سنوات. إنها عشر سنوات، وهل من السهل قول ذلك؟ ويا لها من أيام! لم تكن فادي تصدق أن تكون حبيبة رجل مثله، ولو في الحلم، ولكن هذا حدث. في ذلك الوقت كانت تدرس في الجامعة، ولأن نقود المنحة لم تكن تكفيها كانت تعمل في المساء نادلة في أحد الملاهي. كانت هي الوحيدة التي درست بين أخواتها الخمسة. ولأنها كانت متفوقة منذ دراستها في المدرسة الابتدائية فقد دعمتها إدارة المدرسة والمعلمون أيضًا، وبسبب علاماتها العالية في امتحانات الجامعة أعطتها الدولة منحة دراسية. عائلتها لم تكن تدعمها أساسًا.

في البداية كانت تعمل ليلًا حتى الصباح في مركز هاتف أحد الفنادق، وكان من الصعب عليها أن تعيش بلا نوم لأشهر عدة. ومع ذلك فقد اشترت لنفسها معطفًا سميكًا بالنقود التي جنتها من عملها هناك. ولاحقًا، تمكنت من العمل في هذا الملهى. كانت تأتي كل يوم في الساعة الخامسة مساء بعد خروجها من المدرسة، وتعمل حتى يغلق الملهى أبوابه. كان المديرون مسرورين منها. تعمل بمفردها عملًا يتطلب شخصين، لا تراوغ، ولا تعترض على ما يعطونها إياه نهائيًا، حتى إنها لم تطلب تأمينًا صحيًا. تمشي دائمًا ورأسها مرفوع، تتصرف باحترام واضعة مسافة مع الزبائن، والملابس التي أعطتها إياها الشركة لارتدائها نظيفة دائمًا. لو لم تكن

متشبثة بالحياة، ورضيت بمصير مثل مصير أخواتها، لما عانت كثيرًا. لو لم تدرس كثيرًا، ولم تتعلم ما تعلمته، ولم ترَ بعض الأشياء، لربما عاشت حياة مطمئنة أكثر، ولكن ذلك لم يحدث. كانت الحياة تصفعها على وجهها كلما سنحت لها الفرصة بسبب اختلافها عن الناس المحيطين بها، وكونها بائسة مثل جرذ الشوارع. كانت أهم مشكلة تواجه أصدقاءها هي ما سيرتدونه في ذلك اليوم. أما هي فلم تكن تعاني من مشكلة كهذه، لأنها كانت تعرف بالفعل ما ترتديه.

تعرفت على كنان في هذا الملهى. كان كنان أحد أعضائه المرموقين. كان له سحر غريب. بدا وكأن كهرباء مغايرة تشع من حوله. وخاصة ضحكاته التي ترن على جدران الملهى وتؤثر فيها من الداخل. كانت معتادة على الناس الباكين، أو المتألمين، أو الذين يعانون. ماذا يفعل وبماذا يشعر الإنسان حتى يصبح مبتهجًا ومندفعًا هكذا؟ يا له من حظ كبير مجيء رجل بهذه الوسامة وهذا الجمال إلى الدنيا. الواقع أن كنان لم يكن مبتهجًا ومسرورًا دائمًا. فهو لا يغفر أدنى إهمال، يريد الماء باردًا والخبز ساخنًا دائمًا، لا يطفئ سوى سيجارة واحدة في صحن السجائر. يغضب إذا لم يتم ملاحظة انتهائه من كأس العرق وملئه على الفور كما لو تم ارتكاب خطأ فادح فيُقيم الكون ويقعده، ولا يترك كلمة لا يقولها.

لهذا السبب كان كل من يعمل في الملهى يخاف منه، وكانوا يعطونه الأولوية في كل شيء، كما لو أن هذا الملهى ملكه هو فقط، ولكن حتى فادي كانت مسرورة لهذا، فهي كانت تحترم كنان وتقدّره أكثر من أي شخص آخر. فكم كان الرجل واثقًا من نفسه لدرجة أنه يفعل ما يحلو له، ويصر على الاهتمام بنفسه في كل شيء.

يجلس في صالة رجال الأعمال "VIP" مع ثمانية، أو عشرة رجال ميسوري الحال، لا يخرجون من الصالة كثيرًا، يأكلون ويشربون ويلعبون القمار هناك. كانت الإدارة قد كلفت فادي وسليمان، اللذين عملا لسنوات في الملهى، لخدمة تلك الصالة. في الواقع إن اسمها لم يكن فادي بل فادِمة، ولكن سليمان هو من أطلق عليها هذا الاسم. العمل الخدمي كان يقوم به سليمان في الغالب، أما فادي فكانت

تعمل كسكرتيرة، أو مساعدة لمن يكون في تلك الغرفة. كانت تجيب على جميع مكالمات الملهى الهاتفية، وتعرف جيدًا مَن توصله من المتصلين بمن في صالة رجال الأعمال "VIP"، وتهتم بسائق كل شخص منهم، وترتب معهم أوقات اصطحاب رؤسائهم، وما يأكله ويشربه السائقون. إذا مر يوم لم تأتِ فيه فادي إلى الملهى تتكبل أيدي الجميع وأرجلهم، ويرتبكون لا يدرون ما يفعلونه حتى لا يتم توبيخهم من الأشخاص الموجودين في الصالة. على أية حال فإن فادي لا تأخذ إجازة، وتحاول جاهدة، وقدر الإمكان، أن تأتي إلى العمل سبعة أيام في الأسبوع.

كانت تلقي نظرات على الكتب الموجودة في غرفة الملهى الصغيرة حيث يوجد مركز الهاتف. لم يكن همّها الدروس، فهي ستنهي دراستها على أية حال، بل كان همّها أن تتعلم أية لغة أخرى.

في أحد الأيام، وأثناء تبادل الأحاديث مع الضيوف الخاصين تحدثت عن إرادتها بتعلم اللغة الإنكليزية، فاهتم كنان بهذا جدًا ووعد بترتيب دورة تدريبية لها. سُرَّت فادي لأنها ستتعلم لغة في أقرب وقت، ولكن ما أثارها أكثر هو الاهتمام الذي أبداه كنان بيك بها. هل كانت ستصادف في يوم من الأيام شخصًا يشبهه ولو قليلًا يا ترى؟

بعد بضعة أسابيع، رتب لها كنان دورة لغة يمكن أن تحضرها من الصباح وحتى الظهيرة خلال أيام نهاية الأسبوع. كانت فادي تعرف تمامًا ما تقوله لزوجاتهم اللواتي يتصلن بهم باستمرار، ولو كانت المتصلات لسن زوجاتهم بل نساء أخريات، فإن فادي هي الوحيدة التي تعرف الإجابة الأفضل والأنسب لهن. لم يعد أي منهم يساوي شيئًا من دون فادي. وتتضايق فادي إذا اتصلت بكنان، بالأخص، امرأة أخرى غير زوجته.

جلب العمل في الملهى بعدًا آخر في حياة فادي. لم تعد مثل جرذ الشوارع، حتى إن ثمة أوقاتًا صارت تشعر فيها بأنها شخص مهم. عرفت إدارة الملهى مدى ارتياح الضيوف المرموقين "VIP" لها، لأن كل واحد منهم كان يريد رؤية فادي بمجرد وصوله إلى هناك. لهذا السبب، ولكيلا تحدث مشاكل، عملوا لفادي تأمينًا

صحيًا، وزادوا راتبها. في الماضي كان لديها أحلام فقط حول العيش والتمسك بالحياة، أما الآن فهي تهتم بهيئتها وشعرها، تنظف أسنانها كل يوم، وتحاول أن تكون رائحتها طيبة بوضع مزيل العرق إذا لم تجد عطرًا. وربما كان من الأسهل العثور على وظيفة بسبب هؤلاء الرجال. كان بعضهم يشغل أماكن مهمة جدًا في الدولة، وبعضهم الآخر يمتلكون شركات كبيرة تمارس أعمالًا تجارية على مستوى أنحاء البلاد. ولكن عقلها لا يستوعب هؤلاء الرجال الذين يسعون وراء النساء باستمرار. لم تكن تستطع فهمهم. مهما حدث فلم تكن لتفعل شيئًا كهذا مطلقًا. حتى لو لم يحبها أحد فإنها لن تقيم علاقة مع رجال متزوجين، ناهيك عن الزواج فحتى صداقة لن تكوّن مع شخص لا تحبه أو تحترمه. هي لم تكن فتاة جميلة. ولو أحبها شخص ما فسيكون مثلها تمامًا. وهي بدورها لن تعشق شخصًا كهذا. ولن تتزوج طيلة حياتها لو لزم الأمر.

على الرغم من عملها بجد، خلال النهار، إلا أن الليالي كانت ملكها. لم تكن تريد النوم على الفور في الليل، بل التجول في عالم الأحلام قليلًا، ولكنها كانت تغط في النوم قبل حتى أن تستمتع بأحلامها لكثرة تعبها أثناء النهار. كم سيكون رائعًا لو لم تكن تنام بهذه السرعة. ولأنها كانت تدرك ذلك فقد حَصَرَت خيالَها في مربع واحد. رفعت ياقة معطفها الأسود الفروي، وركبت سيارتها المرسيدس البيضاء، ضاغطة على دواسة وقود خيالها. كانت تقود بأقصى سرعة في شوارع أنقرة المضيئة. ولم تتوانَ قط عن تشغيل راديو السيارة. في الليل وبعد العمل يوصلها سائق الملهى عادة إلى حيث كانت تقيم. ولم يكن موظفو الملهى يعترضون على هذا الوضع لمعرفتهم بأنها تعمل في الليل. في إحدى الليالي، مكث الضيوف المهمين "VIP" في الملهى حتى ساعة متأخرة، ولأنهم لا يستطيعون تحمل الوضع دون فادي قالوا: "لينصرف سائق الملهى، يوصلها أحدُنا إلى سكنها." في تلك الليلة دعت كثيرًا قائلة: "إن شاء الله أركب سيارة كنان بيك." أرادت كثيرًا أن تتسمر في المقعد الخلفي بجانب كنان بيك في تلك السيارة المرسيدس الكحلية. من يدري أي نساء جميلات رائعات استضافت هذه المرسيدس! وهذا ما

حدث حقيقة، فقد أوصلها كنان بيك إلى حيث تسكن في منتصف الليل. فتح السائق الباب وظل واقفًا حتى ركبت، ثم أغلق الباب وعاد إلى مكانه. تبادلت أطراف الحديث مع كنان بيك. كم كان رجلًا متحدثًا وقريبًا من القلب. أثناء حديثها معه يقفز قلبها حتى فمها، ويرتجف صوتها، وتكتسب عيناها بريقًا مختلفًا. فكرت في نفسها "لو تحدث معجزة، وأركب في هذه السيارة دائمًا، وأبقى بجانب كنان بيك على الدوام، ويعانقني." ثم خجلت من نفسها لأنها فكرت بأشياء كهذه. في تلك الليلة كان كنان بيك ثملًا جدًا. على أية حال فإنهم شربوا ولعبوا القمار حتى تلك الساعة ومن دون انقطاع. في حديثه ثمة انجذاب بسيط. ودون أن تدري كيف حصل، مد كنان ذراعه نحوها، وسحبها إليه وقبّلها من شعرها. في تلك اللحظة شعرت فادي أنها ستموت من الإثارة. ولله الحمد وصلوا أمام سكنها في ذلك الوقت تمامًا. قفز السائق مسرعًا من مكانه، وفتح باب فادي، ومن شدة خجلها وجدت فادي نفسها في الشارع دون أن تشكر كنان بيك حتى.

ما الذي حدث؟ أرجلٌ بحجم كنان بيك يهتم بها يا ترى؟ هل من الممكن حدوث هذا وسط كل تلك النساء الجميلات؟ لا، من المستحيل حدوث شيء من هذا القبيل.

عندما ذهبت مساء اليوم التالي إلى العمل كانت يداها ورجلاها ترتجفان، ولم تكن قادرة على التعامل مع المهام التي كانت تفعلها بسهولة قبل ذلك. أما سليمان أفندي فلم يستطع استيعاب ما يحدث لها، ويسألها باستمرار "أأنت مريضة يا ابنتي؟" ولكن الجو في ذلك اليوم كان متوترًا كالعادة. فزوج أحد حبيبات كنان بيك اكتشف الوضع وداهم الملهى. كيف لهذا الرجل أن يكون شجاعًا لهذه الدرجة ولا يخاف شيئًا؟ اتصل الرجل أولًا بهاتف كنان بيك، وسأله عما إذا كان على علاقة بزوجته، فرد عليه كنان: "نعم يوجد، ولكن عليك سؤال زوجتك وليس أنا." لم تسمع فادي هذه المحادثة بأذنيها، وبما أن العاملين لم يتحدثوا عن شيء آخر في ذلك اليوم، فقد علمت بالحادثة منهم بأدق تفاصيلها. عندما قال الرجل إنه سيأتي إلى الملهى ليريهم ما عنده، قال له كنان "بكل سرور، تعال في أي وقت تشاء." فاستنفر كل السائقين المنتظرين عند

الباب، وطلبوا شرطة مدنية من المخفر، وأصبح الملهى في حالة تأهب حتى منتصف الليل. أتى الرجل في النهاية ولكنه ندم على ذلك، وعاد.

ومن الآن فصاعدًا، أصبح كنان يوصلها إلى سكنها في الليل بشكل مستمر. أما فادي فكانت تريد بشدة ركوب تلك السيارة من جهة، وتخاف ذلك من جهة أخرى. في الحقيقة لم تكن تعرف سبب خوفها، ولكنها تخاف فقط. صار هذا الرجل يعانقها ويودعها بقبلة كل مساء. في الواقع هي أدركت أن ليس له أي نية سيئة. ولو كان كذلك لاستمرت هذه المحاولات، وأزعجها وتطورت إلى أبعد من ذلك. والحال أن كنان لم يفعل شيئًا كهذا قط، فهو يفعل ما فعله أول ليلة. كان يعانقها بلطافة ويقبّلها من شعرها. ولكنها هي التي أرادت أن تتطور العلاقة إلى أبعد من ذلك، وليس هو. هل وقعت في الحب يا ترى؟ هل هذا هو الحب؟ التفكير به حتى الصباح، سحب الليل بخيط لرؤيته في أسرع وقت، عدم الرغبة بالابتعاد عنه أبدًا، والتفكير به كل لحظة... هل هذا هو الحب؟ لا بد أنها فقدت عقلها؟

في الواقع كانت فادي فتاة ذكية وعاقلة، وتعرف ماذا ستفعل، وأين. ليس من طبعها خطف قلوب أشخاص لم تعش معهم علاقة. وهي تدرك أنه لن يحبها شخص مثله أبدًا، ولكنها لا تريد لهذا الحلم أن ينتهي أيضًا. وإضافة إلى ذلك فهي ترنو إلى بلوغ القمة. ومن المؤكد أنها ستحصل على المال والسمعة، وستكافح هذه الحياة عينًا بعين، وسنًا بسن، وستنجح كما نجح الآخرون، ولن تحني هامتها لهذه الدنيا.

صديقاتها كنّ يعشن كل لحظة بأوانها، وغالبًا ما يتجاهلن دروسهن، ويكذبن على عائلاتهن. كانت تفهم بعضهن، فقد كنّ على يقين من أنهن سيجدن طريقهن بأي وسيلة، ولكن بعضهن الآخر كنّ يطاردن رجالًا لم يقِمن علاقة معهم، ويظنُن أنهن واقعات في العشق، فيدمرن مستقبلهن بأيديهن. أما هي فلم تكن كذلك. ولن تكون كذلك. أرسلها الله إلى بيئة صعبة في هذه الدنيا. منعت نفسها من التفكير بالماضي، فما مضى قد مضى. كان يجب عليها ألا تنظر إلى الوراء أبدًا، بل إلى الأمام، وأن تفكر بالأيام الجميلة التي ستعيشها في المستقبل.

أما الآن فقد تغير ما تفكر فيه عند دخولها الفراش في الليل. هي أولًا تشكر الله كثيرًا لأنه منحها فرصة عيش هذا الجمال، ثم تبدأ ببناء الأحلام المليئة بكنان بيك. هذا الرجل يغضب بسرعة من الجميع، ولكنه لا يغضب منها بسهولة، حتى إنه يشكرها من حين لآخر. هل يا ترى ثمة شيء ما وراء هذه الطريقة المختلفة التي يعاملها بها؟

نجحت إلى السنة الأخيرة من الكلية، وستتخرج قريبًا وتغادر السكن. إن هذا جيد ولكنها في حال لم تتمكن من العثور على وظيفة بسرعة، فأين ستقيم، وإلى من ستلجأ؟ كيف ستبني حياتها، وإن استأجرت منزلًا كيف ستدفع إيجاره، وهل يمكنها أن تجني ما تجنيه الآن من عملها؟ هي الآن تحصل على منحة دراسية، وتأخذ راتبًا وفق الحد الأدنى للأجور، كما تملأ جيبها بإكراميات أعضاء صالة رجال الأعمال "VIP". كنان بيك أيضًا هو من يدفع رسوم دورتها التعليمية. ولا تدخر شيئًا لأنها ترسل قسمًا من النقود التي تجنيها إلى عائلتها.

وأخيرًا، وفي السيارة ليلًا طرحت الموضوع على كنان بيك. كانت بحاجة ماسة لوظيفة جيدة بمجرد إنهائها المدرسة. وإلا فإنها لن تستطيع أن تجد منزلًا وتدفع إيجاره. كنان بيك استمع إليها باهتمام كبير كما في كل مرة، وأثناء قوله لها بأنه سيعالج الأمر ابتسم قليلًا بطرف فمه.

كل شيء في هذا الرجل مميز: رميُه بعضَ خصلات شعره على جبينه وتحريكها بأصابعه الطويلة الخشنة بين الحين والآخر.. النار التي تراها كل النساء في عينيه الخضراوين وهو يجيلهما ميمنة وميسرة بشكل مستمر.. تراجعُه إلى الخلف وهو في مكانه مطلقًا ضحكات مطربة عند فوزه في القمار.. رائحة الرجولة التي تتغلغل فيها كلما اقتربت منه.. عندما ينظر الإنسان إليه يرى فيه رجولته أولًا، حتى إنها تشعر بها في داخلها.

هكذا وقعت فادي في حب هذا الرجل المميز للغاية.

(2)

هكذا بدأت الحكاية. كانت فادي تعيش مع كنان في هذا المنزل الموجود في منطقة (بهتشِلي إِيفلار) لسنوات. كانت تحب منزلها كثيرًا، وفي المساء، عندما لا يأتي كنان إلى المنزل، تنتظره أمام النافذة بفارغ الصبر. كان حبها لكنان وعاطفتها نحوه كبيرين لدرجة لا يمكن وصفهما. إنها تعشقه إلى حدّ العبادة. ولكن مشكلتها الوحيدة هي النساء الأخريات. كانت تدرك، ومنذ فترة طويلة، أن كنان زير نساء، وكانت خائفة من ظهور امرأة أشد جمالًا، أكثر شهوانية، وأكثر تفوقًا منها في جميع النواحي، فتسرق كنان منها.

كانت تعلم منذ البداية أن كنان متزوج، ولكن كنان كان يقول عن ذلك الزواج إنه مجرد حبرٍ على ورق. على أية حال، لو كانت حياته الزوجية تلك منتظمة، فهل كانت ستبقى معه كل هذه السنوات؟ يا لزوجته، كم هي امرأة غريبة! منذ عشر سنوات والرجل لم يدخل إلى منزله بشكل مستقيم وصادق، ومع ذلك فهو يجلس في منزله وكأن شيئًا لم يحدث. ولكن لا يمكن لهذا أن يستمر طويلًا، فبطريقة أو بأخرى لن يستطيع التحمل أكثر، وسينسحب. وفي ذلك الوقت تمامًا ستتزوج بكنان. وحقيقة إن كنان، أيضًا، لا يحب زوجته. بل إنه يحب فادي تلك، ويذكرها كلما سنحت له الفرصة.

عندما أنهت دراستها، وجد كنان لها العمل الذي تعمل فيه الآن. جرى ترفيعها في عملها خلال مدة قصيرة، لأنها لا تتهرب من مسؤولياتها نهائيًا. أضف إلى ذلك أنها أصبحت مديرة محترمة ومحبوبة في الشركة. التحقت بدورة للغة الألمانية بعد إنهائها دورة اللغة الإنكليزية. ولأنها تتقن التحدث باللغتين فقد استلمت قسم العلاقات الخارجية في الشركة. لهذا السبب كانت تسافر خارج البلد كثيرًا، وكان

كنان يذهب معها في بعض الأحيان. وعندما تسافر وحدها يبقى بالها عند كنان، وتتصل به في اليوم ربما مائة مرة، وهي تفكر إلى أين يذهب، ومع من يكون.

وخلال ذلك الوقت، لم يكفِها إنهاء الدراسة، بل درست الماجستير. فبعد كل التعب الذي تتعبه، وفي الليل، تترك حضن كنان وتجلس إلى الطاولة. إن كان لديها أعمال أكثر أهمية، فإنها تهتم بها، ولا تتهرب منها. كان حلمها الأكبر منذ البداية هو الارتقاء، أي أن تصبح شخصًا مهمًا، وأن تجني الكثير من المال. والحقيقة أن كنان رجل صعب، يطلب الكثير من الخدمة، وليكن، فثمة فتاة تدور حوله مثل المروحة، وتبذل قصارى جهدها لتجعله مرتاحًا، كما أنها تدرس دروسها بعد أن ينام كنان. وخاصة في السنوات الأخيرة، فلم يعد لديها مشاكل مادّية. ولم تعد تطلب من كنان قرشًا واحدًا. كانت ترسل لعائلتها نقودًا بشكل منتظم، تدفع إيجار منزلها بنفسها، وتغطي جميع نفقاتها. كانت تصنع لحبيبها طعامًا شهيًا، ولا تترك المائدة دون عرق نهائيًا. ومن الآن فصاعدًا أصبح عدم قبولها المال من كنان يرمم كبرياءها المحطّم، ولكنها ما تزال تشعر بأنها مَدينة له. فلو لم يساعِدها، هل كانت ستبلغ ما بلغته الآن يا تُرى؟

في الواقع، يبدو أن الحياة توقفت عن إظهار جانبها السيء في السنوات الأخيرة. ولربما انقلب حظها في النهاية، وصارت أيامها السيئة من الماضي. آه، كم سيكون جميلًا لو غادرت زوجة كنان في أسرع وقت ممكن، وتخلصت من وضعها كعشيقة. تضرّعت من أجل رغبتها هذه كثيرًا، وارتادت الجوامع، وقدمت القرابين، ورغم مرور عشر سنوات على ذلك، لكن الله لم يحقق لها رغبتها هذه بأي شكل.

خصص لها "الشغل"، قبل عام، سيارة لخدمتها. من الآن فصاعدًا صار يأتي السائق إلى بابها كل صباح لاصطحابها. وهي في تلك الأثناء كانت قد استخرجت رخصة قيادة، واشترت سيارة بنقود ادّخرتها. في بعض الأحيان تذهب للسياحة بين المدن، وتقيم في أفخم الفنادق. وكان كنان يقوم بتغطية نفقات تلك الرحلات فقط. والحقيقة أنها كانت تفضّل أن تصرف من نقودها الخاصة في تلك الرحلات، ولكن ذلك ربما سيعتبر إهانة لكنان.

لم تعرف رجلًا غير كنان. كانت تعشقه لدرجة أن عينيها لم تستطيعا رؤية أي شخص آخر. لطالما اعتبرت نفسها أدنى منه، وكانت تحاول بكل قوتها أن تقلّص المسافة بينهما. كان محيط (فتوش خانم) يقدّرها، وصار الكثير من الأشخاص الذين عملوا معها يحترمونها حتى لا يرتكبوا أي خطأ بحقها فيغضبوها. بعد أن كان الناس يطلقون عليها اسم فادي، صاروا يطلقون عليها (فتوش). فبفضلها صارت الشركة التي تعمل فيها تجني أموالًا أكثر بكثير من السابق، وفوق ذلك، كانوا ينفذون العديد من المشاريع الجديدة التي تُعدّها هي بنفسها. كما بدأوا بإعطاء فتوش خانم نسبة من المال الذي يجنونه. كان من الممكن أن تشتري بيتًا لنفسها إن استمرت على هذا المنوال، ولكن، وعلى الرغم من كل شيء، كان كنان ما يزال متزوجًا من فتاة أخرى، والجميع على دراية بذلك. أصبحت سيدة مرموقة ولكنها مع ذلك لم تستطع التخلص من كونها عشيقة. في الوقت الحالي لم يشكّل ذلك عقبة في حياتها المهنية، ولكن صوتًا ما في داخلها لم يتركها وشأنها. كان هذا الصوت يقول لها باستمرار "أنتِ عشيقة كنان"، وكان أصدقاؤها يقولون (وفوق هذا هو أكبر منك سنًا بكثير، فأين سيجد واحدة مثلكِ؟) ولكن فتوش لم تقتنع بأي شكل. في الحقيقة لم تكن واثقة تمامًا بتلك النساء، هل كنّ يغَرْن منها يا ترى؟ فهنّ لم يجدن شخصًا مثل كنان نهائيًا. كنّ كلهن متزوجات، ولكن أزواجهن لا يشكلون نقطة ببحر كنان.

لم تترك شيئًا لم تفعله لكي يُعجب بها كنان. مر الكثير من الوقت على خلعها النظارات. وفوق ذلك وضعت عدسات ملونة وصار لون عينيها أزرق. بعد صالونات التجميل، والحلاقين، ودور الأزياء، تمكنت أخيرًا من أن تصبح امرأة مقبولة. لم يعد بإمكان أحد أن يصفها بالقبيحة بعد الآن، ولكنها كانت تدرك بأنها ليست أجمل نساء الدنيا. ومثل كنان، فإنها كانت تحاول، على قدر إمكانياتها، أن تستعمل مستلزمات عالية الجودة.

كان يخطر في بالها، على الدوام، تعارفهما الأول، والأيام الأولى لبدايتهما سوية. عند خروجها من العمل، وطوال الطريق، بينما كان كنان يوصلها بسيارته إلى

السكن الذي تقيم فيه، لم يكن يلمسها أبدًا، بل كان فقط يحضنها بشكل لطيف ويقبّلها من شعرها. لماذا لم يكن يقترب منها أكثر من ذلك يا ترى؟ هل لأنها لم تكن تعجبه كفاية، أم لأنه لا يكنّ لها مشاعر أخرى؟ هل كانت فادي بالنسبة له مجرد فتاة مسكينة توجّب عليه أن يوصلها إلى حيث تسكن؟ إن كان كذلك، فلماذا تلك التنهدات التي يطلقها عندما يقبّل شعرها؟ في كل مرة يُشعِرها أنه يريد منها أكثر من ذلك، ولكنه لا يفعل شيئًا بسبب ما يكنّه لها من احترام. هل كانت مخطئة بشعورها هذا يا ترى؟

ولاحقًا، استأجر كنان لفادي منزلًا جهزه من الداخل وأثثه، ولم يبقَ عليها سوى الانتقال إليه والإقامة فيه. وفي تلك الأيام قال لها كنان: "سأمر عليك بعض الأحيان، وأرى إن كان لديك أي احتياجات. استمتعي بوقتِكِ". لقد فعل هذا الرجل كل ذلك دون أي مقابل. ربما لن يلمسها إن لم تكن تريد ذلك. وكما قال تمامًا، فقد بدأ بزيارتها أحيانًا. في تلك الأثناء لم تعد نفس فادي تتسع لها لشدة الفرحة والإثارة. أصبح لديها بيت جميل لم تكن لتحلم به طوال عمرها، وعملٌ تجني منه الكثير من المال. لم تكن مضطرة لتحمل أي مسؤولية أمام أي أحد. تعيش كما يحلو لها. وخاصة إن كان شخص مثل كنان بيك وراءها.

في بعض الأحيان كان كنان يمر عليها بعد خروجه من الملهى، ويشربان القهوة معًا. خلال هذه الزيارات كان كنان يفضّل الجلوس على الكنبة أمام التلفاز بدلًا من الأريكتين المتقابلتين الموجودتين أمام النافذة، كما كانت فادي تجلس بجانبه. وبينما كان يعانقها أثناء وداعه لها، صار، منذ الآن، يعانقها أثناء جلوسه على الكنبة، ويلاطفها بكلمات جميلة، ولكنه لا يغفل عن قول "أي مكان لا تريدينني الاقتراب منه، قولي لي لكي أتوقف".

بالنسبة للرغبة فقد كانت فادي ترغب، ولكن إن بدأت علاقة كهذه، تخشى من عدم استطاعتها التخلي عن كنان مرة أخرى. لم تكن لتجازف بخسارته، فهي كانت تدرك بأنه لا يمكن لأي رجل أن يملأ مكانه بعد ذلك، ولكنها مع ذلك كانت

خائفة. دائمًا تخطر في بالها زوجة كنان، والحقيقة أنه حتى لو لم تكن فادي موجودة فإن زوج هذه المرأة يخونها باستمرار، ولكن كنان كان مولعًا بفادي بشكل مختلف. وربما لو بدأت بينهما علاقة فسيطلق زوجته ويتزوجها. أساسًا فادي لن تقبل بحل آخر. لو أتى اليوم الذي سيتخلى كنان فيه عن المجيء إلى هذا المنزل، فعندها ستنهار الدنيا على رأسها.

أثناء جلوسهما على الكنبة تريد أن تعانقه بشدة من جهة، ولكنها تنسحب ولا تستطيع الاقتراب منه كما تريد، بسبب الخوف الذي يتملّكها من جهة أخرى. ربما لهذا السبب استاء كنان منها، واعتقد بأنه غير مرغوب فيه، فاتسعت الهوّة بينهما، ولم يعد يمر عليها في المساء كما في السابق.

في المساء، حالما تعود فادي إلى المنزل تستحم على عجل، وتتبرج، وتتزين وتجلس على إحدى الأريكتين أمام النافذة وعيناها على الطريق بانتظار كنان، ولكن الأيام تمر دون أن يصدر منه أي صوت. وفي النهاية لم تحتمل، وبعد عشرة أيام اتصلت به.

عندما رأى كنان اسم فادي على الهاتف ابتسم، لأن كل هذه الأحداث هي جزء من خطته. حياته، أساسًا، مبنية على ضوء خطط كهذه. النساء من جميع الأعمار والمستويات يلوّنّ ويثرين ويجمّلن حياته. إنه يشعر بمدى أهميته وتفرّده عندما يكون معهنّ.

أجاب على الهاتف بنبرة صوت واثقة، ونشاط، وبهجة، وعاطفية. أما فادي فكانت ترتجف على الهاتف مثل الطفل. كانت تأكل نفسها بتفكيرها من أنه لن يأتي مرة أخرى. بدأت كلامها بـ "انشغل بالي عليكم، مر وقت طويل على عدم قدومكم...". قال كنان "لا يوجد ما يُقلق، لم أرغب بإزعاجكِ."

قالت له "ماذا لو حضّرت لكم طعامًا شهيًا، هل نتناوله سوية؟" ولكنها لم تحصل على الجواب الذي تريده. قال كنان "مستحيل هذا الأسبوع، لدي أعمال كثيرة" وأغلق الهاتف.

بكت فادي على مدى أيام، ولم تدرِ ماذا تفعل. عندما اتصلت به مرة أخرى أقنعته، بصعوبة، أن يأتي لتناول الطعام. في ذلك اليوم خرج باكرًا من العمل. حاولت بكل استطاعتها أن تعد مائدة جميلة وانتظرت كنان أمام النافذة ساعات. برَد الطعام، ولم يأتِ كنان. في ذلك الوقت انهارت فادي تمامًا. شعرت بالوحدة والعجز. لم تستطع أن تكسر كبرياءها باتصال آخر. كانت تجلس أمام النافذة وعيناها دامعتان. كانت تملك منزلًا، وعملًا جيدًا. كان فصل الشتاء قد ولى، وفصل الربيع قد حلّ، ولكنها لم تكن سعيدة مطلقًا. لو لم تتعرف بكنان لسبّب كل ما حصل معها السعادة لها، ولكنها تعرفت به وأحبته. ودون وجوده لم يكن أي من هذا يعني شيئًا..

عند انتصاف الليل، اقتربت المرسيدس الكحلية اللون من الباب. لم يكن السرور هو ما شعرت به، بل كان أكثر من ذلك بكثير. لم تستطع التحرك من مكانها على الرغم من رؤيتها كنان يترجل من السيارة. كانت تغمض عينيها قليلًا وتقول باستمرار "أشكرك يا ربي، أشكرك لأنك أرسلته إليّ، ولأنك استجبت لأدعيتي".

وفور دخوله، عانقته بشدة. في البداية تصرّف كنان بتردد، ولكنه سرعان ما استسلم، ثم أخذا نفسًا على الكنبة. في ذلك المساء، وعلى تلك الكنبة، فقدت عذريتها، ثم تسلسلت الأحداث تدريجيًا حتى وصلت إلى ما آلت إليه.

اليوم، في عيد ميلادها، أحضر لها حبيبها، كالعادة، أزهارًا جميلة. ركضت إلى المطبخ بسرعة وأخرجت المزهرية الكريستال المتلألئة، وبيديها الماهرتين حلّت الشريط المخملي الأحمر الذي يربط الأزهار وبدأت بوضعها بعناية في المزهرية. أُعجبت كثيرًا بأزهار الأقحوان البيضاء ذات الرائحة الجميلة، وبالأوركيد الرفيعة الطويلة. بعد ذلك تناولت المزهرية في حضنها وركضت إلى الصالون. كانت قد جهزت المائدة سابقًا، وبجانب أطباق البورسلان الرقيقة البيضاء وضعت الشوك والسكاكين الفضية كما ينبغي تمامًا. على أية حال فإنها كانت قد تعلمت مثل هذه الأشياء في الملهى قبل زمان مضى. طوت المناديل بشكل جميل، ووضعت الكؤوس الكريستال بعناية شديدة، فبدت المائدة وكأنها تناديهما.

في تلك الأثناء جلس كنان على الأريكة الكبيرة المخملية الموجودة أمام النافذة، وضع ساقًا فوق ساق، وشرد بعينيه في الأرجاء. قال لنفسه "لا بد أنها تعبت كثيرًا اليوم أيضًا". ركضت إليه مبتسمة. جلست في حضنه أولًا، ثم خنقته بقبلات على وجهه. كم كانت رائحة هذا الرجل جميلة!

- هل تعبت كثيرًا يا حلوي؟ استحم أولًا إن أردت، ثم نتناول طعامنا بعدها. يمكنني أيضًا أن أدلّكك أثناء الاستحمام.
- نعم تعبت. فالعمل لا ينتهي...
- الأزهار رائعة جدًا. انظر، يا لجمالها!
- هم، هم. إنها جميلة حقًا. طبعًا، لقد اخترتها واحدة واحدة بيديّ.
- سَلِمتَ يا حبيبي. بالنسبة لي فإن أكبر هدية هي أنتَ. لا أبدلك بكل الدنيا. هيا انهض، سأذهب إلى الحمام وأجهز لك ملابسك ومنشفتك. اخلع ملابسك وتعال.

وكما قال أصدقاؤه، فقد امتدت هذه العلاقة أكثر مما ينبغي. لم يكن من الصواب إطالة علاقات كهذه. كان كنان يدرك ذلك أكثر من أي شخص، ولكنه يرتاح في هذا البيت ويشعر بنفسه كالملك. كانت فادي مضيفة حقيقية. وكأن الله خلقها لخدمة كنان. كانت هذه الفتاة تشبه أمها قليلًا؛ مضحية وودودة. تؤكِل ولا تأكل، تُشرِب ولا تشرب.

أصدقاؤه لا يستوعبون الأمر، فهم على غير دراية بما تفعله فادي لتجعل كنان يعيش كالملك. ولذلك كانوا يأكلون رؤوسهم، ويسألون باستمرار عن الوقت الذي سينفصل فيه عن هذه الفتاة. كانت فادي جيدة، ولطيفة، ولكنه كان سيرتاح أكثر لو لم تتصل به، أو يرن هاتفه وهو بجانب أصدقائه بهذا الشكل. ولكن كل جمال فيه عيب. كانت غيورة جدًا. ترسل مَن يراقبه إلى الأماكن التي يقصدها، وترصد تحركاته كل دقيقة أينما ذهب. في الحقيقة إن كنان يحب النساء الغيورات. كان يُسرّ باهتمامهن هذا ويقول في نفسه مبتسمًا "لم يستطعن تشاركي نهائيًا". ولكن ذلك كان يزعجه قليلًا.

ربما كان أصدقاؤه يفعلون ذلك لغيرتهم منه. مع أن هذه الغيرة لم تكن جديدة. فمنذ أن وعى على نفسه وعيون أصدقائه عليه، حتى إنهم لم يستطيعوا أن يُفسدوا حظه في الورق. كان معتادًا على أشياء كهذه.

كانت زوجته هي الوحيدة التي لا تنبس ببنت شفة. على الرغم من أنه لم يكن يأتي إلى البيت بانتظام، لكن المرأة المسكينة لم تكن تستجوبه، أو تقطب وجهها، أو تسأله أين أنت ولو مرة واحدة. ولكنه هو نفسه أيضًا لم يكن يعرف إلى أي مدى سيستمر هذا. لم تكن فادي في السابق تذكر الزواج نهائيًا، أو تلومه كما اليوم، بل كان يومهما يمر بسلاسة. أما في هذه الفترة فكثيرًا ما أخبرته برغبتها بالزواج منه. اعتاد أن يغلق هذا الموضوع بمزحة ما، ولكن، مع طول العلاقة، زاد طموح الفتاة. بالنسبة إليه، لم تكن لديه أية نية للزواج بفادي. وهل يمكن تطليق فتاة مثل هاندان والزواج بمثل فادي؟

في تلك اللحظة، ذهب عقل كنان إلى "سراب" التي تعرّف عليها في المساء. كانت سراب فتاة جميلة. على أية حال فإنها ستتصل غدًا لتشكره على الأزهار التي أرسلها. ولذلك كان ينبغي عليه أن يجد ذريعة من أجل مساء الغد. كان من السهل التعامل مع زوجته، ولكن فادي باتت تضغط عليه كثيرًا في هذه الأيام.

في الواقع، لم يكن لديه أية مشاكل جليّة مع زوجته. يعتقد الذين حولهما دائمًا أنهما ثنائي سعيد، وكان الجميع ينظر إليهما بعين الحسد في الحفلات التي يذهبان إليها معًا. كانت هاندان امرأة جميلة وباهرة، تعرف كيف تجلس، وكيف تنهض، وكيف تقيم علاقات جيدة جدًا مع الناس. وهو بدوره لم يتوانَ عن احترامها قط.

آه، لو لم تصرّ على طفل.. أليست هي امرأة؟ كانت ترغب بأن تنجب طفلًا في أسرع وقت وتربط كنان بالمنزل. وكان كنان على دراية تامة بذلك. لو كانت تعرف زوجها قليلًا لما تسرعت، هكذا لأن كنان رجل جزوع. لا يتدخل بالمشاكل نهائيًا، ولا يمكنه تحمّل صراخ طفل في المنزل، وخاصة في تلك الأيام.

في تلك الأيام كان كنان متوترًا وغاضبًا. وفي أحد الأيام المليئة بالتوتر حدثت مشاحنة في المنزل. ربما لم تعد هاندان أيضًا تحتمل المشاكل التي تحدث بسبب

الحَمل، ولم تعد تستطيع إظهار صبرها المعتاد لكنان. في تلك الليلة، وبعد الجدال مباشرة، ساءت حالة المرأة، وهرع بها إلى المستشفى.

ولد الطفل مبكرًا. عاش في الحاضنة ثلاثة أيام، ثم مات بعدها. لم يكن هذا ما يريده كنان أيضًا، ولكن ما حدث قد حدث. بعد هذه الحادثة، دخلت هانداn في حالة اكتئاب شديدة. لم تأكل، أو تشرب، أو تتكلم، أو تنام لأيام. انزعج كنان كثيرًا لأن زوجته لم تقل له شيئًا علنًا أو تلومه. عندما التقت عيناه بعينيها شعر بنفسه كالقاتل، كما غضب من زوجته كثيرًا لأنها جعلت هذا الشعور ينتابه.

سيرتاح لو تطلقا، ويتخلص من هذه المشاعر السيئة. في تلك الأثناء صَحِب زوجته إلى الكثير من الأطباء. كان يصحبها إلى الطبيب، ولكنها لم تكن ترغب بأن يدخل معها نهائيًا. كان غير متوقعًا ما يمكن أن يفعله هؤلاء الأطباء النفسيون، وكان خائفًا من قيامهم بإخبارها بشيء، أو سؤالها عن شيء ما. وفي تلك الأيام كان يحاول جاهدًا، رغم عدم رغبته بذلك، أن يكون في المساء موجودًا في البيت. على كل حال، عادت هانداn إلى رشدها في النهاية. فبينما كان كنان ينتظر الطلاق، تابعت هانداn حياتها من حيث توقفا وكأن شيئًا لم يكن. كنان بدوره لم يكن راضيًا عن هذا الوضع في البداية، ولكنه سرعان ما اعتاد الأمر. عادت هانداn كما كانت في السابق، لا تجعل كلمته تصير اثنتين، ولم تكن تنبش الماضي، أو تصرّ على خلفة طفل من جديد.

على أية حال، كان على كنان أن يعمل بجدّ في تلك السنوات. كان يتجول في مواقع البناء واحدًا تلو الآخر، ويستيقظ كل ليلة في مدينة مختلفة. كان راضيًا عن هذا الوضع. يعيش كما يشاء دون أن يكون لديه مسؤولية أمام أحد. لو حاد قليلًا عن الطريق وظل في أنقرة، فإن زوجته ستظنه في أحد مواقع البناء ولن تتعقبه أبدًا.

ربما أدركت هانداn الآن أن كنان لا يمكن أن يكون رجلًا مسؤولًا عن بيته أو أبًا جيدًا. إنه يملك روحًا طائشة، تحب أن تنتقل من فرع إلى فرع، ولا تكتفي أبدًا بحب واحد، أو امرأة واحدة. لديه لسان يتكلم جيدًا، ويحب الابتسام، والتحدث، والتجول، والتنزه، وقراءة الشعر للنساء، ومجاملتهن بشكل جميل، ناهيك عن أنه يفعل كل ذلك

بشكل محترف، وكانت النساء تعشقه. تعال الآن وامسك بشخص مثله، وروّضه لنرى! حتى الله سيغضب من ذلك. فكم من الرجال مثله يوجدون في هذه الدنيا؟

في الواقع، فادي غضبت كثيرًا. عانت لسنوات، دون أن تفتح فمها، واهتمت به كما لو أنه ملك. كانت ذكية، وواسعة الحيلة، ومجتهدة، ولكنها فتاة قروية. قدِمت من ثقافة لا يعرفها جيدًا. ربما جذبته حالتها هذه. واعتقد أنه يستطيع الحصول عليها بسهولة، ولكن الأمور لم تجرِ كما اعتقد تمامًا، ولم تسقط الفتاة في حضنه من تلقاء نفسها.

في المساءات التي كان يوصلها فيها إلى سكنها كان يعانقها معانقة بسيطة، ولكن الفتاة لم تقترب منه. وفي النهاية فتح منزلًا للفتاة، وفرشه، وأثثه، ثم في الليلة الأولى التي ذهب فيها إلى ذلك المنزل اعتقد أنه سيجد العلاقة التي طالما انتظرها، ولكن ذلك لم يحدث مرة أخرى. ثم وكما فعل مع بقية النساء، تكبّر على فادي قليلًا ولم يتصل بها مدة. وكما حصل دائمًا، فقد انطلت هذه الحيلة على فادي أيضًا. كانت الفتاة على وشك البكاء عندما اتصلت به. ومتعمدًا لم يذهب عندما دعته، وانتظر حتى تضيق الحال بفادي تمامًا.

ومنذ ذلك الحين كان راضيًا عن حياته. كان سعيدًا مع فادي كما لم يكن مع أي امرأة أخرى. على أية حال فإن حياة سريعة كهذه قد أرهقته. دخلت فادي هذه في حياته في الوقت المناسب تمامًا. ولو لم تصرّ على الزواج منه لما كان هناك وجود لأي مشكلة، لكنها لم تتراجع عن رغبتها هذه بأي وسيلة.

حملت الفتاة مرتين، وقال لها "اجهضيه فورًا". كان يدرك أن فادي تعشقه بجنون. وكان هذا طبيعيًا. فأكثر النساء يعشقنه. ولكنه قلق كثيرًا من قيامها بولادة طفل. الشكر لله أن فادي فتاة صادقة، ودودة، لا تزدهي بكونها قبلت بذلك غصبًا عنها. لم يكن من الممكن إطلاع هذه النساء على أي سر. لو قلنا إنهن عاقلات فهن لسن كذلك، ولو قلنا مجنونات فهن لسن كذلك أيضًا. كانت زوجته تنتظر بصبر ذلك الرجل الذي لم يمر ببيته منذ سنوات. فادي أيضًا لم تسأم الانتظار. وهل

يمكن للإنسان أن ينتظر، ليس سنة أو سنتين فقط، بل عشر سنوات، دون أن يفقد أمله؟ لقد سئمت من أكاذيبه. متى ستفهم هذه الفتاة أنه لن يتزوجها أبدًا؟

كان مزاجه جيدًا. والفتاة تعتني به بشكل جيد جدًا. كانت شابة نشيطة وعلاوة على ذلك طيبة. كيف يمكن للإنسان أن يكون عاقلًا من جهة وطيبًا إلى هذا الحد من جهة أخرى؟ في المكان الذي تعمل فيه، كان الناس يقفون لها احترامًا.

اعتاد في السابق الكذب على النساء كثيرًا، دون أن يستغرق مفكرًا فيما سيقوله، ويتفوّه بأي شيء يخطر في باله في تلك اللحظة، ويتابع حياته. لم يكن يتملّكه الخوف من خسارتهن.. فغالبيتهن بلهاوات. لكن هذه الفتاة لا يفلت منها أي شيء. كان يجب عليه أن يفكر مرتين قبل أن يكذب عليها. لم يكن من السهل جعل فادي تصدّق الكذبة التي يختلقها. الحمد لله أن عقلها لا ينحرف نحو الفساد. ولو لم تكن كذلك لما استمرت هذه العلاقة كل هذا الوقت.

لم يكن ليستطيع التخلي عن هاندان، أو فادي، أو النساء الأخريات. إلى جانب ذلك لم يكن معتادًا على العيش مع امرأة واحدة. ربما لأنه في تلك الحالة سيشعر بالوحدة. أما الآن فهو يشعر بالأمان أكثر. كانت أمه تردد كثيرًا المثل القائل: "مثل كأس أماسيا، إذا كُسر نأتي بغيره."

كانت تتناهى إلى أنفه روائح شهية من المطبخ. بينما كان يبحث بعينيه عن العرَق، ظهرت فادي عند باب الصالون. أتت وفي إحدى يديها زجاجة العرق، وبيدها الأخرى دلو الثلج الفضي، وبدأت بتقديم الخدمة لكنان بعناية. وقبل أن تنهي خدمته، بدأ بتناول المقبلات. قال بصوت عالٍ "أووه، السلطة لذيذة جدًا". لم تثبت فادي في مكانها نهائيًا، تطير إلى هنا وهناك كالنحلة، ضاحكة أحيانًا، تمازحه مضحكة إياه أحيانًا أخرى. استمرت جلسة العرق حتى منتصف الليل. كان قبل ذلك قد شرب قدحًا أو قدحين في الملهى. وفي النهاية أصبح منتشيًا تمامًا. بينما كان ينهض من الطاولة بتثاقل متجهًا إلى غرفة النوم، نادى لفادي.

- سأنام، اتركي المائدة، ترتيبنها لاحقًا.

(3)

اتصلت سراب في صباح اليوم الذي تعارفا فيه عند بائع الأزهار. كان كنان مرتاحًا لأن فادي ذهبت إلى العمل مبكرًا. فتح الهاتف وهو مترنح، وعندما أدرك أن المتصل هي سراب حسّن صوته فورًا. تحادثا مدة على الهاتف. قبلت الفتاة لقاءه في عطلة نهاية الأسبوع وليس في ذلك المساء. سلك كنان طريقه إلى أحد مواقع البناء يوم الجمعة، ولكيلا يُشعر فادي بشيء قال لها بأنه لن يعود حتى يوم الأحد. في مساء يوم السبت تناول الطعام مع سراب في مطعم أحد الفنادق الفخمة في أنقرة، وفي الليل اتجها إلى الغرفة. لم تستطع الفتاة إمساك نفسها وسقطت في سحر كنان وأمضيا الليلة سويًا.

في الواقع هي لم تكن معتادة على أشياء كهذه. ففي الصباح غادرت الفندق وهي تبكي. أما كنان فقد اندهش لذلك. أمضيا ليلة جميلة جدًا، فلماذا كانت تبكي؟ لم يتصل بسراب مرة أخرى. لم يكن يحب النساء اللواتي يبكين وينحبن هكذا. لو استمرت أشياء كهذه فترة أطول فمن الممكن لهؤلاء الفتيات الانتحار أو فعل شيء من هذا القبيل، ومن ثم تقع المشاكل على رأسه. ألم تحدث معه أشياء كهذه في الماضي؟.. بلى، حتى إن واحدة من الفتيات، وبدلًا من الحبوب، تناولت سم الفئران، وكانت على وشك الموت.

لم يغتصب أحدًا أبدًا، أو يمد يده على من لم ترغب. فكلّهن أتين إليه من تلقاء أنفسهن. لو تزوج منهن كلهن، لتشكل جيش عنده صغير من النساء. تعالي إلى اللعبة وأنت ضاحكة، ثم غادري باكية، وكأن شيئًا كبيرًا قد حدث!

عندما ذهبت سراب وهي تبكي، جمع أغراضه هو أيضًا واستحم، ثم غادر الفندق. لن يكون من الجيد الذهاب إلى فادي من الصباح. كان سينتابها الشك. لم

يكن يريد الذهاب إلى العمل أيضًا. سلك طريق بيته في (تشَنكايا). أدركت هانـدان مجيء كنان من صوت المفتاح في الباب. كانت تريد بشدة أن يأتي إلى هـذا المنـزل من جهة، ولكنها من جهة أخرى تغضب منه كلما نظرت إليه. من يدري من أي حضن خرج وأتى مجددًا. في السنوات الأخيرة كانت متأكدة من وجود فتاة أخرى في حياته. والحقيقة أنها كانت مندهشة كثيرًا لاستمرار هذه العلاقة لسنوات. فأشياء كهذه لم تكن من عادات كنان أبدًا. فهو يمكنه أن يتحمل النساء لمدة ثلاثة أشهر كأقصى حد. لم تكن تستطيع أن تفهم كيف استطاع أن يحافظ على العلاقة هذه المرة ولمدة طويلة. هل كانت تلك المرأة عاقلة جدًا، أم غبية يا ترى؟ وما شأن امرأة عاقلة بكنان؟ إنه يستغل الإنسان بكل ما فيه، ألم تدرك هذه المرأة ذلك بعد؟ أيًا كان، ومهما قال، لم تستطع إلا أن تشعر بألم أثناء التفكير في ذلك.

مشت بخطوات متثاقلة نحو البهو. كان كنان يخلع حذاءه. تناولت الحقيبة التي في يده، وقالت له بلطف "أهلًا وسهلًا" ثم أخذت الحقيبة إلى مكتبه. عندما عادت كان كنان في الصالون جالسًا على الأريكة التي يجلس عليها عادة، واضعًا إحدى ساقيه فوق الأخرى، ينظر إلى الخارج من النافذة.

نظرت إليه من بعيد، يا لجمال البدلة الكحلية ولياقتها بهذا الرجل! جرّت قدميها وجلست مقابله. أصبحت هذه عادتهما في السنوات الأخيرة. عندما يأتي كنان يجلس على تلك الأريكة، وهي بدورها تجلس مقابله، ويتبادلان الأحاديث مدة. كان يكفي كليهما خمسة عشر أو عشرين دقيقة في الأسبوع. لم يكن ثمة شيء آخر يمكن الحديث عنه على أية حال.

- ما الأخبار؟ ماذا فعلتِ في غيابي؟
- لا شيء، كل الخير.. الأسبوع الماضي ولدت بنت عارف بيك. اشتريت ذهَبًا وباركت لهما. سُعدوا كثيرًا. يسلمن عليك.
- هاا، جيد، جيد. لو سلمت لي عليهما أيضًا.
- سلمت. كيف حالك أنت؟ كيف حال العمل؟

- جيد، جيد.. عليّ أن أركض من أجل كل موقع عمل على حدة. عندما تكثر مواقع العمل يقضي الإنسان عمره على الطرقات، ولكنني لا أشتكي. وماذا عسانا نفعل؟ إنه عملنا.
- صحيح، ليتك لا تُتعب نفسك كما في السابق!
- لا يمكن دون تعب.. لا يجب أن تُسلمي عملك للناس. وإلا يسرقون كل شيء، من دون أن تشعري حتى.
- صحيح أيضًا! ألا تذهب إلى الملهى؟
- يعاتبني الأصدقاء بشدة أيضًا لأنني لا أذهب. سأذهب بعد الظهر إلى الملهى وأجلس معهم قليلًا، ثم أعود مساء.
- قبل عدة أيام اتصلت زوجة سميح.

زوجة سميح؟ المرأة الحمقاء، آمل ألا تكون قد تفوهت بشيء لهاندان، مع أن سميح كتوم، ولكن مثل هذه الأشياء لا يمكن التنبؤ بها.

- لماذا اتصلت؟
- لا شيء، تسأل عن حالنا فقط. تقول لنخرج مساء أحد الأيام ونتناول العشاء سوية بما أنكما لا تلتقيان نهائيًا هذه الفترة.
- نخرج، نخرج... خاصة إن عادت مياه أعمالنا لمجاريها، نخرج حتمًا.
- هل أنت جائع؟ الطعام جاهز، أسخّنه فورًا إن أردت.
- لاا، لست جائعًا كل ذلك الجوع.
- إذن لأحضر لك الفاكهة بينما تغير ثيابك.

قالت هاندان ذلك ثم نهضت من مكانها باتجاه المطبخ. بعد أن جال كنان بعينيه المتعبتين برهة، اتجه إلى غرفته متثاقلًا وبدأ بخلع ملابسه. في الواقع لم يكن يريد المجيء إلى هذا المنزل مطلقًا. عندما نظر إليها من بعيد حلّت عليه الكآبة، وأراد الخروج من هنا في أسرع وقت ممكن. على الرغم من أن زوجته كانت تفعل ما بوسعها لإرضائه، ولا تعاتبه نهائيًا، ولا تتجادل معه، ولا تطلب أي شيء منه، إلا

أنه كان يشعر بنفسه قد دخل غرفة تخزين باردة، ويشتاق للطاقة الإيجابية التي تنثرها فادي، وللمساتها، وضحكاتها. في السابق كان يأتي إلى المنزل أكثر، يقيم فيه على الأقل يومين أو ثلاثة أيام في الأسبوع. ويتواصل عاطفيًا مع هانداN في بعض الليالي. أما الآن فلو كان الأمر بيده لما أتى إلى المنزل نهائيًا ولا مرّ حتى بالقرب منه، ولكن ذلك سيكون معيبًا.

هل كانت هانداN مرتاحة ومطمئنة كما بدت، أم كان ينتابها الشك ولا تخبره بشيء يا ترى؟ هؤلاء النساء أكلن عمره على مدى السنوات. تعامل مع كل منهن على حدة، ولكنه لم يستطع أن يفهم أيًا منهن تمامًا.

عاد إلى الصالون. كم كان متألقًا وجميلًا ذلك المكان. كان المنزل الذي يقيم فيه مع فادي عاديًا. تعتقد فادي أنه جميل ومتألق، ولكنها لو رأت هذا المنزل لانعقد لسانها. كان الصالون مليئًا بالقطع الأثرية الثمينة، وكان المصباح البرونزي المرصّع بالكريستال الموجود في الزاوية أثمن من جميع أثاث الصالون الموجود في المنزل التي تعيش فيه فادي. وخاصة السجادات الحريرية! (القنصل) المسند إلى الحائط؛ لقد اشتراه من يهودي عاش في جزيرة الأميرات في زمان مضى. واللوحات وحدها تُعدّ ثروة أساسًا.

في الماضي كان يأتي الضيوف باستمرار إلى هذا المنزل، وكانت ترن ضحكات الناس في هذا الصالون المتألق. أما الآن فلم يعد ثمة وجود للضيوف بسبب عدم مجيء كنان إلى المنزل إلا نادرًا. في الواقع كان أصدقاء الملهى يضغطون عليه من وقت لآخر، ويصرّون على تناول الطعام بصحبة نسائهم إن لم يكن في المنزل ففي الخارج، ولكن لم يكن من السهل تخطّي فادي.

كانت فادي شابة أكثر منه بكثير. كم سنة يمكن لامرأة شابة مثلها أن تتحمل يا ترى؟ وكما قال له أصدقاؤه، كان عليه أن ينفصل عن فادي بأسرع وقت ممكن. ولكن المرأة كانت تحبه كثيرًا. ليس حبًا، بل عبادة بكل معنى الكلمة. لديها ولاء مختلف له. لم يكن عشقًا أو ما شابه. في العلاقات السابقة كانت النساء سريعات في

الارتباط به ويبذلن قصارى جهدهنّ حتى لا يخسرنه. أما هنا، فلم يكن الأمر كذلك. كان أمرًا غريبًا أشبه بإدمان الأفيون. هل كانت لتحاول الانتحار لو انفصلا يا ترى؟ من ناحية الفعل فهي تفعل ذلك. وهل كانت الحياة عديمة القيمة بالنسبة لهن؟ ثمة في الدنيا كنان واحد فقط، وهو ليس في وضع يسمح له بأن يواكبهنّ جميعًا!

بينما كنت هاندان ترمي له الفاكهة المقشرة واحدة تلو الأخرى في فمه، قرر أن يترك هذا الأمر للصدفة في الوقت الحالي. نظرًا لأن النساء يحببنه، ولا يمكنهن التخلي عنه أبدًا مهما فعل، فلا داعي للقلق.

(4)

كان عمل فادي يسير على ما يرام. فمشاكلها المادية انتهت تمامًا، وبعد أن اشترت سيارة لنفسها، اشترت منزلًا أيضًا. ولأنها كانت تعاني من الفقر في طفولتها، فكانت تحاول تأمين نفسها، ولا تنفق المال الذي تجنيه هنا وهناك، ولكنها مع ذلك لم تكن تحاول التهرب من شراء الأفضل من كل شيء. ولكن صبرها نفد. من ناحية الحب فهي كانت تحب كنان، ولكن خداعه إياها، ووضعه إياها موضع الغبية شيء لا تستطيع تحمله إطلاقًا. كان من الواضح أن زوجته لن تتركه من تلقاء نفسها. هل كان من الممكن للمرأة ألا تشعر بعلاقة استمرت كل هذه السنوات؟ إلى جانب ذلك، لم تكن أنقرة كبيرة كما تبدو في الواقع. فمعظم الناس الذين يُعتبرون ضمن شريحة واحدة يعرفون بعضهم بعضًا. وطوال هذه السنوات ليس ثمة مطعم لم يأكلا فيه معًا، أو مكانًا لم يذهبا إليه سوية. وكم مرة في السنة يسافران معًا متجولين ذراعًا بذراع في الفنادق والمصايف. ألم يرهما أحد ويخبر تلك المرأة؟ ولكن ثمة في هذا الأمر شيء ما. من الممكن أن تكون المرأة على علم بكل شيء، ولكنها لا تفتح فمها. حسنًا، ولكن، ألم تنكسر كرامتها حيال عدم قدوم زوجها إلى البيت لسنوات، وكذلك شَبكِ ذراع امرأة أخرى بذراعه، وتجولهما معًا؟

كان كنان قد أخبر فادي أنه فتح موضوع الانفصال مع زوجته قبل سنوات. قالت فادي: (لا يهم إن لم تقبل، تقدم طلبًا للمحكمة، وتوكل محاميًا، تثبت أنك لا تذهب إلى البيت، وأنك تقيم في عنوان آخر منذ سنوات، وتنتهي). إن كان هذا المدعو كنان يخونها، ويختلق لها حججًا باستمرار، فهي لن تسامحه أبدًا. وهل قضت كل هذه السنوات غارقة بالأكاذيب، وهل ذهب شبابها وأحلامها سدى؟

وفي الحقيقة قال لها إنه، وقبل عدة أشهر، وكّل محاميًا وقدم طلبًا للمحكمة من أجل الطلاق، ولكن، لم يحدث أي تقدم في القصة على الرغم من مرور كل هذا الوقت. يتحدث أحيانًا مفعمًا بالأمل، وبعد ذلك، فورًا، يقول بأن عقبة جدية قد ظهرت. أم أن ذلك أيضًا كان كذبًا؟ ومع ذلك، كانت تقول لنفسها: "انتظرتِ كل هذا الوقت، ووصلت اللقمة للفم، اصبري قليلًا أكثر".

كانت جالسة أمام النافذة، غارقة في التفكير من جهة، وعينها على الطريق من جهة أخرى، بانتظار كنان. ليأتِ فأتحدث معه عن هذا الموضوع وللمرة الأخيرة. ماذا لو كان ما أفكر فيه صحيحًا؟ ماذا لو كان هذا الرجل يخدعني منذ البداية؟ كلما خطر لها بأنه يماطلها تضيق بها نفسها، وتدخن سيجارة خلف السيجارة. ثم وبعد ذلك تقول في نفسها "بالتأكيد ليس إلى تلك الدرجة"، فهو يعرف إلى أي درجة أحبه، حتى لو كان يكذب في بعض الأحيان، ففي النهاية ستنتهي المحكمة وتتزوج به. ارتاحت عندما فكرت بهذه الطريقة.

في أحد الأيام، ذهبت إلى متجر لبيع فساتين الزفاف مع صديقاتها، وألقين نظرة عليها. فبعد كل سنوات الانتظار هذه كانت تريد حفل زفاف يشفي غليلها، كما تحلم بارتداء أفخم فستان زفاف. ألم تحلم بهذا اليوم منذ طفولتها؟ ومع أنها كانت تلهث وراء الرجل الذي معها أكثر من لهاثها وراء فستان الزفاف، إلا أن الفستان أيضًا مهم للغاية.

عندما اقتربت المرسيدس ذات اللون الكحلي من الباب، قفزت من مكانها متحمسة. كان كنان قد غير سيارته قبل مدة، واشترى لنفسه سيارة مرسيدس كحلية اللون مرة أخرى، ولكن هذه الجديدة كانت مقاعدها بيضاء، فهذا ما أرادته فادي، وهو بدوره لم يخجلها.

كان كنان يصعد الأدراج مستاء. سابقًا كان يصعدها راكضًا، ولكن سنوات قد مرت منذ ذلك الحين، ثم لاحقًا بدأت تظهر أعراض التعب من التدخين والكحول. أخذت فادي الحقيبة من يده، وعانقته بشوق وكأنهما لم يلتقيا منذ سنوات. وهو بدوره انحنى وقبّلها من خدّيها.

كانت ستفعل اليوم ما بوسعها لتفتح الموضوع مع كنان، وتحصل منه على إجابة شافية. فهي أساسًا، ومنذ البداية، كانت مستاءة من كونها عشيقة رجل متزوج. كان في ذهنها دائمًا أن الطريقة الوحيدة لتصالحها مع نفسها ومسح هذا العار هي بالزواج منه.

كان الطعام جاهزًا منذ مدة. وكعادته، قام كنان بالاستحمام أولًا، ودلّكت فادي كتفيه، ثم ارتدى ملابس مريحة وجلس إلى رأس الطاولة. في نهاية السهرة، بدأت فادي الحديث بنبرة هادئة.

- ماذا فعلت يا حياتي، هل هناك أي خبر من المحكمة؟

لقد حدث ما كان كنان خائفًا منه، وفُتح ذلك الموضوع الشهير مجددًا. لم يمر يوم لم يُذكر فيه هذا الموضوع. كانت فادي تضغط عليه أكثر فأكثر. لم يعد هنالك المزيد من الأكاذيب لاختلاقها. وبغض النظر عن كل شيء، فلم يكن في نيّته الانفصال عن فادي أبدًا. كان يريد لهذه العلاقة أن تستمر لسنوات حتى لو بالكذب أو الخداع. لقد اعتاد عليها. ففي هذه المرأة يوجد كل ما يبحث عنه.

كان يفكر متسائلًا عن المسوغ الذي يمكنه أن يختلقه، لكن أية كذبة لم تخطر في باله؟ هل كانت ستفيد الصرامة وتخويف فادي في محاولة لإسكاتها يا ترى؟ ودون أن يرفع رأسه عن صحنه، أجاب بصوت عالٍ على سؤالها.

- لا!

- وماذا يعني لا؟ ما هذه المحكمة؟ أم أن فيها شيئًا لا أعرفه؟

يا للعجب! رفعت فادي صوتها أيضًا. إنها المرة الأولى التي يواجه فيها شيئًا كهذا. حسنًا، ماذا عساه يفعل الآن؟ فالاستسلام ليس من عادته. كان سيصرخ بشكل أعلى ويغلق الموضوع. وعلاوة على هذا فإن ابن سميح سيتزوج غدًا. وعليه أن يصحب هاندان معه إلى حفل الزفاف. ربما سيساعده نشوء مشاحنة بينهما، ولا يأتي ليوم أو يومين إلى هنا، ويتخلص من موضوع الزفاف أيضًا. ثم وبعد ذلك يتصالحان على أية حال. ففادي لا تستطيع التخلي عنه.

- كيف تتحدثين بهذه الطريقة! وما هو الشيء الذي لا تعرفينه؟ أنتِ تسألين مائة مرة كل مساء، ونحن نردّ عليكِ. المرأة لا تريد الانفصال، كم مرة سأقول هذا لكِ؟
- انظر إليّ يا كنان، لن يستمر هذا الأمر على هذا المنوال. إنها عشر سنوات، وهل هي سهلة! إما أن تجد حلًا لهذا الأمر، أو ينتهي هنا. بدأتُ أشعر أنك تكذب عليّ، وتماطلني. إنها ليست ثلاث سنوات أو خمس، أنتظرك منذ عشر سنوات. وأنا أيضًا أريد زوجًا وأولادًا. أليست هذه حقوقي؟ أنت تستطيع حل هذا الأمر إن أردتَ. إنني أعرفك جيدًا الآن. ثمة شيء آخر في هذا الأمر. أخبرني الحقيقية بوضوح، وإن لم تعجبني أسحب نفسي وأذهب. أرجوك كن صادقًا! لا تسرد عليّ حكاية أنني لا أستطيع تطليق زوجتي. زوجتك تعلم جيدًا عن هذه العلاقة. زوجها ليس بجانبها منذ عشر سنوات، وهل يمكنها ألا تكون على علم بهذا؟ أعطِ زوجتك ما تريد من مال أو مجوهرات، وتزوجني، وخلّصني. أنت تعرف أن عيني ليست على المال أو المجوهرات. أعطِ زوجتك كل ما تملك إن أردت، ولكن لا تخدعني بعد الآن. سيُحلّ هذا الأمر هذه الليلة بأي وسيلة. أخبرني بما تفكر فيه. ربما نجد سوية حلًا للمشكلة إن علمتُ بالحقيقة.

بماذا تتفوه هذه المرأة؟ لم يرَها كنان بهذه الحال قط. كم كانت تبدو جدّية ومصممة. بلع ريقه مرة أو اثنتين، سيكون من الخطأ الضغط أكثر على شخص بهذه الحال. كان سيحاول أن يكون عاطفيًا أكثر.

- ماذا حصل لكِ يا فاديّتي الصغيرة. لماذا غضبت هكذا؟ هل تلفّظ أحد بشيء ما؟
- إن الناس أصلًا، ومنذ عشر سنوات، يقولون ما يقولون، ولكن صبري قد نفد.

- أم أنك لا تحبيني بعد الآن؟
- هذا شيء، وهذا شيء آخر...
- وهل يمكن أن يكونان أمرين منفصلين، إنهما سواء.
- لا تغيّر الموضوع. أنا أحبك كثيرًا، ولكن هذا موضوع آخر. بدأت أشعر أن الرجل الذي أحبه وأقدّره منذ سنوات يخدعني ويكذب عليّ. الآن قل لي، لماذا لم تطلق زوجتك كل هذه السنين؟ المرأة لا تبدو سيئة. انظر، أنت تعيش معي في هذا المنزل منذ سنوات. لو كان أي شخص آخر، لأكل رأسه، وجاء إلى هنا أربعين مرة، وداهمنا وفضحنا. بما أن لا شيء من هذا قد حدث، فأنت لا تخبرني بكل شيء. ماذا تريد؟ هل أذهب بنفسي للمرأة وأتكلم معها؟
- إياكِ يا فادي، ما هذا الذي تتفوهين به هذه الليلة؟ إن علمت هذه المرة بوجودك في حياتي، فلن تنفصل عني نهائيًا. بل ستغضب فقط. الآن وعلى الأقل لا تعلم بأننا سنتزوج. كما أعتقد بأنني استطعت إقناعها هذه المرة. تحدّثنا ذلك اليوم. هذا الأمر أصبح منتهيًا. فور انتهاء المحكمة ستختفي من هنا. لم أقل لكِ ذلك.
- لماذا لا تخبرني بذلك؟
- أردت أن أنهي هذا الأمر وأفاجئكِ. حتى إنني أخبرت سكرتيرتي، بأن تحجز لنا موعدًا في دائرة الزواج في أسرع وقت ممكن. هذه الأمور ليست سهلة.
- لم أسمع بتحديد يوم للزواج قبل الطلاق من قبل سوى منكَ.
- لا، ليس هكذا. إنه أشبه بحجز موعد. كان لا بد من الاتصال بقاعات أفراح الفنادق مقدمًا، لأن جميع الفنادق تكون ممتلئة قبل أشهر، وخاصة في عطلات نهاية الأسبوع.

لقد تعلّم هذه الحكايات من سميح، الذي لم يكن يتحدث عن شيء آخر مؤخرًا. كان من المقرر أن يُقام حفل زفاف ابنه في فندق هيلتون، وكان عليهم أن

يحددوا الموعد قبل فترة طويلة. وكيف اختلق هذه الأكاذيب بسرعة؟ الله يحبه، ففي كل مرة كان يجعله يفكر في كذبة تخرجه من البئر. أربكت هذه الكلمات فادي. لم تكن تعرف ما إذا كان عليها أن تصدق كنان أم لا؟ هل حقًا حدد تاريخ الزواج يا ترى؟ سألته بانفعال:

- متى تم تحديد الموعد؟
- ذهبت الفتاة اليوم، ولكننا لم نتحدث بعد لأنني خرجت من الشركة باكرًا.
- ماذا تحدثت مع زوجتك أيضًا؟
- إن هذه العلاقة أصلًا منتهية قبل سنوات. ليس في مصلحة الجميع المماطلة أكثر.
- وماذا قالت؟
- لم تعترض هذه المرة. مما يعني أنها هي الأخرى سئمت من هذه الحال. قالت: قدم طلبًا للمحكمة إذن.
- هل قالت لك بأن تقدم طلبًا للمحكمة؟ أليست القضية مستمرة منذ سنوات؟
- مستمرة طبعًا... قالت: إن كان الأمر هكذا، سأخبر محاميّ الخاص، دعنا لا نطيل هذا الأمر أكثر إذن، ولكنني أريد كذا وكذا..
- وماذا تريد؟
- أشياء كثيرة، حصص من الشركة، شقق عدة، مال، وما إلى هنالك..
- أعطِها ما تشاء. بما أنها قبلت، فالأمر ينتهي دون مماطلة.
- طبعًا سأعطيها. ألم يقولوا "من يدخل الحمام يتعرق"؟ على أية حال وبعد كل تلك السنوات سأعطيها حتى لو لم تطلب.
- حسنًا، وماذا سنفعل من أجل حفل الزفاف؟
- أفكر بأن يكون في الهيلتون. فهذا ما يليق بنا. صالته كبيرة أيضًا.
- هل تفكر بعرس كبير ومزدحم؟

- إن كان ولا بد فليكن. إن دعونا الأصحاب والأصدقاء فليس ثمة مكان آخر يتسع لنا. محيطكِ أنتِ أيضًا واسع.
- إنه كذلك. ومن أدعو يا ترى؟ قبل عدة أيام ذهبتُ مع الأصدقاء لرؤية فساتين الزفاف. من الجيد أننا ذهبنا. وإلا لاضطررنا للإسراع.
- بعد كل سنوات الانتظار هذه، لا ينبغي التسرع في شيء. ليكن كل شيء كما حلمنا به تمامًا. في الواقع إن أكثر شيء أريده هو سعادتكِ. فأنت تستحقين الأفضل في كل شيء.

أخذت فادي نفَسًا عميقًا. تلفّظ كنان على الفور بما أرادت أن تسمعه منذ فترة طويلة. مما يعني أن هذا سبب غرقه في التفكير طوال هذه الفترة. فبعد كل شيء لم يكن سهلًا، بعد مرور كل هذه السنوات، تطليق زوجته والزواج من جديد. ومع ذلك لم يتهرب أبدًا من الزفاف أو الحفل، بل على العكس تمامًا، حاول أن يفعل ما تريده فادي تمامًا. أما فادي فلم تفكر بذلك مطلقًا. ظنت أنه، وبعد هذا العمر، سيقول "وما حاجتنا للزفاف والاحتفال؟". لكنها ظلمته وظنت به سوءًا. في الحقيقة كانت على دراية بمدى حبه لها وتقديره لعلاقتهما هذه، ولكن الشيطان يزرع أفكارًا سيئة في رأسها باستمرار. ومع ذلك، فهذا لا يعتبر ظلمًا. كان لا بد لها من الانتظار صابرة مدة عشر سنوات تمامًا لسماع هذه الكلمات. على أية حال، وأخيرًا، فقد حصل ما تريده. بقي على تحقيق أحلامها أيام معدودات لا أشهرًا. كان لديها الكثير لعمله..

لم تعد تستطيع التحمل، قفزت من مكانها وعانقت كنان من رقبته. قبّلته، وقبّلته، وقبّلته...

(5)

استيقظ كنان باكرًا على غير عادته. كان رأسه يؤلمه، وكأنه سينفجر، وكلما فكر بما حدث الليلة الماضية تتسارع نبضات قلبه أكثر. ولهذا السبب لم يستطع النوم. وفوق ذلك كان ثمة حفل زفاف وجب عليه الذهاب إليه. كان عليه أن يجد طريقة لتجاوز فادي والذهاب مع زوجته ليلًا إلى الحفل. إن لم يحضر هذا الزفاف فإن سميح لن يسامحه نهائيًا. وما هي الحجة التي سيختلقها لعدم حضور حفل زفاف ابن أعز أصدقائه؟.. من ناحية الذهاب فهو سيذهب، لكن في الوقت الحالي، لم يكن يعرف كيف سيتجاوز هذه المصاعب دون لمس ذيل أي من الثعالب التسعة التي تدور في رأسه.

في السابق، كان اختلاق الكذبة سهلًا، وكان يفعل ذلك بمهارة لدرجة أنه، وبعد فترة وجيزة، يصدق ما اختلقه من كذب. وكأن الكذب عنده صار تلقائيًا. كان يفعل ذلك وهو ينظر في عيون النساء مباشرة ودون أي ارتباك. يحب النساء كثيرًا من جهة، ويحتقرهن قليلًا من جهة أخرى. كان سعيدًا جدًا لكونه أتى إلى الدنيا ذكرًا. يا له من شيء سيء أن تكون امرأة! فهنّ أتين إلى الدنيا لخدمة الذكور، وإسعاد قلوبهم.

تم إنشاء هذه الدنيا من أجل الذكور. لم يكن يستطيع فهم أقرانه الرجال الذين لا يدركون ذلك، وخاصة الرجال المفتونون بزوجاتهم؛ فهو لا يستطيع تحملهم إطلاقًا. فمثل هؤلاء يقعون في أفواه زوجاتهم. عندما يرى مثل هؤلاء الرجال يضحك من ورائهم ويقول "نحتاج ألف دليل لنقول إن هؤلاء رجال حقًا". إما أن يكون هؤلاء مجانين، أو أن لديهم عيبًا كبيرًا. يهمس في أذن أصدقائه حول ما يعيب أولئك الرجال، ثم يسحب أذنه بإحدى يديه وينقر على الخشب.[1] ولكنه في هذه

(1) سحب الأذن بيد والنقر على الخشب باليد الأخرى: عادة منتشرة في تركيا لتجنب الحسد أو الدعاء كيلا يصيبهم ما يصيب الآخرين. (المترجم)

الفترة، يرى في أدائه انخفاضًا من نوع آخر. كان يكذب كعادته، ويجعل النساء يصدقن أكاذيبه بسهولة، ولكنه لم يكن مرتاحًا كما كان في السابق. القلق ينتابه.

كان قد مضى وقت على ذهاب فادي، وكانت، كعادتها، قد حضرت له فطوره بعناية، فعصرت البرتقال، وضعت الشاي على نار هادئة، وتركت رسالة على الطاولة. تناول الرسالة بسرعة وبدأ بقراءتها.

"حبيبي، إنني أطير فرحًا اليوم، ومتأكدة من عدم وجود أي امرأة أكثر سعادة مني في الدنيا هذه اللحظة. سألتقي مع أصدقائي بعد خروجي من العمل، ونذهب لرؤية فساتين الزفاف مرة أخرى. لذلك فإنني لن أستطيع أن أطبخ لك. يجب علينا أن نتناول الطعام في الخارج احتفالًا بخبر كهذا أتى بعد عشر سنوات. ما رأيك بفندق الهيلتون؟ نكون بذلك أيضًا قد ألقينا نظرة على صالة الأعراس فيه، ربما نحدد تاريخًا من الآن أيضًا. أقبّلك بشوق".

فندق الهيلتون! تقول المرأة لنذهب إلى الهلتون لتناول الطعام، وكأنه ما بقي مكان نستطيع الذهاب إليه في مدينة بحجم أنقرة هذا المساء. وماذا تفضلتم يا سيدتي؟ نلقي نظرة على صالات الأعراس هناك! هل تولد بعض الأشياء في هذه المرأة من تلقاء نفسها يا ترى؟ كلما اختلق أكاذيب بسيطة كهذه، فإما أن يراها في حلمه، أو تلطم وجهه هذه الأكاذيب التي يختلقها بين السطور. كانت الأمور تزداد فوضوية حقًا. وكما لو أن صداعه لم يكن كافيًا، فقد شعر بغثيان في معدته. هل تحرك ضغطه يا ترى؟ لقد فتح على نفسه بابًا جديدًا من لا شيء.

لم يبقَ شيء لم يعانِه بسبب هاته النساء، ولكنه كان يدرك أن الخطأ خطؤه. كان يقدم الكثير من التنازلات لخصومه، وبالملعقة، ماذا لو لم يكن ليّنًا هكذا، ويفتّح أعينهنّ عليه؟ على أية حال، هن لا يستطعن التخلي عنه. كم مرة حاول ذلك. فحتى زوجته رحلت، وبعد ذلك عادت وهي نادمة ألف مرة على رحيلها.

تفكيره هذا أراحه ولو قليلًا، ولكنه مع ذلك لم يستطع بعد إيجاد حل للوضع الذي هو فيه. فالليلة الماضية لم يبقَ شيء لم تفعله فادي، وكاد هو أن يتخلى عنها،

ولكنه ليس من النوع الذي يفعل ذلك. فمثل هذه الكلمات لا تنطلي عليه أبدًا. إن كان كذلك، فأين كان عقله منذ عشر سنوات؟ يبدو أنها قالت ذلك لتخويفه، وترهيبه، وجعله يفعل ما تريده. وماذا يا سيدي؛ إن تجاهلها هذه المرة؟ ستغادر، وتنتهي العلاقة، وما إلى ذلك.. ظنت أنها ستخوّفه! حسنًا، أم أنه خاف بالفعل يا ترى؟ لا يا عزيزي، وماذا أيضًا؟ إن كان كذلك، فلماذا اختلق كل تلك الأكاذيب السخيفة من تحديد يوم الزفاف، وحفل في الهيلتون، وما إلى ذلك؟

اتخذ مكانه المعتاد في مائدة الإفطار، كان يفكر كثيرًا مثل بومة. لم تكن لديه شهية لتناول أي شيء. أرخى كتفيه، وظل يحرك رأسه يمنة ويسرة، وفي يده الرسالة التي كتبتها فادي. إن لم يستطع تجاوز هذه المحنة فمن يدري ماذا سيواجه بعد؟ وبما أن فادي ليست موجودة، هل يحزم أغراضه ويغادر يا ترى؟ إن غادر فإلى أين؟ إلى المنزل.. ولكن هل هو سعيد في المنزل؟ لا.. حتى التفكير في العودة إلى المنزل بصورة دائمة جعله يرتجف. ذلك المنزل الجميل، وتلك الأشياء الثمينة.. لم يكن أي منها يعني له شيئًا. أما هنا، وفي هذا المنزل، كان سعيدًا بجانب فادي، ولكن ألم يكن من الأفضل لو أنها لم تفتح موضوع الزواج وتخجله أمام الناس بعد هذا العمر؟ من ناحية أخرى، لم يكن يريد أن يخسر هانذان إلى الأبد. كانت تجلس هادئة في مكانها، فمن أين لها بتخريب هذا النظام؟ كان يغرق في هذه النساء بسهولة، نعم بسهولة!

بينما كان يعب عصير البرتقال الذي عصرته فادي دفعة واحدة، كان يفكر بالسنوات العشر التي قضاها معها. كان سعيدًا بما عاشه. ترقبت امرأتان في آن معًا مجيئه بفارغ الصبر، ولم تجعلا كلمته تصير اثنتين. ومع هذا لم يبقَ مكتوف اليدين، ولم يفوّت أي شيء كان مقدّرًا له، فعلى الأقل تذوق نكهة كل امرأة على حدة. لكنه، وفي الغالب، كان يخطئ في مكان ما. فعندما يفسح مجالًا لتلك الفتيات، سوف يستغللنه إلى أبعد حد. وهذا ما كانت تقوله والدته دائمًا: "إياك يا ابني أن تعطي وجهًا للنساء. وإلا يركبنك ويستغللنك". المرأة كانت محقة...

ألم يقل له أصدقاؤه أربعين مرة "اترك هذه الفتاة وإلا ستسبب لك المتاعب"؟ في الحقيقة كانوا في السابق يحبون فادي. ولكن عند سماعهم بهذه العلاقة غضبوا من كنان كثيرًا. قالوا له "ماذا تريد من هذه المسكينة، وهل يليق بك أن تحمل خطيئة فتاة كهذه؟" ولكنه لم يستمع إليهم، وآل إلى ما آل إليه. وعلى أية حال، فإن أصدقاءه من ذوي الخبرة في هذا الموضوع. ثم، وبعد ذلك، بدأوا يقولون له "لا تبالغ يا ابني، فهذه الأمور لا تُحل بالمماطلة". وصاروا يحذرونه قائلين "الفتاة شابة، غدًا أو بعد غد ستطلب الزواج. ثم أنت من، وفادي من؟ كن مسؤولًا عن بيتك".

في الواقع، كان كنان في الماضي هو من يقدم لأصدقائه تحذيرات كهذه. على أية حال، فإن مواضيع كهذه تدخل في مجال اختصاصه. لكنه في النهاية، كان عالقًا بشكل واضح في مستنقع يصعب جدًا الخروج منه بعد هذا الوقت. لم يكن يفكر في فادي ولا في هاندان. في كل الأحوال، ستعتني المرأة بنفسها. كانت مشكلته هو نفسه. لقد اعتاد على فادي تمامًا.

لم يكن يعرف حتى ما إذا كان قد أحب أي امرأة حقًا إلى الآن. على الرغم من أنه كان سيقول لكل واحدة منهن، "أنا أحبكِ" ولكن...

كما أنه كان مستمتعًا بالنوم معهن وقضاء وقت ممتع. لطالما جعلته النساء تاجًا على الرأس. وأي رجل لا يحب ذلك؟ لقد ولدته أمه محظوظًا في هذا الخصوص. لم يُترك حتى الآن ولا مرة، ولم يعان قط من الحب. لم يكن من طبعه اللهاث وراء امرأة نهائيًا.

لم يكن لهذا الأمر أن يستمر على هذا المنوال. كان عليه أن يجد حلًا اليوم ويتخلص من هذه المشكلة، فهو ليس من محبي المشاكل والهموم. كما لم يكن ليتحمل جسدُه أكثر من ذلك أساسًا. انظر، لربما مات الآن هنا، بسبب همومه، دون أن يعرف به أحد.

لو قال لزوجته "لنتطلق" لما اعترضت نهائيًا. ثم ذهبت ووقّعت ما يلزم من أوراق. كانت عيناه قد شبعت من هاندان، ولم يعد يريد أي شيء منها، وهي بدورها

تهز رأسها إيجابًا على كل ما يقوله. يا إلهي، لم يكن يريدها أن تغادر هي الأخرى.. عندما يقع في مشكلة أو يمرض يركض إليها. كانت هاندان تهتم به جيدًا. لم تكن تفارقه بتاتًا، وكانت تصنع شوربات ساخنة، كل واحدة منها ألذ من الأخرى، حتى إنها كانت هي من تُشرّبه إياها. وهو بدوره يتدلل أكثر فأكثر، فلم يكن ينهض من سريره لأيام، حتى لو كان مصابًا بالزكام. كان يحب اهتمامها به وعاطفتها تجاهه.

الحقيقة أن فادي أيضًا كانت تعامله كملك طوال حياته، ومع ذلك، لم يكن لذلك الأمر أن يحدث. الوقحة تريد حفل زفاف. قال لها في سره "وليك، أين أضعتِ حفل الزفاف حتى تجدينه هنا؟ هل بعد كل هذا العمر سأنفق هذا القدر من النقود وأُضحك الناس عليّ؟" وخاصة أصدقاء الملهى؛ كيف سيهزؤون منه. سيقولون "جعلت من العاهرة التي مددت يدك عليها زوجة"، ثم يضحكون وراءه.

لماذا كانوا يقولون عنها عاهرة يا ترى؟ إن ماضي الفتاة نظيف جدًا، وحاضرها أيضًا. فهي لم تعرف أحدًا آخر غير كنان كرجل، ولم تنظر لأحد آخر غيره ولا حتى بطرف عينها. ولكن لا أحد في هذا البلد ينظر بعين الشرف للمرأة التي تعيش مع شخص متزوج كل هذه السنوات. هو أيضًا لم يعترض نهائيًا على وصفهم فادي بالـ "عاهرة".

اضطرب عقله كثيرًا من الصباح، وتحطمت معنوياته تمامًا. لو كانت فادي تحبه كثيرًا كما قالت، فلن تتركه لمجرد أنهما لم يتزوجا فورًا. أو، على الأصح، لن تستطيع تركه. ستغضب عدة أيام، وتحرد، ثم تصالحه مجددًا. إنه الحب، لا يشبه أي شيء آخر.. إن علق بشخص، لن ينجو منه قط. لن تنطلي عليه هذه الألاعيب. ماذا سيحدث لو قال لها "تراجعت هاندان عن قرارها بالانفصال، ورجع الأمر للمحكمة من جديد"؟ هل ستقوم القيامة؟ لتقم.

ترك المائدة كما هي ونهض من مكانه. وبينما كان يطفئ النار تحت الشاي علقت يده بالإبريق وانسكب الشاي المغلي. وعلى الرغم من أنه قفز إلى الوراء بردة فعل مفاجئة، ولكن الماء المغلي تناثر على يده. وعلى عجل وضع يده تحت

الصنبور محاولًا تخفيف الألم، ومن ناحية أخرى كان يتفوه بكل ما يأتي على لسانه. ساء كل شيء، ولم يعد لديه مجال للتعامل مع ذلك الآن. اتجه مقطبًا وجهه نحو الحمام.

عندما خرج من البيت كانت الظهيرة قد حلت. اندهشت هاندان لرؤيته في هذه الساعة. لم يكن ليأتي في مثل هذا الوقت. قال لها "إنني متعب قليلًا، سأستلقي. أشعر بغثيان في المعدة، أحتسي شوربة إن صنعتِ لي". أخذت هاندان الحقيبة من يد كنان، ثم ركضت إلى غرفة النوم وجهزت له الفراش، وساعدته على نزع ملابسه.

- ثمة حفل زفاف في المساء، أنت تعرفين.
- أعرف. إن شاء الله لا يبقى فيك شيء حتى المساء. سنحْرَج أمام سميح إن لم نذهب.
- سنذهب، سنذهب. أحضري لي هاتفي لأتصل بالسكرتيرة وأنبّهها لأن ترسل باقة أزهار جميلة. وأنت أيضًا جهزي نفسك جيدًا في المساء. لترتدي فستانًا أو أي شيء من هذا القبيل.
- كنت سأكوي الآن ما سأرتديه مساء.
- ماذا سأرتدي أنا أيضًا؟ ألقي نظرة.
- فكرت بأن ترتدي الطقم الذي اشتريناه من إيطاليا. لأكوِه أيضًا.

انسل كنان تحت الشرشف الأبيض واستلقى. أوه، لقد ارتاح قليلًا. الآن وبعد تناوله الشوربة سيأخذ دواء، ثم ينام عدة ساعات، فيعود إلى رشده. وفي ذلك الوقت يفكر بما سوف يقوله لفادي في المساء. ولكيلا يزعجه أي أحد أغلق هاتفه.

في المساء كان كنان يشعر بتحسن كبير. وبينما كانت زوجته مشغولة، فتح هاتفه ليتصل بفادي. أووه، لقد اتصلت هي عشر مرات. يا إلهي، هذه المرأة تستطيع إيجاد الإنسان حتى لو كان في قعر جهنم. وبعصبية خفيفة على وجهه ضغط على رقم فادي، وفُتح الخط فور رنين الهاتف.

- أين أنت يا كنان؟ انشغل بالي كثيرًا.
- كان لدي بعض الأعمال. مزاجي أيضًا لم يكن جيدًا. شربنا كثيرًا الليلة الماضية، فآلمني رأسي. لهذا أغلقت هاتفي.
- ألا يتصل الإنسان؟ كان بإمكاني أخذ اذن من العمل والمجيء. أين أنت الآن؟
- وماذا ستفعلين إن عرفتِ مكاني؟ ألم أقل لكِ بأنه لدي عمل؟
- ولكنك لست في الشركة أيضًا. قالوا بأنك لم تأتِ اليوم. ولم تذهب للملهى أيضًا.
- لدي عمل، عمل.. وقعت مشكلة كبيرة في أحد مواقع البناء. خرجت في الصباح الباكر. سأبيت الليلة هنا أيضًا. لا أعرف متى سأعود إلى أنقرة. سأتصل بكِ في الغد، وأطلعك على الوضع.
- ما هي المشكلة؟
- أشعر بالضجر أساسًا، لا تضغطي عليّ من فضلك.
- أين أنت الآن؟ في أي موقع من مواقع البناء؟
- هل صار عملك هو التحقيق؟ ألم أقل لك نتكلم غدًا؟
- انظر كنان، أشعر بأنك تكذب عليّ مجددًا.
- دعكِ من ذلك الآن. ماذا فعلت؟ هل ذهبت لرؤية فساتين الزفاف؟
- ذهبت.. ولكنني لست مرتاحة من الداخل نهائيًا. حتى إن صديقاتي لم يصدقنني مطلقًا. يقلن "لم ينفصل الرجل عن زوجته بعد، فلماذا كل هذه العجلة؟". لا أحد منهن يثق بك.
- يا الله... كان ينقصني صديقاتك.

كان كنان يريد أن يغلق الهاتف بأسرع وقت ممكن لأن هاندان من الممكن أن تدخل إلى الغرفة وتساعده على ارتداء ثيابه في أي وقت. كانت فادي، كعادتها، تماطل بالكلام.

- وماذا تعني بـ "كان ينقصني صديقاتك"؟ ثم ومن أين أتت مهمة الذهاب إلى موقع البناء هذا؟ لماذا تذهب أنت بينما يوجد الكثير من الرجال؟
- حسنًا يا فادي، اسكتي الآن. سئمت شكك هذا. أقول لكِ لدي عمل، وأنت تماطلين.

في تلك الأثناء فُتح الباب بهدوء، ودخلت هاندان وبيدها القميص الأبيض المكوي. وها قد حدث ما كان يخشاه. أصبح وضع كنان محرجًا للغاية. لم يكن يريد حدوث مشكلة جديدة في المساء وهو متجه إلى حفل الزفاف.

- هيا، سأغلق الآن. غدًا نلتقي.

أغلق الهاتف ووضعه على الطاولة، ثم عاد ليأخذ القميص من يد هاندان. أعطته هاندان القميص دون أن ترفع رأسها، ثم وقبل خروجها من الغرفة بدأ الهاتف بالرنين مجددًا. كان متأكدًا من أن فادي هي المتصل. نعم، كانت هي. إن رد تلك مصيبة، وإن لم يرد فالمصيبة أعظم! لا، لن يستمر الوضع على هذه الحال. وعلى أية حال لم يبق أي شيء ليقوله. كلما تكلم أكثر يزيد الطين بلة، ففادي كانت ستعلم بكذبته عاجلًا أو آجلًا. كان أفضل حل هو أن يغلق هاتفه مجددًا. فكر بينه وبين نفسه "لو لم أفتح الهاتف أبدًا". ولكن ما حدث قد حدث. سيفكر في الباقي غدًا.

ومنذ تلك اللحظة اتصلت فادي بكنان عدة مرات. وعلى الرغم من أن الصوت الذي على الهاتف كان يردد "الشخص الذي تتصلون به غير متاح الآن"، ولكنها كانت تضغط على أزرار الهاتف باستمرار وكأنه سيُفتح بعد قليل. كانت يداها ورجلاها ترتجفان، وقلبها ينبض بقوة. سئمت من أكاذيب هذا الرجل. من يعرف الآن أين هو؟ لم تصدق أبدًا قوله إنه في موقع البناء. لو كان كذلك، لكان أخبرها بمكانه فورًا. صارت تعرفه جيدًا الآن. هل كل ما قاله كان كذبًا يا ترى؟ الطلاق، حفل الزفاف في الهيلتون، المدعوون، فستان الزفاف... هل يمكن لصديقاتها أن يكنّ محقات؟

كانت متجهة إلى منزلها بالسيارة، غاضبة، وعقلها مشوش لدرجة أنها خشيت من التعرض لحادث، أو دهس أحد ما. تمنت لو لا يتأذى أحد غيرها وتموت هي. لم تعد لديها طاقة لتحمل هذا العذاب أكثر. المحيطون بها نبّهوها باستمرار، وقالوا لها أن تتخلى عن هذا الحب. قالوا لها أيضًا "عين هذا الرجل ليست نظيفة. فهو، وحتى هذا الوقت، خان كل النساء اللواتي صاحبهن، وليس أنتِ فقط. هذا هو أسلوبه، وهذه هي عادته."

في الواقع كانوا على حق. وكانت هي أكثر من يدرك صحة تلك الكلمات. شاهدت كل هذا بأم عينها قبل أن تعيشه، وسمعت بأذنها ما اختلقه من أكاذيب على زوجته وعشيقاته. في ذلك الوقت كانت تضحك على تلك النساء، وترى كم كنّ غبيات. كانت تعتقد بأنها إن أعطت لكنان كل ما لديها فإنه سيتغير، وحتى لو خان الكل اعتقدت بأنه لن يفعل ذلك بها. وماذا لو كانت تلك النساء قد فكرن مثلها تمامًا؟ هذا يعني أن الإنسان يبقى كما هو، ولا يتغير أبدًا.

تزوج أصدقاؤها منذ زمن، وأصبح لديهم أولاد، واستقرت حياتهم. الوحيدة التي لم تكن كذلك هي. كانت تخرج إلى الوسط فارغة الصدر، محنية الرأس.

غسلت قدميه ذات يوم، تصوروا، وعملت كل ما يمكن لرجل أن يحلم به. يكفيها فقط أن يتزوجا، وأن يحبها كنان، وألا يخونها مع أخرى. وهل كان ذلك خطأً أيضًا يا ترى؟ وماذا يمكن للرجل أن يطلب أكثر؟ لم تُصِب حساباتها، كما لم تنته قصة الحب هذه بشكل سعيد. لم يكن من عادتها قبول الهزيمة أو التراجع، ولكن من المحتمل أنها هُزمت.

كانت تحمرّ، حتى أذنيها، ويتفاقم الهم في داخلها كلما فكرت بتلك الأمور. وأثناء عودتها إلى منزلها، تخلت عن كل شيء. فبينما كانت تلف المقود مغيرة طريقها، ضغطت على دواسة البنزين بارتباك، واتجهت إلى منزل كنان. وكأن شيطانًا انسل فيها. لو كان هذا الرجل يكذب عليها هذه الليلة، فلا بد أن يكون موجودًا في منزله. فهو كان يخطط لأمر ما مجددًا، ولكنها لم تستطع أن تعرف ما

هو. كانت ستنتظر هناك حتى الصباح، وتراقب المنزل لو لزم الأمر. لو كانت ظنونها حول ذلك الرجل في غير مكانها، فإنها سترتاح وتعود إلى منزلها مطمئنة رغم تعبها. ثم وما سبب إغلاقه الهاتف في وجهها؟ ثمة شيء ما يخفيه هذا الرجل. يجب عليها أن تعرف ما هو، وأن تتحمل العواقب. لم يكن في نيتها أن تتراجع أبدًا. فإما أن يتزوجا بأسرع وقت ممكن، أو ينتهي هذا الأمر هنا.

نظرت إلى ساعتها، كانت تتجه نحو السابعة. كان الطريق مزدحمًا جدًا، ولكن لا يهم، فبدلًا من العودة إلى المنزل والغرق بالتفكير، لربما كان من الأفضل لها الذهاب إلى هناك، علّها ترى شيئًا وتحاول فهم الوضع. كان كنان مقيمًا نواحي منطقة (تشَنكايا). عندما دخلت إلى شارع بيته هدّأت من سرعتها. لم يكن من الصواب أن تتجه بالسيارة إلى أمام المنزل. كان العثور على مكان لإيقاف السيارات هنا مشكلة أيضًا. دخلت إلى موقف خاص أمام مبنى سكني كبير. هي لن تبتعد عن المكان على أية حال، وستخرج عندما يأتي صاحبه. فتحت نافذة السيارة. عندما مدت رأسها قليلًا استطاعت رؤية المنزل بشكل واضح. رفعت رأسها نحو الأعلى ونظرت بتمعن إلى الطابق الرابع. كانت جميع الأضواء في المنزل مضاءة. حتى إنها كانت، وبشكل مريح من مكانها، ترى الثريا الكريستال الكبيرة التي تتدلى من السقف. بدا المنزل من الخارج فاخرًا للغاية. ماذا كانت تفعل هاندان خانم في هذه الشقة الفاخرة حتى المساء؟ كيف تجري حياتها دون كنان يا ترى؟

كانت تزيد تنهداتها كلما نظرت إلى إنارة المنزل. إنها المرة الأولى التي تعبر فيها أمام هذا المنزل. كانت تعرف أين يقع منزل كنان، ولكنها تتحاشى المجيء إلى هنا تحديدًا. ومهما حدث، ثمة قوة أجبرتها اليوم على المجيء إلى هنا. هل من الممكن أن يكون كنان في المنزل يا ترى؟ لم تكن متيقنة من ذلك تمامًا، ولكن من المؤكد أنه ثمة شيئًا لم تستطع فهمه تمامًا. كانت على يقين من ذلك. إنه يخفي عنها شيئًا ما.

لم تستطع أن تبعد عينيها عن ذلك البناء الفاخر. ثمة حركة في المنزل، وكأن أحدًا ما يتجول فيه. هل هنالك ضيف يا ترى؟ كم كانت الستائر فاخرة ومرتبة. من

الواضح أن هاندان امرأة نظيفة ودقيقة. تم تزجيج إحدى الشرفات، وصُفَّتْ على حوافها نباتات خضراء كبيرة. لو كان كنان في البيت لكانت سيارته المرسيدس الكحلية موجودة أمام الباب، ولكنها لم تكن. ماذا كانت تفعل هذه المرأة وحدها في المنزل مع كل هذه الأضواء المنارة يا ترى؟ حتى عند النظر من بعيد كان يتضح أن المنزل الذي يقيمان فيه واسع جدًا.

تتمعن بكل سيارة تمر من الشارع، وتحدق بكل شخص يدخل إلى المبنى أو يخرج منه. لم يحدث أي شيء غير طبيعي حتى الآن. أخرجت علبة سجائرها من حقيبتها وأشعلت سيجارة. شعرت بالبرد قليلًا لأن النافذة كانت مفتوحة، ولكنها كانت متوترة وغاضبة لدرجة أنها لم تكن مدركة إحساسها بالبرد. سحبت سحبة طويلة من السيجارة، ونفختها إلى الخارج من النافذة.

في تلك الأثناء اقتربت سيارة داكنة اللون نحو باب البناء وتوقفت. أمعنت النظر. نعم، إنه هو؛ إسماعيل سائق كنان.. مدت رأسها قليلًا من السيارة لترى ما إذا كانت مخطئة. لا، لم تكن مخطئة. لم يطفئ إسماعيل محرك السيارة، وكان يقف هناك كما لو أنه ينتظر نزول شخص ما. بدت السيارة المرسيدس الكحلية في ظلام الليل أكثر هيبة. كما كانت الأضواء الحمراء الخلفية متلألئة. ماذا كان يحدث يا ترى؟ من الجيد أنها أطاعت الشيطان وأتت إلى هنا.

وسرعان ما التقطت حقيبتها ونزلت من السيارة. رمت سيجارتها على الأرض وسحقتها بكندرتها جيدًا، ثم حنت رأسها قليلًا ومشت بذلك الاتجاه. فمن ناحية هي لم تكن تريد أن تُرى، ومن ناحية أخرى تخاف أن يضيع عن عينيها أي لحظة مما سيحدث. من الجيد أن الشارع كان مظلمًا. اتجهت مباشرة نحو شجرة الدلب الموجودة على الرصيف مقابل المنزل، واختبأت خلفها، وبدأت بصب كامل انتباهها على مراقبة من سيخرج من باب البناء.

وأخيرًا، أنير ضوء البناء، وظهر ظل يقترب نحو الباب. نعم، كنان هو من كان على الباب. كم بدا أنيقًا... ومن تحت معطفه الأسود الكشمير، لاحظت فادي فورًا

ياقة البدلة الرسمية وربطة العنق الحمراء. هذا يعني أنه كذب عليها، وتهرب منها بقوله إنه في موقع البناء، والحقيقة أنه ركض إلى المنزل، إلى جانب زوجته الحبيبة. وكيف قال إنه تكلم معها، وأنهما يتطلقان؟ هل كان كل ما قاله كذبًا ووهمًا؟

تصلّبت يداها ورجلاها بسبب غضبها، وكأن دمها قد تجمد، بقيت عيناها على كنان، وظلّت كما هي وراء الشجرة. أين يذهب هذا الرجل في هذه الساعة من المساء وهو يرتدي البدلة؟ هذا يعني أن إسماعيل يعرف كل شيء. قال له سيده "تعال واصحبني". من يدري ماذا يعرف هذا الرجل الأبله ولا يخبرها؟ ومع ذلك، كان إسماعيل يُعَدّ صديقها. وعلى الرغم من كل شيء، ففي السنوات الأولى لشبابهما عملا معًا في الملهى، وتشاركا مشاكلهما وهمومهما. ورغم كل السنين التي مرت لم تتكبر عليه، بل عاملته دائمًا كصديق قديم. أي أنها عرفت إسماعيل كصديق..

لم يكن كنان في عجلة من أمره لركوب السيارة، وكان ينظر خلفه باستمرار كما لو أنه ينتظر شخصًا ما. وبعد فترة وجيزة ظهرت هاندان أمام الباب. كانت ترتدي فستانًا طويلًا أسود. كان فروه مفتوحًا، والعقد الذي ارتدته حول رقبتها يلمع بشكل ساطع رغم ظلام الليل، تسير ببطء نحو السيارة وهي تمسك حواف ثوبها. وما هذا أيضًا؟ اقترب كنان نحو هاندان ببطء، وشابك ذراعه بذراعها. كانا يتحادثان ضاحكَين. أم أنهما كانا يتلاطفان يا ترى؟ كانت هاندان تقول شيئًا ما، وكنان ينحني نحوها بشكل خفيف مستمعًا. كم كانا يبدوان سعيدين من بعيد. لم يبدوا كزوجين قد قررا الانفصال نهائيًا.

لم تكن فادي مصدقة لما رأته، كان رأسها يدور، وعيناها تظلمان. لولا شجرة الدلب هذه، لربما انهارت في مكانها. هذا يعني أن كل شيء كان كذبًا!

قفز إسماعيل من مكانه، وبينما حنى نفسه حتى الأرض وهو على وشك أن يفتح باب السيارة لهاندان لكي تركب، قفزت فادي مثل سهم انطلق من قوسه. وقبل أن تجد هاندان خانم فرصة لركوب السيارة، انتصبت فادي أمامهم. وأمام بناء

(دنيز)، ثمة مشهد كان يُعتقد أنه يحدث فقط في الأفلام على وشك البدء. أربعة أشخاص يتبادلون النظرات بدهشة وحيرة، وأحدهم لم يحرك ساكنًا. وكأن الزمن قد توقف، وكأن المُخرج قد قال "ستوب" غير راغب باستمرار الفيلم.

أول من كسر هذا الصمت كان كنان. وأثناء ذلك، قام بسرعة بسحب اليد التي كانت تمسك بذراع هاندان حتى لا تسقط، كما لو أن النار قد لامستها. كان وجهه شاحبًا، ولم يكن يعرف ماذا يفعل أو ماذا يقول ولمن، ولذلك أصدر أصواتًا غريبة كأنه يئن. وكأن إسماعيل شعر بما سيحدث، فقد خطا خطوة أو اثنتين مبتعدًا عن السيارة، محدّقًا فيهم. تفاجأت هاندان بما حدث. من كانت هذه المرأة، ولماذا تنظر إليهما بغضب شديد؟

كانت فادي قد فقدت تمامًا السيطرة على نفسها.. كانت تنتظر أن يتساقط الغضب والكراهية اللذان تراكما في داخلها منذ سنوات، مثل الشلال. خرجت تصرفاتها عن السيطرة تمامًا، لم تكن هي أيضًا تعرف ماذا تفعل وماذا تقول. سحبت الحقيبة الكبيرة من كتفها بهدوء وضربت إسماعيل. رن في الشارع صوت إسماعيل وهو يقول "آه، يا راسي!" أتى الدور على كنان. ومن ارتباكه، قام كنان بجرّ يديه إلى رأسه، ثم بدأت فادي بضربه دون أي رحمة. ودون الاهتمام بمكان نزول الضربات، كانت تضرب الرجل بحقيبتها بكل قوتها، وبشكل متواصل. كانت الحقيبة كبيرة وممتلئة جدًا كالعادة، وفوق ذلك كان يوجد في مقدمة الحقيبة مشبك معدني ضخم.

في البداية، راقبت هاندان ذلك بدهشة، وفي تلك الأثناء، وحتى لا تأكل نصيبها من الضربات، حمت وجهها بيدَيها وتراجعت خطوة أو خطوتين إلى الوراء، مع ذلك كان من الواضح أنها لو بقيت هناك قليلًا لأكلت نصيبها من الضرب. وجب عليها الابتعاد عن ذلك المكان بأسرع وقت ممكن. أطلقت صرخة صغيرة وركضت نحو البناء. والآن لم تعد هي الوحيدة التي كانت تصرخ. كانت فادي أيضًا تصرخ كلما ضربت كنان، وكان كنان بدوره، يطلب النجدة لاهثًا ممن يحيط

حوله. أما إسماعيل فقد رمى بنفسه وسط الشارع قائلًا "لا تفعلن، توقفن!" غير متدخل في الحادثة سوى بالصراخ من بعيد.

فُتحت جميع نوافذ بناء (دنيز)، ومطّ الناس أنفسهم حتى الخصر، قافزين فوق بعضهم، محاولين رؤية الحادثة. كانوا يصرخون "ياهووه، توقفوا، ماذا يحدث هناك، توقفي يا، ستقتلين الرجل!" أو "ألا يوجد شرطة هنا!"

كان الجميع يسمعون تلك الصرخات باستثناء فادي. فبالنسبة لها كان الزمن متوقفًا، وكل شيء قد تجمد. كانت تحاول بكل جسدها إخراج الحقد والغضب، الذي طفح دماغها بهما. لم تكن في وضع يسمح لها بأن تفكر بما تفعله، وما سبب فعلتها، وأنها من الممكن أن تقتل كنان إن استمرت على هذه الحال. فعقلها قد هجرها منذ زمن. ثمة صوت بداخلها يقول "اضربي، اضربي أكثر!" وهي بدورها كانت تطيع ذلك الصوت. هذا كل شيء...

دخلت هانداn إلى البناء، وفي تلك الأثناء، قفز البواب (جمال أفندي) إلى الشارع مرتديًا سترة قديمة بنية اللون فوق بيجامته مُغلقًا أزرارها. هذه المرأة، هذه الهزيلة، كيف يمكن لها أن تضرب كنان بيك وفي وسط الشارع أيضًا، وبالطريقة التي تريدها؟ حسنًا، ولكن لماذا يسمح لقليلة الأدب هذه أن تضربه، ولا يمد يده عليها؟ قال في نفسه "لو كنت مكانه، أسحب الحقيبة من يدها وألصقها برأسها. ثم أفقعها كفين بظهر يدي، فتنتهي القصة. إن كان الأمر يتعلق بفضحي أمام الجيران، فإنني حتمًا ألقّنها درسًا."

وجب على زوجته (أمينة) أن ترى هذا المشهد الآن. فكنان لم يقصر مع زوجها جمال نهائيًا. لربما قالت "أوووه! سلمت يدا المرأة." ولكن جمال لا يعطي أمينة مجالًا. أليست امرأة؟ لو أعطاها مجالًا قليلًا لركبته.

كانت هانداn قد أغلقت الباب الحديدي للبناء بإحكام، مراقبة ما يحدث من خلف الزجاج. كانت تتساءل لماذا يتعرض زوجها للضرب من امرأة كهذه، ولا يصدر منه أي صوت على الإطلاق. كانت تقول في نفسها "آه من عَملات كنان". من

يدري ما فعله مجددًا، ربما عرّف المرأة على نفسه بأنه أعزب، وخدع المسكينة. كانت تأكل نفسها بسبب غضبها من زوجها. من يدري مع من خانها. لقد مر وقت طويل على عدم سؤالها عن أي شيء، ولكن رغم ذلك، كانت منزعجة من كونها شاهدة على تعرض زوجها للضرب من امرأة أخرى. كانت شابة جدًا، ولكن ما شاء الله قوية جدًا... وفي النهاية استطاع كنان أن يستحوذ على الحقيبة التي بيدها، ولكن المرأة هذه المرة صارت تهاجمه بيدَيها، وتخدش وجه الرجل، وأحيانًا تنسحب للوراء وتضربه بظهر يدها. كانت الصفعات قوية لدرجة أن صداها تردد في الشارع.

لم تستطع هاندان الثبات في مكانها، فواربت باب البناء وصرخت على إسماعيل بصوت مروّع:

- إسماعيل، جمال، لماذا تقفون هكذا، ستقتل كنان! اركضوا، لحّقوه! النجدة، إنهم يقتلون الرجل، ألا يوجد من يساعد!

هذا الصوت، الذي تردد بين طرفي الشارع وسط الظلام، صفعهم جميعًا، وتجمدت فادي مكانها وقبضتها في الهواء مثل الملاكم. نظرت حولها كما لو أنها استيقظت لتوها من نوم عميق، ومن جهة أخرى كانت تحاول أن تتوازن بالتأرجح من جانب إلى آخر حتى لا تسقط. عندما توقفت، توقف جمال وإسماعيل، اللذان كانا يستعدان لفعل شيء ما، عن الحركة مرة أخرى.

فتح كنان فمه قليلًا وكأنه يريد أن يضحك، ولكنه فزع عندما تلطخت يداه بدماء وجهه، ونُصبت عيناه المفتوحتين من الدهشة على فادي. كانت فادي أيضًا تنظر إلى وجه كنان الملطخ بالدماء، ولكن لم يكن ثمة أي أثر للندم أو الرحمة في تلك النظرات. ثم أدارت رأسها إلى الاتجاه الذي أتى منه الصوت. اصطدمت عيناها بعيني هاندان المرتجفة من الرعب على باب البناء. ولفترة وجيزة، حدقت الاثنتان ببعضهما دون حراك. ثم انحنت فادي والتقطت حقيبتها التي وقعت على الأرض، وابتعدت متثاقلة.

(6)

وكأن كل شيء حدث في لحظة، فعندما ابتعدت فادي لم يعرف أحد ما يجب فعله. كانت هانـدان واقفة علـى بـاب البنـاء المـوارب، تنظر نحـو المـرأة المبتعـدة. عندما التقت نظراتهما لـم تستطع التعرف إليها، وشعرت بشـيء أوجـع قلبهـا. كانـت تريد أن تصب غضبها على تلك المرأة، وأن تتفوه بكلمـات سيئة عنهـا، ولكنهـا لـم تستطع فعل ذلك بأي شكل. يا لنظرات المرأة! مـاذا أرادت أن تقـول، مـاذا شـعرت هي الأخرى يا ترى؟

هل كان عدم مجيء كنان إلى منزله طوال هـذه السـنوات بسـبب هـذه المـرأة؟ تسللت منها تنهيدة مرهفة وطويلة. أغلقت عينيها لوهلة، كان ثمة ألف شعور يـدور فيها. بدا الأمر كما لو أن أشياء مـا ثمينـة كانـت محتفظـة بهـا لسـنوات في قلبهـا، ثـم، وفجأة تساقطت واحدة تلو الأخرى، وانكسـرت، وتحولت إلى شظايا.

فتحت عينيها مرة أخرى؛ سالت دمعتان على حافتي أنفها. بينما كانت تحـاول استجاع نفسها برعشة خفيفة، لاحظت بأنهـا تخـدرت وبـردت بسـبب وقوفهـا هنـاك وارتباكها وانفعالها. وجهت نظرها نحـو زوجهـا، كـان وجـه الرجـل غارقًـا بالـدماء. ماذا لو تضرر دماغه بسبب ما تلقاه من ضربات؟ كان عليه أن يتوجه إلى المستشفى فورًا. جمعت ثوبهـا، وبينما كانت على وشك الركض نحو كنان، تجمدت وكأن يـدًا قد أوقفتها. وما عملُها في المستشفى بجانبه! وما عملها مـع رجـل أكـل مـا أكلـه مـن ضربات وسط الشارع بيد امرأة أخرى! سائقه معه، سيفعل كـل مـا يلـزم. اسـتدارت فورًا وركضت إلى الداخل.

بداية، قام جمال أفندي، وهو مرتبك، بالاتجاه نحـو كنـان بيـك، ولكـن عندما اسـتدارت المـرأة فجـأة وتركـت السـاحة، لـم يـدرِ مـا يفعلـه، وكـان يجـول نظـره في

الأرجاء بعيون حائرة. عندما رأى الوجوه الفضولية، التي تراقب من النوافذ، رفع رأسه عاليًا وهز كتفيه، وفتح كفيه على الطرفين، وحدّب شفتيه كأنه يقول "وأنا أيضًا لا أعرف".

يعمل في هذا البناء منذ سنوات. أولاده ولدوا هنا، ومضى وقت طويل على تزويج ابنتيه الاثنتين. إنه يعرف صفات الجميع غير المعروفة، سواء كانت جيدة أو سيئة، ولا يخبر أحدًا بأخطاء الآخرين، ولكن نظرًا لأنه لا يستطيع كتمان كل شيء بداخله، فإنه عندما يجلس مع الأصدقاء والأقارب، يتحدثون عن ذلك قليلًا وهم يتضاحكون. كان ذلك الجزء الأكثر إمتاعًا من اليوم.. في أوقات كهذه لا يريد للأطفال أن يسمعوا شيئًا مما يحكونه، وينبه الجميع لذلك. ولكن فعله لذلك يزيد من اهتمام الأطفال، وإن لم يكونوا يريدون الاستماع، فمن شدة الفضول يتدافعون عند الباب الموارب ضاحكين محاولين على الأقل فهم جزء من النميمة التي كانت تحدث.

كان كنان يُعتبر مادة جيدة من أجل النميمة. على العموم، فإن سلوك الرجل، وملابسه، والفوقية التي ينظر بها إلى الناس، وحتى نبرة صوته، كانت تجذب انتباه الجميع، رجالًا ونساءً. وخاصة (سهيلة خانم) التي تسكن في الشقة رقم عشرة، فهي لولاء الحياء لوقعت في حضنه. ولأن زوجها يسافر باستمرار، فهي لا تعرف كيف تُلهي نفسها، فلا تبتعد عن النوافذ، وعندما يعود كنان بيك إلى المنزل، ولو نادرًا، تحاول إيجاد حجة ما وتُظهر نفسها أمام هذا الرجل بالتأكيد. كما كانت ابنة العقيد المتقاعد التي تسكن في الشقة رقم ثلاثة شغوفة للتحدث معه. كانت صغيرة في السن، ولكن هذا الأمر لا يحدّه عمر.

ليست عيون النساء فقط، بل عيون الرجال أيضًا، كانت على كنان بيك باستمرار. ولكنهم، وبعكس النساء، كانوا يبذلون قصارى جهدهم كيلا يصادفوه. كانت غيرتهم منه واضحة وضوح الشمس. في الحقيقة لم يكن كنان بيك يأتي إلى البيت كثيرًا. وإن أتى فلا ينظر يمنة أو يسرة، ويدخل مسرعًا وحقيبته في يده. وفي

أغلب الأوقات لا ينتظر المصعد، ويصعد أدراج الطابق الرابع متجاوزًا كل درجتين أو ثلاث معًا كالفتية. وإلى حد الآن، لم يرَ أي شيء بعينيه، ولكن الإشاعات انتشرت في البناء.

كان الجميع يقولون عنه أشياء مختلفة. وعلى الرغم من ذلك، كان هذا البناء بناء أغنياء. وفي الواقع أنقرة التي نتحدث عنها هي مكان صغير. والجميع في الأماكن الفاخرة يعرفون بعضهم البعض. كانت خطيئته برقبتهم، فكل شخص يراهن على أنه يعيش علاقات مع نساء أخريات، وأن سبب ندرة مجيئه إلى البيت هنّ العشيقات. وخاصة نساء البناء، فكن يبدين اهتمامًا كبيرًا لهذا الموضوع، ولا يتوانين عن وكز هانداان خانم التي لا تنضم إليهن إلا نادرًا. وهكذا، فقد كان هذا الرجل مثالًا سيئًا لأزواجهن. وفي الواقع، على الرغم من كونهن لا يبتعدن عن النوافذ كلما جاء ويغضبن منه، إلا أنهن في الوقت نفسه لا يتوانين عن النظر إليه بشغف.

كل شيء مفهوم لهنّ، عدا هانداان خانم التي لم يستطعن أن يستسغنها. كانت امرأة نظيفة، ونزيهة، وجميلة، وشريفة.. تتحدث قليلًا، ولا تتراكض من مكان لآخر مثل بقية النساء في البناء، ولا تلقي اهتمامًا لمشكلة أي أحد. ورغم كل شيء فهي لم تكن تتشاجر مع زوجها، ولا يصدر من منزلهما ضجيج أو صخب. إن كان ما يُقال صحيحًا، وبما أنها قد رأت ما حدث الليلة بأم عينها، فهل هذه المرأة مصنوعة من الحجر كيلا يصدر عنها أي صوت بشأن ما حدث؟

كان جمال أفندي يقول بينه وبين نفسه "عقبى للأصدقاء". أبقى نفسه بعيدًا عن هذه الأمور، يلهث وراء تأمين نفقة بيته وعياله، ولكنه في الوقت نفسه لم يستطع إلا أن يحسد كنان بيك. فكيف كان العيش هكذا يا ترى؟ ورغم أنه كان قد أهمل واجباته الدينية حتى هذا الوقت، ولكنه بدأ بالصلاة في السنة الماضية. لم يكن يُعتبر شخصًا سيئًا، ولكن لا أحد يعلم كيف تبدو الأشياء من وجهة نظر الله. فلو أن الله رأى ذلك مناسبًا وقبِله في الجنة، لكان أراد أن يصير مثل كنان بيك ويعيش ما عاشه. لو لم

يحدث هذا هنا في الدنيا، لربما يعيش ذلك في الآخرة مع الحوريات، ولربما تم توظيف كنان بيك لخدمته أيضًا. فهو لن يستطيع المواظبة على زعامة مملكتين في كلا الجبهتين..

في هذه اللحظة، اقترب جمال أفندي من كنان بيك، شبك يديه أمامه، وحنى رأسه، وسأله بهدوء "عليكم العافية يا سيدي، هل تأمرون بشيء؟" وفي نفس اللحظة اقترب إسماعيل من كنان، كان يتفحص وجهه بدقة. بدا وجهه شديد الحمرة تحت ضوء الشارع. كان كنان مرتبكًا تمامًا. أبعد إسماعيل بيده، ولم ينظر إلى وجه جمال أفندي، وكانت عيناه تبحث عن زوجته هاندان، ولكنه عندما رآها تبتعد بسرعة، تجمد مكانه.

ماذا يحدث لهاته النسوة؟ بغض النظر عن فادي، لماذا لم تكن تهتم به زوجته؟ زاد ارتباكه أكثر عندما جر يده إلى وجهه ورأى الدماء. كان وجهه مدمى، أليس كذلك؟ أم أنه كان يحتضر يا ترى؟ حسنًا لنقل إنه يحتضر، هل يعني أن المرأتين؛ امرأتيه، تركتاه هكذا والتفتتا وراءهن؟ وكيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث؟ وهل هذا وقت العراك، والغيرة، والغضب؟ ماذا لو كانت إصابته بليغة، وأنه سرعان ما سينهار على الأرض؟ حتى إن يديه وقدميه بدأت بالارتجاف، ورأسه بالدوران. فتح يديه قليلًا على كلا الجانبين وراح يتمايل يمنة ويسرة بشكل خفيف. ثم صدر صوت منه كالعاصفة قائلًا "إسماعيل.." كان إسماعيل يقف أمامه بالفعل، كان ينتظر أن يمسك به من ذراعه بأسرع وقت ممكن ويضعه في السيارة. وكما وضعه في السيارة على عجل، فقد ابتعد بأقصى سرعة عن البناء.

كان سائقو أرباب العمل الآخرون الذين يترددون إلى الملهى، عادة ما يتحادثون، ويغلب على أحاديثهم أرباب عملهم. كان الجميع يستمتعون بذلك الاهتمام الذي تبديه النساء لكنان بيك. والحقيقة أن الباقين أيضًا ليسوا أقل منه في هذا الصدد، ولكن سلوك كنان بيك كان مميزًا. حتى إن ثمة من كان يقول "لو كنت امرأة، لكنت فعلت المستحيل حتى أذُوقه ولو مرة واحدة"، وكانوا يضحكون فيما بينهم.

وعندما يحدث ذلك، يبتعد إسماعيل متوترًا كما لو أن له مصلحة في ذلك، ويفعل ما بوسعه ليحظى بإعجاب رب عمله. كان يهتم بلباسه أكثر من السائقين الآخرين، ويحلق لحيته كل صباح، ويبدل قميصه كل يوم، ويستخدم مزيل العرق. وكان رب عمله يعطيه الملابس التي لا يستخدمها. مع أن مقاسها في الحقيقة كبير عليه دائمًا، ولكن الخياط (عمر) ماهر في هذا الشأن. يصنّع الملابس بحيث تناسب إسماعيل تمامًا. كلها "ماركات". آه لو تتناسب نمرة الحذاء مع قدميه لكان ذلك جيدًا جدًا، ولكن للأسف ليست كذلك. ولذلك كان يعطي أحذيته لسائق سميح بيك (كاظم الجمل).

وبغض النظر عن كل شيء، فإن رب العمل أخطأ بحق فادي. فهي واحدة منهم. أقليلة هي موائد الطعام التي تشاركوا فيها؟ أقليل ما تبادلوه من دردشات؟ كانت امرأة شريفة، بحالها، تعرف قيمة القرش الذي تجنيه. مرت عليها أيام كانت فيها جائعة. وعندما بدأت العمل في هذا الملهى، حاول جميع من في الملهى من رجال إبعادها عن الطريق دون أن يُشعروا أحدًا. ولكنها لم تلتفت لأي منهم، وعملت بجد، ثم بعد فترة وجيزة تركوها بحالها. كانت أختَ رجالٍ. يوثَق بكلامها. تعرف ما تفعله وأين. آه لو لم يحدث أي من توصيلات السكن تلك، لربما لم تقع المسكينة في حضن رب العمل نهائيًا. منذ ذلك الوقت أدرك إسماعيل بأن هذا سيحدث. وفادي لم تستشِره في شيء، وبهذا الشكل آل الأمر إلى ما آل إليه الآن.

في بعض الأحيان كان يلوم نفسه على ذلك. وفي الواقع هو لا يستطيع الغدر برب عمله، أو يخبر أي أحد عما كسره من بندق. قاعدة ذلك العمل كانت هكذا، ولكن رغم ذلك، عندما يكون الأمر متعلقًا بفادي، لربما كان يستطيع فعل شيء، أو تحذيرها بأي وسيلة. ولكن بعد مرور كل تلك السنوات، لم يكن من طبع شخص مثل فادي الوثوق نهائيًا بهذا الرجل مرة أخرى. كانت فتاة عاقلة، ومجتهدة جدًا. وصلت ليلها بنهارها حتى صارت على ما هي عليه، لكنها لم تستخدم عقلها في هذا الأمر. واأسفاه على الفتاة... "أيتها الغبية، حسنًا، كنتِ في السابق صغيرة السن، بريئة،

نظيفة، والأهم من ذلك كله فقيرة، ومسكينة. فماذا عنك الآن! يعمل كل هذا العدد من الرجال تحت أمرك. كنتِ فتاة عادية ونحيلة، فعلتِ كذا وكذا فتمكنت من أن تصيري جميلة. ماذا تفعلين مع كنان بيك إلى الآن؟ ماذا كنت تتأملين يا ابنتي؟ سيطلّق الرجل زوجته، ويأخذك، أليس كذلك؟ هل أكلت بعقلك خبزًا مع الجبن؟ عقلك الذي يستوعب كل شيء، لماذا لم يدرك ذلك؟

كان يقود السيارة في شوارع أنقرة مسرعًا كالريح. وجه رب العمل مستمر بالنزف. ثمة جرح خطير على الأرجح. كان يحتاج لأن يُنقل إلى المستشفى بأسرع وقت ممكن. وبنفس الوقت اندهش من هاندان خانم هذه. كان زوجها على وشك الموت، وأدارت ظهرها وصعدت إلى منزلها. في الواقع كانت المرأة محقة، ولكنها لم تكن لتفعل ذلك في السابق. مهما حدث فإنها لا تتخلى عن زوجها، ولا تخرج من فمها أي كلمة سيئة بحقه. والآن، ومرة واحدة كل أربعين سنة، كانت متجهة إلى عرس مع زوجها. وهذا أيضًا لم يكن من نصيب المرأة. ومع ذلك كانت امرأة صابرة. لقد قامت امرأة غريبة بمهاجمة زوجها، وهي بدورها دافعت عنه من جديد، وأعادت الجميع إلى رشدهم بصراخها. حتى لو لم يحدث شيء بينهما، فما عمل هذه المرأة هنا في هذا المساء؟ هي، على أية حال، ليست غبية لدرجة ألا تدرك ما حدث!

عندما وصلا المستشفى، ترجّل من السيارة بسرعة، فتح الباب، وأمسك رب عمله من ذراعه وأنزله. دخلا سوية. جاء راكضًا رجل ضخم يرتدي ثوبًا أزرق، ثم أجلس كنان على الكرسي الذي أحضره معه. سأل الرجل قائلًا "عليكم العافية، هل هو حادث مرور؟" وكيف لم يخطر بباله ذلك؟ نعم إنه حادث مرور! أومأ برأسه موافقًا الرجل.

(7)

كان كنان مستلقيًا في تلك الغرفة الصغيرة والمصل في ذراعه. خيط في رأسه خمس قطب، وبعد ذلك فورًا، وبإصرار من كنان، عملوا تخطيطًا لقلبه. قال الأطباء بأنه لا يوجد أي شيء في قلبه. هل كان يعاني من نزيف في الدماغ يا ترى؟ هل كانت تلك المتوحشة فادي هي من سوف يرسله إلى القبر في النهاية؟ بالطبع، فغالبًا الدوار والغثيان من أعراض النزيف الدماغي. فبينما كان يموت هنا، لم يكن الأطباء مهتمين به أبدًا. لماذا لم يتحركوا على الفور، ولم يفحصوا دماغه؟ صرخ قائلًا "إنني أموت، الحقوني!"

وبينما أخذوه إلى الغرفة ليعملوا له رنينًا مغناطيسيًا، كان شبه نائم. كان يرى أنه يدخل داخل جهاز بارد، وسطحه مغلق، ولكنه لم يكن يستطيع الصراخ. ما كان هذا؟ أم أنهم كانوا يدفنونه قبل أن يموت؟ كان يقرأ الأدعية في داخله، ويغلق عينيه في محاولة لنسيان أنه موجود في مكان أشبه بالقبر، ولكنه لم ينجح بأي وسيلة. ومن شدة خوفه كان يتحرك قليلًا. وكلما تحرك يأتي أحد إليه ويقول له "يا سيدي، لا تتحركوا من فضلكم. سنعيد الكرة من جديد الآن. كلما فعلتم ذلك، استغرقت العملية وقتًا أطول. أرجوكم..." كان المكان الذي يستلقي فيه باردًا كالثلج، ولكنه مع ذلك كان يتصبب عرقًا.

لم يكن يريد أن يموت، فما يزال أمامه الكثير ليعيشه. كان يهاب الموت! فلو مات لتعفنت فادي في السجون، ستتحطم لأنها قتلته، ولن تسامح نفسها طيلة عمرها، وستهذي بكنان كل يوم. كان واثقًا من ذلك. حتى هاندان كانت ستفعل الشيء نفسه. ستغضب من نفسها كثيرًا لأنها لم تكن بجانب زوجها في تلك الليلة. سيلقى كل شخص عقابه الذي يستحقه، ولكن وعلى الرغم من ذلك فإن كنان لم يكن يريد الموت. قال لنفسه "يا إلهي، امنحني وقتًا أكثر. امنحني وقتًا لأعاقب تلك النساء على ما فعلنه بي قبل أن تحاسبهن أنت. دعني أُرِهنَّ إن الله حق."

أعادوه الآن إلى الغرفة التي كان فيها قبل قليل. ومجددًا هو وحيد في الغرفة. لم يكن يحب الوحدة أبدًا. على الأقل، لو كانت والدته على قيد الحياة، فهل كان سيبقى وحيدًا في زوايا المستشفى كما هي حاله الآن؟

وبينما كان يفكر بذلك، وهو نصف صاح ونصف نائم، إذ أتى إليه طبيبان. انتصبا فوق رأسه وفي أيديهما أوراق. ابتسما له بهدوء. هذان الطبيبان لا يعرفان شيئًا عن حالته. طبعًا، فمزاجهما جيد. لم يكن هما مَن يحتضران، بل هو. كان أحدهما يقول "ليس لديكم أي شيء يا كنان بيك، يمكنكم الخروج". فتح عينيه منفعلًا. سأل شيئًا من قبيل: "هل هذا صحيح؟" أو ما إلى ذلك، ثم كرر ما سأله مرة أخرى، ولكن الطبيبين كانا قد خرجا منذ زمن بعد أن قالا ما أرادا قوله. حتى إن ممرضة عجوزًا بدينة كانت قد أزالت المصل من ذراعه. لم يكن يحب النساء البدينات نهائيًا.

بعد قليل، أتى إليه إسماعيل، الذي كان ينتظر أمام الباب. ساعده على ارتداء ملابسه، ثم أسنده من ذراعه ومضى به إلى الخارج. نظر إلى ساعته، كانت تقترب من الحادية عشرة. يا الله، لم يستطع وزوجته الذهاب لحفل الزفاف. ليس مهمًا، سيقول بأنه تعرض لحادث مرور أثناء قدومه، وقضى الليلة بطولها في المستشفى، ويغلق الموضوع. وحتى إن أقسم فلن يتسبب ذلك بمتاعب له، لأنه بالفعل قد قضى الليلة في المستشفى. ثم خطر بباله بأن لا شيء حدث لهاندان أو إسماعيل أو السيارة. ولذلك كان عليه إيجاد كذبة أخرى، وقد وجدها بالفعل. سيكون مقنعًا إذا قال إنه وبينما كان يركب السيارة انزلقت قدمه ووقع. وبذلك سيُفهم سبب الجروح الظاهرة على وجهه. والآن وجب عليه أن ينبه إسماعيل لذلك.

إسماعيل لم يكن غريبًا عن هذه الأمور. كان، ولسنوات، شاهدًا على الكثير، وهو مع ذلك عرف كيف يغلق فمه جيدًا. أليس ذلك واحدًا من الأسباب التي تجعل كنان يحافظ عليه؟ ولكن صحيح، أين كان إسماعيل عندما كانت فادي تضربه دون رحمة؟ ولماذا لم ينقذ رب عمله من بين يدي تلك المرأة؟

- إسماعيل!

- تفضلوا يا سيدي.
- لماذا لم تنقذني من بين يدي تلك المرأة؟ ووقفت تتفرج كالأبله؟
- يا سيدي.. عندما لم ترفعوا يدكم عليها، لم أجرؤ على التدخل.
- ويقول لم يجرؤ.. جبان، اخجل من مظهرك يا!

عندما سمع إسماعيل الجملة الأخيرة، ضحك قليلًا دون إرادته. من الجيد أن رب عمله كان يجلس في الخلف والسيارة مظلمة، فلم يلاحظ ضحكته. يا له من رجل غريب، يتلقى ضربًا من امرأة مثل فادي حتى يشبع، ثم يقول له اخجل من مظهرك. قال له في سره: "قبل أن تقول لي ذلك، انظر إلى مظهرك أنت أولًا".

والحال أن ذات الشيء كان يدور في رأس كنان في تلك اللحظة. قال للرجل "اخجل من مظهرك" ولكن إن كان الأمر في المظهر يجب عليه أن ينظر إلى مظهره هو أولًا.

- على أية حال، قل لمن يسأل غدًا، إنني وقعت على وجهي.
- على رأسي يا سيدي.
- لا تنس أن تضيف أننا قضينا الليلة في المستشفى.

كمش كتفيه وغاص في معطفه، ومن ناحية أخرى كان غارقًا في التفكير. كانا متجهَين نحو المنزل. حقًا، ألم ينشغل بال هاندان عليه؟ عندما لم تتصل به كانت تتصل بإسماعيل. أما فادي فلن تتصل في ظل هذا الوضع. لم يعرف أصدقاؤه أيضًا شيئًا عما حدث.

- ألم تتصل هاندان؟
- لا يا سيدي.
- أحقًا لم تتصل؟
- لم تتصل يا سيدي.
- ألم يتصل أحد آخر؟
- اتصلت زوجتي يا سيدي.

قال كنان:

- لا تجعلني أبدأ بزوجتك.

من مذكرات طبيبة

إنني الآن في عيادتي المطلة على شارع (المشروطية). أستمر بالاستمتاع ببهجة عمر الثلاثين. كنت قد خرجت لتوي من مصفف الشعر. أحب بشكل خاص العبث بشعري وتجربة الألوان الفاتحة والداكنة، المتناسقة مع بعضها البعض. اليوم صبغت شعري بلون جديد تمامًا؛ إنه مزيج من النحاسي، والأحمر، والبني. وأثناء صعودي إلى عيادتي في المصعد، ألقيت نظرة أخرى على نفسي في المرآة. كان جميلًا ويناسبني. لنرى ما سيقوله (آيدن)؟

تفتح سكرتيرتي (تونا) الباب. اليوم هي أيضًا أنيقة جدًا. لن يتوقع أحد بأن عمرها أربعون سنة، بجسمها الممتلئ قليلًا، وبشرتها النضرة، وعينيها المشعتين بألف لون ولون.

تنظر إلى شعري وهي مفعمة بالنشاط كعادتها، وتشير إلى مدى إعجابها به. ثمة أناس ينتظرون في القاعة. مما يعني أنني تأخرت قليلًا. وبسرعة، نعبر معًا إلى غرفتي الخاصة. العيادة كبيرة جدًا بالمقارنة مع غرفتي الصغيرة. هي صغيرة ولكنها مشرقة وبهيجة.. على الأرض ثمة سجاد أحمر ذو زخارف متموجة. تجمعت الستائر الحمراء المخملية على حواف النوافذ. طاولة عتيقة، ومقابلها أريكتَان بينهما طاولة صغيرة، وطاولة المعاينة على الجانب، هذا كل شيء... وهناك طبعًا المصابيح التي أحبها كثيرًا. عند حلول المساء يكفي ضوء هذه المصابيح لإنارة الغرفة. لا أحب الإضاءة التي تُثبّت في السقف.

وهنا مرة أخرى، في غرفتي الصغيرة، الحمراء، اللطيفة، سأجلس وأستمع إلى مرضاي الذين سيدخلون على التوالي. سأفرح لفرحهم، وأحزن لحزنهم. وعند خروجهم من الغرفة سأحدق في وجوههم بدقة، باحثة عن ذرة أمل فيها. وإن تمكنت من رؤيتها، فهذا يعني أنني قمت بعملي بشكل صحيح.

وبينما كنت جالسة في مكاني أراجع قائمة المواعيد، تسألني تونا:

- حضرتكِ، إن كنتِ جاهزة، هل أنادي المريضة الأولى؟
- طبعًا يا تونا. إنها جديدة في الغالب. لم أستطع التعرف إلى اسمها.
- نعم، إنها المرة الأولى التي تأتي فيها إلينا. صحبتها (غولاي خانم). إنها صديقة مقربة لها.
- أيّ غولاي؟
- تلك المرأة ذات الشعر الخرنوبي، والوجه اللطيف، والمحترمة جدًا. لقد جاءت إلى حضرتكِ في الأسبوع الماضي. ما كان لقبها؟
- تذكرت، تذكرت.
- اتصلت بي قبل ساعة. يبدو أن حالة صديقتها مستعجلة. عندما قالت إنها ستصحبها الآن وتأتي، لم أستطع قول أي شيء. في الحقيقة، الآن هو موعد كمال بيك، ولكنني اتصلت به، سيأتي غدًا. لم أسأل حضرتكِ!
- لا مشكلة، إن وافق كمال بيك فلا مشكلة. هلّا أحضرتِ لنا الشاي؟
- بكل سرور طبعًا، لكن الفتاة الجديدة متجهمة جدًا. رغبتُ أن أقدم لهما الشاي في الصالة، ولكن الفتاة رفضت، وعندها لم تشرب غولاي أيضًا. عندما تدخل المريضة إليكِ، أشرب الشاي مع غولاي. النافذة مفتوحة، لا تبردي.
- لا، لا. لن أبرد. سأغلقها الآن على أية حال.

يا لتونا هذه، تهتم بي كأمي. وبينما أنهض من مكاني لأغلق النافذة، تخرج تونا على عجلة. وقبل أن أجلس في مكاني، تظهر غولاي أمام الباب كعادتها؛ ضاحة الوجه وأنيقة. ولكن ثمة قلقًا في عينيها، لم أستطع فهمه.

- أهلًا وسهلًا بكِ غولاي، اجلسي.
- اهلًا بحضرتكِ (غول سيران خانم). لم آتِ اليوم من أجل نفسي، ولكنني سأشعر بتحسن إن جلستُ قليلًا.

بعد أن تصافحني غولاي، تجلس على إحدى الأرائك الموجودة مقابلي، وتبدأ بالكلام فورًا.

- أحضرت لكِ صديقة لي. وضعها سيء جدًا! الشكر لتونا خانم التي لم تردّني خائبة. أخاف أن تنتحر أو ما شابه. فهي جربت ذلك من قبل. الأسبوع الماضي، أعطيتها من الأدوية التي أعطيتِني إياها.
- آآه يا غولاي، وكيف تفعلين ذلك؟
- إنها صديقتي المقربة. كانت مضطربة في الأيام الأخيرة. عندما قالت إنها لم تعد تستطيع النوم في الليل، أعطيتها بعضًا من الدواء. يبدو أنني أخطأت. أول أمس تناولت ثلاث أو أربع حبات منه. الحمد لله أنني لم أعطِها أكثر. فماذا لو تناولتها كلها؟ أنا أيضًا حزنت كثيرًا، ولكن ما حدث قد حدث.
- وما مشكلة صديقتك؟
- في الحقيقة إنها عاقلة ونشيطة. تحتل منصبًا رفيعًا في شركة كبيرة. لكنها، ومنذ مدة طويلة، تصاحب رجلًا متزوجًا.
- كم هي المدة؟
- أعتقد عشر سنوات. ماطلها الرجل لسنوات. نصحناها كثيرًا، ولكنها لم تُصغِ. حتى إننا في أحد الأيام الماضية، ذهبنا جميعًا للبحث عن فستان زفاف لها. أي منا لا يثق بهذا الرجل، ولكننا لم نستطع أن نشرح ذلك لفتوش. هذه المرة أصرت على أنه يقول الحقيقة، وبأنه سيتزوجها. في مساء ذلك اليوم، عندما رأت فتاتنا ذلك الرجل مع زوجته ذراعًا بذراع، اضطربت تمامًا. جلست في منزلها دون أكل أو شرب ثمانًا وأربعين ساعة. قلقوا عليها في مكان عملها. عندما وصلني الخبر، ذهبت إلى بيتها. قرعت الباب كثيرًا. وفي النهاية فتحت. إنني عندها منذ الصباح. أطعمتها وسقيتها قسرًا. ثم هرعتُ بها إليكِ. لم ترغب بالمجيء إلى هنا أيضًا. لا أعرف كيف ستتجاوز هذا الأمر...

كانت غولاي تهز رأسها يمنة ويسرة وهي تحكي هذه الأمور. من الواضح أنها كانت حزينة. مع أنها تعافت حديثًا من اكتئاب حاد. يا له من شيء جميل أن يكون للإنسان صديق مخلص مثلها!

إذن فالرجل أوصلها حد شراء فستان الزفاف. أي فستان هذا وهو لم يُطلّق زوجته بعد..

- تعلقت بهذا الرجل كثيرًا. الآن عندما تدخل سترينها أنتِ أيضًا، وضعها حرِج جدًا. الرجل زير نساء حقًا! لا يوجد فتاة لم تسلم منه، ولكن فتاتنا هذه بريئة. صدقته. وليس لها أي نية للعلاج.
- تريثي لنرى، فمجيئها إلى هنا ولو قسرًا هو علامة خير.
- ألم أخبركِ قبل ذلك بأن لدي صديقة، تدعمني كثيرًا..
- نعم!
- إنها هذه الفتاة. والآن أتى دوري. ليس لها عائلة. سأفعل ما بوسعي. ستتحسن هي أيضًا إن شاء الله. لأخرج الآن. فتوش هي أمانة عندكِ.
- حسنًا يا غولاي، إلى اللقاء.

تخرج غولاي من الغرفة بملامح حزينة. إذن فالرجل محترف في هذا المجال. من يرى ذلك من الخارج يستوعب الوضع فورًا، أما من يعيش ضمنه فلن يتمكن من إدراك ذلك. ليس شرطًا أن تكون غبيًا حتى تقع. المشاعر هي الغبية على أية حال، فهي لا تملك عقلًا.

وأثناء تفكيري بذلك اتجهت نحو الباب لاستقبال فتوش خانم. أراها في مقدمة الممر. فتاة رشيقة ونحيلة ترتدي ملابس سوداء. تتجه نحوي وهي تترنح قليلًا وكأنها ستنهار على الأرض في أية لحظة. كان شعرها مربوطًا بمشبك مطاطي من الخلف وكأنه لم يُسرّح نهائيًا. ولم تكن متبرجة نهائيًا. تحت عينيها هالات سوداء داكنة. وكأن وجهها انتفخ تمامًا بسبب البكاء. عندما اقتربت مني لم تكن تنظر في وجهي مطلقًا.

في البداية أردت أن أمد يدي مرحبة بها، ولكنني تراجعت فورًا. اعتقدت أنها لم تكن تفكر بمصافحتي نهائيًا. كانت حالتها توحي بأنها تريد أن تتراخى على الأريكة بأسرع وقت ممكن حتى لا تسقط أرضًا.

وعلى الفور تنحيت جانبًا، فاسحة طريقًا لها. مرت بجانبي كالشبح، وتهالكت على الأريكة الأقرب إلى الباب. أغلقت الباب وجلست مكاني. لم يكن يبدو أنها تملك أية نية للكلام، أو لطرح مشكلتها. جلست ساكنة لفترة من الوقت، ورأسها منحني، ورقبتها مشدودة للخلف. طال الصمت. ثم وكأن هذا الصمت قد أزعجها، رفعت رأسها بهدوء وحدّقت بلوحة الموناليزا المعلقة على الحائط المقابل لها. وفي ذلك الوقت، ومع أنني كنت أنظر إليها من الجانب، أدركت غضبها المتناثر من عينيها إلى الأرجاء. يا إلهي، يا لهذا الغضب!

- أهلًا وسهلًا بحضرتكِ يا فتوش خانم!

-

- يبدو أنكِ أُعجبتِ باللوحة. أنا أيضًا أحب هذه النظرة التي في اللوحة. من الجيد النظر إليها بين الحين والآخر، خاصة عندما أكون متعبة جدًا أو غاضبة من شيء ما، فأهدأ فورًا. ألاحظ أن حضرتك غاضبة أيضًا.

صمتها يستمر. لقد تعرضت للخيانة من عشيقها الذي اعتبرته المغزى الوحيد والمعنى الوحيد لحياتها. أستمر بالنظر إليها بدقة. وبما أنها، الآن على الأقل، لا تملك نية لمحادثتي، لربما أستطيع إيجاد بعض الأدلة إن تفحصها بدقة أكبر. ومرة أخرى أشعر بأنني محققة.

هذه الفتاة لم تكن غاضبة فقط، بل مرهقة جدًا أيضًا. ربما لم يكن إرهاقًا جسديًا فقط، بل روحيًا أيضًا. شبكت يديها ببعضهما، وأثناء عصرها لهما، استطعت رؤية اهترائهما، وأظافرها القصيرة، وطلاء أظافرها ذي اللون الخفيف. هي أصغر مني سنًا. وفورًا، تتجه عيناي نحو يديّ. لم تكن يداي مهترئتين كيديها. هل هي في مرحلة متقدمة من المرض، أم أن الحياة هي التي أنهكت هاتين اليدين يا ترى؟

تتجه ملامح وجهها كلها نحو الأسفل كما لو أنها سُحبت بمغناطيس. نرى ذلك في الغالب عند مرضى الاكتئاب. فيبدو كما لو أنهم تخلوا عن الحياة، وفقدوا أملهم. قالت غولاي إنها عشر سنوات. هذا يعني أنها انتظرت يوم الزواج بهذا الرجل مدة عشر سنوات دون كلل أو ملل. يا لها من مدة طويلة! مضى ثُلث عمرها تقريبًا بهذا العشق، وهذا الحب، وهذا الأمل. من يستطيع أن يُنسيها خيبة أملها هذه؟

وعلى أية حال فإن اللاوعي سجل كل ذلك بالفعل. في بعض الأحيان أشبّه اللاوعي بوكالات الدول الاستخباراتية التي تعمل جيدًا. تراقبنا باستمرار دون أن تهمل أي شيء، تسجل كل شيء بدقة. كما أنها تسجل هذه السجلات بقلم الحبر لا بقلم الرصاص حتى لا يتمكن أي أحد من مسحها. وعلاوة على ذلك، فإنه لا يمكننا رؤية ما تم تسجيله هناك. وفي حين أننا لا نظهر ذلك، فمن ناحية أخرى تتخلل رائحة المسجل ما سنعيشه من الآن فصاعدًا كله. أي إن الاستخبارات ستضعنا على قائمة المطلوبين. وطوال المدة التي نعيشها، دون أن يُشعرونا بذلك، لا يتركوننا، ويتدخلون بكل قراراتنا.

لا أعرف بعدُ ما عاشته هذه الفتاة سابقًا. لا أعرف أيضًا نوع السجلات التي تحتفظ بها الوكالة. ولكن إن كان ثمة شيء أعرفه، فإن هذه الوكالة هي التي جعلت هذه الفتاة الذكية والموهوبة والنشيطة عبدة لهذا الرجل الذي تصفه غولاي بـ "زير النساء" لمدة عشر سنوات.

يمكن للأطباء النفسيين وعلماء النفس فقط التسلل إلى هذه الوكالة التي نسميها اللاوعي، والتي تعمل دائمًا تحت الأرض، ولا تحب الظهور أبدًا. هذه الوظيفة في الواقع صعبة للغاية بالنسبة لهم. تستغرق الكثير من الوقت والجهد. هذا لا يكفي أيضًا، بل يجب أن يعمل صاحب الوكالة ويبذل جهدًا على الأقل بقدر ما يفعل هؤلاء. دعونا نرى ما إذا كان بإمكاننا فعل ذلك مع هذه الفتاة.

في الوقت الحالي، لا يبدو الأمر كذلك على الإطلاق. إنها تواصل الجلوس أمامي دون أن تنظر إليّ، أو تنبس بكلمة واحدة. يجب أن أجد طريقة لحثّها على الكلام.

- بما أنكِ لا تتحدثين، فلأتحدث أنا بدلًا عنكِ. عندما كنتُ صغيرة كان والدي يجعلني أسمع الموسيقى التركية دائمًا. حتى إنه ثمة أغنية حزينة ولكنها جميلة جدًا اسمها "الانفصال، نصف موت". حدّثتني غولاي عنكِ قليلًا. ربما لهذا السبب خطرت في بالي هذه الأغنية.

رفعت رأسها قليلًا، ونظرت نحوي بطرف عينها. لفت انتباهها ما قلته. تابعتُ.

- الانفصال صعب حقًا. وما يُصعّبه أكثر هو الخيانة. تعرفت على الكثير من الناس الذين عانوا من هذا الألم. والحقيقة إن الألم هو الأكثر شيوعًا في عملنا. وهذا الألم يكون أحيانًا ألم موت، وأحيانًا أخرى ألم انفصال. في الواقع لا يوجد فرق بينهما. فثمة خسارة كبيرة في كليهما.

ومجددًا تنظر إليّ بطرف عينيها، ولكن هذه المرة ثمة دموع في تلك المآقي. في البداية كانت تبكي قليلًا داخلها، وبعد ذلك ازداد بكاؤها. ثم انتشر النواح تدريجيًا في الغرفة. يخترق الألم الجدران ويتدفق ببطء إلى الخارج. البكاء دائمًا أفضل من عدم البكاء. أنتظر بصمت. في هذه الأثناء تتجول عيناي في الأرجاء. كل شيء أحمر. الأحمر ضد الموت، والانفصال، والعشق، والغضب، والغيرة، والكراهية، وكل نوع من أنواع الوجع.

مع تدفق الدموع من عينيها، ستفرغ الوجع والغضب ببطء في هذه الغرفة. ثم ستمتص الإضاءة اللطيفة المنبعثة من المصابيح كل ذلك، وتذيبها في داخلها، وبعد ذلك تمزجها بالعشق، والحب، والإثارة. وعندها ستزداد حرارة الغرفة، وسوف أضطر مجددًا لفتح النوافذ على مصراعيها. ألا يحدث هذا دائمًا؟

- هل عانيتِ كثيرًا؟

وافقتني بهزة خفيفة من رأسها. وأخيرًا أتى أول رد فعل. بعد أن سحبت نفَسًا من أنفها بصوت عالٍ التفتت نحوي. حكت لي بالتفصيل كيف تعرفت على حبيبها، إعجابها به منذ اليوم الأول، انتظارها له مدة عشر سنوات على الرغم من معرفتها

بأنه متزوج، خدمتها إياه، تصديقها إياه، تحوّلها إلى مجنونة عند رؤيتها إياه مع زوجته في تلك الليلة. كانت تملك صوتًا مكسورًا بقدر حزنها.

في الواقع، إن العلاج النفسي هو علاقة قرابة وصداقة، تحاول العثور على إجابات لأكثر المشاكل مصيرية تواجهنا في حياتنا. الآن يبدأ العلاج.

فضولي يزداد أكثر فأكثر. تنزع المشبك المطاطي من شعرها، ترمي رأسها للوراء، تحاول تجميع خصلات شعرها الخصبة السوداء في أعلى رأسها من جديد. كم هو بريء وجهها. يكفي النظر إلى وجهها للوثوق بها. إنها واحدة من تلك الفتيات اللواتي عندما نراهن نقول "لا تستطيع هذه الفتاة إيذاء أحد". وكأن البراءة التي كانت على وجهها عند ولادتها بقيت كما هي دون أن تخرب.

تُسند ذقنها إلى يديها، تهز قدميها إلى الأعلى والأسفل باستمرار. عظام وجنتيها بارزتان، ولديها جلد أملس، وناعم، وأبيض. عيناها ذابلتان، ولكنها تملك نظرة فطينة. تبدو وكأنها حساسة للغاية، تميل للتسوية والتأقلم.

- لديه كل ما تبحث عنه أي فتاة. لم أره حانيًا رأسه قط. لست أنا فقط من تراه كالملك، فهو قد أعلن مملكته قبلي بفترة طويلة. يتخذ مواقف مميزة أمام أصدقائه الذكور أيضًا، وليس أمام النساء وحسب. لو وضع بين ألف رجل، يمكن تمييزه من النظرة الأولى. حتى عندما تعرض للضرب من قِبلي كان ودودًا وطبيعيًا...
- هل ضربتِه؟
- ليشكر الله لأنني لم أقتله.
- كيف يكون المرء طبيعيًا عندما يتعرض للضرب. الأصح أن فضولي قد أثير..
- يبدو أنه، وإلى يومنا هذا، لم يرفع يده على أحد، أو يفعل أحدٌ ذلك له. ليس فقط هو، بل حتى الناس الذين كانوا حوله، تجمدوا. ربما خافوا مني. دارت عيناي لدرجة حتى أنا نفسي لم أكن مدركة لما أفعله، أو إلى إي مدى سأصل.

يمكنها أن تضرب شخصًا تتعلق به ضربًا مبرحًا حتى الموت. إنني أفهم ذلك جيدًا. الإنسان يتهاون بسهولة مَع من يحبهم. يتجول الحب والغضب دائمًا معًا ذراعًا بذراع. كانت حقًا تستطيع قتله.

- ليدعُ لزوجته الحبيبة، فقد عدتُ إلى رشدي عندما صرخت هي كالمجنونة. التقت أعيننا برهة. من الواضح أنها كانت مجروحة مثلي. عندما رأيتها بهذا الشكل انتابني شعور غريب، مع أنني كنت أغضب من هذه المرأة كثيرًا في السابق. هذا الرجل لم يطعنّي أنا وحدي فقط، بل طعنَ الكثير من النساء مثلي في قلوبهن. وأسفاه علينا جميعًا. ليحل الله عليه البلاء.

تحدقُ بعينيها بعيدًا. أقول لنفسي "هل لهذا الشغف أن ينتهي في لحظة؟ إن كان ولا بد، فإنه يترك مكانه لشعور آخر. يختفي الحب وتحل محله الكراهية التي تحرق."

- إن كان بقي عندي ذرة عقل، فيجب عليّ أن أنجو منه بأسرع وسيلة ممكنة. أشعر وكأنني منديل ورقي مستعمل ومرمي في سلة المهملات. أغضب من نفسي تارة، ومنه تارة أخرى. هذا الرجل الذي عشقته لسنوات، كم هو قاس! كان يفكر في نفسه دائمًا. خدعني بشكل صريح. لم أرد أن أصدق هذا، ولكن الحياة في النهاية أوغلت الحقيقة في عيني. ربما لم يحبني قط. منحته أجمل أيام عمري، هذا الرجل الذي صرت خادمة له وعبدة، ربما أنه لم يحبني قط. كم هو صعب أن تكون محبوبًا!

الدموع التي تتدفق من عينيها، تنزل كالحبال على خديها. إنها واحدة من أكبر الأوجاع التي تعاني منها المرأة؛ الشعور بأنكِ لم تكوني محبوبة قط.. إنه ألم ذو حدين. فبينما يتجه أحد السهمين إلى الطرف المقابل، ينغرس السهم الآخر في الشخص نفسه. إنها لا تكره الرجل الذي لا يحبها وحسب، بل تكره نفسها أيضًا.

- هذا يعني أنني لست محبوبة.

سهام الغضب والكراهية الموجهة نحوها حادة أكثر من تلك الموجهة نحو حبيبها. لدى التمعن في عينيها الموجهتين نحوي، أرى أن بعض الأضواء غير منارة فيهما. فدائمًا ما يكون الضوء في عيون الأشخاص غير المحبوبين خافتًا بعض الشيء. رؤية ذلك تجعلني حزينة دائمًا. إنه مثل الشعور بالجوع أو العطش.

أنظر إليها برأفة. وهي بدورها تشعر فورًا بهذه الرأفة في عينيّ.

- يبدو أن هناك الكثير من الأشياء التي يجب أن أحكيها لحضرتكِ.
- احكِ لي إذن.
- اليوم لم أعد أملك القوة الكافية للكلام حول أي شيء. لقد نفدت طاقتي. الغصن الذي حاولتُ المحافظة عليه لسنوات بقي في يدي. وفي النهاية ثمة منحدر.

بينما كنت أنظر إليها بعين الرأفة، كنت غارقة في التفكير. تقول ثمة منحدر في النهاية. إن نزعة الانتحار عالية عند هذه الفتاة!

- "لقد نفدت طاقتي" ما المقصود بها؟

تدير عينيها نحوي وهي مرهقة، وتنظر في وجهي كأنها تقول "وما هو المبهم في هذا؟".

- وهل يلقي الإنسان بنفسه في النار عمدًا؟
- يلقي بها أحيانًا!
- أنا رميت. أحببته لدرجة أنني قلت سيفهم ذلك أيضًا. وإن فهم لربما يحبني أيضًا. لقد ترعرعت دون حب. لم يحبني أحد.

الآن أفهمها جيدًا. الإنسان الذي لم يكن محبوبًا أبدًا تكون جروحه أعمق. إنه لن يؤمن بمحبة أي أحد، وهذا الحب لن يكون كافيًا ليلأم تلك الجروح.

- أحببت هذا الرجل كثيرًا، كثيرًا جدًا..

كنت أقول في نفسي: إن أردت أن تخسر إنسانًا فعليك أن تحبه كثيرًا جدًا، مثل ما فعلتِ تمامًا، وفي ذلك الوقت يختفي من تلقاء نفسه. لم أستطع قول ذلك لها.

- إنني أحترق بشدة. إلى متى سيستمر هذا الحريق؟ لا أستطيع تحمل ذلك.

تتجول آثار الوجع الذي تشعر به على وجهها. وعلاوة على ذلك فإنني لا أعرف إجابة السؤال الذي سألته. قد يستغرق الأمر سنوات لو تركناها.

- إن حضرتكِ تمرين بمرحلة صعبة، ولكنك لا تستسلمين. تبدين كشخص يحب الكفاح. يمكننا إخماد هذه النار معًا. ولكنني أود أن أثق بكِ في كل شيء. امنحيني ونفسكِ بعض الوقت لإخماد هذه النار. الموت خلق من أجلنا جميعًا. وعلى أية حال سنموت يومًا ما، وليس عليكِ أن تُسرعي في ذلك. لنطفئ هذا الحريق أولًا، ثم نتجه للحياة مجددًا. ونرى ماذا تخبئ لكِ.

تبتسم ابتسامة خفيفة.

- لا يجب أن يؤخذ الدواء الذي سأعطيكِ إياه كل ثلاثة أو خمسة حبات معًا. وعليكِ أيضًا أن تستعدي جيدًا للجلسة القادمة. إنني ومن الآن أشعر بالفضول لما ستحكينه لي.

هذه الفتاة ذات طبيعة متواضعة. أنظر إليها وهي تخرج من الغرفة. تبدو وكأنها منزل دُمّر إثر زلزال هائل.

كل مَن يأتي إلى هنا يشاركني المشاكل التي لا يستطيع حلها، والألم الذي لا يمكنه مواجهته. إنهم يريدون التغيير، وبدء الحياة كشخص جديد، وعدم هزيمتهم أو إصابتهم مرة أخرى. لطالما كنت فخورة برؤية بعضهم يعيدون خلق أنفسهم.

آمل أن أصل لنفس النتيجة مع هذه الفتاة الذي يمتلئ قلبها بالألم.

(8)

بعد ذلك اليوم لم يتصل كنان بفادي. مر زمن. كان يستحي من الاتصال بها من جهة، وينتظر هدوء غضبها ثم انبعاث شوقها إليه من جهة أخرى. في الصباح، وقبل حلول الظهيرة، كان ينهض من فراشه، وبعد أن يتناول الفطور الذي تحضّره هاندان، وكعادته، يتخذ مكانه على الأريكة الموجودة أمام النافذة منتظرًا قهوته. بعد أن يجلسا متقابلين، يحتسيان قهوتهما، ويرتدي ثيابه بعناية، ويرش عطره، ثم يخرج من المنزل. كانت هاندان امرأة نبيلة للغاية. لو كانت امرأة أخرى لقلبت المكان بأكمله. أما هي فلا تفعل شيئًا كهذا. فحتى لو غضبت لا تُظهر ذلك له، ولا تُقلل من شأن نفسها بفعل أشياء سخيفة. في الواقع، إن هاندان لم تدخل غرفتها بعد تلك الليلة. كانت تنام في غرفة نوم الضيوف المجاورة، وكانت تتعامل معه واضعة مسافة بينهما. ولكن مهما يكن الأمر، فإن غضبها سيهدأ، وبعد مدة ستنام بجانب كنان مجددًا، لأنه زوجها، الذي عاد إلى المنزل بعد مرور سنوات.

كان يذهب للعمل أولًا. لم يكن يرغب بالعمل، ولكن السكرتيرة الجديدة التي وظفها لم تكن سيئة على الإطلاق. الفتاة التي خدمته لسنوات تركت العمل. في الواقع، قضيا أوقاتًا ممتعة في فترة من الفترات. ثم عندما تزوجت الفتاة وصار عندها أولاد لم يعد لذلك العمل أي طعم. لقد وظّف (بيرنا) حديثًا. عندما يأتي إلى العمل، ينادي بيرنا فورًا، ويطلب منها عدة أشياء، ثم يجد ذريعة لانتقاد كل ما تفعله، ويوبخها. كان من الضروري في البداية تخويف الفتاة وإرباكها. ثم بعد فترة سيُظهر قربه منها، ويتصرف بشكل مختلف عن المعتاد. الفتاة ما تزال شابة. في يدها اليمنى خاتم يدل على أنها مخطوبة، ولكن ذلك لم يكن يهم كنان كثيرًا. حتى إنه

كان يحاول البقاء بعيدًا عن النساء العازبات. خاصة إن كانت إحداهن قد تجاوزت الثلاثين من عمرها، فهؤلاء كُنّ يصررن على الزواج فورًا.

وعلى الرغم من وجود بيرنا، لم يكن يبقى كثيرًا في مكان العمل، ولم يكن يستطيع التركيز في العمل بأي شكل. يخرج قبل حلول المساء، ويسلك طريق الملهى. يلعب من أصدقائه في الملهى، يشربون، يمرحون، ثم يعود إلى المنزل في ساعة متأخرة. أووه، كان قد تخلص من نُواح فادي أيضًا. ولم يكن هاتفه يرن، ولم يكن هنالك أحد يسأله "أين أنت؟" يعيش بالطريقة التي يرغبها.

كان ممتنًا من حياته، ولكن صحته في هذه الفترة لم تكن جيدة، غالبًا. فرغم الفحوصات التي أجريت له في المستشفى تلك الليلة، إلا أنه لم يرتح، وفي اليوم التالي ذهب إلى طبيبه الخاص، وجعله يفحصه مرة أخرى. لم يجد الأطباء فيه شيئًا، ولكنه كان يشعر بدوار في رأسه أحيانًا، فيترنح، ويبحث عن مكان ما ليتمسك كيلا يقع. كما أن نومه لم يعد منتظمًا كما كان في السابق. عندما يستلقي في الليل يغفو فورًا، ولكنه في منتصف الليل يقفز من فراشه بسبب القلق. ولأن هاندان ليست بجانبه، فهو لا يستطيع قول أي شيء لأي أحد. يدخن سيجارة وهو يتجول في الصالون لفترة، وبعد عدة ساعات يعود إلى ذلك الفراش. ينتابه قلق غريب. تخطر في باله أشياء سيئة دائمًا، يفكر في أمه المتوفاة، ويقلق وكأن شيئًا ما سيئًا سيحدث له أيضًا. لم يعد يستيقظ في الصباح باستمتاع كما كان من قبل. لم يكن يستطيع العودة إلى رشده دون تناوله فنجان قهوة في الصباح، ولم يستطع رمي هذه المشكلة عن كاهله.

كم من أناس مروا في حياته حتى اليوم، ولكنه لم يزعج أحدًا إلى هذه الدرجة. وفوق حزنه، كان يشعر في داخله بأشياء أخرى. بدا وكأنه عاد طفلًا لطيمًا.[1]

اعتنت هاندان به على قدر استطاعتها، ولم تُنقص عليه شيئًا، حتى إنها كانت تعصر له الفاكهة، ولكن ذلك لم يكن كافيًا. كان البيت يغرق فيه، لم يستطع أن

(1) اللطيم: من فقد أمه، أو أبويه معًا وهو صغير. (المترجم)

يشعر بأنه ينتمي إلى ذلك المكان نهائيًا. لم يكن الأمر سهلًا، كان يعيش حياة مختلفة تمامًا خلال عشر سنوات. كان نادرًا ما يأتي إلى منزله، ولو لليلة واحدة، ثم يهرع إلى البيت المتواضع الذي يعيش فيه مع فادي وكأنه يهرب.

في الصباح، كان يحدق بدقة في المرآة، ويفحص كل جزء من وجهه بعناية متسائلًا ما إذا كان قد تقدم في السن أم لا. في الواقع لم يبدُ بذلك السوء، ولكن ثمة تهدلًا تحت عينيه، ربما لأنه لم يكن ينام جيدًا في هذه الفترة. وكان قد خسر بعضًا من وزنه في الغالب. حتى إن الأطباء كانوا يقولون له إنه من الجيد أن يخسر بعضًا من وزنه، ولكنه خسر وزنه لأنه لم يكن يرغب بالطعام. لم تكن لديه شهية في هذه الفترة. كانت هاندان تُعدّ طعامًا لذيذًا، ولكنه اعتاد، ولفترة طويلة، على الطعام الذي تصنعه فادي.

هل يمكن أن يكون فقدان الشهية وفقدان الوزن دون أي سبب، علامة على مرض سيء يا ترى؟ كان قد ذهب للطبيب حديثًا، وأُجريت له جميع الفحوصات، ولكن من الممكن أن ذلك فات الأطباء.

ماذا سيفعل إن لم تعد فادي؟ هل كان عليه أن يجد حبيبة أخرى لنفسه؟ كان ذلك أمرًا سهلًا، النساء يحببنه، ولكن الغريب في الأمر أنه لم يكن يريد حبيبة جديدة. سئم من دخول الفراش كل يوم مع فتاة جديدة. كان يريد فادي.

على الرغم من أن أصدقاءه كانوا يشكّون بشيء ما، ولكنهم لم يعرفوا بعدُ أنهما انفصلا. ولو عرفوا لسُعدوا. إن أتى الآن وأخبرهم بمدى تعاسته، ومدى اشتياقه لفادي، فلن يتفهموه. حتى إنهم من الممكن أن يضحكوا. لم يكن لديه أي صاحب في هذه الدنيا. ومع ذلك كانت هاندان هي الأفضل، ولكنه لا يستطيع أن يذهب ويفصح لها عن مشكلته.

ومع ذلك، وأثناء غياب فادي، كان عليه أن يمتّع نفسه، وأن يستمتع بطعم الحرية. اتصل ببعض حبيباته السابقات، وعلى الرغم من أنهن، جميعًا، اختلقن الأعذار، ورفضن مقابلته، إلا أن واحدة منهن قبلت، وانتهى بهما الأمر إلى سرير

أحد الفنادق. كان كنان قليل الخبرة أكثر من أي وقت مضى. وكأنه لم يكن الشخص نفسه الذي كان يواعد نساء مختلفات، على مدى سنوات. لم يكن يعرف ماذا يقول للمرأة، وكيف يثني عليها، كما لم يكن راضيًا عن أدائه رغم عدم تفوه المرأة بأي كلام.

أساسًا كان ينام هو وزوجته منفصلين. فادي لم تكن موجودة أيضًا. لم يمر عليه وقت كهذا في حياته. بدا الأمر غريبًا بالنسبة له أيضًا.

هل كان يتقدم في السن يا ترى؟

من مذكرات طبيبة

بعد عشرة أيام قرعت فتوش بابي مجددًا. كانت تبدو هادئة هذه المرة، ولكن وجهها شاحب مجددًا، وكأنه لم ير الشمس. الهالات الداكنة تحت عينيها لم تتناقص. لم تكن متمكيجة أيضًا. ترتدي قميصًا أسود حريريًا. ومن ياقة قميصها المفتوحة يلمع عقد ذهبي ناعم.

اليوم أشعر بتغيير فيها لم أفهمه تمامًا. عندما أمعنت النظر، شد انتباهي شعرها الذي قصته. عندما أتت أول مرة، كانت قد أرجعته إلى الوراء دون تسريح. هذا يعني أنها قصته. في الحقيقة لم يكن قص الشعر هذا علامة جيدة. نحن الأطباء النفسيين نسخط من هذا الأمر، لأن قص الشعر يعني رمزيًا جَرحُ الذات، وينبئنا بالانتحار.

أدركتُ اليوم، وأكثر من قبل، كم أنها نحيلة ورشيقة. ما يزال الضوء في عينيها مفقودًا. أتمنى من قلبي أن تُنار هذه الأضواء مرة أخرى يومًا ما، ولكنني من جهة أخرى أدرك مدى صعوبة ذلك.

تقول إنها بدأت العمل منذ يومين. تتناول الدواء الذي أعطيتها إياه بانتظام، تنام في الليل بشكل مريح أكثر من السابق، ولكنها في الوقت الراهن لا تستطيع تناول الطعام بشكل منتظم، ووزنها مستمر بالنقصان. لم ترد أنباء عن حبيبها بعد، ولكنها مصممة على عدم الرد على مكالمته إن اتصل.

وتقول إن كوابيس تراودها في الليل، كأنها تنزلق في منحدر باستمرار، ولكنها لا تصل إلى الأرض بأي شكل، وأثناء وجودها في الهواء تحاول التمسك بهذا الطرف أو ذاك وهي مليئة بالخوف. إنه نوع من الأحلام التي لا تحتاج تفسيرًا. وتمامًا، كما في كابوسها، تحاول التمسك بالحياة. على الأقل في مكان عملها. حاولت جاهدة ألا يشعر أحد بشيء، ولكنها ما تزال تبدو مثل كومة من الأنقاض.

أطلب كأسين من الشاي من تونا، وهذه المرة تأخذ الشاي دون أي اعتراض، وتشرب من جهة، وتحكي من جهة أخرى.

- ما سأحكيه لحضرتكِ الآن، لم أشاركه مع أحد قط حتى الآن.
- حقًا؟ لماذا؟
- لقد خجلت! ولهذا دائمًا ما كنت أخفي ماضيّ.
- ألم تحكي ذلك لحبيبك أيضًا؟
- لا، فهو لم يسألني عنه.. لا شيء آخر يهمّه سوى نفسه، ولكن الأسوأ في الأمر أنني بدأت أدرك ذلك الآن.

أضحكتنا هذه الكلمة، كلتينا. الرجل الذي عاشت معه مدة عشر سنوات، تبدأ بالتعرف إليه بعد الانفصال. إنه شيء غريب. هذا دليل على أن الحب أعمى!

بعد ذلك تحدق في السجادة الحمراء ذات الزخرفة المتموجة على الأرض، ثم تبدأ بالحديث بصوت مكسور، كما لو أنها تبحث عن ماضيها في مكان ما هناك.

- إنني خامسة أخواتي. كان أبي يهدد أمي مدة تسعة أشهر. قال لها إذا ولدتِ بنتًا هذه المرة فسأطلّقكِ. شعرت المرأة بألم شديد مدة ثلاثة أيام بلياليها خوفًا من ولادتي كبنت. لم تستطع أن تلدني بأي شكل. وفي النهاية حدث ما كان يخيفها، وولدتُ. عندما علم أبي أنه صار لديه فتاة أخرى لم يأتِ إلى البيت لأيام. كانت أمي تبكي حتى الصباح. ومن محبتها لي قالت: "ليته يموت وننجو". قُطع حليبها من شدة الحزن، ولم تستطع حتى إرضاعي. أخواتي هنّ من اعتنين بي.

تحكي فتوش ذلك بصوت مكسور وحزين لدرجة أنني أتأثر. ثم أفكر في نفسي. إنني أول مولود لأمي وأبي. كانت أمي ما تزال في السابعة عشر من عمرها. ورغم ذلك، فقد نجحت بالاهتمام بي، وبإطعامي وإشرابي. إن أتينا إلى الحب، كان أبي وأمي على أية حال مستعدَّين لمحبة هذه الفتاة التي أتت إلى الدنيا حديثًا.

- ذات يوم، أتى أحد أقارب أمي لتهنئتها. في ذلك الوقت كان عمري خمسة عشر، أو عشرين يومًا. كان الرجل سائق حافلة تعمل بين المدن. استاء الرجل عندما رآني مرمية في إحدى الزوايا. أشفق عليّ. أخذني في حضنه، وداعبني. ثم قال لأمي: "إياك يا أختي الكبيرة، لا تفعلي هذا. حرام. وما ذنب هذه المسكينة؟ إنها ابنتك أيضًا. يحسبها الله في ميزان حسناتكِ. خذيها في حضنكِ". غضبت أمي. خرج الرجل من عندنا وهو يبكي. بعد ساعة اصطدمت الحافلة التي يقودها بشاحنة. فمات هو وسبعة ركاب. في ذلك الوقت أدركوا تمامًا كم أنني مشؤومة. على أية حال فإن أمي لم تكن تذكر اسمي نهائيًا. كانت تقول "الفتاة المشؤومة". وهكذا بدأت حياتي. بدأت ترمي الفخاخ أمامي قبل حتى أن أقول لها مرحبا.

أفكر بما مرت به في طفولتها، من المحتمل أنها لم تحصل على أي إيجابية حول ردود أفعالها. في مثل هذه الحالات، وأثناء نمو الأطفال وتطورهم، فإنهم يبحثون عن طرق لإقامة علاقات من آبائهم وأمهاتهم من خلال تطوير مواقف وسلوكيات مختلفة، يرونها في أهاليهم، ويقدرونها. وبالتالي يمكن أن تظهر هوية مزيفة بعيدة عن شخصيتهم. ثم يلفّ الشخص شعور بأنه لا يستطيع إظهار نفسه ورفضها بسبب خلل مهم فيه. وعلى أية حال فإن مشاعر الدونية التي يشعر بها معظم الناس تصبح أعمق وأكثر حدة لدى هؤلاء الأشخاص.

كان من الممكن رؤية آثار كل هذا عندما عاشت فتوش مع حبيبها، لأنها كانت تعامل الرجل دائمًا كما لو أن جزءًا منها معيب، والجزء الآخر مفقود. مصيرنا غالبًا ما يكتبه ماضينا...

- ليتني أولد مرة أخرى، وأنا أملك منزلًا دافئًا، وبإمكاني أن أضحك وألعب مثل الأطفال الآخرين، وتأخذني والدتي بين ذراعيها، ويحضر والدي لي الشوكولاتة في المساء، ويشتري لي لعبة، ثم بعد ذلك أموت. وليتهم يذرفون الدموع من بعدي، ويرثونني..

أقول لنفسي "انظري إلى حلمها الذي نسجته". أتت إليّ البارحة مريضة تشتكي من ضعفها وعجزها لأن أبويها أفرطا في دلالها. فتاة ترعرعت كالأميرات، ولكن انتهى بها المطاف إلى اليأس. فتاة أخرى صاروا يذلّونها منذ اليوم الأول لولادتها. أليس من الظلم أن يذل الإنسان منذ صغره، وحتى بعدما يكبر؟ أليس من حق هذه الفتاة التي ترتدي الأسود أن تعيش أو على الأقل تكون أميرة في نهاية الحكاية، وهي على استعداد لأن تضحي بحياتها مقابل الحصول على القليل من الحب؟

تنهمر دموعها كالسيول. بدا الأمر كما لو ثمة حجرًا ضخمًا كان يحجز المياه. لقد وضع هذا الحجر على قلبها لسنوات، ولم يستطع أحد تحريكه من مكانه. والآن تحرك الحجر جانبًا، والماء الذي تراكم خلفه يتدفق من عينيها كالسيول الجارفة. تبكي وتنوح مثل الأطفال. إنها لا تريد حتى مسح هذه الدموع. تضرب ركبتيها بيديها، وكأنها تتعرض للضرب. لقد تحرك الحجر وانتهى الأمر.

- عندما كنتُ طفلة، كانت ثمة قطة لا تبرح مكانها أمام باب بيتنا، نطردها فتدخل من الشباك. كان اسمها (العاهرة). لا أعرف من وضع لها هذا الاسم ومتى، ولكنها كانت اسمًا على مسمى. إنها قطة بائسة حالَ لونُها بسبب قذارتها، عظامها بارزة من ضعفها. في ذلك الوقت لم أكن حتى أنا أهتم بها جيدًا. لم أكن أفكر فيما إذا كانت جائعة، أو متخمة، أو تشعر بالبرد، أو متجمدة. كانت المسكينة كلما خرجنا إلى الباب تحك نفسها بأرجلنا. هذا يعني أنها أرادت منا أن نحبّها ونلاطفها ونداعبها ونحميها.. أسوأ ما في الأمر أنني لم أكن أشعر بكل هذا في ذلك الوقت. والحال أنه لم يكن ثمة أي فارق بيني وبينها. وأنا أيضًا كنت أريد أن أُلَاطَف.. ومع أنني كبرتُ، ولكنني ما زلت أرغب بذلك حتى الآن.
- الإنسان يرغب في أن يكون محبوبًا في كل فترة من فترات عمره.
- رأيت حلمًا رغبت كثيرًا في تصديقه مدة عشر سنوات. ظننت أنني فتاة محبوبة وذات قيمة. لست غبية. ربما لو لم أكن أرغب بتصديق هذا

الحلم، لما استطاع ذلك الرجل خداعي، ولكنني رغبت بذلك كثيرًا.. ومثل (العاهرة) التي كانت تتسكع عند باب منزلنا، كنت ألتف حول ساقَي الرجل، لأنني أردت منه أن يحبني، ولكن ذلك لم يحدث. تلك (العاهرة) لم تنجح أيضًا. في أحد أيام الشتاء الباردة، كنت على وشك أن أغادر المنزل في الصباح الباكر من أجل الذهاب إلى المدرسة. وعند خروجي من الباب اعتدت على تلك القطة ذات الفرو الرمادي والأبيض والعيون الخضراء أن تتجول بين قدمي، ولكنها لم تكن موجودة في ذلك اليوم. ناديتها عدة مرات: "بيسي، بيسي" ولكن دون فائدة. ثم لمحتها بين الشجيرات الموجودة بجانب المنزل. رقَبتها ممدودة، ومستلقية هناك بسلام. بدت أطول من المعتاد، عيناها الخضراوان مفتوحتان. ركضتُ نحوها مباشرة. في البداية مددت يدي لألمسها ولكنها كانت باردة، ومتصلّبة. ابتعدت عنها وأنا أصرخ. في ذلك الوقت لم أكن أعرف ما هو الموت، ولكنها لم تكن كـ (العاهرة) التي أعرفها. خرجت أمي على صراخي. أشرتُ إلى القطة بيدي، ثم تمسكت بأمي، فأبعدتني عنها قائلة: "اسكتي يا بنت!" ثم أحضرت مكنسة الحديقة ومجرفة كبيرة، وجرفت القطة بالمكنسة، ووضعتها في الصندوق الكبير الموجود بجانب باب الحديقة والذي نستعمله كسلة مهملات. وأنا بدوري، ومثل (العاهرة)، تصلّبتُ مكاني وأنا أراقب ذلك المشهد. ولكنني عدت إلى رشدي مع إغلاق غطاء سلة المهملات. في ذلك اليوم بكيت في المدرسة طوال الوقت، ذلك أنني، أنا نفسي لم أكن مهتمة بتلك القطة المسكينة.

وأنا أيضًا في طفولتي رأيت قطة متصلبة. أرتعشُ كلما خطرت في بالي. أما هي فما زالت مستمرة بالبكاء. لا تحب أن تمسح هذه الدموع. وكأنها تريد لهذه الدموع أن تستمر بالتدفق حتى يبتل جسدها بكامله. الجزء الأمامي من بلوزتها السوداء الحريرية كان مبللًا بالفعل.

- كان لدينا منزل صغير بين المزارع والكروم والحدائق والحقول. في الواقع، لم يكن منزلًا بمعنى المنزل، بل كان كوخًا صغيرًا. عند الدخول من الباب ثمة صالة واسعة نستخدمها كغرفة جلوس ومطبخ، وغرفتان متقابلتان مفتوحتان عليها.. في إحداها ينام أبي وأمي، وفي الأخرى ننام نحن الفتيات الخمسة. كان لأبويّ سرير خشبي، أما نحن فلم يكن لدينا. كنا، الفتيات الخمس، نتكوم فوق فرشتين ممدودتين على عرض الغرفة.

الفتيات الخمس كن ينمن معًا مثل القطط في تلك الغرفة.

- في الصالون الذي نجلس فيه ثمة مدفأة صغيرة. كنا نحاول أن نتدفأ بها في الشتاء، ولكن ذلك مستحيل! كنا نرتدي كل ما يمكن العثور عليه، حتى إننا كنا نتجمد رغم ارتدائنا ثلاث كنزات صوفية فوق بعضها. كان والدي بائع خضار وفواكه. كان العمال يعملون في الحدائق التي نملكها في الصيف. وبالطبع فإن أكثر مَن يعمل كنا نحن؛ أي أمي ونحن الفتيات.. كنا نحسد العمال. فهم على الأقل سيغادرون مع غروب الشمس. أما نحن فلم يكن لدينا رفاهية كهذه.

نظرًا لوجود كل هذا العدد من العمال الذين يعملون معهم، فلم يكونوا فقراء لتلك الدرجة. لماذا يا ترى عاشوا هذه العيشة البائسة؟

- كانت أمي تستيقظ في الصباح الباكر، وتصنع الطعام للعمال. وبعد تناول الطعام وغسل الأطباق، تبدأ بالعمل في الحقول أيضًا. أما أبي فكان يخرج في الصباح، ويعود ثملًا في ساعات المساء. كان يشرب كثيرًا لدرجة أن عينيه تصبحان حمراوين، ووجهه أرجوانيًا، ولا يستطيع الوقوف على قدميه، ومع ذلك كان، بمجرد عودته، يبدأ بمهاجمة أمي. يضربها وهو يقول لها: "لم تستطيعي حتى أن تلدي لي صبيًا. لو كان أحد غيري لطلّقك منذ زمن. ماذا سأفعل بكل هذا العدد من البنات؟ يلزمني فتى ليكون مسؤولًا عن الحقل. خذيهن واغربي عن وجهي. وهل أنا مضطر

لأطعمكن جميعًا؟ سأحضر لنفسي زوجة شابة. وسترين كيف ستلد صبيًا". كانت المرأة المسكينة متعبة من العمل في المنزل من جهة، وفي الحقل من جهة أخرى، وعلاوة على ذلك تتعرض للضرب من قِبل أبي حتى منتصف الليل. كنا نحن؛ الفتيات الخمس، نتعلق بقدمَي أبي، ونصرخ معًا كالعصافير كيلا يضربها. ولكنه لم يكن يسمعنا، يركل كل من يصادفه.

أثناء كلامها، تحدق في عينيّ بعمق، كما لو أنها تشعر وللمرة الأولى أن شخصًا ما يحترمها ويقدرها. إنها تجذبني إليها بشدة. وفيما يتعلق بالعلاقة التي بيننا، فإنني أرى دلائل اهتمامها بأن تكون هنا وتُعالج. ترى وتشعر بأنني أستمع إليها باهتمام، وأهتم بها.

- كان يغضب مني أكثر من الجميع، لأنني لم أولد صبيًا. كانت هذه المشاهد تتكرر تقريبًا كل ليلة في منزلنا. ثم يستلقي على سريره وينادي أمي...

كانت دموعها تنهلُّ من عينيها وكأنها تنسكب من كأس. وكأن الزخارف المتموجة للسجادة التي على الأرض قد فُتحت وتحولت إلى مسرح ضخم، ترى فيها كل ما عاشته في طفولتها.

- قضيت طفولتي في بيت كهذا. كان ثمة مصباح كبير يتدلى من السقف. يشع منه ضوء أصفر، يختلط فيه دخان السجائر التي كان أبي يدخنها، وكأننا نجلس في الضباب. في الزاوية العليا اليمنى من الباب ثمة مفتاح كهربائي أسود دوّار. لم يكن طولي يساعدني للوصول إليه، لكنني لطالما انتظرت اليوم الذي سأطالُ فيه ذلك الزر. لهذا السبب كنت أغار من أخواتي الكبيرات. كانت أختي الكبيرة بين الحين والآخر، وعندما لم يكن أبي موجودًا في البيت، تأخذني إلى حضنها وتسمح لي بأن أدوّر ذلك الزر يمنة ويسرة. وبينما أنا أفتح الضوء وأغلقه كان ذلك المفتاح يصدر صوت

"تك". كنت أحب ذلك الصوت من جهة، وأحب أن أستند إلى صدر أختي الدافئ وأنا في حضنها من جهة أخرى. على أية حال فإنني لا أذكر أحدًا آخر حملني في حضنه.

كم هو جميل وصفها لمعاناة الطفل. أستمع إليها وأنا واضعة يديّ تحت ذقني، وأميل برأسي قليلًا إلى اليسار. كما لو أنني أرى ذلك المنزل معها، وذلك الضوء الأصفر، والمفتاح الكهربائي الأسود.

- كانت هنالك شقوق سوداء في الجدران المطلية باللون الأبيض. كنت أخاف من تلك الشقوق. في الليل كنت أتخيل أن تلك الشقوق ستكبر، وتخرج منها فئران ضخمة، تنتشر في الأرجاء، وتأكلنا. كنت أهمس بذلك لأصغر أخواتي، ومع ذلك كنت أخاف. كانت تقول لي: "استلقي ونامي، لا يوجد فأرة أو أي شيء من هذا الهراء". كانت حتى هذه الجملة تريحني رغم قِصرها.

تخطر في بالي طفولتي، كنت أنا أيضًا أخاف من الظلام، ولكن لم يكن لدي أخت كبيرة لأخبرها بذلك. وعلى العكس كانت أختي التي تصغرني بسنة ونصف تنوح قائلة: "إنني خائفة". ووقع على عاتقي أنا مواساتها. مع أنني كنت أنا أيضًا أخاف.

- في غرفة جلوسنا ثمة كنبة صغيرة واحدة فقط كان يجلس عليها أبي. وفوقها وسائد مطرزة بالـ (كَنَفَا) أرجوانية. الشيء الأفضل كان دائمًا من نصيب أبي. يُقطع البطيخ، ويوضع في طبق نحاسي كبير، ويقع على عاتقنا قحط القشور. قشر الخيار، والطماطم الفاسدة، والتفاح المدوّد كانت من نصيبنا أيضًا.

تحني رأسها قليلًا، وكأنها لو مدت نفسها أكثر، سوف تتمكن من لمس كل واحد منهم، وتستمر في التحديق بدقة تامة بالسجادة الحمراء ذات الزخرفة المتموجة الموجودة على الأرض. لم تعد موجودة هنا، لقد غاصت في البيت الذي عاشت فيه.

- وعلى عكس وجه والدي المتورّم من المشروب، كان وجه أمي يبدو شاحبًا تحت ذلك الضوء الأصفر. كانت نظرة أمي بعينيها السوداوين

الغائرتين حزينة دائمًا. عندما يدخل أبي إلى الغرفة ويبدأ بخلع ملابسه تنهض أمي من مكانها على الفور، وتذهب إليه، ثم تقوم أخواتي الكبيرات على الفور بتدوير المفتاح الأسود للضوء الأصفر المتدلي من السقف. وبعدها نلجأ إلى غرفتنا بسرعة، ولكن ذلك لم يكن يُنجينا أيضًا. كنا نجلس فوق فرشتنا الموجودة على الأرض بثيابنا، خائفات وخجولات من النظر في وجوه بعضنا البعض، منتظرات توقف الصوت القادم من غرفة أبينا وأمنا. من المفترض أن يُغلقا الباب، ولكن الباب ليس بابًا تمامًا، كنا نسمع كل شيء. صرير السرير الخشبي ما يزال في أذني. عندما ينقطع الصوت، ينفتح باب الغرفة مصدرًا صريرًا، تأخذ أمي الأبريق النحاسي الذي يغلي على المدفأة إلى الداخل، ولأجل تفتيره تُحضر أبريق ماء باردًا من المطبخ. وبعد ذلك تأتي بِطِشت كبير إلى الغرفة، في البداية تغسل زوجها، ثم تصب ما تبقى من الماء عليها من رأسها حتى قدميها. كنا ننتظر حتى يُعلّق الطشت على الحائط مرة أخرى. وفي النهاية، عندما ينغلق الباب، تستلقي كل واحدة منا في الفراش، ودون أن نتكلم نسحب الغطاء حتى رأسنا، ونكافح من أجل النوم في ذلك الفراش بأسرع وقت ممكن.

ما حكته أخذني إلى ذلك الكوخ الصغير. ملأت المشاعر المظلمة لذلك الكوخ الغرفة، ولحسن الحظ كانت النافذة مفتوحة.

- كان لمنزلنا رائحة فريدة. كانت رائحة العرق التي تنبعث من جسد كل شخص مختلفة عن الآخر ولكنها ثقيلة، مختلطة برائحة البصل، والثوم، والزبدة، والبرغل، والترهانة[1]، والنعنع، والسجائر التي يدخنها أبي باستمرار. وكأن هذه الروائح اختلطت ببعضها. في محيطنا كان يلقبون

(1) الترهانة: حساء تشتهر به تركيا. مكون من طحين، فلفل أحمر، بصل، نعنع، لبن، وخميرة. تتحول إلى عجينة متماسكة تحفظ في علب لأسابيع وبعد جفافها تُطحن وتُصنع من هذا المسحوق. (المترجم)

أبي بـ (محمد آغا). يعني إننا لـم نكـن فقـراء إلـى ذلـك الحـد. كنـا نملـك مزارع وحدائق وحقولًا واسعة يعمـل فيهـا عشـرات العمـال. كـان أبـي في حالة معنوية جيدة. عمله الوحيد هو بيع المحصول الـذي يتـم جمعـه مـن الحقـول. يبيعها في بداية موسمها بسعر رخيص، ثم يقامر في المقهى حتى المساء، وفي الليل يسكر في الكازينوهات ويقامر. وكان بين الحين والآخر يجلب النساء اللاتي يجتمع بهن في تلـك الكازينوهـات إلـى البيـت. كانـت تلك النساء مختلفات جدًا عن أمي. كن يرتدين ملابس خليعة، ويتبرّجن كثيرًا، ويضحكن باستمرار. أحيانًـا كـن ينظـرن إلينـا ويطلقـن الكثيـر مـن الضحكات. كن يضحكن بدلًا من أن يبكين على حالتنا البائسة.

ترفع رأسها وتنظر إلى وجهي، وكأنها تتساءل عما أشعر به. وأنا أهز لها رأسي قليلًا مع ابتسامة حزينة. في البداية، وفور إدراكها بأنني حزينة أيضًا، يملأ وجهها تعبير عن الدهشة، ثم تفتح عينيها وتمعن النظر في وجهي مرة أخرى. رؤيتها لمدى تأثري بهذه الحكاية يجعلها تبكي أكثر. أخيرًا ثمة شخص فهمها! لا تمسح دموعها، بل تستمر بالتدفق من وجهها نحو الأسفل مثل المطر. ومجددًا، تُحني رأسها نحو الأمام، وتجوّل عينيها في الزخرفة المتموجة للسجادة الحمراء التي على الأرض، وتحكي وهي تبكي.

- في مثل هذه الأيام، كانت أمي تغضب كثيرًا، فتصبّ غضبها علينا، وتشتمنا بحاجبيها وعينيها لأنها لا تستطيع أن تُحدث أي صخب أمام أبي. كان ثمة آلة تسجيل ضخمة على (القنصل) القديم الموجود في إحدى الأطراف. كان أبي يشغل الأغاني طوال الوقت. كل النساء اللواتي كن يأتين إلى المنزل نشيطات، عندما تُشغل الأغاني يبدأن بالرقص. كان أبي أحيانًا يرقص معهن، ولعابه يسيل من فمه لشدة ضحكه. في ذلك الوقت كنا نترك أعمالنا وأشغالنا ونعتني بأبي. أبي ذي الوجه الضاحك! لأنه لم يكن يضحك في أوقات أخرى.. في الليل، وعندما نستلقي في فراشنا، تبقى

تلك المشاهد في رؤوسنا. كانت أخواتي الكبيرات يتهامسن فيما بينهن. أما أنا وأصغر أخواتي فنفتح آذاننا، ونحاول سماع ما يقُلنه. كن يقلن: "نتمنى لو ينظر زوجنا في المستقبل إلينا هكذا ويضحك.." كان الابتسام والضحك هامّين لهذه الدرجة في منزلنا. لم نكن أنا وأصغر أخواتي نتحدث عن ذلك، ولكننا كنا نضع رأسينا على الوسادة نحلم بتلك الأشياء. كنا نغرق في النوم ونحن نحلم برجل مثل أبي يطلق الابتسامات والضحكات مع تلك النساء.

لا توجد علاقة لا تحتوي على توقعات من العلاقات السابقة التي عاشها الإنسان. لقد بدأ القدر بنسج شباكه منذ ذلك الوقت. أفكّر بانتظار هذه الشابة سنوات، بصبر وأمل، اليومَ الذي سيتزوجها فيه ذلك الرجل، وعدم تخليها عنه رغم كل شيء، والدمار الكبير الذي أعقب ذلك، وانهيار آمالها.. أتساءل فيما إذا كان ذلك الرجل يبتسم ويضحك بشكل جميل كما كانت تتخيل.

- كان فكرُ أبي مشغولًا بالزواج بامرأة جديدة شابة وجميلة تستطيع أن تلد له صبيًا. ومجددًا، في أحد المساءات، أتى إلى البيت ثملًا، في البداية ضرب أمي بعود حطب، ثم أراد منا مغادرة المنزل وهو مصر على الزواج بامرأة جديدة. وبالفعل طردنا من المنزل وهو يقول: "انقلعن من بيتي، لا أستطيع أن أحملكن على ظهري طوال عمري". أخافنا جدًا أمر إحضار امرأة أخرى إلى المنزل. وكأن ما عشناه من ذلك لم يكن كافيًا، فكيف لنا أن نتحمل هذا الأمر؟ لم نكن نعرف ما سيحدث لنا في حال أننا غادرنا المنزل، ولكن خوفًا من نوع آخر كان يجتاحنا. في ذلك الوقت لم يخطر في بالنا ما إذا كان هنالك أسوأ من ذلك.

أقول لنفسي "هذا خوف الأمهات". أمر لا علاقة له بالعقل والمنطق. الأم كانت ضعيفة وعاجزة. ولو لم تكن كذلك، لما حدث شيء من هذا. لم تستطع الاعتناء بنفسها أو بأطفالها. حتى لو أبوهن ضربهن، وشتمهن، وغضب منهن،

وحاربهن، فهو وليهن الوحيد. وإذا لم يعد يرغب بهن، يتحولن إلى قطة مشردة. كـ (العاهرة) التي كانت عند بابهم.

- لا أستطيع نسيان تلك الليلة. كنتُ في الخامسة أو السادسة من عمري في ذلك الوقت. حدث ما كنا نخشاه، ففي النهاية، طردنا أبي من المنزل. إلى أين سنذهب، وإلى من سنلجأ؟ تجمدنا حائرات لا ندري ما نفعل. وفي ذلك الوقت تمامًا، ودون إدراك السبب، رميت نفسي تحت قدمي أبي.

ربما احتجن، في ذلك الوقت، إلى ضحية لوقف ما يحدث. طفلة تبلغ من العمر خمس سنوات توافق على أن تكون الضحية لتنقذ أمها وأخواتها.

- توسلت إلى أبي حتى لا يتزوج فتموت أمي، قائلة له: أرجوك يا أبي، لا ترمنا في الشارع، لا تتزوج. سأصير ابنك. عندما أكبر سأرتدي ثيابًا ذكورية، ولن أتزوج حتى أموت. أفعل ما تريد، أذهب إلى المدرسة، أصبح رجلًا كبيرًا.

تقول "ستموت أمي". هذا يعني أن الأم أخافت البنات بقولها إن تزوج أبوكن سأموت. يا له من عجز!

في حين أن الوجود الحتمي لردود الأفعال العاطفية والتوقعات التي نأتي بها من الماضي يمكن أن تكون عبرة لنا، إلا أن هذا - في الواقع - موقف مؤسف للغاية. أعتقد أن هذه التجارب كان لها تأثير كبير لأن تصبح هذه الفتاة عبدة وتتعرض للخيانة والخداع في علاقتها التي استمرت عشر سنوات.

يبدو أن الكاميرا تقرّب الصورة الآن، وتُظهر فتوش وهي تنجرّ تحت قدمي أبيها، مثل (العاهرة) التي كانت موجودة عند باب منزلهم، بعينيها الجاحظتين من الخوف، ودموعها المتدفقة مثل السيل من عينيها. تواصل حديثها وهي تمعن النظر في زخرفة السجادة الحمراء المتموجة، وكأنها ترى ذلك هناك.

- كان أبي رجلًا ظالمًا. ركلني على الفور، مثل (العاهرة) التي كانت على بابنا. أتت الركلة في بطني. طرتُ قليلًا في الهواء ثم سقطتُ على الأرض. اصطدم رأسي بباب المنزل. وبدأتُ أنزف. لم أعرف ما إذا كان مؤلمًا.

وبينما كان رأسي ينزف، لا أعرف ماذا كانت أمي تفعل. ربما انسحبت جانبًا وبدأت بالبكاء كعادتها. ليس عليّ، وإنما على نفسها، رغم أنني رميت نفسي تحت قدمي أبي حتى لا تحزن أمي أو تبكي. لربما تأخذ هذه الطفلة المضحية في حضنها وتداعبها ولو مرة واحدة على الأقل..

ماذا فعلتِ بكل تلك الجراح التي تحملتِها وأنتِ صغيرة يا بنيتي؟ ماذا نثرتْ الجراح على قدركِ، وما الأخطاء التي جعلَتك ترتكبينها حتى وصلتِ إلى ما أنتِ عليه؟ رغم كل شيء فهل سيأتي اليوم الذي تثقين فيه بنفسك وتحبينها، والأهم من ذلك أن تسامحينها؟

- في تلك الليلة، نشلتني أصغر أخواتي الكبيرات من الأرض. ضمدت رأسي. ولا أذكر ما حدث بعدها. في اليوم التالي أتت حافلة صغيرة قديمة عند الباب. أخذنا بقجة أو بقجتين وغادرنا المنزل ونحن نبكي. كنا متجهات إلى بيت جدتي أم أمي في القرية. أشعر بأنني ما زلت أشم رائحة الحافلة الصغيرة. كان المكان يفوح برائحة العرق المخلوط بالسجائر والمازوت. بكت أمي طوال الطريق. جلست أكبر أخواتي بجانب أمي، وكانت هي الأخرى تبكي مع أمي. كانت الحافلة الصغيرة تسير، وأبصارنا تتجه إلى الهضاب، جاهلات ما سيحل بنا. عندما وصلنا إلى القرية رأتنا جدتي فأطلقت صرخة عالية. ومثلنا تمامًا، خافت تلك المرأة المسكينة. جلست وسط المنزل وبدأت تضرب نفسها قائلة "يا للهول.. أهذا النذل المدعو محمد فعل فعلته في النهاية؟" وعندما كانت تفعل ذلك، لم تفوّت أمي التي كانت عيناها منتفختين من البكاء مسبقًا، هذه الفرصةَ، وفي المحصلة بدأنا جميعنا بالنحيب والبكاء. تدفق الجيران الذين سمعوا الأصوات، معتقدين أن هنالك شخصًا قد مات. استغرق الأمر وقتًا طويلًا لإدراك ما حدث، فقالوا: "لو مات أحد. لو مات ذلك المشؤوم أو إحدى الفتيات.. على الأقل لكان الأمر يستحق بكاءنا."

أسكتُ. وكما قلتُ في البداية، جميعنا لدينا نقوش متكررة في حياتنا. هكذا هي حياتنا، تعمل بمبدأ النقوش. لكل شخص منا نقشاتُ دانتيلِ قَدَرٍ مختلفةٌ عن الآخر. يتم تحديد هذه النقوش من خلال تجاربنا السابقة، والعادات التي اكتسبناها، والآلام التي عانينا منها. ووفقًا لهذا، فإن قدَر فتوش قد نُقش على الشعور بالنقص والعيب، ورؤية نفسها أدنى من الآخرين، والبحث عن مالك لها، ثم عبوديتها لهذا المالك الذي وجدته. إن لم نتمكن من تغيير هذه النقوش فإن القدر سيُريها في كل مرة الفيلمَ ذاته.

تنظر في وجهي. تبدو وكأنها تبحث عن شخص ما يعترض إحساسها الذي لا يصدق بانعدام قيمتها. قطّبتُ حاجبي قليلًا، وأومأت برأسي إلى كلا الجانبين محتجة. هي أيضًا أومأت برأسها إلى الأمام والخلف، كأنها توافقني الرأي.

- تبدأ أمي قائلة: "ليصبه الله ببلوة!" وتتابع جدتي: "الله لا يريه وجه الصبي!" الأدعية بالمجان! لم يرغب الجيران بتفويت هذا الصخب، ولم يغادر أحد منهم على الرغم من حلول المساء. لم نأكل لقمة واحدة منذ الصباح، ولم يضع أحد لنا الطعام. ولكن في النهاية أتت جارة مسنّة، وأحضرت خبزًا صاجيًا بداخله جبنة ماعز. كم كان لذيذًا ذلك الخبز بالجبنة.

تومئ برأسها إلى كلا الطرفين وتشرد، كأنها تعيش تلك الأيام مرة أخرى. تطوي ياقة قميصها بيديها، ثم تصلحها من جديد، فكأنها تصلح الظلم الذي جلبته لها الحياة. بعد صمت قصير، تبدأ بالكلام مرة أخرى.

- لدى جدتي بقرتان في حظيرة أسفل منزلها. كنا ننزل إلى الحظيرة معها بحجة إطعام البقرتين أو حلبهما. كانت أختي الأكبر البالغة من العمر اثنا عشر عامًا تقوم بكل العمل، بينما كنا نحن نلهو، ونتدحرج على القش، وأحيانًا نشرب الحليب الذي تحلبه أختي الكبيرة. كنا نحب تينك البقرتين من جهة، ونخاف منهما من جهة أخرى. كانتا كبيرتين. وكان ثمة

الكثير من الحشرات. كان ضوء الشمس يتسلل من خلال نافذة صغيرة تغلّفها شبكة عنكبوت. في ذلك الضوء ثمة آلاف بل ملايين الحبات من الغبار التي تتراقص إلى الأسفل والأعلى. كنا نستطيع رؤية تلك الذرات الصغيرات، ولكننا مهما حاولنا وقفزنا لا نستطيع القبض عليها براحة يدنا. وكلما تدحرجنا فوق القش أكثر، تتحرك غيمة الغبار الموجودة داخل حزمة الضوء، متخذة أشكالًا جديدة. عندما يخطر منزل جدتي في بالي، أتذكر دائمًا حزمة الضوء تلك الموجودة في الحظيرة، وذرات الغبار المتراقصة فيها، والبقرتين الضخمتين، والحشرات أيضًا. تلك الحشرات القذرة التي تتجول فوق عيون البقر، وتأكل رمصها، وتطير ثم تعود لتهبط عليها كلما هزت البقرتان رأسيهما. لا أستطيع أن أتذكر جيدًا كم مكثنا في ذلك المنزل، وأين كنا ننام. على أية حال، كانت تلك آخر زيارة نرى فيها جدتي. بعد عودتنا إلى المنزل بفترة قصيرة ماتت المرأة المسكينة. مع أن المرض لم يكن باديًا عليها. كانت أمي تقول: "ماتت المرأة بسبب قهرها من أبيكنّ". وبدلًا من أن تموت أمي من القهر ماتت جدتي، ولذلك لم نبق بلا أم.

حكاية هذه الفتاة، فتوش، حزينة. جف لسانها بسبب الكلام من جهة، والبكاء من جهة أخرى. ودون أن أسألها، أضغط أزرار الهاتف وأطلب من تونا كأسين آخرين من الشاي. نسكت ريثما يأتي الشاي. وأثناء وضع تونا الشاي أمامنا بعناية، تحدق عيناها بفستان الفتاة المبلل بالدموع. تنظر إليّ أولًا، ثم إلى المناديل الورقية الموجودة فوق الطاولة، ثم إليّ مرة أخرى. أرفع حاجبيّ قليلًا. وهي بدورها تخرج من الغرفة دون أن تقول شيئًا. كانت فتوش ترى المناديل، ولكنها لا تستعملها. في اليوم الأول لمجيئها إليّ، شبّهت نفسها بالمنديل الورقي المستعمل والمرمي. ربما لهذا السبب لم ترغب باستعمالها. بعد أن ترشف فتوش رشفة كبيرة من الشاي، تتابع كلامها.

- لا أعرف لماذا عدنا إلى البيت، أو إن كان أبي هو الذي دعانا أم لا. لكن تلك الحافلة الصغيرة أتت مجددًا إلى القرية بعد أسبوع. وركبنا فيها جميعنا مجددًا. ومع أن أحدًا لم يتفوه بشيء، ولكن ذلك الخوف الذي نكرهه جميعنا اجتاحنا. وعلى أية حال، فإن هذا الخوف لم يفارقني مدى الحياة.
- وكيف هو هذا الخوف؟
- خوف طبيعي.. بغض النظر عن السبب، فقد كنتُ طوال حياتي خائفة من شيء ما. حتى إنني في بعض الأحيان أخاف من بعض الأشياء دون أن أعرف السبب. والآن أفكر في الأمر، لم تمنحني الحياة أبدًا فرصة العيش في محيط آمن. يبدو أن مصير الإنسان لا يتغير. لا يمكنكم الهروب من القدر. إن تبعكم مرة فلن يترككم..
- أو نصبح بعد فترة مدمنين على الأشياء التي نخاف منها. إن لم تعثر هي علينا، نعثر نحن عليها.

ترفع رأسها وتنظر في وجهي وهي نصف مغمضة عينيها، كأنها تحاول أن تفهم ما أقوله. بعد أن تفكر برهة من الوقت، تبدأ بالكلام وهي تنظر في عيني مباشرة، وبصوت تتخلله مشاعر جيّاشة.

- آه، لو تعرفين، حضرتكِ، كم من الأخطاء ارتكبت.
- كلنا نرتكب الأخطاء.
- وبمعرفة مسبقة مني.. هذا يعني أنني أنا أيضًا أصبحت مدمنة لمخاوفي.

أشعر بالجهد الذي تبذله في محاولتها لفهم حقيقتها الكامنة في هذه الكلمات. إن تمكنت من تقييم نفسها بالشكل الصحيح، والنظر إلى جروح الماضي العميقة، ومعرفة التغييرات التي أحدثتها هذه الجروح في شخصيتها، لربما توقف القدر عن إجبارها على تكرار نفس النقوش كل مرة.

لم تعد تحني رأسها أثناء الكلام، كما أصبحت تنظر في عينيّ مباشرة. إنها تشبه طائرًا كُسر جناحه.

- عندما وصلنا إلى المنزل ذُهلنا جميعًا. فتحتْ لنا الباب شابةٌ جميلة. كنا نعرفها. كان اسمها (حنيفة). كانت فتاة مسكينة فقيرة تعمل في الحقول معنا. على رأسها وشاح أحمر مطرّز. كانت ترتدي فستانًا قطنيًا أحمر مزهرًا. وحول رقبتها التي اسمرت من الشمس يهتز عقدٌ ذهبي عليه شريطة حمراء. هذا يعني أن هذه الفتاة الشابة هي زوجة أبينا. وبينما لم نكن نعرف ما يجب علينا فعله أو قوله، ركضت حنيفة وأخذت البقج من يد أمي، وقالت لها: "تفضلي يا أختي الكبيرة" ودعتنا إلى الداخل. كان المنزل قد تغير. طُلي من الداخل والخارج أثناء غيابنا، وأضيفت إليه غرفة أخرى. دخلت أمي إلى غرفتها والغضب يعتريها. أما حنيفة فكانت قد حضرت الطعام وجهزت المائدة لنا. كانت تعاملنا كأخت كبيرة، لا كزوجة أب. مع أننا كنا جائعات، لكننا لم نجلس إلى المائدة بسبب خوفنا من أمنا.

ترشف رشفة أخرى من الشاي. لم تعد تبكي الآن، وقد تشكلت طبقة رقيقة من الضباب في عينيها.

- في ذلك المساء، أتى أبي إلى المنزل باكرًا. كانت المرة الأولى التي نراه فيها سعيدًا. وعلاوة على ذلك لم يكن ثملًا، ولكن مجيئه إلى البيت باكرًا، وعدم تناوله المشروب لم يستمر طويلًا، عاد إلى عادته القديمة. أما أمي التي لم يضحك وجهها مطلقًا، فقد ساءت حالتها تمامًا بمجيء حنيفة إلى المنزل. عيناها تمتلئان بالدموع، ولسانها بالغضب، وفي يدها عصا. كانت طوال تلك السنوات تتحمل جميع أنواع العذاب، ولم يصدر أي صوت منها، ولكنها لم تعد تتحمل عندما أتى زوجها بامرأة أخرى إلى المنزل. ولكن، وعلى الرغم من عدم تقبلها الأمر، فالمرأة كانت شابة، وجميلة، وطيبة الكلام. أما هي فلم تكن شابة، أو جميلة، أو طيبة الكلام. كانت تحلم دائمًا بأن تنجب صبيًا. وبهذا الأمل ولدت سبع

بنات، فما استطاعت أن تنجب صبيًا، ولا أن تحبب زوجها بها. حتى إنها غضبت لوفاة بعض الأولاد. بقي شعور وحيد يسيطر عليها؛ إنه الغضب. لم تكن فقط غاضبة من زوجها الذي لا يحبها، أو من ضرّتها حنيفة، بل كانت غاضبة من الدنيا كلها.

ومجددًا بدأت بالبكاء، ولكن هذه المرة لم يكن من أجل نفسها، بل من أجل أمها التي رُميت في إحدى الزوايا وهي في الأربعين من عمرها. وأنا أيضًا أفكر بالأم، وأحاول فهم ما شعرت به تلك المرأة. كانت، في السابق، إذا غضبت أو تضايقت أو ضُربت، لها زوج، أما الآن فقد فقدته هو أيضًا.

– كانت تقول "لو ولدت حنيفة هذه صبيًا سنحترق هذه المرة". لم تكن هي من يخاف فقط، بل جميعنا كنا خائفات من ذلك. منذ مجيء حنيفة لم يعد أبي ينظر في وجه أمي نهائيًا. في السابق، وعلى الأقل، عندما يأتي إلى البيت كان يصرخ ويزعق ويضرب ضربًا مبرحًا، ولكن في النهاية يدخلان الفراش معًا. أما بقدوم حنيفة فقد تغير نظام البيت. بقيت أمي وحيدة مع قدَرها.

تجلس على الكرسي متصلبة وشاحبة. ركبتاها متلاصقتان. شفتاها بيضاوان. تتنهد بعمق. أفهمها جيدًا. يأتي الأطفال إلى هذه الدنيا مفعمين بأمل أن يكونوا مهمين.

– كانت أمي حزينة جدًا، تغضب منا وتدعو علينا كثيرًا كما لو أننا كنا السبب في ذلك. لم تعد تذهب إلى العمل في الحقل كالسابق، ولم تعد تهتم بأي شيء حتى لو قامت الدنيا وقعدت. كما كانت حنيفة تذهب إلى الحقل بدلًا منها، وبقي على عاتقها هي صنع الطعام في البيت فقط. في الواقع، لو كان الأمر بيدها لما فعلت ذلك أيضًا، ولكن أبي لا يعطيها وجهًا. حتى لو قالت إنها مريضة، لا يستمع إليها ويصر قائلًا: "هذا الطعام سيُصنع!" كنا في حالة عجز تامة. حلت الطمأنينة على البيت ولو قليلًا،

وانتهت القيامة التي تحدث كل ليلة، ولكن أمي لم تعد تتركنا وشأننا هذه المرة. في السابق لم تهتم بأي منا نهائيًا، ولكننا، في هذه الفترة، بقينا وحدنا تمامًا. وعند استلقائنا في الفراش، ينتاب الخوف كل واحدة منا، وعندما نرى أمنا على هذه الحال، نشعر بتأنيب ضمير غريب، كما لو كنا نحن المذنبات في ذلك. الأصوات القادمة من الغرفة حولت هذه المشاعر إلى كراهية، وامتلأنا برغبة الانتقام من هذا العالم. وبعد ذلك، صار كل الرجال سيئين بالنسبة إلينا، والنساء أيضًا. والأسوأ من ذلك كله، الهجر.

لقد أعد لها القدر حياة تسودها مفاهيم الخوف، وانعدام الأمن، والافتقار إلى الشعور بقيمة الذات. لم تستطع الشعور بحريتها وقيمتها قط. أعتقد أن هؤلاء الفتيات كنّ يواجهن المصاعب معًا كفريق واحد. ربما بفضل التجربة الأليمة التي عاشتها تمكنت من أن تكون ناجحة في حياتها العملية. من الواضح أنها اكتسبت القدرة الجادة على العمل الجماعي. ومع ذلك فقد تعلمت شيئًا آخر خلال هذه السنوات؛ أن الهجر هو أوجع ألم في العالم. كانت خائفة. ربما كان شعور الخوف هذا هو العامل الحاسم في حياتها.

- بمرور ثلاثة أو أربعة شهور على مجيء حنيفة إلى المنزل، وقع خبرُ حملها علينا كالقنبلة. كان أبي سعيدًا كما لو أنه متأكد من أن المولود سيكون صبيًا، فكان كل مساء، وبعد طعام العشاء يرفع يديه نحو السماء ويدعو قائلًا: "إلهي، امنحني صبيًا، ومقابل هذا أضحي بكل مالي وملكي. لا تُخجلني". عندما يدعو هكذا كنا نحن الفتيات وعلى رأسنا أمي ندعو عكس ذلك في دواخلنا قائلين: "الله لا يريك وجه الصبي". كانت حنيفة تتدلل طوال فترة حملها، فلا تذهب للعمل في الحقل، ولا تحمل شيئًا ثقيلًا لئلا يصيب الصبيَّ شيء، كانت تشعر بالغثيان وتتجشأ باستمرار. عندما ترى أمي كل هذا، تغضب بشدة، وتظل تلعنها حتى المساء. وفي النهاية حان وقت الولادة. نُقلت حنيفة إلى المستشفى وسط

ضجة كبيرة. كنا جميعًا ننتظر هذا اليوم، ولعدة أشهر، كالمحكومين بالإعدام. لم يكن أحد يتكلم، دخلت أمي الفراش وهي تحرك شفتيها بصمت وتدعو، أما نحن فرؤوسنا إلى الأمام، ننتظر وصول الأخبار إلى المنزل. جلست أصغر أخواتي بجانبي، كانت ترسم أشياء على دفتر مدرستها، ثم تظللها. وأثناء تظليلها لها يصدر صرير مزعج. أما أنا فكنت أمد رأسي نحوها محاولة رؤية ما كانت ترسمه. كانت ترسم طفلًا. في ذلك الوقت نهضت أمي من مكانها غاضبة. رمت المسبحة التي بيدها جانبًا، وتناولت "الشوبك" الموجود بجانب الغاز وانتصبت فوق رؤوسنا. كانت تضرب أختي بعنف. أثارت الأصوات التي تصدر من القلم غضبها، فكانت تضربها وكأنها تريد أن تفرغ جام غضبها كله فيها وهي تقول: "هل تتعمدين ذلك!" حاولنا جميعًا معًا أن نسحب أختي من بين يدي أمي.

أستمع إليها بشفقة حزينة.

- في النهاية حدث ما كنا نخشاه. عاد والدي إلى المنزل راقصًا. وقف أمام أمي، وبدأ يزمجر. قال لها: "يا امرأة، يا امرأة! صار لديّ صبي مثل كرة النور. هل فهمت الآن على من كان يقع اللوم؟" وقال أشياء أخرى كثيرة في ذلك اليوم، حول كيفية جلوسه في المقهى نافخًا صدره، وعن ضمانه للمستقبل، وعن الناس الذين لن يخجلوا من النظر في وجهه بعد الآن... في الواقع، كان يوجه هذا الكلام لأمي، ولكننا كنا جميعًا نأخذ نصيبنا منه. هذا يعني أننا كنا نُخجله. كنا قد تعرضنا للضرب من أمي حديثًا، ولكن كلمات أبي كانت أثقل من الضرب. في ذلك اليوم جلسنا تحت شجرة التوت الموجودة في الحديقة وبكينا معًا. عندما رآنا أبي نبكي غضب منا. قال لنا: "ابكين، ابكين. اجلسن وابكين بدل أن تفرحن بوجود أخ لكن. فأنتن جميعكن تضمرن لي العداوة". أمي من جهة، وأبي من جهة أخرى،

يعتبرانا عدوات لهما. كل ما كنا نعرفه هو مدى شعورنا بالوحدة.

تصبح ورقة أخرى في يد القدر. إنها الوحدة.. كنت أقول في نفسي "حتى لو نسيتِ أنتِ، فالقدر لن ينسى كل ذلك". الهجران، ثم الوحدة! ربما هذان الشعوران المخيفان هما اللذان كانا يسيطران على حياتها كلها.

تنظر في عيني بعمق. وكأنها تريد أن أدرك مدى وحدتها. إنني أتفهمها، ولكنني، وإلى الآن، لا أتفوه بأي شيء. لو حكيت لها ما فهمته لربما لن تبلل دموعها ما ترتديه وحسب، بل سأختنق أنا أيضًا بتلك الدموع.

تخبرني الحياة بآلاف الأسرار الكامنة فيها من خلال هذه الفتاة المكسورة مثل غصن الشجرة الرفيع. وكأن الستائر ترتفع واحدة تلو الأخرى أثناء إصغائي إليها. بينما أعتقد بأنه يمكنني رؤية بعضها وفهمه، إلا أن أكثرها يمر أمامي بسرعة، وقبل حتى أن أفهم منها شيئًا..

- في السنة التالية، أنجبت حنيفة صبيًا آخر. كانت تنجب صبيًا تلو الآخر. مع أنه صار لدينا إخوة ذكور، ولكننا لم نكن نشعر بقربهم منا. فقد كانت أمي تنظر إلينا بطريقة نخشى فيها من الاقتراب منهم. بدأنا نكبر. كان أبي يريد تزويجنا بأسرع وقت ممكن، والتخلص منا. كان يفصل من المدرسة من ينهي المرحلة الابتدائية. تزوجت أختي الكبرى عند دخولها سن الخامسة عشر دون أن يسألها أحد إن كانت تريد ذلك أم لا. كنا جميعًا ننتظر مصيرنا ممتلئات بالخوف. يزوجون من تدخل سن الخامسة عشر فورًا. ومجددًا كنا وحيدات، بلا معيل...

وحيدات بلا معيل.. وكأنهن أتين إلى هذا العالم كعيب، ولم يعلهن أحد، لا الأم ولا الأب.. أما هي فما زالت تبحث عن معيل لها. مع أنها، ومنذ زمن، قد بلغت السن الذي تكون فيه معيلة نفسها.

- عندما أنهيت المرحلة الابتدائية مرضت أمي. وفي النهاية أصابها السرطان بسبب حزنها. تزوجت ثلاث من أخواتي. وبقينا أنا وأصغرنا، وقد حان

وقت زواجها. لقد بلغت سن الخامس عشرة، ولكنها كانت ناعمة وصغيرة. لا تزال تبدو طفلة. لم يطلبها أحد. وعلاوة على ذلك كانت تتعب بسرعة. لا تستطيع التعامل مع الأمور جيدًا. ربما لم يكن لديها الكثير من الكفاءة. كان من المفترض أن تعتني بأمي أكثر من غيرها. كانت المرأة مريضة، وطريحة الفراش. كانت تزور أطباء المدينة باستمرار، وتُعالج بالأشعة، ولكن أختي لم تكن تعتني بها بالشكل المطلوب. كانت أمي تغضب منها كيفما تصرفت، وتدفعها، ثم تتغوط. أما حنيفة فلا تترك كلمة أمي تصير اثنتين، كانت تهتم بها أكثر منا. تطبخ لها ما تريد، وكأنها تحضر طعامًا لأولادها، تضيف مرق الدجاج إلى الحساء حتى تتقوى أكثر. ولكن مهما فعلت، لم يكن وجه أمي يضحك. لم تشكرها ولا حتى مرة واحدة.. ثم تموت. كنا جميعًا ندرك ذلك. خاصة أختي الصغيرة، فقد انطوت على نفسها، وكانت تبكي في السر. وتوبخني كلما مررت بجانبها سائلة: "لماذا تبكين؟" ثم تطردني فورًا. مع أنني كنت أريد التحدث مع أحد ما، والبوح بهمومي، وبمخاوفي. كنت أشعر بالأسف تجاه أختي، وأبحث عن طريقة لمساعدتها، كما أنني أردت أن أفهم سبب بكائها المستمر على هذا النحو. وبغض النظر عن الآخرين، فلو كنت صبيًا لتغير قدَرهم. كنت أعرف أنهم كانوا محقين في عدم محبتهم إياي، وعدم رغبتهم بي، ولكن في النهاية أختي ضحت بنفسها.

كيف يلوم الإنسان نفسه على مجيئه أنثى وليس ذكرًا إلى الدنيا؟ لا فائدة الآن من القول بأنها كانت بريئة بعد سنوات من كيل الاتهامات لنفسها بلا رحمة... يجب عليها أن تدرك ذلك بنفسها. وهناك أيضًا مسألة الأخت. كيف ضحت بنفسها يا ترى؟

كنت أنتظر أن تهدأ. كانت تميل بعينيها، وهي تمسحهما بظهر يدها، نحو الساعة المعلقة على الحائط. وأثناء ترتيب شعرها القصير بيدها، بدت أنها تشعر

بغرابة ذلك الشعر. فبدلًا من قص رقبتها فقد قصت شعرها في الوقت الحالي. لكنها تحكي وتتحدث وتحاول إفراغ السم الذي في داخلها. هذه الأمور تشعرني بالأمل.

- كنت أظن بأنني نسيت كل ذلك منذ وقت طويل، ولكن لا أدري كيف حدث ذلك، ظهر كل واحد منهم فجأة، كما لو أنه حدث بالأمس. لدي الكثير لأخبركِ به ولكنني أعتقد بأن وقتنا انتهى. نلتقي الأسبوع المقبل إن شاء الله!

تنهض وهي تسوّي قميصها الحريري الأسود. أرافقها إلى الباب. نظرت إلى ظهرها، رأيت مرة أخرى حطامًا يسير.

بعد عشر سنوات، وعندما تخلى عنها عشيقها، تجددت كل آلامها. إن الآلام والمشاكل التي كانت تختبئ لسنوات دون أن يتم لمسها تطفو بسرعة على سطح الماء. نسمي عملية النسيان هذه في الطب النفسي "الكبت النفسي أو القمع"، وهي عملية خاصة بميل الإنسان لإخفاء مشاعره المؤلمة تحت سطح الماء بهدوء ودون أن يُشعر أحدًا. ورغم اعتقادنا بأننا نسينا بعض الأشياء، إلا أنها ما تزال تؤثر على حياتنا الحالية وتستمر بتوجيهها.

عندما غادرت، ألقيت بنفسي أمام النافذة فورًا. الناس في الأسفل يتراكضون. الكل في عجلة من أمره. الحياة مستمرة.

(9)

كانت معنويات كنان منهارة. الأيام تتلاحق، والحياة تتدفق، ولا يصدر من فادي أي شيء. حتى صديقات فادي لم يتصلن. ثمة خطب ما. هل جُنّت هذه الفتاة يا ترى؟ هل ينفصل المرء عمن يحبه بعد عشر سنوات، لسببٍ كهذا؟

في تلك الليلة، كان حالته تسوء، ومعنوياته تنهار كلما فكر أكثر. لقد تعرض للضرب من قِبل امرأة أمام أعين الجميع، وافتُضح أمره أمام الناس والعالم. حتى هاندان، وبعد تلك الليلة، لم تعد تُظهر له الاهتمام والحب السابقين. وماذا يجب عليه أن يفعل؟ هل كان عليه أن يضرب فادي أمام كل ذلك العدد من الناس؟ هو لم يضرب أي امرأة قط، ولا يعرف شيئًا من هذا القبيل.

ورغم كل شيء، لم يعرف بماذا كانت فادي تفكر. لماذا لم تتصل هذه المرأة به منذ أيام، أو تسأله عن حاله وحال رأسه. لقد كاد أن يموت تلك الليلة. ألا تقلق على حبيبها نهائيًا؟ ألم تكن تحبه كثيرًا حد العبادة؟ هل كان هذا كله كذبًا؟ هل هؤلاء النساء خائنات هكذا، دائمًا؟

لا يفكر بالكبرياء والغرور، سوف يتصل بها. انتظر بما يكفي. سيخبرها بكلمات جميلة على الهاتف، سيقول لها بأنه اشتاق لها، وأنه يحترق ويكتوي، ويطلب ألا تحرمه من نفسها أكثر، ويحاول إرضاءها.

في مساء ذلك اليوم، وعندما ترجّل من السيارة، وقبل أن يدخل إلى الملهى، اتصل بفادي. رن الهاتف ولكن دون رد. اتصل مرة أخرى، ولم يرد أحد. هذه المرة كتب برسالة ما أراد أن يقوله لها على الهاتف، وأرسلها. مشى للأعلى وللأسفل بانتظار رد منها، ولكن لم يأت شيء. اتصل هذه المرة بمكان عملها، وقال إنه يريد التحدث مع فتوش خانم. قالت السكرتيرة: "دقيقة واحدة، سأربط حضرتك بها

فورًا." ولكنها بعدة مدة وجيزة عادت لتقول: "فتوش خانم في اجتماع، ولا نعرف متى تخرج منه." ثم أغلقت الهاتف.

كان ذلك سيئًا. مما يعني أن غضب فادي لم يهدأ بعد. لم يستطع الانتظار أكثر، فقد كان عليه أن يفعل شيئًا ما لتعود المياه لمجاريها. هذه الحياة لا تطاق، ولا يمكن العيش فيها دون فادي. هذه المرة أدرك ذلك تمامًا. ولأنه لا يستطيع الطلاق من هاندان، فقط وقعت التضحية على عاتق فادي مرة أخرى. ولكنه ربما في السنوات الأخيرة لم يدعم فادي جيدًا من الناحية المادية. والواقع أنها لم تعد بحاجة أحد بعد الآن، إلا أنه لم يعد يشتري لها الهدايا الثمينة، وحتى في أعياد الميلاد كان يسكتها بالأزهار فقط. كان ينبغي أن يكون أكثر حذرًا..

كلما فكر بذلك، كانت أعصابه تتوتر مثل القوس، ومعنوياته تنهار على الرغم من عدم إظهاره ذلك كثيرًا. وكلما توتر أكثر يرتفع ضغطه، ويزداد نبض قلبه، فيسارع إلى الطبيب. وعلى ضوء ذلك بدأ يتوهّم. شعر وكأنه سيموت. ومع أن الطبيب لم يجد فيه شيئًا مهمًا، إلا أنه لم يُصدق ذلك بأي شكل.

لو اتصلت فادي هذه، لما بقي فيه شيء، ولعاد إلى رشده. كان يدرك ذلك مثل اسمه، ولكنها لم تتصل.

من مذكرات طبيبة

الفصل شتاء، والوقت يقترب من الظهيرة. السماء غائمة ورمادية. نسيم بارد ينثر أوراق الأشجار اليابسة في الأرجاء. ومجددًا، ومنذ الصباح، أعمل في غرفتي الصغيرة الموجودة في شارع المشروطية. يدخل مريض ويخرج آخر إلى تلك الغرفة الصغيرة. أصبحت معتادة على الاستماع إلى قصص الناس المختلفة، الواحدة تلو الأخرى. لم أكن أفعل ذلك في السنوات الأولى من مسيرتي المهنية. كانت المشاعر المختلفة التي يعيشها الناس ويحكونها لي تعلق في داخلي. كانت أستاذتي (ليلى ظلالي) تقول لي في ذلك الوقت: "لا تخافي، أنت أيضًا ستعتادين على ذلك مع الوقت". إنها محقة، لقد اعتدت. الآن يمكنني التركيز مع شخص آخر بمجرد دخوله الغرفة، مثل إغلاق ملف، وفتح آخر جديد.

قبل قليل خرجت من الغرفة سيدة عمرها خمس وخمسون عامًا، فقدت زوجها حديثًا. كانت مدركة، ومنذ وقت طويل، أن الموت شيء طبيعي، ولكنها مع ذلك لا تستطيع السيطرة على مشاعرها. فتراه أينما ألقت بنظرها في المنزل، لا يختفي من أمامها، عيناه، ضحكته، تناوله طعامه، يداه، قدماه، وحتى أظافره. تبحث عنه كثيرًا...

ستدخل فتوش الآن. أستقبلها عند الباب. كانت تحاول جمع شتات نفسها بأسرع وقت ممكن، ولكن مع تحسنها يزداد الغضب في داخلها يومًا بعد يوم. تبدو وكأنها أفسحت المجال تمامًا للغضب من حبيبها بدلًا من الإعجاب به والشوق إليه. وحتى لو لم تقل ذلك علنًا، إلا أنني أدرك تمامًا احتراقها من الداخل، وعدم نسيانها هذا الرجل، وأنها مهما فعلت فإنه يومض مثل المصباح في إحدى زوايا عقلها.

كانت ثيابها أكثر أناقة، ولكنها تستمر في إنقاص وزنها. ومجددًا، إنها بسيطة وأنيقة... سرحت شعرها القصير بشكل أملس نحو الخلف. وضعت هذه المرة

قرطين من الماس في أذنيها. إنها علامة جيدة. لم تكن تضع أحمر شفاه على شفتيها، أو طلاء على أظافرها. نظراتها تبدو باهتة وحزينة.

تقول إن حبيبها يُصرّ، ومنذ أسبوع إلى الآن، على الاتصال بها. كانت هذه الاتصالات تغضبها بدلًا من أن تسعدها. يتصل بهاتفها المحمول وبمكان عملها أيضًا، وعندما لا يتلقى ردًا، يمطرها بالرسائل.

- ماذا يقول في الرسائل؟
- لا أقرأ أكثرها. سيخدعني مجددًا.
- هل افترقتما قبل ذلك؟
- كثيرًا...
- لماذا افترقتما؟
- كنا دائمًا نتجادل بسبب موضوع الزواج هذا. كنت أقول له باستمرار "إن لم تكن لديك نية بالطلاق من زوجتك، والزواج بي، فأخبرني بذلك صراحة. إنني مصرة على عدم الاستمرار بهذه العلاقة على هذا المنوال".
- وهل كنت مصرة حقًا؟
- في السنوات الأولى لم أكن أفكر بالزواج نهائيًا. فقد كنتُ طفلة في تلك الفترة. وعلاوة على ذلك، فقد كانت المرة الأولى التي أقع فيها بالحب. كان يقول لي بأن هذا الزواج قد انتهى فعليًا، وأنه سينفصل عن زوجته حتى لو لم أكن موجودة في حياته، ولكنه يريد أن يفعل ذلك دون أن يؤذيها أو يُحزنها. وبهذا الشكل ماطلني سنوات. كم كنت ساذجة أنا أيضًا. صدقت كل ما قاله. ظننت أنه يحبني، حتى تلك كانت كذبة. لقد سلبني روحي، وسينال عقابه.

كم تتألم وهي تحكي. أن تكون محبوبة هو هدف يصعب الوصول إليه بالنسبة لها. هذا يعني أنها، وإلى اليوم، سعت لأن تكون محبوبة. وعلاوة على ذلك فقد اختارت لنفسها هدفًا رغبت به كثير من النساء ولكنهن لم يستطعن بلوغه بأي

شكل. ربما قالت في نفسها "بما أنني لم أكن محبوبة قط، لأدع أحدًا ما يحبني فيملأ هذا الفراغ الهائل الموجود داخلي". مع أنه كان يصعب جدًا ملء هذا الفراغ الذي كان قد تشكل قبل سنوات.

بعد أن تنهدت بعمق، تابعت كلامها.

- إنني أحارب القدر منذ سنوات. حكيت لحضرتك من أين أتيت. ولقد نجحت في حياتي العملية من خلال العمل الجاد. الشكر لله، لست محتاجة إلى أي أحد بعد الآن. لكنني لم أستطع فعل الشيء نفسه في حياتي الخاصة. لو تعلمين، حضرتكِ، كم عانيت من أجل ذلك!

هززت رأسي قليلًا وأنا أنظر إليها. ما قالته صحيح، عاملت الرجل كالملك تقريبًا، ووضعته فوق رأسها، ولكن الحياة لم تكتفِ بذلك. في بعض الأحيان لا يكفي أن تكون طيبًا، أو أن ترضي الناس، أو أن تحبهم.

علمتني هذه المهنة الكثير حول هذا الموضوع. ثمة أشخاص كلما أسأت إليهم، وآذيتهم، كلما قدّروك أكثر. حتى الحب يتشكل من آثار أقدام التجارب الماضية.

- يبدو أن هذه الأمور لا تسير هكذا. لم أرغب بتصديق القدر نهائيًا. كنت أفكر بأنني سأتغلب على القدر بالعمل وعدم النوم لو تطلب الأمر. كان عليّ أن أدرك ذلك عندما فقدت أصغر أخواتي.

- كيف فقدتِها؟

تشرد عيناها. أنتظر برهة. من الواضح أن هذا الموضوع يحزنها كثيرًا، ولكنها من جهة أخرى تريد أن تشاركني إياه. لم تتحدث بهذه الأمور مع أحد قبل ذلك. كيف عانت كل هذه السنوات وحدها يا ترى؟

- ثلاث من أخواتي تزوجن، ولكن لا يمكن اعتبارهن نجون بمعنى الكلمة. وعلى الرغم من أنهن عانين من مشاكل أخرى في منازلهن الجديدة، إلا أنهن على الأقل كنّ بعيدات عن غضب أبي وتعاسة أمي ونظراتهما

المؤنّبة. كان قد حان دور أصغرهن. كانت صغيرة وهزيلة حقًا. كانت تبدو طفلة. ليس فقط جسدها الذي لم ينمُ، بل حتى روحها أيضًا. لم تصلح يدها لأي شيء، ولم تستطع أيضًا الاعتناء بأمي جيدًا رغم إرادتها لذلك، فكانت توبخ باستمرار، وتُطرد من المنزل أحيانًا.

بعد أن أخذت نفسًا طويلًا كأنها تعبت من الكلام، تنهدت بحزن، وتابعت كلامها.

- في ذلك الوقت كنت أنا أيضًا متضايقة جدًا. كنت حزينة من أجل أمي من جهة، وأريد أن أدرس من جهة أخرى. لم تكن دروسي سيئة. توسلت لأبي كثيرًا ليرضى، ولكنني لم أستطع إقناعه. كنت أقول إن الموت أفضل لي من الاستسلام للقدر مثل أخواتي. فحتى لو متُّ لن يهتم أحد. ربما لهذا السبب لم أهتم بأصغر أخواتي جيدًا. كنا نتقلب في الفراش باستمرار. فما استطاعت النوم ولا حتى أنا، ولكننا لم نكن نتكلم. في بعض الأحيان يتناهى إلى مسمعنا صوت أمي. كانت تئن في الليل. وكلما أنّت لا نعرف ما نفعله، وأحيانًا نذهب إليها ونرى ما إذا كانت تريد شيئًا. كانت أختي تركض لإحضار الماء لها، ولكن إن هربت قطرة ماء من الكأس تغضب أمي وتلعنها باستمرار.

- وماذا كانت تقول؟

- كانت تقول: "ليحلّ البلاء عليكِ إن شاء الله. أتمنى أن تسوئي أكثر مني أيتها الفتاة الخرقاء" وما إلى ذلك. في تلك الليلة، ومجددًا، غضبت أمي من أختي بسبب شيء تافه. كانت تصب كل غضبها عليها. لم يستطع كلانا النوم. عندما كنت على وشك الذهاب إلى المدرسة صباحًا كان وجه أختي شاحبًا. ولم تودعني كما في كل مرة، هزت لي يدها قليلًا من الباب. كان ينتابني الشعور بسوء لا أعرف ما هو. كانت المدارس ستغلق في ذلك الأسبوع ولن أستطيع الذهاب إلى المدرسة مجددًا. كنت أرجع

سبب ما أشعر به من سوء إلى هذا. في فترة ما بعد الظهر، عدت إلى المنزل متعبة مطأطأة الرأس. كان ثمة شيء غريب في المنزل. لقد كان مزدحمًا، والنواح عاليًا. ركضت نحو المنزل وأنا خائفة من أن شيئًا ما قد حدث لأمي. وبمجرد دخولي الحديقة رأيت أختي ممددة على الأرض. كان جسدها مليئًا بالكدمات. لقد ألقت بنفسها من الجرف الموجود على طريق القرية.

رمت بنفسها؟ إذن فإن الأخت الصغرى انتحرت.. آه، أتى هذا الألم ثقيلًا حتى عليّ. إذن الحلقة الأضعف بين الأخوات كانت هذه الأخت الصغرى. يا للأسف على الفتاة، يا للأسف..

- وجدها القرويون وأحضروها. جدّولتاها مرخيتان على كلا الجانبين، عيناها مفتوحتان، وكذلك فمها. ممددة على طولها وهي مغطاة بالدماء. كان على وجهها تعبير تبدو من خلاله أن كل مشاكلها قد انتهت وارتاحت. أتى من سمع الخبر، كان الذين في الداخل والخارج يرثون أختي. كان أبي هناك أيضًا. يجثم على ركبتيه، ويغطي وجهه بيديه، وينحب فوق رأس أختي. يتناهى إليّ صوت أمي من الداخل. كانت تصرخ قائلة: "يا ابنتي". على الرغم من أننا لم نسمعها تنادي أيًا منا "يا ابنتي" من قبل.

يختنق صوتها أكثر فأكثر، وتنعقد التنهدات في حلقها. يا لها من حكاية حزينة! على الرغم من أنني ضغطت على أسناني، ولكنني لم أستطع إزالة الغشاوة عن عينيّ. هذه الفتاة تحكي بشكل مميز. وكأنها لا تحكي، بل تُظهر اللوحات واحدة تلو الأخرى، لوحات كانت موجودة داخلها طوال سنوات دون أن تبهت.

- لم أصرخ أو أبكي مثل الجميع، بل تجمدتُ مكاني. ثم هربت من ذلك المكان. تجولت في الأرجاء وأنا أحدق في المكان حولي ساعات. كان المساء قد حل عندما دخلت البيت بهدوء مثل لص. حبست نفسي في الغرفة التي نمنا فيها معًا سنوات. جلست بجانب الحائط، أرخيت رأسي

على ركبتيّ، ولم أنهض بعد ذلك. جلستُ هناك أيامًا دون طعام أو شراب أو كلام. كانت رائحة أختي، مثل رائحة الموت، معششة في أنفي. وبينما كان الجميع يتعرقون في ذلك الجو الحار، كنت أشعر بالبرد، كنت أشعر ببرد شديد.

إنها تبكي. كلما نظرت إلى هذه الفتاة أقول في نفسي: "ستبكي كثيرًا". تبدو لي أنها تحاول إفراغ كل الدموع التي كانت تنتظر بصبر داخلها. على الرغم من أنها أغرقت نفسها بالدموع، إلا أنها كيف استطاعت، ولسنوات، أن تخفي وحدتها في الليالي التي قضتها على ذلك السرير الكبير بعد أصغر أخواتها، والخوف الذي لم تستطع أن تزيحه عنها، والكوابيس التي رأتها، وشعورها بالذنب لكونها سببًا بوفاة أختها، وتأنيب الضمير الذي عانت منه؟

أستمع إليها، ولكن يصعب عليّ ما أسمعه. تتضح الغشاوة في عينيّ أكثر فأكثر. لا أريدها أن ترى ذلك. إنني طبيبة، ليس لدي أي مسوغ لأشاركها بكاءها. ولكن حدث ما كنت أخشى منه، تتلاقى عينانا في إحدى اللحظات. عندها تبدو فتوش وكأن كهرباء قد صعقتها. وسرعان ما تنهض من مكانها تركض نحوي، وتحتضنني بطريقة جعلتني أخاف وأعتقد أنني سأقع من على كرسيي. ثم تهمس شيئًا في أذني، قائلة: "لن أشعر بالبرد في الليل بعد الآن كما كنت في السابق". تزيد هذه الكلمات من الحزن الذي يتفاقم داخلي.

يبدو أنها المرة الأولى التي تشارك فيها وجعها مع أحد ما. إن هذا شيء ثمين جدًا، وغير طبيعي أبدًا. مع أن هذه الأشياء هي أشياء طبيعية، وإنسانية..

- كان موت أصغر أخواتي صعبًا علينا جميعًا. بدا المنزل وكأنه قد غرق في الظلام، وحتى الصبيان لا يصدر منهم صوت، فلا يصرخون أو يبكون. سرعان ما تفرق ازدحام اليوم الأول، وخيم صمت عميق على المنزل. في تلك الغرفة، وعلى السرير الذي كنت أنام فيه مع أختي، كانت رائحتها التي تملأ أنفي كل ليلة تدفعني إلى الجنون. لم أكن أتكلم، أو أبكي، أو

آكـل، أو أشـرب، أو أخـرج مـن تلـك الغرفـة. كانـت أمـي تنـام في غرفتهـا كالمعتاد، وحنيفة ترعاها كما لو أنها طفل، أما أنـا فكنـت قـد تخليـت عـن كل شيء. حتى عن أمي.. لـم أعـد أعطيهـا دواءهـا أو أسـقيها مـاء. كانـت حنيفة تأتي إليّ باستمرار، وتحـاول إخراجـي مـن تلـك الغرفـة، ولكنهـا لا تفلح. لفتت هـذه الحالـة انتبـاه أبـي. داعـب خـدي مرة أو مرتين، وتمتم بشيء ما. كانت تلك اليد التـي داعبتنـي غريبـة جدًا عنـي، لـم أكـن أحبهـا نهائيًا! في ذلك الوقت، لم أكن أرغب بأن يلمسني أو يـداعبني أحـد. حتى إنني قاومتهم عندما أرادوا اصطحابي إلى جانب أمي. لـم أكـن أريد أحدًا.

كانت المصابيح في غرفتي مضاءة. تظهر طيات الستائر الحمراء منتعشة تحـت هذه الأضـواء. كما لو أنها كانت تُظهر نفسها لفتوش عن كثب على شاشات عملاقة. كانت تجلس في تلك الغرفة المظلمة منزوية على الفـراش، يـداها تلفـان ركبتيهـا، شعرها الأسود الذي لـم تغسله منذ أيـام متنـاثر علـى وجههـا، حانيـة رأسـها للأمـام، وتنعم النظر راغبة في أن ترى نفسها عن كثب. يا لها من فتاة مسكينة وعاجزة! ربمـا كانت هذه المرة الأولى التي تشفق فيها على نفسها. هـي تبكـي الآن بـدلًا مـن تلـك الأخت الصغيرة التي لم تكن تبكي أو تستطيع البكاء.

- كان قد حل الخريف، موسم افتتاح المدارس. لا بد أن موت أختي قد أثر على أبي كثيرًا لدرجة أنه سجلني في مدرسة داخلية قريبة من المنطقة دون أن يخبرني، وكـل مـا كـان علـيّ فعلـه هـو حـزم أمتعتـي والـذهاب إلـى المدرسة. كان لا بد من أن تمـوت أصـغر أخـواتي حتـى أسـتطيع الـذهاب إلى المدرسة. أتت الحافلة الصغيرة التي نقلتنا ذات مرة إلى بيـت جـدتي، إلى باب منزلنا. أنا التي كنـت أتلهـف للـذهاب إلـى المدرسـة في البدايـة، أصبحت شـاحبة ومنكمشة ومحترقة. لـم تعـد تتملكنـي بهجـة الـذهاب إلـى المدرسة أو أي مكـان آخـر. وكالشـبح، ركبـت في تلـك الحافلـة الصـغيرة ذات الرائحة الكريهة. أردت الهروب من ذلك المنـزل، ومـن ذلـك الهـواء

الذي استنشقته هناك، ومن رائحة أبي وحنيفة وأصواتهما التي كانت تتناهى إليّ في الليل، ومن أمي المتمددة مكانها، ومن عينيها السوداوين الهاربتين من محجريهما وهما تراقبان ما حولهما باستمرار، ومن لعناتها لأصغر أخواتي قبل موتها، ومن يد أبي التي لامست خدي، ومن (العاهرة) التي تجمدت من البرد وتصلبت.

غير موت أخت فتوش مصيرَها حقًا. من يدري أين ستكون وكيف ستعيش لو لم تمت. تنظر في وجهي كما لو أنها تقرأ أفكاري، وتقول أشياء مماثلة لي.

- وهكذا، غير موت أختي مصيري. ليتني متُّ بدلًا منها. وماذا حدث عندما درست؟ هل أصبحت سعيدة؟ لقد كتبت الحياة على جبيني: ستتعرضين للذل بطريقة أو بأخرى!

وبينما كانت تنظر نحو ذراعها الأيسر لمعرفة الساعة، يقع بصري على الكدمات الحمراء خلف الساعة.

- ماذا حدث لذراعك يا فتوش؟

تُغطي ذراعها فورًا. أما أنا فأنهض من مكاني وأتجه نحوها، راغبة بالكشف عن ذراعها بهدوء ورؤية تلك الكدمات الحمراء. يحمرّ وجهها مثل شخص قد أُلقي القبض عليه متلبّسًا. لديها ثمانية أو عشرة آثار من شطب على ذراعها. إنها حديثة. تم تشطيبها مؤخرًا.

- ماذا فعلتِ يا فتوش؟
- لا شيء، إنها ليست مهمة حقًا.
- متى قمت بذلك؟
- البارحة مساء.
- هل قمت بذلك من قبل؟
- حاولت عدة مرات في المدرسة الداخلية. وفي اليوم الذي هاجمت فيه كنان أيضًا.

- هل يوجد منها في أماكن أخرى من جسدك؟
- لا شيء بعد!
- لا شيء بعد أليس كذلك؟ هذا يعني أن ذلك سوف يحدث مستقبلًا.
- لن يحدث إن شاء الله. أحيانًا أختنق كثيرًا لدرجة أنني أرغب بتشطيب أو جرح أجزاء من جسدي. أشعر بالراحة عندما أرى الدماء.

في كل مرحلة علاج، ثمة لحظات يعتقد فيها المعالِج أنه سيتعثر ويسقط. وهذا ما حدث لي في تلك اللحظة، فقد صدمني القلق من إغفالي أحد التفاصيل الحيوية. يجب أن أنتبه لهذا الأمر، لا يجب عليّ أن أخرجها من الغرفة حتى لو انتهى الوقت المخصص لها.

- لماذا انزعجت لهذه الدرجة البارحة مساء؟
- حسنًا... تعلمين أنني لا أقرأ أكثر الرسائل التي تصلني. البارحة مساء، ولسبب لا أعرفه، قرأت ما لم أمسحه منها.
- وما الذي كُتب في تلك الرسائل؟
- كلام فارغ.. أكاذيب كلها..
- ولكنكِ تأثرتِ.

تبدو وكأنها لا ترغب بالحديث عن الأمر. عندما تقرأ الرسائل يزداد حزنها لدرجة أنها تشطب نفسها. الرسائل تشوش عقل هذه الفتاة. هل يمكن أن تكون راغبة في العودة يا ترى؟

- تأثرتِ بالرسائل التي كتبها، أليس كذلك؟
-
- لو كنت مكانك لتأثرت أيضًا. نحن بشر في النهاية.
- حقًا؟
- من الصعب على الإنسان أن يترك شخصًا يحبه كثيرًا، وخاصة بعد عشر سنوات.

- صعبة! ولكن مع ذلك لن أعود إليه مجددًا.
- هل تفعلين ذلك من أجل نفسك، أم لمجرد إزعاجه وإيذائه؟

تميل برأسها وتفكر مدة. في جلسات العلاج النفسي، من المهم جدًّا التوقف عن الحديث لفترة والجلوس والتفكير. هذا دليل واضح عن مدى معرفة الذات، والتساؤل مجددًا عما كنتَ تعتقد أنك تعرفه. وهذا غالبًا ما يفعله الأشخاص الذين يفتحون أشرعة التغيير.

لم تستطع الإجابة بسرعة على سؤالي، لأنها ربما هي أيضًا لم تكن تعرف الحقيقة تمامًا. لكن الحقيقة أن الانفصال عن هذا الرجل يجلب معه مخاوف قديمة وقوية متجذرة فيها.

- أنت خائفة، أليس كذلك يا فتوش؟ ربما شطبت نفسك بسبب هذه المخاوف.

بدلًا من الإجابة، أعربت لي عن خوفها بصمت، من خلال هز رأسها قليلًا للأمام والخلف، وهي جالسة مكانها.

- لو تستطيعين أن تقولي سبب خوفك.
- أخاف من أن أُرفض، وأُهجر، وأُترك وحيدة، وألا أكون مرغوبة، وأن أُذل، وألا أُحَب..

تردد هذه الأشياء صارخة بغضب، وكأنها تتمرد على شيء ما. أسكتُ. أريد أن تسمع ما تقوله جيدًا، وأن تحفظ في عقلها ما تسمعه جيدًا. إذا استطعنا الإفصاح عن الأشياء التي نخشاها، فإن تأثيرها علينا سينخفض قليلًا، مثل بعض الألعاب في طفولتنا. عندما يريد صديق لنا إخافتنا بتغطية وجهه، فسنخاف على الرغم من معرفتنا بهوية الشخص الموجود تحت الغطاء، ويستمر هذا الخوف حتى يتم نزع الغطاء ورؤيتنا مجددًا الشخصَ الموجود تحته، الذي نعرفه. ثم نشعر بالراحة، ونصرخ هذه المرة بصوت عالٍ ضاحكين، كما كنا نصرخ قبل قليل بصوت عالٍ خائفين. ثم أبدأ بالحديث مرة أخرى بصوت ناعم. أقول:

- كلها مخاوف إنسانية. كلنا نخاف مما تكلمتِ عنه، ولكننا من جهة نقدر على التعامل مع بعض الناس في هذه الحياة، ومن جهة أخرى نتعلم ألا نخاف من البعض الآخر كما كنا في السابق. المهم ألا نستسلم للخوف، وندرك مخاوفنا قدر الإمكان. انظري، أنتِ الآن تعرفين تمامًا مم تخافين. صدقيني لن يكونوا قادرين على إخافتك كما في السابق. والآن أجبيني على سؤالي الأول. هل انفصلت عنه من أجل نفسك، أم أن هدفك هو إزعاجه؟
- صحيح أنني أريد إزعاجه جدًا، فنار الانتقام تشتعل في داخلي، لكن من ناحية أخرى أعتقد أنه من الأفضل لي الانفصال عنه. فقد كنت، ولسنوات، أريد ذلك كثيرًا من جهة، ولكن اتخاذ قرار كهذا كان يخيفني في كل مرة من جهة أخرى.
- يعني أنكِ استسلمت لمخاوفكِ.

تصمتُ وتفكر من جديد. أصبحت تدرك بعض الأشياء. ترى وتدرك ما فعلته ولماذا فعلته. تفتح فمها وكأنها تريد أن تقول شيئًا، ولكنها تتراجع عن ذلك فورًا. وبينما يتسرب حياء خفيف إلى وجهها، أشعر بتلك الراحة أنا أيضًا. يمكنها الآن أن تذهب. ألامس ظهرها بهدوء. تنظر إلى وجهي بحب، وتنهض من مكانها.

تعانقني قبل أن تخرج. ومجددًا، ألامس ظهرها بهدوء وأرافقها إلى الباب. لقد هزلت كثيرًا، وباتت حتى عظامها بارزة.

من أجل أن يؤذي الإنسان نفسه، يجب أن تكون نسبة المشاعر التي ندعوها "اضطراب القلق" مرتفعة. هذا يعني أن مخاوف فتوش القديمة التي خرجت منها الليلة الماضية ونُصبت أمام عينيها، هي التي شطبت ذراعها ثمان شطبات أو عشرًا. في حالات كهذه، يمكن للإثارة التي مبعثها العنف أن تجعل الجسم يُنتج مادة مهدئة. بمعنى آخر، لا تحدث التهدئة من خلال الاسترخاء، وإنما من خلال زيادة التوتر. تحدث مثل هذه الحالات عند الأشخاص الذين تعرضوا لعنف شديد في الماضي. آمل من الله أن تتجاوز فتوش ذلك قريبًا.

(10)

شخص مثل كنان لا يمكنه تقبّل خسارة كهذه. فهو بطريقة أو بأخرى، سيجد وسيلة لإرجاع فادي. وبينما كان على وشك الدخول إلى الملهى، تراجع. ثمة صائغ يعرفه جيدًا. نادى إسماعيل وأخبره بأن يوصله إلى شارع (طونَلي حلمي). ترجل من السيارة أمام الصائغ. لن يكون سيئًا إن اشترى خاتمًا ماسيًا. جلس عند الصائغ، وتأمل الخواتم مطولًا. هل كان عليه أن يشتري واحدًا لهاندان أيضًا يا ترى؟ سيكون غريبًا بعض الشيء إن اشترى خاتمين في وقت واحد. ثم إن هاندان تملك خاتمًا ماسيًا اشتراه لها عندما تزوجا في المرة الثانية. اختار هذه المرة خاتمًا حجره كبير قليلًا، وطلب أن يُوضع في علبة جميلة، وفي السيارة قال لإسماعيل محذرًا: "اذهب إلى بائع الزهور المعتاد، اطلب منه أن يصنع باقة أزهار جميلة، ويضع هذه العلبة داخلها. وفي المساء اذهب إلى بيت فادي، أعطِها لها بيدكَ. حتى لا تقول بأنها لم ترَ العلبة، فيضيع الخاتم هباء. تأكد جيدًا من رؤيتها العلبة". لقد ارتاح قليلًا. يمكنه الآن أن يتجه للنادي ويلعب لعبته.

مرت الساعات ولم يأتِ إسماعيل إليه أو يقول شيئًا. قلق، فاتصل على إسماعيل.

- ماذا فعلت ولاه، هل أعطيتها الأزهار؟
- لا يا سيدي، لم أستطع.
- وماذا يعني لم أستطع؟ ألم أقل لكَ أن تعطِها إياها بمجرد وصولك إلى بيتها؟
- أوصلتها يا سيدي، ولكنها لم تأخذها. وأنا بدوري لم أستطع أن أعيد لكم الأزهار والعلبة أمام أصدقائكم.

- وماذا يعني لم تأخذها؟ ألم تقل لها بأن كنان بيك أرسلك؟
- قلت. لقد غضبت كثيرًا يا سيدي، حتى إنها طردتني من الباب. الأصح أنها رمت الأزهار في وجهي. وأنا لم أعرف ماذا عليّ أن أفعل.
- رمتها في وجهك؟ أريتها العلبة، أليس كذلك؟
- أريتها طبعًا، ولكن عينيها لا تريان شيئًا.. قالت لي: "إن أتيت إلى هنا مرة أخرى سأكسر ساقَيك."
- تمام، تمام.

ويقوله هذا أغلق الهاتف وبدأ يتمتم: "إذن لقد رمت الأزهار في وجه إسماعيل! هل جُنّت هذه الفتاة؟ ننتظر منذ أيام سكون غضبها، ويا له من غضب! لم تنفع معها حتى أغلى الأزهار وأثمن الخواتم! ماذا أفعل يا ترى؟"

كان عقل كنان مضطربًا بشكل رهيب. فكم مرة تشاجرا حتى اليوم، وفي كل مرة ينفصلان، لكن فادي لم تكن تفعل ما فعلته الآن. ماذا حدث هذه المرة، ولماذا جُنّت هذه الفتاة إلى هذه الدرجة؟ كان من غير المعقول بالنسبة له أن تستسلم هي. كان سيحاول أن يجد حلًا مهما حدث، فهو يُعتبر محترفًا في هذه الأمور. فكان من الجيد الذهاب إلى منزلها في وقت متأخر. فمهما كان الأمر ستلين عندما تراه، وتقفز على رقبته بمجرد فتحها الباب. كما أن النساء كنّ يحببن أن يتدللن عليه.

ماطل بقاءه في الملهى، بعد ذلك تناول حقيبته وغادر. كان إسماعيل ينتظره عند الباب. قال له بصوت عالٍ: "سنتجه إلى فادي". أعطاه إسماعيل علبة الخاتم بمجرد ركوبه السيارة. كانت المرأة على وشك أن تبطش به، فكيف يجرؤ هذا الرجل على الذهاب إلى هناك؟ كما أنها قطّعت الأزهار التي أرسلها ورمتها في وجه إسماعيل. ألم يستطع أن يشرح الوضع لكنان بيك بما فيه الكفاية؟ ستقوم القيامة الآن. قال في داخله: "هذا الرجل يبحث عن المتاعب مرة أخرى. لقد فهمت المرأة كل شيء. لماذا تطيل القضية أكثر؟ ثم ألا تملك امرأة أخرى؟ طالما أن لديك هذه الكاريزما، وكل هذا المال في جيبك، ستذهب امرأة وتأتي أخرى."

كان يلعب اليانصيب كل أسبوع بانتظام. وحتى لو كان مشغولًا فإنه لا يهمله، وفي وقت فراغه يحلم مطولًا، ويقول في داخله: "عندما أصبح ثريًا سأفعل ما يفعله كنان بيك أيضًا". أولًا سيشتري مرسيدس كحلية لنفسه، ثم سيوظف سائقًا وسيمًا. سيشتري بيتًا في (تشَنكايا)، ويؤثثه ويفرشه، ويستمتع كل يوم مع امرأة مختلفة. سيعيش مع أطفاله في منزل أوسع وأفخم في نواحي منطقة (طوزلو تشايير)، ولن يخبر أحدًا عن منزله الموجود في (تشَنكايا). سيقول لزوجته: "لدي رحلات عمل". وهل من السهل أن تصير رجل أعمال؟ بالطبع يجب عليك أن تسافر كثيرًا.

لم يتبادل الاثنان كلامًا طوال الطريق. كان كنان بيك حاذقًا. فمن ناحية هو يثق بنفسه كثيرًا، يقول في نفسه: "لن أرجع هذه الليلة خائبًا"، ومن ناحية أخرى يأكله الدود من الداخل. فماذا لو حدث شيء ما ولم تجرِ الأمور كما خطط لها؟ سيصاب بالتعاسة هذه المرة. فهو لا يستطع تحمل كل هذا القدر.

عندما اقتربت المرسيدس الكحلية من باب البناء الذي تعيش فيه فادي، بدأ قلب الاثنين ينبض بقوة. وبينما قفز إسماعيل ليفتح الباب، كانت عينه على نافذة فادي في الطابق الأول. وفي الوقت ذاته رفع كنان بيك رأسه ونظر إلى نفس المكان. كانت الصالون مُضاء. هذا يعني أن فادي لم تنم بعد. إما أنها تشاهد التلفاز أو تستمع للموسيقى. خاصة في مثل هذه الساعة المتأخرة، فهي تعشق سماع الموسيقى الكلاسيكية بصوت منخفض إن لم يكن لديها عمل آخر. وكأنها ترعرعت في القصور.

كان باب المدخل مغلقًا. أخرج كنان المفتاح من جيبه وفتح الباب الحديدي ودخل. في الواقع ربما كانت هذه المرة الأولى التي يستخدم فيها هذه المفاتيح، لأن فادي كانت تنتظره كل مرة على النافذة، وقبل أن يترجل من السيارة، كانت تفتح الباب أوتوماتيكيًا. صعد الأدراج بتثاقل. لم يستطع معرفة ما إذا كان قلبه ينبض بهذه السرعة بسبب صعوده أدراج طابق واحد فقط، أم بسبب انفعاله.

عندما وصل إلى الباب لم يستطع أن يقرر بسرعة ما أن يقرعه أو لا. أم أن عليه أن يفتحه هو أو عليه أن يقرعه وينتظر فادي لأن تفتح؟ توقف لحظة عند الباب

والمفتاح في يده، ثم أدخل المفتاح في جيبيه، وقرر أن يقرع الباب. في البداية وضع أذنه على الباب بهدوء، لم يكن مخطئًا، فهنالك صوت موسيقى خفيف يتناهى إليه. ثم رن الجرس. وفوق خفقان قلبه الذي لم يختف، فقد كان رأسه يؤلمه بشدة. لو تعمل له فادي مساجًا فلن يبقى فيه شيء.

تناهى إليه وقع الأقدام على الأرض، نظر أحدهم من ثقب الباب، ولكن الباب لم يفتح. رن الجرس مرة أخرى، ولم يفتح أحد أيضًا. لقد زاد الأمر عن حده. وماذا يعني ذلك، هل ستتركه هذه المرأة على الباب في هذه الساعة؟ أخرج المفتاح الذي وضعه في جيب بنطاله قبل قليل وأدخله في الباب، ولكنه لم يفتح. كان مقفلًا. ضرب الباب بيده عدة مرات. لم يصدر أي صوت. ثم بدأ يركل الباب بطرف حذائه. ونظرًا لأنها أقفلته من الداخل فهي مصممة على عدم السماح له بالدخول. ومن تظن نفسها هذه المرأة؟ فلو اضطره الأمر سيحدث فوضى ويصرخ ويزعق ويكسر الباب لكي يدخل.

اعتلته كل الشياطين، وبدأت يداه ورجلاه بالرجفان. رفع هدير صوته الخشن إلى أعلى درجة قائلًا: "افتحي هذا الباب، وإلا كسرته، هل تفهمين؟ أتيت هنا لأتحدث معك كلمتين. استمعي أولًا ثم قولي ما تريدين. افتحي فورًا!" ومن ناحية أخرى كان يقرع الباب بيده بسرعة. في هذه الساعة من الليل، كان من المحتمل أن كل ساكني البناء قد سمعوا صوته. كان على فادي أن تفتح الباب حتى لا تُفتضح. نعم لم يخطئ. دار المفتاح، وظهرت فادي أمام الباب مرتدية لباس النوم الزهري. وبينما تحرك كنان شارعًا بالدخول، اعترضته فادي.

"قف لنرى، من أنت لتطرق بابي في مثل هذه الساعة من الليل! انقلع من هنا فورًا. وإلا سأتصل بالشرطة وأجعلهم يرمونك خارجًا. بأي وجه أتيت إلى هنا؟ قال سيتحدث معي في منتصف الليل قال! لم يعد لديّ أي شيء لأقوله لك. هيا، اتجه إلى باب آخر".

دفعت فادي كنان بيدها من جهة، وأغلقت الباب في وجه كنان وهي تتفوه بكل ما يمكن أن يخرج من فمها من جهة أخرى. تجمد كنان مكانه والحقيبة في يده.

وعلاوة على ذلك، وارب سكان البناء، الذين سمعوا الأصوات، أبوابهم ومطوا رؤوسهم يحدقون فيه. انفضح أمام الجميع. والحقيقة أنه ظن عكس ذلك، فهو أتى إلى هنا ليفضح فادي إن اضطره الأمر. وكيف يخطئ هكذا، وكيف لم يستطع التعرف إلى هذه المرأة التي عاش معها كل هذه السنوات! نزل الأدراج بهدوء، كتفاه مرتخيان، ورأسه محني. كان إسماعيل ينتظره عند الباب. الآن، هو الآخر، سيحسب نفسه رجلًا، ويبدأ بإسداء النصح له. سيكون من الجيد لو وقف عند حده.

- لماذا تنظر في وجهي هكذا كالأبله؟ افتح هذا الباب، وأغلق فمك، وخذني إلى البيت بسرعة!
- على رأسي يا سيدي.

عندما وصلا أمام البيت، ركض وفتح الباب، ولكن رب العمل لم يحرك ساكنًا. وماذا يعني، هل عليه أن يحمل هذا الرجل الضخم في حضنه؟ انحنى قليلًا ونظر في الداخل. كان كنان بيك يضع الحقيبة في حضنه، وإحدى ساقيه في الخارج. ثم سحب قدمه إلى الداخل وزأر.

- اجلس مكانك، لن أنزل. لنتجول قليلًا.
- على رأسي يا سيدي. أي طريق نسلك؟
- اتجه نحو (باهتشيلي إفلار) لنرى.
- لكننا أتينا من هناك.
- لم يسألك أحد عن رأيك. لنتجول هناك قليلًا. بما أن هذه المرأة لم تسمح لي بالدخول إلى المنزل، سأرى ما إن كان هناك أحد آخر قادم إليها.

قال إسماعيل في نفسه: يبدو أن هذا الرجل اختل عقله تمامًا. فادي ليست كذلك النوع من النساء. وهو أيضًا يدرك هذا. البارحة كانت واحدة، اليوم اثنتين... وبعد كل هذه السنوات، خُن امرأة، ثم تدبر أمر الاثنتين، وأحيانًا الثلاثة، وحتى

الأربعة. ثم بعد ذلك احمل وزر المرأة في رقبتك. لو كانت تمتلك قليلًا من الذكاء، لما انْجَرَّتْ وراء أكاذيبه كل هذه السنوات، وما انتظرت مثل الحمل الوديع. الشكر لله أنها رأت بأم عينها أخيرًا، وعرفت قونيه من خونيه.[1]

وصلا منزل فادي، فأبطأ إسماعيل بالسيارة، ولكنه لم يعرف ما يفعله بعد ذلك.

- هل أقف أمام الباب، أم أعبره وأذهب؟
- تجول في الأرجاء، وانظر إن أمكنك رؤية أي شيء.
- تأمرون يا سيدي.

مرا بالسيارة أمام الباب عدة مرات، ولكنهما لم يستطيعا رؤية شيء. كان منزل فادي مضاءً. قال كنان من بين أسنانه: "ما زالت مستيقظة، من تنتظر هذه العاهرة يا ترى؟" مع أنه قال ذلك بصوت خافت، ولكن إسماعيل سمعه. كان يحمل وزر المرأة.

تجولا في تلك الأنحاء حتى انطفأت الأضواء. وفي النهاية عاد كنان إلى البيت وتمدد. تمدد ولكنه لم يستطع بأي شكل أن ينام. وماذا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك؟ هل كان عليه يا ترى أن يغلق هذا الدفتر، ويشرب وراءه كأسًا من الماء البارد؟ لا، لا يستطيع فعل ذلك، كان يريد فادي. هذه القحبة عوّدته عليها. هل حان وقت تركها والتخلي عنها؟ علاوة على ذلك، ما الذي فعله كنان لها حتى تغضب بهذا الشكل؟ ألم تكن فادي تعرف منذ البداية أنه متزوج؟

وأخيرًا أخبر أصدقاءه بأنه انفصل عن فادي. وكانوا جميعهم مسرورين من ذلك. والواقع أنه لو تُرِكَ الأمر له لما أخبرهم نهائيًا، ولكن عدم رن هاتفه جعله يشكّون بحدوث أمر ما. الحمد لله أنهم لم يعرفوا ما حدث في تلك الليلة، ولماذا لم

---

(1) فهم قونيه من خونيه: مثل شعبي تركي يشابهه في اللغة العربية المثل القائل (عرف رأسه من قدميه). قونيه هي مدينة تقع وسط تركيا، أما خانيه فهي مدينة تقع جنوب اليونان ضمن جزيرة كريت. (المترجم)

يستطع حضور زفاف سميح. قال إنه سقط في الطريق، ومشت هذه الكذبة عليهم جميعًا، رغم رؤيتهم وجه كنان على ما كان عليه، يعني أن الكذبة وضعت في مكانها الصحيح. لكن عقل كنان ما زال عند فادي. هم أيضًا لاحظوا ذلك، وقالوا له كثيرًا محذرين: "دع هذه المرأة وشأنها، واهتم بشؤونك، ولا تفكر". لم يكن يستطيع تركها أو إخراجها من رأسه. الأمر ليس بهذه الشدة، ولكنه لم يستطع هذه المرة. وكأنهم كانوا سيتركونها لو كانوا مكانه؟ كانوا يتكلمون بشكل عشوائي دون أن يعلموا شيئًا!

هل كان الخطأُ خطأَه يا ترى؟ ألم يدرك قيمة امرأة مثلها يا ترى؟ لا يا روحي، وماذا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك؟ هما أيضًا يحبان بعضهما. إنها علاقة عشق. وخاصة فادي، كانت تحبه كما تحب نفسها. وبما أنها كذلك، فماذا حدث لها يا ترى فجأة؟

إنها ليست المرة الأولى التي يتخاصمان فيها أو ينفصلان.. ثمة في الأمر شيء ما. هل وجدت فادي لنفسها شخصًا سيتزوجها فورًا يا ترى؟ كيف يمكن العثور على مثل هذا الشخص بهذه السرعة؟ ربما كان جاهزًا منذ وقت طويل، ولكنه لم يكن يشعر بأي شيء. وكما فعل هو، في زمان مضى، إذ قام بإخراج النساء الأخريات من حياته عندما كان برفقة فادي، فربما فعلت فادي الشيء ذاته، واتخذت احتياطاتها في حال لم يتزوج كنان بها، واحتفظت بأحدهم للاحتياط. لماذا لم يفكر في هذا من قبل ويأخذ تصرفات فادي على محمل الجد؟

ضاع في السرير. لو كان الآن في منزل فادي، مستلقيًا على السرير هناك، وفادي تعانقه، فهل كان سيتجمد في السرير هكذا مثل البقرة المجنونة؟

آه يا فادي، من أين أتيت بهذا الدلال! أعرف أنكِ لا تستطيعين التخلي عني، حتى لو تدللتِ قليلًا فإنك ستعودين إليّ في النهاية. أين ستجدين شخصًا مثلي؟ ولكن في الواقع أنت أيضًا لم تعودي كما كنت في السابق. ما الذي حدث؟ في الماضي كنتِ فتاة مشردة. كنت شابة كاللعبة، قلنا لنجرب نكهتها، هذا كل شيء!

لكنك استشطتِ غضبًا. لقد فعلتِ ما لم يفعله أحد، أمسكتِني بيدكِ طوال هذه السنوات. يمكنك أن تجدي رجلًا تتزوجينه، ولكنه لن يكون مثلي. إما أن يكون بشعًا، أو لا يملك مالًا، أو لا يفهم النساء ولغتهن. من الأفضل لكِ أن تضعي حدًا لهذا الدلال، وألا تجعلي أحدًا آخر يخطفني. إنني رجل فاسق. إن وجدت فتاة يرتاح لها قلبي، أعبر ولا أسأل أبدًا، ولا أذكر اسمك حتى. ولن أتعرف إليكِ حتى لو رأيتك في الطريق. ألم أفعل ذلك للفتيات السابقات؟ لو طلبتِ مني ذكر أسماء أولئك الفتيات الآن لما استطعت. نسيتها وانتهيت.. أنت أيضًا ستصبحين من التاريخ.

انظري إلى هاندان كم هي فتاة ذكية. على الأقل خذي العبرة منها. رأتكِ بأم عينها. ألم تضربي رأسي أمامها؟ ألم تقولي كل ما خطر ببالك؟ وبالمقابل ماذا فعلت المرأة؟ لا شيء... استدارت خلفها وذهبت. فهي تعرف ما سيحلّ عليها لو قالت شيئًا، أو حاسبتني على ما فعلتُه. هل تريد المرأة أن تخطفني أخرى في الوقت الذي تملك فيه زوجًا مثلي؟ لم تذكر أي شيء عن الحادثة، لقد نستها. أما أنت؟ تحاسبينني قبل حتى أن تصيري زوجتي. لو كنتِ تملكين القليل من العقل، لما فعلت هذا الهراء. ولكن إن لم يكن لديكِ عقل، فماذا عساي أفعل.

قضى كنان ليلته غارقًا في التفكير، حتى أشرق عليه الصباح. يقلّبها يمنة ويسرة فلا يتمكن من وزنها. كما ليس لديه أحد يتحدث معه بهذه الأمور. لا أحد من أصدقائه يفهمه. إنهم يغارون منه منذ الأزل. عيونهم كلها عليه. والواقع أنه كان يقول في داخله: "لو كنت أنا بدلًا منهم لغرت أيضًا من رجل كهذا". وهبه الله كل شيء دون تردد. كان أيضًا شخصًا جيدًا. لم يفكر بأن يسيء لأحد، ولم ينظر بنية سيئة لأخت أحد، أو ابنة أحد. على الرغم من وقوع حادثتين مشابهتين لذلك في الماضي، إلا أنه تم التحري مع النساء، وأجاب هو بدوره عمّا سُئِل عنه.

في الصباح الباكر، استحم وخرج من المنزل. لم ينادِ إسماعيل أيضًا. رغب بأن يذهب وحيدًا إلى نواحي (بهتشيلي إفلار). بعد أن مشى قليلًا أوقف سيارة أجرة،

ونزل أمام منزل فادي. كانت فادي ستخرج من المنزل بعد قليل متوجهة إلى العمل. وهو بدوره وقف في الطرف المقابل منتظرًا خروجها، ثم قطع طريقها، ومحاسبتها على ما فعلته ليلة البارحة، كما كان سيريها معنى أن تطرد كنان من الباب.

ولكي يرى فادي كان عليه الانتظار قرابة الساعة. كان يدخن سيجارة وراء سيجارة. وفي الساعة الثامنة والنصف تمامًا، اقتربت سيارة سوداء من الباب لاصطحاب فادي. بعد ذلك مباشرة، خرجت فادي من المنزل مرتبة. فقفز كنان من مكانه وقطع طريقها. وفور رؤية فادي له ذهلت، لكنها استجعت قوّتها بسرعة. وقف الرجل تمامًا في منتصف الطريق وهو يتفوه بأشياء سخيفة مثل "لقد أمسكتكِ، لا يمكنكِ الإفلات مني". هزت كتفيها، وأفلتت من يد كنان. ثم مدت يديها إلى الأمام وقالت: "إياك والاقتراب مني، انقلع من هنا!"

ومرة أخرى، ذهل كنان. لم يكن يتوقع موقفًا كهذا من فادي. كان يظن أنها عند رؤيتها له لن تتحمل، وبمجرد لمسه لها ستلين، ويهدأ غضبها، وتعانقه فورًا. ماذا حدث لهذه الفتاة هذه المرة؟ كانت فادي تستمر بالكلام والصراخ وتقول:

- انتهى هذا الأمر، ألا تفهم؟ انتهى! اذهب إلى زوجتك الحبيبة وأخبرها بمشكلتك. لتتركك هي أيضًا إن شاء الله، وتموت وحيدًا. لن تسلم بما فعلت. ستتذوق طعم ما ارتكبت. سيحل البلاء عليك، وسأشهد تلك الأيام. الله كبير، هو من سيعاقبك لا أنا.. ذات يوم سيحاسبك الله على ما فعلت. لقد أُغلق هذا الباب في وجهك إلى الأبد. أعطيتُ أغراضك المتبقية في المنزل للبواب. وزعت كل ما اشتريته لي حتى اليوم. على أية حال لم تشترِ لي شيئًا مهمًا.

ثم قالت له: "ابتعد عن طريقي!" ونحرته بكوعها، وجلست في المقعد الخلفي للسيارة السوداء. وقف كنان متجمدًا يحدّق فيها وهي تغادر. سمع فادي، وفهم بعضًا مما قالته، ولكنه بدا غير فاهم شيئًا. كان عليه أن يتجول قليلًا، ويعيد النظر بما حدث مرة أخرى. شعر بنفسه وكأن شخصًا ما قد صفعه.

كان يتجول مكتوف الأيدي في شوارع (بهتشيلي إفلار). يريد أن يفكر ويستخلص شيئًا مما قالته فادي، ولكنه لم يستطع أن يجمع شتات عقله بأي شكل. بقيت في عقله فقط كلمة "سيحل البلاء عليك!" وقد قالت له هذه الكلمة قبل ذلك. هل كانت تدعو عليه؟ ومجددًا بدأ يشعر بالدوار، وقلبه ينبض بسرعة. يا إلهي، أم إنه يحتضر يا ترى؟ هل سيقع على طوله وسط الشارع الآن، ويموت وحيدًا هنا؟ رغم البرد لكنه كان يتصبب عرقًا، ويشعر وكأنه يختنق. يبدو أنه لم يستطع أن يتنفس أيضًا، نظر حوله وهو مذعور. الشوارع في هذا الوقت فارغة. إنني أموت ياهوه، هل من أحد؟

وعلى الفور ألقى بنفسه وسط الشارع. الآن ستضطر أول سيارة تمر للوقوف، وسيأخذونه إلى المستشفى. سمع صوت مكابح قوي. تمكنت سيارة بيضاء من الوقوف في اللحظة الأخيرة. أخرج شاب ملتحٍ رأسه للخارج وقال: "هل تتعطش للموت يا رجل، ماذا تفعل وسط الشارع؟ ابتعد عن طريقي، إنني في عجلة من أمري". تمتم كنان بأشياء مثل "إنني أموت، خذوني إلى المستشفى" ولكن لم يكن لدى الرجل أي نية لمساعدته. ألقى كنان بنفسه على الرصيف. مرت السيارة مسرعة من جانبه مصدرة صوت "فننن".

هل استُجيبت أدعية المرأة بهذه السرعة، ووقعت على قدَره بمجرد خروجها من فمها؟ لم يكن ثمة أية سيارة أجرة في الأرجاء. جمع شتات نفسه وبدأ يمشي. عندما بلغ الزاوية، وجد سيارات أجرة مصطفة خلف بعضها البعض. الشكر لله، ظهر أمامه موقف لسيارات الأجرة. نادى على إحداها صارخًا وملوحًا بيديه. وفور رمي نفسه في المقعد الخلفي قال للسائق بسرعة: "خذني إلى المستشفى بسرعة، إنني أموت على الأغلب."

التفت السائق إلى الخلف ونظر، ثم قال في داخله: "الرجل يتصبب عرقًا في هذا البرد، على الأقل لا يموت في السيارة!"

من مذكرات طبية

تبدو فتوش اليوم أفضل حالًا من أي وقت مضى. إنها المرة الأولى التي تضع فيها مكياجًا على وجهها ولو خفيفًا. لون أحمر شفاهها الزهري ولون طلاء أظافرها متطابقَان! إنها ترتدي فستانًا أسود ضيقًا بقصة مستقيمة. وتربط الوشاح الحريري الملون الصغير حول عنقها بشكل جميل.

عندما دخلت، وأثناء مصافحتها لي، لم تجلس مكانها قبل أن تعانقني. كانت منفعلة. من الواضح أن لديها أشياء مهمة تريد أن تحكيها لي.

- قولي لنرى، ماذا حدث؟
- وكيف علمتِ حضرتكِ بأن شيئًا ما قد حدث؟
- اتركي كيفية معرفتي واحكي لي. أثارني الفضول.
- يبدو أن هذا الرجل قد جُنّ. في البداية أرسل إلي مع سائقه خاتمًا ماسيًا. أين كان عقله يا ترى قبل ذلك؟ منتصف الليل الماضي قرع بابي. كان يظن بأنه سيخدعني. لم أستقبله. فضحني في البناية، ولكنني كنت مفضوحة حد التخمة على أية حال. وكأن ذلك لم يكن كافيًا، فقد ظهر أمامي أثناء توجهي إلى عملي هذا الصباح. ربما انتظر في الشارع حتى الصباح. حاول معانقتي وسط الشارع. رأى سائق شغلي ذلك أيضًا. نجوت من يديه بصعوبة.

تحكي لي ما حدث معها بانفعال. تبدو أثناء حديثها وكأن مصباحًا أو اثنين يومضان في عينيها الخافتتين. على الرغم من أنها غاضبة، إلا أنها سعيدة بما حدث. هذا يعني أن الرجل مصرّ.. إنها ليست التصرفات المنتظرة من رجل مثله.

- الرجل مصرّ، لن يتركَكِ. ماذا ستفعلين يا فتوش؟
- انتهى هذا الأمر. قلت له ذلك أيضًا.
- ولكن مع ذلك، يبدو أنك مسرورة بما حدث.

لوت فمها قليلًا ضاحكة.

- لا أعرف إن كنت قد سُعدت بذلك، ولكنني مذهولة. فهو رجل لا يفعل شيئًا كهذا. وماذا يهمه؟ بالنسبة إليه تذهب فتوش، وتأتي الأجملُ منها.
- إذن لماذا يفعل كل ذلك؟
- أنا أيضًا لم أستطع أن أعرف، ولكن بالتأكيد له مصلحة في ذلك. ربما وضعته زوجته أيضًا على عتبة الباب. هذا ما ستفعله أي امرأة لو حدث ما حدث تلك الليلة.
- هل يمكن أن يكون له رغبة بالزواج منك هذه المرة؟
- لا أعتقد أبدًا. وحتى لو أراد ذلك، فأنا لا أريد الزواج منه بعد الآن.
- لماذا؟
- هو لا يحبني، لم يحبني قط. عشت معه لأنني اعتقدت كل تلك السنوات أنه يحبني.

إنه تعبير يدل على التشاؤم واليأس. تتابع حديثها وهي عابسة وجهها، مظلمة نظراتها من جديد، تلوح بيدِها قليلًا.

- كم كان لدي أحلام قبل أن أتعرف به. بدأت أحلم منذ كنت في المدرسة. أكثر المعلمين مسنون، ومتجهمون، وغاضبون. يحملون في أيديهم عصيًا طويلة مثل الشوابِك التي تستعمل في البيوت. يخوّفون بهذه العصي مَن لا ينتبه للدرس، ويضربونهم بين الحين والآخر. ولكن ذلك كان بالنسبة إليّ كاللكز. لم أكن أخاف من أشياء كهذه. وماذا سيحدث لو ضربوا المرء، أو رفعوه بالفلقة؟ عشت أسوأ من ذلك بكثير. وهل سأخاف من مجرد عصاة؟ ولكنني مع ذلك لم أكن أفعل أي شيء يُغضب المعلمين، وكنت أجلس في مكاني هادئة.

ومجددًا غاصت في الماضي. يبدو أن هذه الفتاة قد تخلت حقًا عن الرجل الذي أحبته.

- أحيانًا كنت أتناول قلم رصاص وأخربش في دفتري، تمامًا مثل أختي الصغرى. أثناء الخربشة على دفتري، كان قلم الرصاص يصدر صريرًا غريبًا. إنه صوت صارخ وخشن. بدا الأمر وكأنه صرير من نوع آخر كنت أتجنبه طوال سنوات. كنت أصغي لهذا الصوت. وكلما أصغيت إليه أكثر تهرب الأفكار التي تدور في رأسي. لذلك عندما كنت أخربش في دفتري على مدى ساعات، كنت أخشى أن يراني المدرسون أفعل ذلك، فأقوم بتمزيق الصفحات التي خربشتها.

لو لم تخبرني بالسبب، وقالت إنها تخربش في دفترها فقط، فهل كنت سأتمكن من إيجاد السبب؟ ولكن يا لجمال الطريقة التي تحكي فيها.

- لم يحب أحد تلك الفتاة ذات الطبع الهادئ وردود الأفعال الساكنة. ومع أنني كنت وحيدة، ولم يحبني أحد، إلا أنني بدأت أحب المدرسة. كان الجو دافئًا، ولم أعد مضطرة لارتداء الكثير من الملابس. كان جهاز التدفئة الموجود بجانب سريري يضخ في ليالي الشتاء حرارة، وعندما تبرد روحي، لا جسدي، أمد يدي إلى جهاز التدفئة. مرت شهور منذ مغادرتي المنزل. كنت خائفة من أن يتصل أبي. أردت أن أتخلص من ذلك المنزل، ومما عشته هناك. حتى إنني لم أكن أقلق على أمي. عندما أغلقت المدرسة في ذلك الصيف، واضطررت للعودة إلى المنزل، لم أكن سعيدة مثل الطلاب الآخرين. تمنيت ألا تُغلق المدرسة، وألا أذهب إلى ذلك المنزل مرة أخرى.

ومجددًا أتت تلك الحافلة الصغيرة المليئة بروائح العرق والمازوت والسجائر لاصطحابي. استقبلتني حنيفة. كانت منزعجة قليلًا. قالت لي "أهلًا وسهلًا"، وعانقتني، ولكنها بدت وكأنها لا تريدني أن أدخل. كانت الحقيبة على ظهري، وقد وقعت عيني بعين حنيفة. ثم تحركت نحو الداخل، ودخلت الغرفة التي تستلقي فيها أمي. كان ثمة على الأرض ألعاب، وسريران للأطفال بجانب بعضهما. لم تكن أمي في الغرفة.

تسكت فتوش. وكأن تلك الفتاة الصغيرة المتجمدة هناك هي التي أمامي. تتدلى شفتها السفلى مثل طفل صغير، ولكنها لا تبكي. تهز رأسها مرة أو مرتين، وكأنها تشفق على نفسها، ثم تستمر بالحديث، كما لو أنها تهمس.

- بما أن المدرسة هي المكان الوحيد الذي احتواني، وجب عليّ أن أدرس بجد. في سنتي الأولى نجحت بطريقة ما، ولكن ذلك لم يحدث بعد ذلك قط، ما عاد اسمي ينزل عن لوحة الشرف نهائيًا حتى أنهيت المرحلة الثانوية. إنني الطالبة المثالية في المدرسة. حتى إن بعض المدرسين كانوا يعطونني دروسًا إضافية طواعية بعد انتهاء الدرس، لكي أكون أكثر نجاحًا في امتحانات دخول الجامعة. وفي النهاية تمكنت من الالتحاق بالجامعة. الآن يتوقف الأمر على كيفية دراستي في أنقرة. وفي النهاية وُجِد حل لهذا الأمر، ووافقت الدولة على إعطائي منحة مجانية. في ذلك الوقت كنت في الثامنة عشر من عمري، ولم يكن لدي أي حبيب. وعلى أية حال، لم أكن أصدق أبدًا أن رجلًا صادقًا يمكن أن يحبني. فهل يمكن لشخص حتى أمه لا تحبه، أن يحبه شخص آخر؟

كنت أقول لنفسي إنها على حق، ولكنني لا أستطيع قول ذلك لها. فالإنسان يشعر بأنه ذو قيمة من خلال الحب. وبخصوص هذا الموضوع، فإننا لا نكفي أنفسنا، بل نحتاج دعمًا من الخارج. لم يمنح أحد هذه الفتاة هذا الدعمَ. ثم صار لديها حبيب خدعها طوال سنوات. بدا أنه يحبها، ولكنه في الحقيقة لم يكن كذلك. وبهذه المخاوف صفعتها الحياة على وجهها مرة أخرى، وقالت لها: "حتى لو بدوا أنهم يحبونك، فهم في الحقيقة ليسوا كذلك."

أتساءل فيما إذا كان ظهور رجل كهذا أمامها هو مجرد صدفة، أم أن اللاوعي كان يتلاعب بهذه الفتاة؟ أي: هل تبحث أفكارها ومخاوفها عنها وتعرض نفسها عليها غصبًا عنها؟ هل هذا كله محاولة منها لإثبات اعتقادها بأنها لن تُحب أبدًا يا ترى؟

- إن كان كذلك، فما تمرين به ليس صدفة. أنت من أراد ذلك، وبحثتِ عنه، ووجدتِه. لقد أوضحتِ للحياة أنكِ، وبغض النظر عما فعلتِه، لن تكوني محبوبة أبدًا. وأنتِ الآن تسمين هذا قدَرًا، أليس كذلك؟

في الواقع، لا يتسرع الأطباء في الإدلاء بمثل هذه التعليقات العميقة، بل ينتظرون، لأن هذه التعليقات يصعب فهمها وإدراكها بشكل صحيح واستيعابها وتطبيقها بمجرد فهمها. ولكن فتوش فتاة ذكية.

(11)

صار كنان يتنفس أمام بيت فادي بعد خروجه من الملهى كل مساء. إسماعيل يوقف السيارة في مكان غير مرئي، وهو بدوره يختبئ تحت الشجرة المقابلة للمنزل، وفي يده سيجارة، يراقب المنزل باستمرار. على الرغم من أنه لم يجرؤ على قرع الباب، إلا أنه على الأقل كان يراقب من يخرج ومن يأتي إليها.

كانت أضواء المنزل منارة كالعادة، لأن فادي تكون موجودة في المنزل في مثل هذه الساعة، ولكن لم يكن هنالك أحد يخرج أو يدخل. هذا يعني عدم وجود أحد في حياة الفتاة بعد. بعث هذا الأمر الأمل في كنان، فكان يضع خططًا جديدة في ذهنه قائلًا إنها بطريقة أو بأخرى ستتخلى عن عنادها قريبًا وتعود إلي.

ومع أن المرأة طردته من الباب، ولكنه يدخل من النافذة، فيأتي في الصباح الباكر إلى أمام المنزل، ويبقى بجانب النافذة حتى الليل. لم يعد يذهب إلى العمل، أو إلى الملهى، أو يلتقي مع أصدقائه، ولم يكن يفكر بشيء سوى مراقبة فادي. وضعها في رأسه، لم تتركه امرأة من قبل. سيفعل أي شيء حتى يستعيد حياته القديمة. أحيانًا يستيقظ مهمومًا، ويتقلب في الفراش، وعندما لا يستطيع النوم، كان ينهض من سريره الدافئ ويلتقط أنفاسه أمام منزل فادي.

الهموم التي بداخله لا تتركه وشأنه أبدًا. عندما يذهب أسفل تلك الشجرة، يشعر بالارتياح قليلًا، ويحدق في النافذة، وإذا رأى ضوءًا في المنزل يواسي نفسه قائلًا بأن فادي الآن في التواليت، أو إنها تستحم، أو في المطبخ تجهز الطعام. يتجمد من البرد في بعض الليالي، وأحيانًا يخجل من المارين، ويخاف من أن يشتبهوا بكونه سارقًا، ولكن رغم ذلك كله فإن أكثر مكان يرتاح فيه هو ذلك المكان.

وضعه هذا أقلق هاندان أيضًا. أصبح زوجها رجلًا غريبًا. لم يعد يذهب للعمل، أو يهتم بشيء، ولا حتى بملابسه كما كان في السابق. علاوة على ذلك، لم يكن يمكث في المنزل أنصاف الليالي، بل يتجول في الشوارع. وثمة قصة الطبيب أيضًا. فهو يشعر بالمرض باستمرار، ويقرع كل يوم باب طبيب مختلف عن سابقه، ورغم أن التحاليل كلها تشير إلى أن حالته طبيعية، إلا أنه لم يكن يصدق ذلك، ويستمر بشعوره بالمرض. في الواقع هاندان أيضًا لم ترَ أن حالته جيدة. ينقطع نفَسه أحيانًا، ويحمر وجهه وعيناه، ولا تتسع نفسه له. يقول له جميع الأطباء بأن حالته هذه نفسية، ولكن أحدًا لم يستطع أن يقنعه بزيارة طبيب نفسي.

ماذا أصاب هذا الرجل؟ (فكرت هاندان) هل آل إلى هذه الحالة بسبب تلك المرأة التي ظهرت أمامهم في ذلك اليوم، وهاجمت زوجها؟ والواقع إن كنان ليس رجلًا يصيبه ما أصابه الآن بسبب امرأة أو فتاة، هذا يعني أنه ثمة أشياء لا تعرفها.. علاوة على ذلك، لم يكن من الممكن أن يبقى على هذه الحال دون الذهاب للعمل نهائيًا، وزيارة الأطباء، طبيبًا طبيبًا، والتجول في الشوارع، شارعًا شارعًا. لو بقي، حماه الله، على هذه الحالة، سيكسد عمله. قالت في نفسها: "من الأفضل الاتصال بسميح". لو شرحت له الأمر برمته لربما وجد حلًا. ثم إنه الصديق المقرب له.

اتصلت بسميح، وحكت له. قلق هو الآخر. قال لها: "لا تقلقي، سأصحبه إلى طبيب نفسي مهما كلف الأمر". بعد ظهر اليوم التالي مباشرة خطف سميح قدمه إلى البيت. حجز موعدًا عند طبيب يعرفه دون أن يسأل كنان، وأتى الآن ليصحبه. وبإصرار هاندان، صحِب كلاهما كنان على عجل. وفي غرفة الانتظار أنّبهما كنان. صحباه إلى طبيب نفسي، لا إلى طبيب آخر، وكأنه مجنون.

وأخيرًا، عندما حان دورهم، دخلوا جميعًا. كان كنان قد رأى الطبيب برفقة سميح عدة مرات. كان رجلًا في مثل سنهما. في البداية شرحا له وضعه، بعد ذلك أخرجهما الطبيب، وبقي وحيدًا مع كنان. وأثناء تبادلهما الأحاديث، وصل الحديث إلى فادي. حكى للطبيب أنه خرج من المنزل منتصف الليل وتوجه إلى بابها،

وانتظر هناك ساعات، ليستطيع رؤية وجهها ولو لمرة واحدة. هذا شيء جيد، فعلى الأقل كان يخبر هذا الرجل بما لا يستطيع إخباره لأي شخص، وكان هو بدوره يستمع إليه رغم عدم قوله أي شيء. أعطى الطبيب بعض الأدوية لكنان. في البداية لم يرغب بتناولها، ولكن بإصرار هاندان بدأ يتناولها. فكر بأنه على الأقل سيستطيع النوم ليلًا.

صار الآن يذهب إلى الطبيب كل أسبوع، ويحكي له كل ما بداخله، ولكنه كان يحب الحديث عن فادي أكثر من غيرها. يحكي مكررًا ما عاشه معها كل أسبوع، وكان يقول بأنها ستعود إليه في يوم ما.

كان الطبيب بين الحين والآخر يريد تغيير الحديث، ويسأله حول طفولته وشبابه، ولكن كنان لم يأذن بذلك نهائيًا، ويفعل ما بوسعه ليعود بالكلام إلى فادي مجددًا. في أحد الأيام لم يستطع الطبيب التحمل قال له: "دع هذه المرأة، ولنتحدث حول أمور أخرى. ثم أليس لديك امرأة أخرى؟". في ذلك الوقت ذُهل كنان لما آل إليه الحال. كان الطبيب يقول له ما يقوله أصدقاؤه تمامًا. هذا يعني أنه لم يفهمه أبدًا؟ ومنذ ذلك الوقت لم يزر الطبيب نهائيًا. ترك أدويته. فعلى أية حال لم يكن الدواء حلًا له. ودواؤه كان فادي.

من مذكرات طبيبة

تكفلت الأمطار التي كانت تهطل طوال اليوم بغسل الأوساخ والأقذار – وخاصة سُخام أنقرة الذي جلبته الرياح خالطةً الغبارَ بالدخان على الأرض طوال الأسبوع الماضي – فامتلأ الجو بالحبور.

اليوم هو السبت. بالنسبة إليّ فإن أيام السبت خاصة جدًا، لأن مساءات السبت هي الوحيدة التي يمكننا الخروج فيها أنا وزوجي، باعتبار أن طفلّينا ما يزالان صغيرين. إننا مجموعة كبيرة. سنكون برفقة أصدقائنا القدامى كلهم هذا المساء أيضًا. حتى إنني تجهزت من الآن. ذهبت إلى مصفف الشعر أولًا، ثم ارتديت ملابسي. عندما أُنهي عملي سيأتي آيدن ويصحبني. من يدري ما هو الطعام اللذيذ الذي أعدّوه؟ سلِمت أمي الحبيبة، سيبقى الأولاد برفقتها، مما يعني أنني مطمئنة. أعمل بمتعة في عيادتي.

أنظر إلى الساعة، تقترب من السادسة. يجب أن أنهي عملي في السابعة. مريضتي الأخيرة هي فتوش. لنرى بأي حال ستأتي اليوم. وقبل أن تدخل، أقفز من مكاني، وأستقبلها عند الباب. أصافحها ولا أترك يدها حتى تجلس على إحدى الأريكتين مقابلي. ثم أجلس مكاني وأتأملها. ومجددًا تبدو مشوشة ولكنها تهتم بنفسها أكثر من ذي قبل. أمامي الآن امرأة أنيقة ورشيقة. ترتدي طقمًا كحليًا وتنورة قصيرة ضيقة. أما السترة فهي صغيرة وقصيرة. والعقد المرجاني البارز فوق قميصها الحريري الأبيض المفتوح يمنح ملابسها أناقة أكبر. بعد أن وضعت حقيبتها الصغيرة التي كانت تحت إبطها على الطاولة بعناية، بدأت بالكلام على الفور.

تحكي لي بمتعة وهي ضاحكة أن كنان ما يزال يلاحقها، لكنها لا تتردد في التعبير عن غضبها بشكل متكرر. وكما فهمتُ منها، فكلما طاردها الرجل أكثر يتناقص احترامها له، ومن ناحية أخرى يزداد غضبها. وكأن نارًا تخرج من عينيها.

إنـه لـيس مجـرد غضـب، فهنالـك آثـار إصـابة أعمـق مـن ذلـك في تلـك النظـرات. وكطفلة، من يدري مـدى رغبتهـا بـأن تكـون محبوبـة مـن قِبـل والـدها. ثـم قـام هـذا الرجل الذي دخل حياتها لفترة بملء هذا الفراغ. لقد بـذلت الكثيـر ليحبهـا شـخص مثله. والآن ظهر بكل جلالته ذلك الفراغُ الذي اعتقدت أنها ملأته طوال سنوات.

- إنه الرجل الوحيد في الحياة الذي تعرفت إليه بعد أبي. اتضح أنه كان مثل أبي تمامًا. يمنحني الله مصيرًا مشابهًا لمصير أبي. وفي النهاية عنـدما أتـى بضرة إلى البيت ماتت المرأة المسكينة قهرًا. إن كـل مـا تخافـه في الحيـاة سيحدث لك بالتأكيد.
- تحدثنا قبل ذلك بأن ما حدث ليس مجرد صدفة. فأنتِ التي بحثت طويلًا لإيجاده.
- إنني تعيسـة للغايـة.. وكـأن لصًـا دخـل بيتـي، وأخـذ كـل مـا أملكـه ومـا لا أملكه، وذهب. لم يبق لدي أي شيء. كان هو كل ما أملك.

هذه الفتاة لا تملك أي قيمة ذاتية. أخذت كل شيء من شخص كانـت تقـدّره. وعندما غادر الرجل، أخذ معه كل ما منحها إياه.

- أشعر بأنني متعبة جدًا. عندما كنت معه لم أعرف طعم الشبع من أن أكون محبوبة من قِبل شخص مهم. في الأوقات التي شعرت بذلك كان الغضب بداخلي يتلاشـى، ويُسـتبدل بشـيء لطيـف ومثيـر للغايـة لـم أسـتطع فهمـه تمامًا. كان ذلك الشعور يشبه الأضواء الدافئة المنبعثـة مـن مصـابيح هـذه الغرفة. جذابة للغاية، ولكنها غريبة بالنسبة إلي.

كل شيء جميل غريبٌ بالنسبة لهذه الفتاة. إنها تهتم بي أيضًا. وبسبب الاحترام والتقارب اللذين أظهرُهما لها، يتضاءل ذلك الفراغ الموجود في الغرفـة. إنهـا خطـى التحول. بمعنى آخر التبادل العاطفي بـين المـريض والطبيـب.. تتعلـق بـي أكثـر مـع مرور الوقت. إن هذا يُعتبر شيئًا جيدًا وسيئًا في الوقت ذاته. جيد لأن شعور المُعـالج بأهميتـه هـو مفيـد دائمًـا في العـلاج. وسـيء لأن التعلـق أصـبح الآن أحـد مخاوفهـا

الداخلية. إذا تمكنا من تمديد فترة المعالجة هذه، فأعتقد أن بإمكاننا التعامل مع هذا الموقف بطريقة ما مع فتوش.

الأشياء التي تعرفها جدًا، وليست غريبة عنها، تحتقرها، ولا تحبها، ولا ترغب بها، وتدفعها عنها بعيدًا. وكما لو أنه الفستان الأكثر راحة هو الذي وجدته بنفسها، ستجعلها الحياة ترتدي هذا الفستان في نهاية كل مغامرة من خلال نقش نفس الفكرة دائمًا. بدأت نقوش القدر تُظهر نفسها بشكل بطيء. أتمنى لو أستطيع أن أشرح لها ذلك.

- في الحقيقة لم يكن خطأه، بل خطئي أنا. هو لم يُجبرني أبدًا.
- لا أوفقك الرأي تمامًا. إذا نظرت بدقة إلى الماضي، سترين أنتِ أيضًا أن الأمر ليس كذلك. علاوة على ذلك، كنتِ في ذلك الوقت فتاة ساذجة، وهو بدوره ماهر في هذا العمل.

تصمت وتفكر. وأثناء تفكيرها تحكّ رأسها بيدها اليسرى كما تفعل دائمًا.

- ومجددًا لو لم أرغب بذلك لما وقعت بتلك الشباك. كلما رأيته ينبض قلبي بجنون، ويتغير لون وجهي، وتضحك عيناي. لم أشعر أبدًا بسعادة وإثارة كهذه من قبل. ولكنني رغم ذلك ما زلت أدرك الحقيقة. ربما كان هو الرجل الأكثر وسامة وجاذبية في العالم. ورغم وجود الكثير من الرجال في الملهى، لكن النساء كنّ يبحثن عنه بإصرار. كان هذا الرجل يلمع مثل نجم. وكأن الحياة فتحت لي بابًا للمرة الأولى، وأذِنت لي بأن أكون سعيدة. وعلى أية حال كنت بدوري أحاول أن أستخدم هذا الإذن بأفضل طريقة، وأردت أن أعيش بشغف ذلك الحلم الذي سيستمر مدة قصيرة. كنان متزوج بالفعل، وهو أكبر مني سنًا. كما أنني، ودون معرفتي سبب ذلك، لم أكن أنجذب لمن هم في عمري.
- هل حقًا لم تكوني تعلمين السبب؟

وتفكر مجددًا. في الحقيقة هي تعرف جيدًا إجابة هذا السؤال.

- هل أبحث عن أب لنفسي يا ترى؟ هذه المرة سيكون هو أبًا يحبني كثيرًا، ويحبه الجميع، ويحترمونه، ويعجبون به.
- ربما!
- لم يكن لدي أم تحبني، أو أب يعتني بي.
- لستِ الوحيدة في ذلك يا فتوش. ثمة أناس كثيرون هكذا. ولكن وعلى الرغم من ذلك، فالأمر متروك لكِ لجعل هذا العالم مكانًا جميلًا وممتعًا للعيش فيه. فكري بذلك.. ما قولك، هل نشرب الشاي؟

تستجمع قواها، وتقبل عرضي مغمغمة بكلمات الشكر. بالنسبة للشاي فأنا مهتمة بكمية السكر التي تريد وضعها فيها، وسواء أكانت تريده ثقيلًا أو خفيفًا. أفعل ذلك متعمدة. أريد منها أن تشعر بأنها مهمة وذات قيمة. كنا نشرب الشاي من جهة، ونتابع حديثنا من جهة أخرى.

- كان ملكًا، واعتقدت أنه لو أحبني وأعجب بي، فإنني لن أشعر بالمهانة. ولكن لم يحصل. صدمتني الحقيقة المرة للحياة مرة أخرى.
- نتحدث عنك وعن حياتك منذ أسبوع. يتعلم الإنسان، ويطبق ما يتعلمه. وأنت أيضًا فعلتِ ذلك. كلانا الآن نعرف ما فعلتِه، ولماذا. بيت القصيد هو أن تتخلي عن تطريز نفس النقوش مرارًا وتكرارًا في حياتك.

أنظر في وجهها بتمعن لمعرفة ما إن كانت قد فهمت ما أقوله. ثم أتوسع قليلًا فيما أقوله.

- ومثل أي شخص، فإنك حاولت أنتِ أيضًا أن تجدي تبريرًا لمخاوفكِ. وما هي هذه المخاوف؟ أنا فتاة ذليلة، لا أحد يحبني... إن لم تغيّري بعض الأمور، فسوف تواجهين أشياء كثيرة مماثلة، وتثبتين باستمرار أنكِ محقة في تفكيرك بهذه الطريقة. ومن ناحية أخرى، فإنك لن تنسي اعتقادَكِ بأن هذا الطريق سيقودك في يوم ما إلى السعادة والسلام.
- ماذا تقصدين؟

- كنتِ، منذ البداية، تعرفين أي نوع من الرجال هو. كان واضحًا منذ البداية أنه يخون كل امرأة معه، ولم يحب واحدة منهن. لاحظي أن الفراغ وعدم المحبة اللذَين في داخلك يدفعانك نحو شخص كهذا. تدخلين لعبة خاسرة. وبهذا الشكل تتحقق مخاوفكِ، وفوق ذلك تبدين على حق. ماذا تقول لكِ الحياة الآن؟ أنتِ محقة، لا أحد يحبك.

تشوشت عيناها. أسكت وأتركها مع نفسها. كلتانا لا نتحدث لبعض الوقت. بعد قليل أبدأ أنا بالحديث.

- إن استمريت بإثبات ذلك لنفسك، تأكدي بأنك ستبدين على حق في كل مرة.
- هل أنا التي أرادت لذلك أن يحدث؟
- هل تذكرين أول سؤال سألتِني إياه في يومكِ الأول هنا؟ سألتِني: "هل يرمي الإنسان نفسه عمدًا إلى النار؟"
- أنا رميت نفسي.
- إن أدركتِ تمامًا سبب رميك لنفسك، لربما لن تفعلي ذلك مجددًا.
- هل هذا يعني أنني لن أكون محبوبة أبدًا؟ هل هذه هي الحقيقة؟ هل هذا ما تريدين مني أن أصدقه؟

أبتسم لها بشكل خفيف. في الواقع، هي تسألني أسئلة صحيحة.

- لا، بالطبع أنا لا أقول ذلك. أنتِ لست امرأة غير محبوبة. ولكنكِ في الأوقات التي كنتِ فيها بحاجة لأن تكوني محبوبة، لسوء الحظ، لم تحظي بهذه الفرصة. أنت الآن لستِ تلك الطفلة الصغيرة العاجزة. لكن الخوف من عدم الحب ما زال باقيًا في مكان ما في ذهنكِ. وبدلًا من إخراج هذا الخوف من عقلكِ وتجنّبه قدر الإمكان، تعرّفي عليه. تعرفي عليه حتى لا يكون هو من يكتب مصيرك.

قطّبت حاجبيها في محاولة لفهم ما أقوله. من الصعب دائمًا مواجهة المخاوف الموجودة في العقل الباطن. لقد كان حاجباها مقطّبين بسبب ذلك.

- صحيح، يخيفني أن أموت دون أن أكون محبوبة.
- جميعنا لدينا مخاوف من هذا القبيل، لكنكِ يجب أن تعرفينها جيدًا، وتضعينها في مركز حياتك، ولا تدعينها تؤثر على قراراتك.

بينما كانت تشرب الشاي من جهة، كانت تهز ساقها اليمنى باستمرار من جهة أخرى. أتمنى أن تكون قد فهمت ما أقوله. ثم تبدأ بالكلام مرة أخرى بصوت حزين.

- إنني أغضب من أمي كثيرًا هذه الفترة.
- ثمة حساب غير منته بينكِ وبين أمك.
- ألا يمكن أن نغضب من أم لم تحب حتى طفلها الذي أحضرته إلى الدنيا؟

أومئ برأسي موافقة إياها. جميعنا نتعرف على مشاعر الذنب عادة من خلال أمهاتنا. ظهر فيها هذا الشعور المؤلم ضد أمها وهي في سن مبكرة جدًا. حتى الغضب البسيط تجاه الأم يشكل داخل الإنسان مثل هذه الجبال من الذنوب، حتى لا يُعتبر غضبه ضئيلًا على الإطلاق. إنها غاضبة من أمها بسبب إهمالها وعدم محبتها، كما أنها تُلقي باللوم عليها في وفاة أختها الصغرى. وبالتالي، تزداد مشاعر الذنب مع زيادة الغضب. في الواقع كم هي محقة وإنسانية في كل هذا..

- وأبي أيضًا، لماذا لم يحبني؟ هل هو ذنبي أن أكون فتاة؟ ألم تنتحر أختي لهذا السبب؟ لم يقف أحد بجانب أختي المسكينة. إنني مذنبة أيضًا. على الرغم من صغر سني إلا أنني تمنيت لو استطعت حمايتها، وفهم حالتها. الفتاة المسكينة لم تحكِ عن حالتها حتى لي. هذا يدل على أنني لم أكن قريبة بما يكفي من أختي، ولم أهتم بها جيدًا.
- يا لعدد الجرائم التي ارتكبتِها يا فتوش. حتى عندما كنتِ طفلة. كفي عن البحث عن الذنوب! سامحي تلك الفتاة الصغيرة العاجزة. لقد بدأتْ

تلك الفتاة بالمعاناة وهي في ذلك السنّ. لو أنكِ تستطيعين أن تكوني أكثر إنصافًا لنفسك! لم يكن من السهل بالنسبة إليكِ بلوغ هذا اليوم. اجتهدتِ وكافحتِ كثيرًا. فكري أيضًا في هذا الجانب من الأمر.. إن بقيتِ تلومين نفسك على كل شيء، فلن تتركِ العقوباتُ وشأنك. أنتِ لم تختاري أن تولدي في بيئة كهذه. ورغم ذلك، فإنكِ ما تزالين تواجهين الحياة عينًا بعين، وسنًا بسنّ. حاولي أن تري هذه الأمور أيضًا. أنتِ الآن على الجانب الرابح.

- هل حقًا هذا ما تَرينه؟
- طبعًا هذا ما أراه. أنتِ أيضًا من تركت كنان. ورغم تأخر الوقت، لكنك أدركتِ الحقيقة، ونجوت من مخاطر أكبر، وقطعت العلاقة.
- الآن لم يعد هنالك أي فرق بيني وبينه.
- ماذا تعنين؟
- أعني أن الملك خسر في النهاية. رؤيتي ذلكَ تُشعرني بالراحة ولو قليلًا.

أقول في نفسي "هذا صحيح". إن هذا يُعتبر سقوطًا بالنسبة للملك؛ أي كنان، وقد بدأ ذلك السقوط تلك الليلة، عندما بدأت فتوش بضربه. ثم اختفت كل جاذبيته باتصالاته، ورسائله، وعسكرته أمام بابها. كيف يمكن لرجل مثله أن يرتكب خطأً كهذا يا ترى؟

- هل يمكن فعل ذلك بشخص بائس مثلي؟
- بائس؟ هل تقصدين نفسك؟

تحدق في وجهي بعيون دامعة، ولكنني أستمر بالكلام.

- فليحبوا شخصًا بائسًا مثلكِ. أنت لم تعودي فتوش الطفلة بعد الآن. أنتِ سيدة أعمال قوية، ومجتهدة، وناجحة، تخرجت من الجامعة، وتحملين درجة الماجستير، وتتقنين عدة لغات. أنا لا أقول ذلك لأواسيكِ. لا تحرفي الحقائق. لا شيء سيكون كافيًا لقدرك يا فتوش. أنت جائعة

لدرجة أنه لن يكون من السهل إشباعك بشكل طبيعي. لم تعودي فتاة بائسة بعد الآن. فبينما كنت عبدة لهذا الرجل من ناحية، ولكنني، من ناحية أخرى، أرهب من فتاة حققت كل تلك النجاحات. ما لم أستطع فهمه هو كيف استطاع ذلك الرجل أن ينجو من بين يديكِ.

- هل تمزحين؟
- لا، إنني جادة. تحتاجين لقليل من الوقت. سترين، ستنجحين. ستكونين واحدة من الفخورات بنجاحاتهن. لا تقللي من شأن ما فعلتِه، وامنحي نفسك قليلًا من الوقت.

آخر ما قلته كان جيدًا بالنسبة لها. بينما كانت تمسح دموعها التي على خديها بيدها، تعمّ وجهها ابتسامة خفيفة.

- أعتقد بأنني تحدثت كثيرًا مرة أخرى، لكن كلماتكِ الأخيرة كانت جيدة. إن شاء الله، إن شاء الله...

وبقولها هذا، تنهض على قدميها متثاقلة، وقد ابتلّت ياقة طقمها الكحلي وقميصها الأبيض بالدموع مرة أخرى. أرافقها إلى الباب. في عينيها ابتسامة خفيفة لطيفة ممزوجة بالحزن. تتشكرني، وتعانقني، وتغادر الغرفة.

أنظر إلى ساعتي التي تقترب من السابعة. انتهى عملي اليوم في الوقت المحدد، لن أجعل آيدن ينتظر. وقبل أن أخرج من الغرفة أركض نحو النوافذ. أواربها قليلًا وأستنشق هواء نقيًا. أحاول محو آثار شدة الانفعال التي ملأت الغرفة.

(12)

أدركَ كنان أنه لم يعد بإمكانه إعادة فادي بهذا المجيء والرواح. فهم ذلك، ولكنه لم يستطع هذه المرة بأي شكل أن يفهم نفسه. هل كان هو ذاك الرجل الذي يقع في هذا الوضع بسبب امرأة؟ لا يمكن القول إنه، وبعد كل هذه السنوات التي عاشها مع فادي، قد عشقها وأحبها بجنون. فهو حتى اليوم لم يتعلق بأي أحد... كانت مجرد عادة. فلماذا لم يستطع، بعد مرور كل هذا الوقت، إخراج هذه المرأة من عقله؟

عندما يفكر هكذا كان يطفح بالهموم وهو مكتوف اليدين والقدمين، فيجد نفسه في غرف الطوارئ.

أصبح من الواضح أن الأطباء قد سئموا هذا التذمر. كان مثل أولئك المرضى الذين يشغلون وقتهم، فلا يبقى وقت للمرضى الحقيقيين. اعترف كنان لهاندان بأنه لم يعد يزور الطبيب النفسي منذ مدة، وأنه لم يعد يتناول أدويته، ثم بدأ بالبحث عن طبيب جديد. ومجددًا وجد أصدقاء الملهى له طبيبًا جديدًا، وحجزوا له موعدًا عنده، ثم ذهبت هاندان مع زوجها إليه، وحاولت، بكل استطاعتها، أن تشرح له كل ما تعرفه.

كنان لم يحب الطبيب منذ اليوم الأول. لم يكن يبدو أنه من النوع الذي يفهمه مطلقًا. فقبل أن يشرح له كل شيء بشكل كامل شخّص مرضه بـ "نوبة هلع" وأعطاه الكثير من الأدوية. استمع إليه الطبيب مدة ساعة كاملة تقريبًا، ولكن ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة لكنان. كان ينتظر اهتمامًا خاصًا جدًا من الطبيب.

في المرة الثانية التي زار فيها الطبيب شرح له ما عاشه بالتفصيل. وكيف تُرِك بعد كل هذه السنوات، وأنها ربما وجدت شخصًا آخر غيره... سأله الطبيب: "إن

كنت تحبها لهذه الدرجة، لماذا لم تتزوج منها؟" ولكنه لم يكن يحب هذا النوع من الأسئلة نهائيًا. ثم قال له: "انظر، تقول إن المرأة وجدت شخصًا آخر فورًا. اترك هذه المرأة. أساسًا ما عاد قلبك يرهف لها. ثم إن زوجتك تبدو امرأة جيدة. أنت مريض. إن تناولت أدويتك ستنسى كل ذلك."

هؤلاء الأطباء يتحدثون مثل أصدقائه. وهو على أية حال لم يحب هذا الطبيب. كان قبيحًا. أمه أيضًا لم تكن تحب القبيحين. كانت تقول بأن قبيح الوجه قبيحُ القلب. كان يقول بأنه إذا استمع إليه جيدًا فإن هذه المرأة ستعود إليه يومًا ما. في الواقع ألم يكن ذلك هو سبب ذهابه إلى الطبيب؟ فقط ليقول إن فادي ستعود إليك، وليريه طريقة لذلك.

لم يذهب إليه مرة أخرى. كان عقله عند فادي. يعلم أن حالته لم تعد جيدة بتاتًا. لم يعد يذهب إلى الأطباء النفسيين أو يتناول الأدوية وهو يردد بأنه ليس مريضًا. ولكنه لم يكن طبيعيًا. كان يجول الشوارع حتى الصباح كالمجنون، والأهم من ذلك كان يحب البقاء حتى الصباح تحت الشجرة الكبيرة المقابلة لمنزل فادي.

لم يفهمه الأطباء الذكور، كما أنهم لم يكونوا يحبونه، فقد كانوا يغارون منه. لماذا لم يخطر في باله إلى الآن الذهاب إلى طبيبة أنثى؟ فإن وجد امرأة شابة وجميلة لربما يشفى من مرضه بسرعة أكبر، فالطبيبة الأنثى يمكنها أن تجد طريقة لإرجاع فادي. الأنثى ستحبه أكثر، وستكون أكثر حكمة في التعامل مع جميع أنواع المشاكل. أما الذكور فلا يعرفون كيفية التعامل مع هذه الأمور. ولربما اتخذت الأمور منحى آخر، فيفصح عن همومه من جهة، ويجد إثارة جديدة هناك من جهة أخرى.

والآن انحصر الأمر بإيجاد الطبيبة المناسبة. لقد أخطأ بترك أمر مهم كهذا لسميح وهاندان. هو لم يكن مجنونًا أو ما شابه، بل كان عاقلًا، ولكنه لم يكن يعرف كيفية استخدام عقله في بعض الأحيان. هذا كل شيء...

من مذكرات طبيبة

يستعد الربيع لتسليم أنفاسه الدافئة لحرارة الصيف. استيقظت الطبيعة من سباتها الطويل وهي في عجلة من أمرها لعرض جمالها الملون بسخاء مع فرحة الولادة من جديد. يا لها من فرحة كبيرة، اللحاق بربيع آخر، وصيف آخر في هذه الدنيا! في الأيام التي يكون الطقس جميلًا أخرج باكرًا وأذهب إلى عيادتي سيرًا على الأقدام. عيناي على الأشجار... أتأملها واحدة تلو الأخرى. إنها تُبعث بتثاقل.

لا أعرف ما إذا كان الطقس باردًا أم حارًا. عندما أمشي بسرعة تجعلني الرياح أشعر بالبرد أحيانًا، أو أتعرق أحيانًا أخرى. عندما أصل إلى عيادتي أكون غارقة بالعرق. تفتح تونا الباب كعادتها كل مرة. تندهش قليلًا لرؤيتي في وقت أبكر مما تتوقعه.

- أووه، من الجيد أنكِ أتيتِ باكرًا سيدتي. لم تشربي قهوتكِ بعد أليس كذلك؟
- لم أشربها. قلت لنفسي "أجلس مع تونا في الشرفة، ونستمتع بالقهوة". حقًا كم مضى على جلوسنا آخر مرة في الشرفة سوية؟
- أووه، من يدري كم من الوقت قد مضى! السنة الماضية لم نجلس نهائيًا ربما.
- حسنًا، حضري القهوة بسرعة إذن.

ما إن انتهيت من خلع سترتي الرقيقة وتعليقها في غرفتي حتى كانت تونا قد أعدت القهوة. رائحة القهوة هذه ألذ من القهوة ذاتها. ما شاء الله، لا تعليق على رغوتها. أجلس باستمتاع على الكرسي الصغير. المنظر من هذه الشرفة جميل للغاية! نتبادل الأحاديث أنا وتونا، وفي كل حديث نجد مادة للضحك. ربما هو نوع من التمرد على جميع أنواع المعاناة في هذه الدنيا..

وبينما كنت على وشك الدخول، تمسك تونا بذراعي فجأة كما لو أنها تريد أن تقول شيئًا مهمًا.

- لقد نسيت أن أقول لكِ بأن فتوش خانم تتصل إلى هنا باستمرار. ورغم أنني أذكرها بموعدها مسبقًا، إلا أنها تتصل مجددًا. لو تركتُها لأرادت التحدث معكِ طوال الوقت. لا أستطيع أن أصلها بكِ دائمًا لوجود مريض في الداخل.
- لا تصلينها بي؟ .. ولكنني أتحدث معها على الهاتف كل يوم تقريبًا.
- إنها تتصل خمس مرات في اليوم، ولكنني أصلها بكِ مرة واحدة فقط.
- هكذا إذن! أعتقد أن عندها موعد الآن.
- يوجد، يوجد. ستأتي الآن.

وبينما كانت أشعة الشمس المتسربة من بين الغيوم تستعد لأن تتركز فوقنا، يُقرع الباب. نتجهز كلانا فورًا. كم مر الوقت مسرعًا! فعندما نكون سعداء يمر الوقت بسرعة. أنتقل إلى غرفتي راكضة. أول عمل لي كان إنارة المصابيح. وحتى خلال النهار، كنت أحب الضوء الذي يتسلل من تلك المصابيح، ولكن تفكيري منشغل بفتوش. لماذا تتصل هذه الفتاة بي كثيرًا؟ أعتقد أنها تحلم بشخص يمكنها مشاركة الحياة معه، وتشعر بالأمان معه. إنني أجد نفسي أيضًا في بعض الأحيان أفكر بها وبما عاشته في الماضي. إنني أتعلق بها، وهي أيضًا تتعلق بي. ولكن وعلى الرغم من كل شيء، أنا هذه مهنتي، ولكن ماذا عنها؟

لقد انفصلت حديثًا عن شخص تعلقت به حتى الموت مدة عشر سنوات. هل سترتكب نفس الخطأ معي هذه المرة بعلاقتنا هذه؟ هل هي على دراية بمدى خطورة المياه التي تبحر فيها يا ترى؟ ألا تخاف من التعلق مرة أخرى؟ إن كان الأمر كذلك، فلا يبقى سوى خيار واحد، وهو الهرب. وهذا يعني عدم اكتمال العلاج.

أثناء توجهي نحو الباب، أراها في الممر. إنها ترتدي فستانًا بسيطًا بلون الكريم. ترتدي في قدمها حذاء أحمر اللون عالي الكعب. تبدو أنيقة وجميلة. تمد

إليّ الطرد الصغير الذي بيدها قبل أن تدخل. يخرج منه عقد ذهبي صغير. مكتوب عليه "غول سيران". وحتى لو كان صغيرًا، ولكنه عقد غالي الثمن. وبينما لم أجد ما أقوله أو أفعله، تتناول العقد بسرعة وتضعه حول رقبتي. أما أنا فيبقى على عاتقي أن أشكرها فقط. لماذا اشترته لي يا ترى؟ هل كان هدفها إسعادي، أم تذكيري بنفسها باستمرار، أم إنه تعبير عن تجاوز كل ذلك وتعلّقها بي يا ترى؟

بعد أن خبأت هذا الموضوع في إحدى زوايا عقلي، بدأ كلانا يسأل الآخر عن حاله. وأثناء حديثنا تدخل تونا وبيدها القهوة. تنهض فتوش على قدميها، وتتناول القهوة باحترام شاكرة إياها.

- يا لها من امرأة جميلة، تونا خانم. إنني أحبها. إنها امرأة ودودة وبشوشة.
- نعم، إنها هكذا. قولي لنرى، ماذا حدث في غيابنا؟ هل هناك خبر من كنان؟
- بالنسبة إليّ، لم يعد هناك شخص اسمه كنان. حتى لو كان هو الرجل الوحيد المتبقي في الدنيا، فلا أريده. أشعر بحزن شديد عندما أفكر بأنني تعلقت به كثيرًا في وقت من الأوقات.
- فتوش، هل تساءلت يومًا عن سبب تعلقك الشديد بالناس؟

لم تجب بسرعة عن هذا السؤال. أشعر بالضبابية التي ملأت عينيها.

- أصبحت عبدة لهذا الرجل في سبيل رشفة حب.
- هل تعتقدين أن الناس يحبون عبيدهم؟



- ألا يحبونهم؟
- قد يحبون عبدًا يعتني بهم جيدًا، ولكن هل هذا ما تريدينه أنتِ؟
- هذا هو قدَري. لقد رضختُ له..
- ربما لهذا السبب لم تعامليه أبدًا على قدم المساواة.
- لكنني لم أكن مساوية له..

- انظري، لا أتفق معك في هذا أبدًا. ربما مرت طفولتك ومراحل شبابك الأولى بصعوبات، ولكن لا تعممي ذلك على كل حياتك وقدرك. إن تركت الأمر للقدَر، فمن الواضح إلى أين سيأخذك.

ومجددًا تغوص في حضن نفسها، وتبكي.

- من يفضّل أن يكون تعيسًا؟
- لا أحد يريد ذلك، ولكن في مكان ما على الطريق يتعب الإنسان ويستسلم. إن كنت ستفعلين ذلك أيضًا، ستنزوين في زاويتك، وتحنين رأسكِ، وتجدين أربعين عذرًا لتعاستك، وتمضين.. لا تقلقلي، فلا يوجد أسهل من خلق الأعذار في الحياة. فكري، إننا نعيش في حياة مليئة بالموت. ألا يكفي معرفة ذلك ليكون سببًا للتعاسة؟
- لم أعش يومًا واحدًا في هذه الدنيا. أليس هذا مؤسفًا بالنسبة لي؟
- الألم يجعل الإنسان أقوى. إنكِ لستِ مدركة لذلك، ولكن الآلام جعلتك أقوى. والآن أنتِ مَن يقرر أين ستستعملين هذه القوة. توقفي عن أملك في الحصول على مساعدة من القدر. إن لم تجتهدي فلن يفعل هو أي شيء من أجلك.
- ماذا حدث لكِ اليوم؟ إن كنتُ مستاءة بعد حدوث كل هذه الأشياء السيئة، فهل هذا خطئي؟
- أنت الآن بحال أفضل يا فتوش. أود أن أغتنم الفرصة وأقحمك في الحياة في أقرب وقت ممكن، كشخص سليم معافى يعرف ما يفعله. أعلم كم عانيتِ منذ البداية، ولكن إن قلتِ إنه القدر، فلا خيار لديك سوى الاستسلام له. لا تلومي القدر على تعاستك. حاربيه، واسعي وراء السعادة. ابحثي عنها في كل مكان. تأتي السعادة للإنسان من خلال الجهد، والبذل، والتراكم، والمعاناة. ولكن رغم ذلك فليس كل جهد وكل بذل وكل تراكم وكل معاناة تجلب السعادة. في البداية إن الأمر

متعلق بأولئك الذين يقررون عيش الحياة بسعادة، والناسِ الشجعان المكافحين الذين لا يستسلمون أبدًا. لا يمكننا استخدام الأمور السيئة التي تحدث لنا كذريعة لكوننا تعساء، كما لا يمكننا أن نطلق اسم السعادة على الملذات المؤقتة التي يجلبها طائر الحظ. أنتِ فتاة شجاعة. كفاحك حتى الآن يمنحني الأمل. على الرغم من أنكِ، من الناحية الشخصية، لست مستعدة للسعادة، إلا أنكِ تملكين طاقة كبيرة بداخلكِ. إنها الطاقة التي أوصلتكِ إلى ما أنت عليه اليوم.. إن لم تتوقفي عن الاستثمار بنفسك وبالحياة، فإن الطريق واضح جدًا. ولكن مع ذلك فالقرار قرارك. إنني أعني القرار وليس القدر.

تغلق عينيها وتفكر لبعض الوقت دون أن تتكلم. كم هو صعب بقاء الإنسان وحيدًا في الحياة. ليس لديها عائلة تربطها بالماضي، أو حبيب يربطها بالمستقبل. لقد ضغطتُ عليها كثيرًا اليوم. ولكنها فتاة ذكية وشجاعة بما يكفي لتفهم ما أقوله. بعد مدة، تفتح عينيها وتنظر إليّ بحب.

- أخاف كثيرًا بعد الآن أن أثق بأحد. حتى إنني، ومنذ يومي الأول هنا، لم أكن أنوي الوثوق بكِ أيضًا. ولكنني لا أعرف ماذا حدث في المقابلة الأولى، إذ تلاشى كل خوفي.

الشعور بالثقة هو شعور مهم وهشّ، يحتل الصدارة في جميع العلاقات. غالبًا ما يؤدي إنهاء العلاقات أو تعريضها للخطر، إلى خيبة أمل كبيرة لدى الناس، مما يُتلف الثقة بسرعة.

يعاني معظم الناس من خيبات أمل كبيرة وصغيرة، ويتآكل شعور الثقة لديهم. وعلى الرغم من كل شيء فإن الناس محتاجون إلى الوثوق بشخص آخر. ربما هذا هو سبب إقدامهم على علاقة جديدة معتقدين، على الرغم من كل شيء، أن مشاعر الثقة لديهم متينة، لكن شعور الثقة ينهار بسرعة عند أصغر حدث في العلاقة. وخاصة حالات الخسارة والرفض، فهي تؤذي هؤلاء الناس أكثر مما يعتقدون.

فيما يخص هذا الموضوع، فإن فتوش مصابة إصابة بليغة. منذ ولادتها وإلى الآن لم تصادف أحدًا يمكنها الوثوق به. إنها تحاول أن تملأ الفراغ الذي بداخلها من خلال جذب انتباه الأشخاص الذين تحترمهم، وتقدرهم، وتفضلهم عن نفسها، ومن خلال جعلهم يحبونها.

لا تتردد في فعل ذلك وهي تُظهر كل ما لديها من أمور مادية ومعنوية. وعلاوة على ذلك فإنها تختار أكثر الأشخاص غير المناسبين عند فعلها لهذا الأمر. فحبيبها السفيه والأكبر منها سنًا، وأنا أيضًا، لسنا أمثلة جيدة على التعلق حتى الموت. لقد رأت ذلك بأفضل صورة خلال السنوات العشر التي عاشتها مع حبيبها. أما بالنسبة إليّ، فأنا مجرد طبيبتها، لستُ شخصًا مناسبًا لأكون بجانبها في حياتها اليومية، ولا يمكنني الاستجابة لاحتياجاتها المتزايدة في التعلق.

من المرجح أن ينعكس هذا الموقف سلبًا على علاقتنا، وتزداد توقعاتها مني تدريجيًا. وفي النهاية ستظن أن مجرد أصغر تغافل هو رفض، وستشعر بغضب كبير تجاهي، وتتركني. والأسوأ من هذا كله، أنها سوف تتأذى من ذلك، وسيسجله عقلها بوصفه خيبة أمل جديدة لن تُمحى مرة أخرى أبدًا.

على الرغم من أنني أعرف كل هذا مسبقًا، إلا أنني غير مرتاحة بشأن ما إذا كان بإمكاني منعه أم لا. سأحاول الآن التحدث معها حول هذا الموضوع.

- من الجميل حقًا أن تثقي بي، لأنه يبدو لي أنه ليس من السهل كسب ثقة شخص مثلك.
- لقد أظهرتِ لي قرابة أكثر بكثير مما كنت أتوقعه. في الواقع، أعلم أنك طبيبة. ربما تظهرين هذا القرب لجميع مرضاكِ.

هنا تأتي العلامة الأولى. تريد أن يكون لها مكانة مختلفة عن الجميع في عقلي. وأي شيء آخر سيؤذيها.

- بالطبع أفعل، ولكننا نعيش علاقة مختلفة مع كل شخص على حدة. تدوم هذه العلاقة مع البعض لفترة أطول، وتنتهي بشكل سريع مع البعض

الآخر. إنه يتعلق أيضًا بتوقعات الشخص من العلاج.

- ستنتهي فترة علاجي في يوم ما، أليس كذلك؟
- ألا تريدي ذلك أنت أيضًا؟

تجلس أمامي حزينة ورأسها منحني، وتعض شفتيها. ثم تجيب بصوت منخفض.

- ولكنني سأصبح وحيدة عندئذ.
- سأكون موجودة هنا أينما كنت. أنا لست موجودة في الحياة من أجلك، ولكن عندما تكون لديك مشكلة سأكون دائمًا هنا للحديث عنها. أتمنى بعد فترة أن تجدي من يشاركك الحياة بحزنها وفرحها.
- لا أعتقد ذلك أبدًا، ولكن على أية حال لأذهب الآن. نلتقي الأسبوع القادم.
- لن أكون في أنقرة الأسبوع القادم.
- إلى أين ستذهبين!

تسألني هذا السؤال بغضب وعيناها جاحظة. أضحك عليها مظهرة فهمي لغضبها وتمردها.

- إلى أين سأذهب؟ أتمنى ألا تتوقعي مني الإجابة على هذا السؤال.
- عفوًا، أعتقد أنني تجاوزت حدودي. طبعًا، مَن أنا لتخبريني بكل شيء؟
- لا تفعلي هذا يا فتوش! أدرك مدى أهميتي بالنسبة لك، ولكنك صدقيني أنتِ أيضًا مهمة بالنسبة لي. لكن هل تدركين ما تفعلينه؟
- ماذا أفعل؟
- لا تضعيني مكان كنان. لقد تعلقتِ بهذا الرجل مدة عشر سنوات، وقد جعلك ذلك تخسرين الكثير. حتى لو لم أكن موجودة الأسبوع المقبل، ولكنني موجودة دائمًا. لا تنهضي بغضب وتخرجي من هذه الغرفة

متضررة. علينا أن نتحدث بهذا الموضوع مطولًا. تعلمين، فترة العلاج لم تنته بعد.

- أعلم، أعلم. لا تقلقي من أجلي.

وبقولها هذا، تصافحني بسرعة وتخرج من الغرفة. يبدو أن ما أخشى منه قد حدث. ربما يجعلها هذا الغضب تتوقف عن العلاج. وربما هي خائفة من التعلق بي أكثر. أتمنى ألا تهرب، وأن تتمكن من منحي ونفسها بعض الوقت حول هذا الموضوع. ولكنها لن تفعل ذلك.

عندما لم تأتِ إلى موعدها التالي، اتصلت بها. فتحت الهاتف بصوت مكسور. قالت إنها في إسطنبول، ولهذا لم تأتِ. لا تريد العيش في أنقرة بعد الآن، عندما عرضت الشركة عليها عملًا في إسطنبول قبِلت فورًا. هي الآن تعيش في سكن مخصص للشركة. إن سنحت لها الفرصة بالمجيء إلى أنقرة، ستزورني حتمًا. وعند إغلاقها الهاتف لم تهمل أن تضيف إنها لن تنساني أبدًا.

ينتابني شعور بالهزيمة والهجر. على الرغم من أنني أحاول مواساة نفسي من خلال التفكير بأنني لم أكن مخطئة بشكل فادح في هذا الأمر، إلا أن الألم المرهف الذي أشعر به في قلبي لا يبدو أنه سيتركني بسهولة.

(13)

كان كنان مصرًا على إيجاد طبيبة أنثى جيدة لنفسه. لن يقضي حياته في غرف الطوارئ كل يوم. ثم إن هاندان سئمت هذا الوضع، كانت تفعل ما بوسعها له، وتلومه في المنزل باستمرار، وتحثه على زيارة طبيب نفسي بأسرع وقت ممكن.

خطرت في باله الطبيبة التي ذهبت إليها غولاي صديقة فادي. كانت مسرورة جدًا منها. فهو على أية حال يرى لافتة الطبيبة في كل مرة يمر من شارع المشروطية. لو ذهب إلى تلك المرأة لربما وجد ضالته. ثم إن النساء كنّ يحببنه، وهو أيضًا يحبهن. وإن الطبيبة الأنثى تفهمه جيدًا أكثر من الأطباء الذكور. لام نفسه لأنه لم يخطر في باله هذا الأمر قبل ذلك. لو كانت الطبيبة شابة على الأقل... إنه لا يحب النساء المسنات والسمينات مطلقًا. ترك الباقي للحظ.

هذه المرة سيذهب دون أن يخبر أحدًا. في البداية كان سميح يتحدث مع الطبيب، أو هاندان، ربما يخطئ الأطباء بسبب شروحاتهما. في البداية أراد الذهاب فورًا، ولكنه عندما رأى نفسه في المرآة الموجودة في البهو على ما هو عليه، تراجع عن الذهاب بهذه الحال. فقبل كل شيء هو ذاهب إلى طبيبة أنثى. كان عليه أن يرتدي ثيابًا أكثر نظافة وأناقة واهتمامًا. ركض إلى الحمام مسرعًا. كان يشعر بالضيق، وكأنه سينشق إلى نصفين، ولكنه مع ذلك كان عليه أن يحلق ذقنه بنعومة. ترتجف يداه وقدماه، كان حريصًا على عدم جرح وجهه.

نادى هاندان لتساعده على خلع طقمه الكحلي. تفاجأت هاندان بهذا الموقف. إلى أين كان ذاهبًا هذا الرجل يا ترى؟ نهضت من مكانها مقطبة الوجه. كانت تشعر بنفسها كالعبدة. وإن استمر الأمر هكذا فإن هاندان هي مَن سيمرض وليس كنان. لا يوجد لدى هذا الرجل أية رحمة أو شفقة. لقد كانت مرهقة من

الركض إلى المستشفيات بسبب أمراض كنان التي لا تنضب في الأيام الأخيرة، وكانت قبل قليل قد استلقت على الأريكة للمرة الأولى لأنها شعرت بالتعب الشديد. ومع ذلك فعلت ما قاله لها دون إظهار أي شيء من انزعاجها. قامت بتجهيز طقمه، وقميصه، وثيابه الداخلية، وجوربيه، وحتى ربطة عنقه، ووضعتها فوق السرير. ولم تستلقِ قبل أن يذهب.

كان من الصعب على كنان ارتداء ملابسه. يا لهذا المرض! إن لم تجد هذه المرأة حلًا له، فلن يمسي اليوم، ولن يستطيع تحمل هذه المشكلة أكثر من ذلك. وبدلًا من انتظار إسماعيل، اتصل بموقف سيارات الأجرة الموجود في الزاوية. وأخيرًا رش بعض العطر، وخرج من المنزل.

وعلى الطريق، زادت سرعة ارتجافه. يضرب أسنانه ببعضها، وكأن حنكاه سيُقفلان. ترجل مترنحًا من سيارة الأجرة. كان شارع المشروطية مزدحمًا كعادته. لم يكن في حالة تسمح له باستخدام الجسر للعبور إلى الطرف الآخر. رمى بنفسه في الشارع وهو خائف. إذا وصل إلى هذه الطبيبة دون أن يقع أو يُغمى عليه، فربما كانت هذه دلالة على أنها ستجد له علاجًا.

أثناء صعوده في المصعد، كان سائر جسده يرتجف بسبب الهم، من ناحية، ومن ناحية أخرى ينظر في المرآة إلى نفسه. قام بتقويم ربطة عنقه، وشد كتفيه، ومسح بقايا رغوة الحلاقة من ذقنه بيده، ثم خرج من المصعد.

اقترب من الباب مرتجفًا. كان على الباب لافتة مضاءة كُتب عليها اسم الطبيبة. قرع الجرس. فتحت الباب امرأة بدينة، قالت له: "تفضلوا". تلفت حوله. وجد نفسه في صالة واسعة وفسيحة. كان ثمة على الأرض سجاد أخضر، وفي الأرجاء نباتات خضراء. كان المكان مزدحمًا للغاية، ومعظم الجالسين من النساء. حاول الوقوف منتصبًا رغم أنه ما زال يرتجف. والآن اتجهت كل الأنظار إليه، تراقبه باهتمام. أظهرت له السكرتيرة البدينة مكانًا للجلوس، لكنه لم يكن في وضع يسمح له بالجلوس. كان يشعر بالضيق الشديد، ويريد الدخول إلى الطبيبة بأسرع وقت ممكن.

عندما اقتربت المرأة البدينة منه وسألته عما إذا كان لديه موعد، توتر تمامًا. لم يخطر في باله حجز موعد أبدًا. وماذا يعني ذلك، هل سوف يرفضونه لعدم حجزه موعدًا؟ خفض صوته وقال: "وضعي طارئ، لم أتمكن من حجز موعد هذه المرة، ولكن من فضلكم دعوني أرى الطبيبة في أسرع وقت ممكن".

ترددت المرأة السمينة، وبعد أن جوّلت نظرها على الموجودين في الصالة، ألقت نظرة على دفتر المواعيد المفتوح فوق طاولتها. وفي تلك الأثناء كان كنان يقف منتصبًا أمام الطاولة، منتظرًا إجابة منها في أسرع وقت. يضع على عينيه نظارات شمسية سوداء. كانت تلك النظارات السوداء تخفي الهالات السوداء المتشكلة تحت عينيه في الأيام الأخيرة من جهة، وتمنحه مظهرًا أكثر مباهاة من جهة أخرى.

وضع يده اليسرى في جيبه، والتفت بهدوء نحو الصالة. كان عيون النساء جميعًا عليه. أنساه هذا الموقف مشكلته ولو للحظة. لم تستطع النساء رفع أعينهن عنه حتى في أحلك أيام مرضه.

في الواقع لم يكن مخطئًا، لأن النساء كنّ يراقبنه بدهشة وإعجاب. كم كان أنيقًا! ما حال هذا الرجل الذي يشبه الجبل يا ترى؟ ثم إن حالته كانت تبدو جيدة. كُنْ وسيمًا مثل نجوم الفنانين، ونقودك في جيبك، ثم تعال وامرض! مرض الناس العاديين أمر طبيعي، أما هذا الرجل، ماذا حدث له يا ترى؟ حتى لو كان قلبك مريضًا، فإن الأمراض النفسية عادة تأتي بسبب المشاكل. لكن ما خطب رجل مثل هذا يا ترى؟

ومثل النساء الأخريات، لم تستطع تونا أن ترفع عينيها عن هذا الرجل. لقد رأت العديد من الرجال الوسيمين في حياتها، ولكنها لم تصادف أحدًا مثله إطلاقًا. كان زوجها أيضًا طويل القامة رشيقًا، متباهيًا، ولكن ثمة في هذا الرجل شيء ما يجذب الإنسان إليه. ثم إنه عندما تُذكر كلمة "الرجل الوسيم" فإن آيدن بيك؛ أي زوج الطبيبة، هو من يخطر في بال الجميع. أيهما كان أكثر وسامة يا ترى؟ آيدن

بيك، أم هذا الرجل؟ لم تستطع أن تجمع الاثنين في رأسها بأي شكل. قالت في نفسها: "انظري إلى هذا الزي، وهذه الأناقة". إن ارتدى ذلك وهو مريض، فماذا يرتدي عندما يكون لديه دعوة خاصة! لماذا لم يكن فنانًا، أو ما شابه ذلك يا ترى؟

كان هنالك تأخر في المواعيد، وكان الذين ينتظرون دورهم قد بدأوا يتذمرون بشكل طفيف، ولكن الأصوات توقفت منذ دخول هذا الرجل، واستدارت أعين الجميع إليه. بدت الهموم على الرجل، ولكن لن يُسمح له بالدخول إن لم يسمح له الآخرون بذلك. إن هذا المكان هو عيادة خاصة، والناس يأخذون المواعيد قبل فترة طويلة ويأتون على صوتها. اتجهت تونا نحو ليلى خانم التي أتى دورها وطلبت منها اذنًا بهدوء. ودون أن تزيح المرأة عينيها عن كنان أومأت برأسها موافقة. أووه، لقد ارتاح ولو قليلًا. في الحقيقة، إن ليلى خانم هذه التي أعطته دورها هي شخص عنيد للغاية. تأتي قبل موعدها دائمًا، ولا تحب الانتظار أبدًا. في البداية تفاجأت كيف سمحت له بذلك، ولكنها عندما التفتت ونظرت إلى الرجل بعين جاذبة، فهمت السبب على الفور.

ركضت نحو كنان بيك، وقالت له: "حصلت على إذن من المنتظرين، وفور خروج المريض الذي في الداخل سأُدخلكم. إن أردتم لدينا غرفة خاصة هنا، تستطيعون الذهاب إليها. ترتاحون أكثر". سار كنان متذمرًا نحو ذلك الاتجاه. لماذا لا يُخرجون المريض بأسرع وقت؟ ألا يرون كم هو محرج وضعه؟

من مذكرات طبية

بدأت برودة أنقرة الصباحية تتلاشى ببطء، وتستعد لترك مكانها ليوم مشمس. لقد مر وقت على حلول الخريف، ولكن بعضًا من بقايا أيام الصيف تظهر، ثم تختفي. ومرة أخرى أتيت إلى العيادة باكرًا. أيام الاثنين تكون مزدحمة أكثر من المعتاد. وعلى عكس الآخرين، ليس لدي متلازمة يوم الاثنين. فأنا آتي إلى هنا راكضة.

الاستماع للناس، وفهمهم، وتخفيف آلامهم، ورؤية شرارة الحياة في أعينهم مرة أخرى يمنحنا نحن الأخصائيين النفسيين متعة أكبر مما نعتقد. وبمرور السنوات أصبحنا مدمنين على هذه المتعة، ووضعناها في مركز حياتنا.

لدي طفلان. ما يزالان صغيرين، يريدان بقاء والديهما إلى جانبيهما بشكل دائم. أعتقد أنهما على حق، ولكن يا لهذه المهنة، كم هي متعبة. لدي عائلتي من جهة، ومرضاي الذين لا أستطيع التخلي عنهم من جهة أخرى. أشعر تجاه مرضاي بحس المسؤولية ذاته المليء بالحب الذي أشعره تجاه زوجي وأولادي. ربما يُتعبني ذلك كثيرًا، ولكن العمل حتى المساء في غرفتي الحمراء الصغيرة يُسعدني كثيرًا.

اليوم، وبعد أن أرسلت طفليّ إلى المدرسة، تجهزت بعناية، واتجهت إلى عيادتي وأنا أتأمل الأرجاء يمنة ويسرة، شاعرة ببرودة الصباح.

الطب النفسي هو فرع من فروع الطب التي تتطلب الاستمرارية. ليس من المألوف أن تأتي إلى طبيب نفسي مرة واحدة وتحصل على نتيجة. ولذلك أعرف جيدًا معظم مرضاي الذين يأتون إليّ. نحن بالفعل أصدقاء. أصبحتُ موجودة في ركن من أركان حياتهم. إنني أبذل قصارى جهدي لأجلب لهم الجمال والمحبة، ولجعلهم يرون حقيقتهم في أسرع وقت ممكن.

يستهزئ الناس بي عندما أقول لهم إن العقلاء هم الذين يأتون إلى الطبيب النفسي وليس المجانين، ولكنني دائمًا أخبرهم بالحقيقة الكامنة وراء هذه الكلمة،

وبشكل مفصل. أقول بأنه على المرء أن يكون ذكيًا وحساسًا ليدرك أن هنالك شيئًا ما في عالمه الداخلي لا يسير بشكل صحيح، وأنه ثمة خطأ في مكان ما. أتمنى لو كان الإدراك عند الجميع مرتفعًا، وكان الجميع حساسين للغاية!

وفور خروج المريض الذي في الداخل، دخلت تونا المحبوبة مرتبكة.

- أتى مريض وضعه حرج. يبدو أنه مريض جدًا. ليس لديه موعد، ولكنني لم أستطع رده وهو بهذه الحال.
- هل هذه غرفة الطوارئ؟ وماذا سنفعل بالمرضى الذين لديهم موعد؟ هل هو أحد مرضانا السابقين؟
- لا، إنها المرة الأولى التي يأتي فيها إلى هنا. لو أتى قبل ذلك لتذكرته.
- ما شاء الله، يا لروعة ذاكرتك.
- ليس الأمر كذلك.. من يرى هذا الرجل لا ينساه أبدًا.
- وكيف ذلك؟
- آه، إنني لم أر رجلًا مثله من قبل. وكيف يمكن لرجل أن يكون بهذه الوسامة؟ ليست مجرد وسامة، فالإنسان لا يستطيع كف بصره عنه. إنه مختلف عن الجميع!

تحكي تونا ذلك، وهي جاحظة عينيها، وتقوم بالكثير من الحركات بذراعيها ويديها. كم هي منفعلة! في الحقيقة إن تونا ليست من النوع الذي يقوم بذلك من أجل رجل. يبدو أنها تأثرت حقًا. ماذا يحدث يا ترى؟

- هذا يعني أنه وسيم! هل أُعجبت به كثيرًا؟
- أوه، لقد صُدمنا كلنا. ليس أنا فقط، بل كل النساء اللواتي كنّ جالسات في الصالة، لم تستطعن رفع أعينهن عن الرجل. كأنه فنان! إنه أنيق، وكأنه ذاهب إلى حفلة راقصة، لا إلى طبيب. كيف يمكن للإنسان فعل كل ذلك وهو مريض؟ لم أرَ مثل ذلك لا في السينما ولا في التلفزيون. صدقيني سيدتي، وأي شخص لا يملك ولا حتى عيبًا واحدًا؟ طول، وقامة!

- ماذا تقولين يا تونا؟
- ليدخل الآن، فنرى ماذا ستقولين أنتِ؟
- احذري من أن يقولوا بأنك ارتشيت من الرجل وقلتِ بأن حالته طارئة!
- يا إلهي.. غول سيران خانم.. لقد تركتِ عملكِ مرة أخرى وبدأتِ تعبثين معي. أقول لكِ صُدمنا جميعنا. على أية حال فإنني حصلت على إذن من ليلى خانم. أرجوكِ سيدتي لندع هذا الرجل المسكين يدخل أولًا.

والآن حان دوري لأصاب بالدهشة.

- هل أعطت ليلى خانم دورها لهذا الرجل؟
- أعطت، أعطت. أرأيتِ؟ حتى هي أعطت دورها. سأتركك تفكرين بالباقي..

كانت تونا تكتم ضحكتها أثناء تفوهها بهذه الكلمات. أنظر إليها بدهشة لا أعرف ما أقوله. ماذا حدث لهذه المرأة يا ترى، فهي لا تتفوه بمثل هذه الأشياء نهائيًا، وإن كان ولا بد فإنها تشفق على أحدهم وتلعب بالمواعيد. ولكن هذه المرة لم تبدُ مشفقة أو ما شابه. ثمة في هذا الأمر شيء آخر.

- حسن، ليكن كما تريدين. لأرى أنا أيضًا هذا الرجل، ولكنني سأحاسبك على ذلك لاحقًا.
- حاسبيني، حاسبيني. ولكن لتري الرجل أولًا، سيدتي، ثم سيكون لدي أنا أيضًا بعض الأسئلة لأسألها لكِ.

تخرج تونا راكضة من الغرفة. في الحقيقة انتابني فضول أيضًا حول هذا الرجل الوسيم. ما حقيقة هذا الرجل الذي أثر في الجميع، وجعل حتى ليلى خانم تعطيه دورها يا ترى؟ تونا التي أعرفها لا تنعت أي شخص بالوسيم. خير إن شاء الله!

ومن مكاني، أنظر نحو الممر بفضول. سرعان ما يظهر رجل قوي البنية في نهاية الممر. يقترب نحوي متثاقلًا. وأثناء سيره، يأخذ أنفاسًا عميقة بين الحين والآخر. كان يبدو مهمومًا. عندما دخل، مد يده وصافحني بقوة. ينتابني شعور بإثارة مميزة كما لو أنني أصافح رجلًا للمرة الأولى.

يجب عليّ أن أرفع رأسي عاليًا حتى أتمكن من رؤيته بسبب طول قامته. لا أستطيع رؤية عينيه بسبب النظارتين الداكنتين اللتين يضعهما، ولكنني أشعر على الفور بمدى قدرته على إثارة إعجاب الناس من النظرة الأولى.

في الوقت نفسه أشم رائحة غسول وعطر وصابون غالي الثمن ممزوجة برائحة السجائر. شعره الأسود الحالك مائل نحو الرمادي عند صدغيه. أنفه منتظم وشامخ كأنه رُسم بالقلم. تشير الخطوط الحادة في ذقنه إلى أنه رجل قوي وحازم وواثق من نفسه. لديه أسنان بيضاء كاللآلئ. وعلى الرغم من كتفيه العريضين وطول قامته، فأثناء محاولته إبقاء رأسه منتصبًا، تُلاحَظ فورًا رشاقتُه، وكذا لباقته. تونا محقة! هذا الرجل وسيم حقًا.. هل تتأثر النساء بهذا الشكل يا ترى عند رؤية آيدن؟

لو لم يكن هذا الرجل وسيمًا ومتألقًا إلى هذه الدرجة، لربما كان جالسًا الآن في الصالة منتظرًا. ولن تسمح له ليلى خانم أو تونا بالدخول فورًا. هل هو مدرك لهذه الميزة العظيمة يا ترى؟

أريه مكانًا للجلوس، ينزع عنه معطفه بهدوء ويجلس، ولكن ساقيه طويلتان لدرجة أن ركبتيه تلامسان الطاولة الموجودة أمامه. بعد أن يدفع الطاولة قليلًا ويقوّم ساقيه، يخلع النظارتين وينظر إلي. له عينان خضراوان مثل آيدن، ولكن هذا الرجل ليس أشقر مثل زوجي، إنه أسمر. من النادر أن تصادف شخصًا أسمر البشرة له عينان خضراوان. له جاذبية مميزة. ورغم كونه مريضًا لهذه الدرجة، لكن الإنسان يتلقى منه كهرباء شديدة. كيف يفعل ذلك يا ترى؟ هذا يعني أن حالته الطبيعية هكذا! وقبل أن أقول أي شيء يبدأ بالحديث فورًا.

- إنني أعاني من مشكلة عويصة يا سيدتي الطبيبة. مشكلة لم تختفِ منذ شهور. تزداد أحيانًا لدرجة ينتهي بي المطاف في غرف الطوارئ في المستشفيات. يحقنونني إبرة، ويُخرجونني. أجرى أطبائي الخاصون جميع الفحوصات اللازمة، ولكنهم لم يجدوا شيئًا مهمًا.

إنه يستخدم صوته جيدًا. هذا ليس صوته الطبيعي. خلال سنوات دراستي

كمذيعة تلفزيونية كان الأساتذة من المعهد الموسيقي يعلموننا كيفية استخدام أصواتنا. حسن، أنا قد أخذت دروسي من هناك، لكن هل أخذ هذا الرجل دروسًا خاصة أيضًا يا ترى؟ يستخدم صوته بشكل جيد مثل أصوات ممثلي الأدوار الرئيسية في الأفلام. إنه صوت رجولي حقيقي! صوت خصب، خشن، عميق، حتى إنه رومانسي بعض الشيء أيضًا.

- هل زرت حضرتكَ طبيبًا نفسيًا قبل ذلك؟
- زرت. واظبتُ عند طبيبين من زملاء مهنة حضرتكِ، ولكن الأمر لم ينجح.
- ماذا تعني بـ لم ينجح؟
- أعطوني بعض الأدوية. بالنسبة للاستخدام فقد استخدمتها، ولكن يبدو أن مشكلتي ليست من النوع الذي يُحل بالدواء. ثم إن دماءنا لم تتآلف. إن مهنتكم مختلفة تمامًا عن المهن الأخرى. في البداية وقبل كل شيء، عليك أن تؤمن بالطبيب وتثق به.
- حضرتكَ محق. أود الآن أن أحصل على مزيد من المعلومات من حضرتك.

أتفقُ مع آخر شيء قاله. فالعلاقة بين الطبيب والمريض في الطب النفسي مهمة جدًا. وبالتحديد الثقة بالطبيب، فهي تؤثر بشكل جدي على مسار العلاج.

يدير رأسه نحو النافذة، ويبدو أنه يفكر من أين سيبدأ. في الحقيقة لا أستطيع منحه الكثير من الوقت لأنه أتى إلى هنا دون موعد. من الأفضل له أن يحكي فورًا، حتى أتمكن من إلقاء نظرة على محنته، وأعطيه موعدًا لاحقًا.

وبسبب تأخره بالإجابة، أبدأ الكلام أنا هذه المرة.

- هل بدأت هذه المشكلة من تلقاء نفسها، أم ثمة حدث أحزنك وأثر فيك؟
- يوجد، يوجد.. لو كانت من تلقاء نفسها، فلماذا تكون حالتي هكذا؟

ثمة غضب وعتاب خفيفان في عينيه. يسكت مجددًا. أما أنا فأشعر بالقلق، عيناي تتجهان نحو الساعة مرارًا. عليّ أن أسرع.

- أيًا كان ما يحزنكَ، يبدو أنه ليس من النوع الذي يمكن شرحه بسهولة. هل ما زلتَ تتناول أي دواء؟
- نعم، في الصباح أتناول واحدًا من الأدوية التي أعطاني إياها آخر طبيب زرته، ولكنه لا يؤثر أبدًا.

وبعد قوله هذا، أخرج من جيبه نشرة الدواء ومدها نحوي. حتى إن هذا الرجل يعتني بيديه. بدا أنه يتناول مضاد اكتئاب خفيفًا..

- كيف هو نومك؟
- سيء جدًا. وخاصة في الصباح، أستيقظ بضيق شديد، فأنهض من الفراش على الفور. في بعض الليالي أجوب الشوارع حتى الصباح. أشعر بانخفاض الضيق في المساء ولكن ذلك يستمر لوقت قصير. حالتي سيئة أيتها الطبيبة، سيئة جدًا. أرجو أن تنهي هذه المشكلة بأسرع وقت ممكن، فأنا ما عدت أستطيع التحمل أكثر.

نعم، إن حالته سيئة حقًا. إنه الاكتئاب، تحمله صعب. ماذا حدث لهذا الرجل الوسيم يا ترى؟ هذا يعني أن لديه مشكلة خطيرة، لكنني لا أستطيع سماعها اليوم. ليس لدي وقت. الأفضل أن أعطيه دواء ينهي هذه المشكلة بأسرع وقت.

- من الواضح أن حضرتك تعاني من اكتئاب حاد. هذا الدواء لا يكفيك. أنت تعلم بأن الاكتئاب هو مرض يعطل الكيمياء الحيوية للدماغ، وفي حالات الاكتئاب الشديد، وإلى جانب العلاج النفسي، يلزم أيضًا العلاج بمضادات الاكتئاب. أحد الأدوية التي سأكتبها لك الآن سيخفف من ضائقتك قليلًا، والدواء الآخر سيساعد في المعالجة الأساسية. تناول الأدوية بانتظام، وتعال إليّ مرة أخرى عند أول فرصة سانحة، ولكن خذ موعدًا هذه المرة.

وبعد قولي هذا، أعطيه نشرة الدواء، وأنهض على قدمي في الإشارة إلى انتهاء الجلسة.

- هل هذا كل شيء؟

- للأسف هذا كل شيء لليوم.. أنت تعلم أن هنالك أناس ينتظرون موعدهم في الصالة.

- ولكنني لم أحكِ لكِ شيئًا بعد.

- هذه ليست جلسة. أتيتم على عجل، وأنا فعلت ما يتوجب فعله. والباقي في المرة القادمة..

وبهذا اتجهت نحو الباب لأودعه. ينهض من مكانه غاضبًا. لماذا غضب لهذه الدرجة؟ مع أنني أدخلته دون موعد، وفعلت ما عليّ فعله خلال وقت قصير. يبدو أنه توقع أمورًا مختلفة!

وأثناء تفكيري بذلك، يسلم عليّ وهو يومئ برأسه قليلًا، ويمر بجانبي مسرعًا. وعلى الرغم من أنه ذهب، إلا أن رائحته ما تزال عالقة في أنفي. انتابني شعور أن أستدير وألقي نظرة على غرفتي. وكأنها أصبحت فارغة تمامًا، وحتى أنا لم أعد موجودة فيها.

أشعر بالضيق. أفكر مرة أخرى في أي مكان ارتكبت خطأ، ولكنني لا أستطيع إيجاد إجابة منطقية. أردت أنا أيضًا أن أستمع إليه بشكل مطول، ولكنني شرحت له لماذا لا أستطيع فعل ذلك. ثم يخطر في بالي كم هو رجل وسيم ومتألق. كانت جدتي أم أمي جميلة للغاية، وكانت تردد باستمرار: "يا ابنتي، إن الجمال هو مشكلة في حد ذاته". كنتُ في ذلك الوقت طفلة، ولم أعِ ما كانت تريد قوله. ربما كان الأمر نفسه منطبقًا على الرجال أيضًا. لقد تأذى من سلوكي. ربما توقع مني تفضيله عن الآخرين. الناس الذين أعطوه دورهم ينتظرون في الصالة، إنه أمر مؤسف! وكأن لا أحد في الدنيا أكثر أهمية منه...

الحياة مع أشخاص كهؤلاء صعبة. الحمد لله أن زوجي ليس هكذا. هؤلاء الناس لا يتركون المرآة. بسبب اهتمامهم بأنفسهم، فهم غير مدركين لما يدور حولهم. يتجاهلون الناس من حولهم، ويستخدمونهم لرؤية انعكاساتهم، تمامًا مثل

المرآة. يشعرون بفراغ دائم في دواخلهم، وينتظرون ملء هذا الفراغ من قِبل النساء اللواتي يعجبن بهم طوال حياتهم. كل امرأة تدخل حياتهم هي واحدة من القطرات التي تملأ هذا الفراغ، ولكن قاعهم مثقوب. هذا ما لا يعرفونه.

أما بالنسبة للنساء، فإنهن يعشقن هذا النوع من الرجال من جهة، ومع مرور الوقت يغضبن منهم من جهة أخرى. يعشقنهم لأن كل امرأة تعتقد بأنها قادرة لوحدها على ملء هذا الفراغ. ويغضبن لأن كل امرأة تريد الأفضلية. ربما هذا الأمر يشملني أيضًا..

ولكنه حقًا رجل وسيم! هل تغار زوجته عليه كثيرًا يا ترى؟ من المؤكد أن زوجته لا تغار. فهذا النوع خُلق لكي يُغار منه لا عليه. كان ينظر إليّ كأنه ينظر إلى أنثى لا إلى طبيبة. كيف يفعل ذلك وهو مضطرب هكذا؟

وأثناء غرقي بهذا التفكير دخلت تونا غاضبة.

- آه، ماذا فعلتِ للرجل يا سيدتي؟
- وماذا فعلت؟
- لا أعرف! خرج غاضبًا جدًا. تجمدت أعيننا جميعًا عليه. لم يشكر حتى ليلى خانم التي أعطته دورها.
- حقًا؟ أعتقد أنه أراد أن نمنحه مزيدًا من الوقت. على أية حال، دعينا لا نجعل ليلى تنتظر أكثر.
- حسنًا، حسنًا... ولكن ألم يكن كما قلت؟
- كان كذلك.

تتدغدغ تونا ضاحكة. كم يليق الضحك بهذه المرأة. أعشق ردود أفعال الفتاة المراهقة هذه. أعرف أنها لا تهتم بمثل هذه الأمور، ولكن الطفل الذي بداخلها لا يسكت. كم هو جميل أن يكون الإنسان بهذا الشكل!

(14)

غضب كنان. ماذا كانت تعتقد نفسها هذه المرأة! يمكنه بنقوده البقاء هناك ما شاء. تساقط الثلج مرة أخرى على الجبال التي وثق بها.

مشى في شارع المشروطية. لقد أعجبته المرأة حقًا. كانت امرأة أصغر سنًا وأكثر نظافة مما كان يتوقعه. لا تشبه أولئك الطبيبات اللواتي يربطن شعرهن للخلف، ويرتدين نظارات بإطار أسود، خشنات الصوت، قاسيات النظرة، كبيرات السن. كانت كما يريدها تمامًا، ولكن هذه الطبيبة لم تُظهر له الاهتمام الذي توقعه بأي شكل.

بأي حجارة يضرب رأسه يا تُرى؟ يا لهؤلاء الأطباء، الرجال منهم مختلفون، والنساء أيضًا. لن يكون أحد منهم حلًا لمشكلته. لم يكن أصدقاؤه أو حتى زوجته يفهمون مشكلته. أمه أيضًا ليست موجودة...

عندما وصل الشارع العام، نظر يمنة ويسرة لبعض الوقت. إن اتجه إلى الأسفل فالملهى، وإن اتجه إلى الأعلى فالمنزل بانتظاره.

هاندان التي في المنزل، لم يكن يشعر بالراحة بجانبها. تبدل حال زوجته. على الرغم من قيامها بخدمته خدمة تامة، إلا أن ثمة بلادة في تصرفاتها. أم تراها غير سعيدة بعودته النهائية إلى المنزل؟ وهو على أية حال لم يكن سعيدًا بفكرة عودته النهائية إلى المنزل أيضًا. لا، لا شيء من هذا القبيل. حتى لو عاد إلى المنزل، فسوف يتجه بسرعة نحو الاتجاه الآخر. ليس ثمة حياة في ذلك المنزل. الحياة كانت موجودة بجانب فادي.

كلما فكر بذلك يشعر بأن رباط ركبتيه ينقطع. هل سيصاب بنوبة من جديد؟ بما أنه قريب، هل يعود إلى الطبيبة يا ترى؟ لكنها ربما لن تُدخله أبدًا هذه المرة. أي نوع من الأشخاص كانت؟ هل ما نسميه الطبيب الخاص يفعل ما فعلته؟ في البداية، ورغم

تردده، اشترى الدواء من أول صيدلية رآها، ثم أوقف واحدة من سيارات الأجرة التي كانت تمر أمامه. كان على وشك البكاء وهو يعطي السائق عنوان منزله. بعد أن ترجل من سيارة الأجرة، انتظر المصعد مطولًا. في السابق كان يصعد الأدراج كل ثلاث أو كل خمس درجات معًا، ولكنه الآن لم يكن في حالة تسمح له بصعود الدرج. قرع الجرس. فتحت هانداان الباب متفاجئة. لم يتفوه كنان بأي شيء. سلك طريق غرفة النوم. خلع ملابسه عنه بسرعة، ورمى بنفسه تحت اللحاف.

لم ينهض من الفراش لعدة أيام. كانت هانداان تعتني به مثل الطفل، حتى إنها كانت تحضر طعامه إلى فراشه، ولكنه كان يترك طعامه بعد تناوله لقمة أو اثنتين، ويخبئ نفسه مجددًا تحت اللحاف. كان يتناول الأدوية التي أعطته إياها الطبيبة ثم يغط في النوم. وبهذا الشكل كان يمر الوقت الذي لا ينتهي بشكل أسرع، ويحل المساء بسهولة أكبر. بدأت الأدوية تعطي مفعولها. فُتحت شهيّته، وصار يتناول طعامه بانتظام. حتى إنه أصبح يطلب من هانداان صُنع الحلوى باستمرار. زاد وزنه قليلًا، ولكنه صار ينام وقتًا أقل، ويجلس على الأريكة المقابلة للنافذة ويقرأ الجريدة، ويشرب القهوة.

استغرق الأمر منه شهرين لمغادرة المنزل. وفي اليوم الأول لمغادرته المنزل، التقط أنفاسه عند منزل فادي. كان قلقًا كثيرًا. أين هي فادي، وماذا كانت تفعل؟ هل نسيته بالفعل يا ترى؟ هل هو ذلك الشخص الذي يمكن أن يُنسى؟ إن كانت قد نسته بالفعل، فكيف يمكن لكنان أن يتحمل ذلك؟

كان المنزل ما يزال مكانه. أراد أن يمسك الستائر التي تُرى من خلال النوافذ واحدة واحدة ويمسحها بيده. كانت الستائر أيضًا في مكانها، ولكن كنان صار في الخارج. من يدخل ومن يخرج من ذلك المنزل يا ترى؟ من ينام في سريرها يا ترى؟ من يلمس فاديّته يا ترى؟ ألم تكن فاديته وحده؟ أليس هو مالكها الأول؟ لماذا خانته؟

فادي لا تفعل أشياء كهذه. كل ذلك كان من محض خياله. كان يعلم أن فادي ليست موجودة في المنزل في مثل هذا الوقت. الأفضل أن يأتي ليلًا ويلقي نظرة

مجددًا. لقد اشتاق لهذا المنزل كثيرًا، ولهذه المنطقة، وللشجرة المسنة الموجودة أمامه.

جر قدميه مغادرًا ذلك المكان. كان وحيدًا مجددًا. يود أن يتكلم مع أحد، ولكن مع من؟ هل يتكلم مع تلك الطبيبة المقطبة الوجه التي لم يحبها؟ كان من الجيد الذهاب إلى الطبيبة الأنثى تلك، ولكنها لم تُفِده في شيء. كان يشعر بأنه تم رفضه من قِبل تلك الطبيبة، تمامًا كما رفضته فادي. في الواقع، كانت الطبيبة قد أعجبت به. إنه تقريبًا متيقّن من ذلك. ثم ما هو الشيء الأكثر طبيعية من أن تحبنه النساء وتعجبن به؟ ولكنه ما يزال يشعر بالإهانة من قِبل الطبيبة. وصفت له أدوية وأخرجته من الغرفة قبل حتى أن تفهم حالته تمامًا، وبالشكل الصحيح. تقول بأن المرضى الذين لديهم مواعيد ينتظرون. ألم تدرك مدى خطورة وضعه؟

شعر بالإهانة... في السابق لم تكن النساء تعاملنه بهذه الطريقة، بل بطريقة خاصة دائمًا. ماذا حدث الآن حتى لا يعامله أحد بشكل خاص؟

سحب نفسًا، وأوقف سيارة أجرة مجددًا، وسلك طريق المنزل. انسلّ في فراشه، ولكنه لم ينم هذه المرة، لم يستطع. انتظر حلول المساء. بعد تناوله الطعام خرج من المنزل. يجب أن تكون فادي قد أتت إلى المنزل. ولكنه أخطأ. فقد كان المنزل مظلمًا. انتظر مختبئًا تحت شجرة الدلب المسنة. انتظر هناك حتى بزوغ الفجر، ولكن لم يأت أحد أو يخرج أحد. لم تكن فادي موجودة. الجنون أمر ليس باليد. هل أصبحت هذه المرأة لا تأتي في الليل أيضًا إلى منزلها؟

بدأت الجولات الليلية مرة أخرى. صار يأتي كل ليلة إلى أسفل شجرة الدلب وينتظر مجيء فادي حتى الصباح، ولكن، لم يكن أحد يأتي. لو كان لديها سفر كانت ستأتي بعد ثلاثة أو خمسة أيام. أين ذهبت هذه المرأة؟ كان يستطيع أن يتصل بأحدهم ويعرف ماذا يحدث، ولكنه كان خائفًا من قولهم أشياء لا يود سماعها. كان الانتظار تحت شجرة الدلب هذه يمنحه أملًا في أن شيئًا لم ينته بعد، وأن فادي ستأتي في يوم ما. كان الشيء الوحيد المتبقي في جعبته هو هذا الأمل.

بدأت زوجته بالقلق مرة أخرى. تسوء حالة زوجها يومًا بعد يوم. إنها تعرف أين يذهب في الليل. مضى هذا الرجل خلف حلم كاذب. كان مريضًا. وإلا لما كان فعل ما يفعله. صارت تلومه قائلة: "اذهب إلى الطبيب". حتى إنها كانت تهدد زوجها قائلة: "إن لم تذهب، سأنادي الطبيب إلى المنزل!"

كان كنان يدرك أنه ليس بخير. كان يتناول أدويته كما كانت شهيته، ونومه، وحتى الهم الذي بداخله قد تناقصت، ولكنه صار ينام في النهار، ويقضي الليل أمام باب منزل فادي. لم يكن ذلك مرضًا، بل كان شيئًا آخر. عند قول كلمة طبيب كانت تلك المرأة هي من يتبادر إلى ذهنه دائمًا. كان يريد أن يحكي لها أكثر من أي شخص. كانت تبدو امرأة صريحة وجميلة أيضًا. كم كان عمرها يا ترى؟ كانت تبدو من خلال شعرها وملابسها أنها حسنة الذوق. ربما كانت متزوجة. لقد رأى الخاتم الذي بيدها.

لا يهم إن كانت متزوجة أم لا، ما يهم هو أنها كانت تمامًا تشبه الطبيبة التي يبحث عنها. حسن، ولكن لماذا طردته قبل أن تعرف ما مشكلته؟ فكر.. لم يفعل شيئًا يدعو للغضب في الواقع. ألن يكون من الجيد لو نهض الآن وذهب إليها، وحكى لها كل شيء بشكل لطيف، فتشرح له المرأة بما تفكر فيه بشكل صريح؟

هذا يعني أن المرأة التي نسميها امرأة هي بهذا الشكل. لم تكن أي منهن تنزل البئر بالحبل. كانت أمه هي الوحيدة التي لا تشبههن. قال في سره: "أين يمكن أن أجد امرأة كهذه؟". كان يبحث عن امرأة تحبه دائمًا، ولا تتركه مهما فعل. المرأة التي يريدها لم تكن مثل هاندان أيضًا. هكذا يجب أن يكون الحب. بمجرد أن تقع فيه يجب ألا تستسلم أبدًا.

تنهد بعمق. نساء اليوم خائنات وغير جديرات بالثقة، لا يُترك الرجل هكذا في منتصف الطريق حتى لو مرض. يدرك ما حدث تمامًا، ولكنه لا يستطيع الاستغناء عنهن. بما أن فادي غير موجودة، لربما سيرتاح قليلًا لو ذهب إلى تلك الطبيبة الأنثى. ربما تتصرف معه بطريقة أفضل هذه المرة.

حتى إنه لم يستطع تحديد ما إذا كانت المرأة رقيقة أم قاسية، حنونة أم عصبية. كان يحب النساء المحبات، والحنونات، واللاتي يهتممن به دائمًا.

الطبيبة تشبه أولئك اللواتي يضعن حدودًا مع الآخرين، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون واضحًا هكذا. لربما هذه المرة تُعجب به المرأة، وتقع في حبه أيضًا. ليس شيئًا مستحيلًا. العديد من النساء لم يقتربن منه في البداية، ثم وبعد فترة، لم يتحملن جاذبيّته وسقطن في سحره. قال في داخله: "إن شاء الله تكون هذه المرأة هكذا أيضًا". كان عليه أن يخاطر بكل شيء ويذهب إليها مرة أخرى.

اتخاذه هذا القرار أشعره بالراحة ولو قليلًا. كان عليه أن يرتدي ملابسه فورًا ويذهب. أثناء دخوله الحمام للحلاقة، خطرت في باله قضية الموعد تلك. لن يستطيع أن يقول إن حالتي طارئة هذه المرة.. ثم إنه كان يأخذ موعدًا عند ذهابه للأطباء الآخرين، أما عندما يأتي الدور على هذه المرأة فلماذا كان يصعب عليه أن يتصل هاتفيًا بها؟ اتجه إلى الهاتف الموجود في الصالون. لم يكن يعرف الرقم. في البداية استفسر عن رقم الطبيبة، ثم اتصل. سيأخذ موعدًا منها، فكلما كان الموعد أسرع كان ذلك أفضل لأن حالته طارئة. فتحت الهاتف تلك المرأة البدينة، وأخبرته بأن أقرب موعد يمكن أن تحجزه له هو في الأسبوع المقبل. ولكنه لم يكن بمقدوره أن ينتظر أسبوعًا. أصر عليها قائلًا إن كانت تستطيع فعل شيء ما، ولكن للأسف. هذا يعني أن عليه أن ينتظر أسبوعًا كاملًا.

هذا يعني أن الشعب كله قد جُنّ. نظرًا لأنها لا تستطيع تحديد موعد للمرضى الذين تُعتبر حالاتهم طارئة إلا قبل أسبوع، فإن معظم الأشخاص الذي اعتقد بأنهم عقلاء كانوا أسوأ منه. أسعده ذلك وأغضبه أيضًا. من الواضح أن أشخاصًا آخرين مثله يذهبون بشكل مستمر إلى الأطباء النفسيين. هذا يعني أن هذا شيء طبيعي. في السابق كان يضحك قائلًا: "وما عمل شخص عاقل عند الطبيب النفسي؟". يا لكثرة الأشياء التي تُعلمها الحياة للإنسان. لو فكر أربعين سنة لما خطر بباله الذهاب إلى طبيب نفسي. المشكلة ليست في الذهاب إلى هناك، بل بالانتظار سبعة أيام كاملة. يجب أن يكون هنالك حل لهذا.

هؤلاء الأطباء يخطئون. شرح الوضع لزوجته. لقد وجد في النهاية طبيبًا على مزاجه، ولكنه لم يستطع أن يعطي موعدًا قبل أسبوع. عندما اتخذ قرارًا مثل هذا كان من الأفضل لو حدد موعدًا قبل ذلك.

اهتمت هاندان بالموضوع فورًا. اتصلت بالأصدقاء، وحاولت إيجاد وسيلة لحجز موعد بأسرع وقت ممكن. فمن الأفضل لو تابعت الأمر بما أن زوجها قد اقتنع واتخذ قرارًا كهذا. ولكنها بعد ذلك، عندما علمت بأن الطبيب هو أنثى شعرت بغرابة. ماذا كان ينوي هذا الرجل مجددًا؟ ولكنها لم تُظهر أي شيء لزوجها. كانت تقول "ليكن ما يكون".

زوج إحدى صديقاتها المقربات هو رئيس جامعة كبيرة. اتصلت بـ (جنان) فورًا. شرحت لها الوضع. هل يمكن لزوجها أن يأخذ موعدًا أبكر عند الطبيبة يا ترى؟ قالت جنان: "آه، أليست هذه صديقتنا غول سيران؟ إنها زميلتي في الجامعة. لا حاجة لزوجي، سأتصل بها، وأعاود الاتصال بكِ". شعرت هاندان بالراحة. فجنان تستطيع حل هذه المسألة بطريقة أو بأخرى.

كان كنان جالسًا بجانب زوجته، يستمع إلى حديثهما. كم كانت هاندان هذه ماهرة. عندما تتصل زوجة رئيس الجامعة، ستدرك الطبيبة مدى أهمية شخصه. هو لا يحب طلب المساعدة من أحد ولا يعرف كيف يطلبها أيضًا. كان يُفضل أن يخمن الناس ما يجول في خاطره دون البوح لهم، وأن يمنحوه ما أراد من تلقاء أنفسهم. لقد اعتاد ذلك.

كان يتحرك في الصالون ذهابًا وإيابًا، منتظرًا رنين الهاتف. بعد عشرة أو خمسة عشر دقيقة رن الهاتف. كانت جنان هي المتصلة. تنتظره الطبيبة في الساعة السادسة والنصف. تنهد كنان بعمق. لن تستطيع هذه المرة أن تقول "لقد أتيت بلا موعد". نظر في ساعته، كانت تقترب من الثالثة. سيكون من الجيد أن يبدأ بتجهيز نفسه. جر قدميه وسلك طريق الحمام.

من مذكرات طبيبة

اليوم هو عيد ميلاد ابنتي (يَغمور)[1]. ولدت في منتصف الشتاء. لن أنسى ذلك اليوم، كان المطر يهطل بغزارة في أنقرة. بشق النفس وصلنا إلى المستشفى. في الأيام التي أعقبت الولادة، شاهدت الثلج الذي كان يهطل بغزارة من غرفتي الكبيرة في مستشفى (حجي تبه). كان قلبي يرتجف من الإثارة لكوني أمًا. كنت مبتهجة إلى درجة أنني لم أستطع النوم في الليل، وكنت أحاول تمييز صوت ابنتي من بين أصوات الأطفال القادمة من بعيد. في ذلك الوقت، كانوا لا يسمحون للأمهات بأن يرين أطفالهن حديثي الولادة إلا في ساعات معينة. لا أعرف إن كان الأمر كذلك الآن، لكنني كنت، في تلك الأثناء، أفتقد ابنتي الصغيرة التي لا أستطيع تحمل النظر في وجهها.

ستدخل يَغمور عامها الرابع عشر. يا له من عمر جميل. إنها فتاة جميلة على الدوام. جميلة وأليفة.. في السابق، أينما كنا نذهب يلتم الناس حولها. أما الآن فقد كبرت، وازدهرت، وأصبحت أجمل شابة في الدنيا. ما زال الناس يحبونها إلى الآن. ومحيطها مزدحم دائمًا.

كنت أظن بأن عملي سينتهي بحلول السادسة مساء. سنقدم هدايانا لابنتي على طعام العشاء. سنقيم حفلًا في البيت في عطلة نهاية الأسبوع أيضًا، ولكن جنان اتصلت. قالت بأن هنالك مريضًا حالته طارئة، وطلبت أن أقابله اليوم. لم أشأ أن أردّها خائبة. مع أنني كنت أود أن أعود إلى المنزل باكرًا. سيغضبون مني مجددًا. ستسألني يغمور: "وهل المرضى أغلى منا عليك؟"

وبمجرد خروج آخر المرضى، دخلت تونا بسرعة.

- سأتأخر عن البيت يا تونا. إن أتى المريض الذي أرسلته جنان، فأدخليه بسرعة.

---

(1) يَغمور (Yağmur): تعني "المطر" في اللغة التركية. (المترجم)

- أتى، أتى... خمّني حضرتكِ من هو لنرى؟
- من هو؟ هل هو شخص مشهور؟
- آآه، إنه كنان بيك.
- مَن هو كنان بيك؟
- ألا تذكرين ذلك الرجل الوسيم! الذي أتى قبل بضعة أشهر. اتصل اليوم، وحجزت له موعدًا الأسبوع المقبل. أصر كثيرًا على المجيء اليوم، ولكن اليوم كان ممتلئًا. ثم إن عيد ميلاد يَغمور في المساء.
- أي؟
- ولكنه وجد وسيلة للمجيء إلى هنا اليوم. نتبادل الأحاديث منذ نصف ساعة في الصالة. عليه لسان حلو..
- آه... لا أريد أن أزعجكما. إن أردتما، يمكنكما المتابعة. أنا أستطيع الانتظار!
- كرمى لله يا غول سيران خانم! تجبرينني ألا أحكي لكِ شيئًا...

تخرج تونا من الغرفة ضاحكة مرة أخرى. ليس من السهل الاهتمام بكل هذا العدد من المرضى والاستماع إليهم. لو لم تكن تونا موجودة فمع من سأمزح؟

هذا يعني أن جنان اتصلت بي من أجل كنان بيك. ما هذا الرجل؟ وما حاجة اتصال أحد آخر لأجله؟ لقد حجزت موعدًا، انتظرْ حلوله وتعال. يريد التميز والأفضلية دائمًا. لقد بدأت أغضب..

وأثناء تفكيري بذلك، يدخل كنان بيك مبتسمًا بكل جلالته. كان أنيقًا مجددًا. من يره يظن بأنه ذاهب إلى حفلة وليس إلى طبيب. يرتدي طقمًا أسود. ويضع ربطة عنق حريرية خضراء. يضع منديلًا بنفس اللون في جيبه بعناية. كما لم ينسَ وضع مشبكَ ربطة العنق الذهبي. كم هو مهيب هذا الرجل! طوله متر وتسعون ربما. وقبل أن يدخل تنتشر رائحة العطر الذي يضعه في أرجاء الغرفة.

أقول: "أهلًا وسهلًا" وأمدّ يدي. يصافحني بقوة وهو ينظر في عينيّ. لم أستمع إليه جيدًا في المرة السابقة. يجب عليّ هذه المرة أن استمع إليه وأفهم مشكلته جيدًا. في الحقيقة لقد تعبت اليوم كثيرًا، وعلاوة على ذلك، فإن عيد ميلاد ابنتي اليوم، ولكن عليّ أن أترك هذه الأمور جانبًا، وأن أصبّ كامل انتباهي على هذا الوسيم والمتألق الجالس أمامي.

- أهلًا وسهلًا بحضرتك مجددًا كنان بيك. لم تنتبك تلك النوبة بعد ذلك اليوم أليس كذلك؟
- لا أبدًا، ولكن ضيقي مستمر.

صوته متوتر وقلق.. يرفع رأسه ويحدق في عينيّ. ينظر في وجهي من تحت حاجبيه الكثيفين بفضول.

- لم يكن لدي وقت لكي أسمعك في المرة الماضية. تفضل الآن أسمعك.

يسكت برهة. يبدو وكأنه لا يعرف من أين يبدأ. ولأن ساقيه لم تتسعا جيدًا، دفع الطاولة التي أمامه مجددًا، وفسح مجالًا لهما. ثم قوّم شعره بيديه. له شعر أسود حالك ولامع. هل يُسرّح شعره عند الحلاق يا ترى؟ كيف يمكن لشعر رجل أن يكون بهذا التنظيم واللمعان؟

لماذا يحيد انتباهي بإصرار نحو خواص كنان بيك الجسدية يا ترى؟ لم ينطق بأي كلمة متعلقة بذاته بعد. وأنا بدوري أيضًا لم أفتح فمي. لم تسنح لي الفرصة لسؤاله عن شيء غير التحديق فيه... أستجمع قواي وأنحني نحوه وأسأله.

- ما قولك بكأس جيد من الشاي؟

يقول بصوت خفيض:

- سأكون ممتنًا.

بعد أن طلبت شايًا على الهاتف من تونا، ألتفتُ نحوه مجددًا.

- نعم، يبدو أن حكايتك طويلة. لنبدأ من نهايتها إن أردت. كيف بدأت هذه المشاكل كنان بيك؟

- لقد دمّرتني تلك العاهرة.
- عاهرة؟

عند قوله (العاهرة) تخطر فتوش وتلك القطة المسكينة في بالي. حقًا أين هي فتوش يا ترى؟ لم يصلني أي خبر عنها منذ مدة طويلة. والحقيقة أنها لن تأتي إليّ مجددًا، أما أنا فما زلت قلقة عليها.

يغضب كنان بيك. لا بد أنه يقصد امرأة ما بقوله (العاهرة). هل آل هذا الرجل إلى ما آل إليه بسبب امرأة كهذه؟ إنه شيء يدعو للدهشة في الحقيقة.

- يبدو أنكَ تقصد امرأة ما!
- إنها ليست من أولئك النساء اللاتي تعرفينهنّ، بل شيطانة. لم يخطر في بالي أن أصاب بالتعاسة بسبب امرأة، لأنه وحتى اليوم ما حدث كان العكس. لقد تضررتُ بشدة هذه المرة.

آه من هؤلاء الرجال، لا يستطيعون الاستغناء عن النساء من جهة، ويصبّون كل غضبهم عليهنّ من جهة أخرى. صديقاتهم النساء، وعدواتهم أيضًا.. كم هو غريب أن تكون مشكلة رجل بهذه الوسامة وهذا التألق هي بسبب امرأة.

يُقرع الباب بهدوء، ثم يُفتح، فتدخل تونا وبيدها الشاي الذي وضعته في الصينية بعناية. وأثناء تقديمها الشاي، أتت عيني في عين تونا برهة من الزمن. على وجهها ثمة ابتسامة خبيثة.

ينحني كنان بيك قليلًا من مكانه، ويتناول الشاي. وفي هذه الأثناء ينظر في عينيها ولا يتوانى عن شكرها. ربما كان كنان بيك هو من الأشخاص الذين يرتدون اللباقة وكأنها موهبة وراثية.

بعد أن تخرج نتابع حديثنا من حيث توقفنا.

- لطالما كانت النساء محور حياتي. أحب النساء، وهن كذلك. وعلاوة على ذلك، لستُ كباقي الرجال الذين بحاجة للهاث وراء النساء. فأينما أذهب يجدنني، ولكن تلك العلاقات لا تستمر طويلًا، لسبب لا أعرفه.

أنفعل كثيرًا عند اللقاء الأول، ولكن بعد فترة قصيرة من العلاقة، ينتهي هذا الانفعال. وعلى أية حال فبمجرد انتهاء علاقة ما، تبدأ علاقة أخرى، فتصبح المشكلة هي كيفية إنهاء العلاقة السابقة. يعني مختصر الكلام، هو أن الشيء الوحيد الذي يُعطي معنى لحياتي هو علاقاتي بالنساء. ولكنني في السنوات الأخيرة فعلت شيئًا مخالفًا لمبادئي وعشت مع نفس المرأة سنوات. في غضون ذلك دخلت حياتي الكثير من النساء، وخرجن منها، ولكن علاقتي معها استمرت دون معرفتي السبب.

- هل حدث هذا بشكل خارج عن إرادتك، أي هل استمرت هذه العلاقة دون رغبتك بذلك؟

- لم يكن كذلك تمامًا. أردت العيش معها، ولم أرده في الوقت ذاته. أردت، لأنها تظهر لي اهتمامًا وحنانًا استثنائيين. لم تكن تتجادل معي في أي موضوع، كانت تحضنني مثل الأم تمامًا.

أسجل كلمة "مثل الأم تمامًا" في إحدى زوايا عقلي.

- ولم أرغب بذلك، لأن العلاقة التي تستمر طويلًا تزعجني بشكل أو بآخر. ثم إن هنالك زوجة تنتظرني في المنزل. لا يمكن القول بأنني أهتم بها على نحو حسن..

بعد قوله ذلك يلفت انتباهي القلق الذي في عينيه. ربما يخشى أن أحكم عليه لأنني امرأة، في حين أنه لا ينبغي على الأطباء النفسيين الحكم على مرضاهم. بعد ذلك يتنهد قليلًا، ثم يتابع حديثه.

- أسوأ ما في الأمر أن البقاء مع امرأة واحدة لسنوات طويلة يخلق عادة سيئة بمرور الوقت. وخاصة في السنوات الأخيرة حين أصرّت على الزواج، فقد أزعجني ذلك كثيرًا. لم أفكر مطلقًا بالزواج منها، ولكن عندما لم تنتهِ هذه العلاقة، اضطررت للكذب مرارًا وتكرارًا. لكي أكون أكثر تحديدًا، شعرت بالخوف من أن تُنهي هي هذه العلاقة قبلي. فأنا شخص

ليس معتادًا على مثل هذه الأشياء. إنني أتقدّم في السن. مر في حياتي الكثير من الناس، ولكنني لم أُتْرَكْ قط. ربما لست أنا فقط، بل كل شخص يخشى أن يُترك.

يحاول أن يُحجّم ألمه من خلال التعميم، ولكنني ولسبب لا أعرفه، أشعر بأن هذه الحكاية مألوفة بالنسبة إليّ.

- في النهاية حدث ما كنت أخشاه، وتركتني العاهرة وذهبت.
- لماذا تصفها بـ العاهرة؟
- هذا قليل عليها. في البداية جعلتني معتادًا عليها، ثم تركتني وغادرت. في البداية، وعندما ذهبتْ، لم آخذ الأمر على محمل الجد، قلت إنها في المحصلة ستعود. حدث الكثير من الحالات المشابهة لهذا الانفصال بيننا، ولكنها كانت تتصل في كل مرة وتعود إليّ. لم أعرف ماذا حدث هذه المرة. بعد بضعة أشهر، وعندما أدركت أنها لن تعود، انتابني الخوف. وكأن الدنيا أصبحت فارغة تمامًا خلال لحظة واحدة. لم أعد أستمتع بأي شيء. وكأن ذلك لم يكن كافيًا، فقد زاد الخوف في داخلي، واشتبك قلبي مع ضغطي. وصار ينتهي المطاف بي كل يوم في غرف الطوارئ. برأيكِ؛ هل تعود مجددًا؟

يسأل هذا السؤال بحرقة، لدرجة أنني أصاب أيضًا بالحيرة. وكأنني الشخص الوحيد في هذا العالم الذي يعرف الإجابة عنه.. ثم إن ما أسمعه ليس غريبًا عني. من أين أعرف هذا الرجل؟

- إن عادت، هل ستنصلح الأمور؟
- نعم، إنني على يقين من ذلك. سينصلح كل شيء إذا عادت، لأن كل شيء كان على ما يُرام عندما كانت موجودة. الشكر لله، لست مضطرًا للعمل بكثافة كما في السابق. ثمة ملهى نجتمع فيه أنا وأصدقائي. كنت أرتاده كل مساء. كنا نأكل ونشرب ونلعب الورق قليلًا. أسافر كثيرًا،

وأقضي كل ليلة مع واحدة من النساء اللواتي كنّ ينتظرنني بفارغ الصبر. كما أنني لست من أولئك الأشخاص المهووسين الذين يبحثون عن سبب ليكونوا تعساء. أحب أن أعيش الحياة بإثارة مختلفة كل يوم. لذا فإن هذا الحدث الأخير يصيبني بالحيرة. لا أعرف ماذا فعلت بي هذه المرأة. هاندان؛ يعني زوجتي، مهمة جدًا بالنسبة إليّ رغم كل شيء. وحتى لو لم أذهب إليها كثيرًا، ولكن يقيني بأنها تنتظرني يصيبني بالسرور. إنني الآن موجود في المنزل بشكل دائم، ولكنني لست سعيدًا. كنت شخصًا قويًا، واثقًا بنفسه، أدافع عن النساء دائمًا، أعرف ما عليّ فعله ومتى. أرجوكِ سيدتي أنقذيني من هذه المشكلة.

"أنقذيني". عند خروج هذه الكلمة الأخيرة من فمه، يظهر القلق والشك في عينيه مرة أخرى. أعتقد أنه منزعج من كونه يطلب المساعدة من امرأة، باعتباره، ولسنوات طويلة، كان شخصًا مدافعًا عن النساء، وقويًا، ويثق بنفسه، وخاصة فيما يتعلق بالنساء.

هل ينجح هذا الرجل القوي، في مشاركة نقاط ضعفه مع امرأة.

- بقولك أنقذيني، أعتقد أنك تريد مني أن أوقف مشكلتك.
- لا، لا. مشكلتي لن تحل إلا بعودتها. إنني على يقين من ذلك تقريبًا. أنتِ حاولي مساعدتي في إرجاعها فقط.
- وكيف أفعل ذلك؟
- أنتِ أيضًا امرأة، تفهمين هذه الأمور. لم تقتنع رغم كل ما فعلتُه لأجلها. اتصلت بها، أرسلت إليها رسائل، وزهورًا، وهدايا، ولكن ذلك كله لم يُجدِ نفعًا. ربما تستطيعين أنتِ أن تريني طريقًا آخر.

إنه لشيء يدعو للغرابة! من الواضح أنه لم يأتِ إلى هنا من أجل المعالجة، بل من أجل طلب المساعدة لاستعادة تلك المرأة. ثم يستمر بالكلام قبل أن أقول شيئًا.

- كانت تهتم بي لدرجة أشعر بنفسي كالملك.

كالملك؟ كيف ذلك؟ أتمنى ألا يكون حبيب فتوش؟ الاتصالات، الرسائل، الهدايا... الحبيبة التي لم تعُد... يا إلهي... إنه هو في الغالب! لا يمكن تصديق ذلك! يستحيل كل هذا الكم من المصادفات.. هل كان عليه أن يأتي إليّ في أنقرة الكبيرة هذه؟

- كانت فتاة مرحة، ومبهجة، وبشوشة، تعرف كيف تخدم الرجل جيدًا. تدور كالمروحة عندما أدخل المنزل، كانت تفعل ما بوسعها لتجعلني أشعر بالراحة. في بداية تعارفنا كانت شابة ساذجة، ونظيفة القلب. لم أعش علاقة مع أيهنّ مثلها من قبل. كانت فتاة مسكينة قادمة من عائلة ذات دخل محدود.

فتاة مسكينة.. عاهرة، مسكينة..

- ثم عملت بجد لتطوير نفسها. كانت تعبدني فعلًا. أصبحت هذه الفتاة مثل يدي وذراعي.

كانت مثل يديّ وذراعي، أليس كذلك؟ تمامًا مثل "الأعراض الانسحابية" التي تظهر عند الأشخاص المدمنين.

- أنت امرأة أيضًا، ربما يمكنك فهمها بشكل أفضل، فتُريني طريقة لاستعادتها. الأطباء الذكور لا يفهمون في هذه الأمور. يقولون باستمرار "اتركها، ستجد غيرها عاجلًا أو آجلًا".

- يقولون "تجد غيرها"! ألم تجدوا غيرها.

توقف برهة، وحدق في وجهي. يحاول فهم ما إن كنت أهزأ به أم أنني جادة. كما لو أنه يتحدث عن شراء قطعة ثياب جديدة بدلًا من القديمة التي اهترأت وتمزقت.

عندما بدأنا بالحديث مجددًا، كان كِلا صوتينا خفيضًا وبطيئًا.

- كنان بيك، إنني أحاول فهمك، ولكنني لم أستطع إلى الآن.

ينظر إليّ كمريض لا يستطيع تحديد مكان ألمه للطبيب، ولكنه يتألم كثيرًا.

- لا أحد يفهمني. سقطت جمرة في قلبي، تحرقني بشدة. إنه أشبه بالموت! ثمة أغنية، لا أعرف إن كنت تعرفينها، اسمها: "الفراق هو نصف موت".
- نعم، أعرفها. إنها أغنية جميلة. من الواضح أن كاتبها شخص ما عاش الحب الحقيقي، وعرف معنى الفراق. هذا يعني أن الفراق يشبه الموت في بعض الأحيان.
- لا أعتقد أن الموت يسبب كل هذا الألم للإنسان. بالموت تختفي وينتهي الأمر، أما ألم الفراق فلا ينتهي. أعتبر نصف ميت ببعدي عنها. الوقت لا يمر بأي شكل، وأنا ليس لي إرادة بفعل أي شيء. أتجول أمام باب منزلها حتى الصباح. لا أريد أن أعيش الحياة من دونها، والأسوأ من ذلك أنني لا أريد أن أموت أيضًا. ماذا عليّ أن أفعل؟

ينظر في وجه بعينيه الثاقبتين المضيئتين. من الواضح أنه يعاني من ألم حقيقي. لكن لا يزال هنالك شيء مصطنع فيه. وكأن جزءًا منه يبدو مزيفًا.. لماذا لا أستطيع تصديقه؟ هل لأنه حبيب فتوش يا ترى، أم أن أحاسيسي تخبرني بالحقيقة يا ترى؟ هذا الرجل يحيّرني. أثناء الاستماع لفتوش كنت غاضبة من هذا الرجل أكثر من أي شيء. لن يكون من السهل الآن سحب هذه المشاعر وتجاهلها.

- ماذا عن زواجك؟
- زوجتي امرأة جيدة. هي أيضًا تحبني كثيرًا. لم أعد أعود إلى المنزل بشكل منتظم في السنوات الأخيرة، ولكنها مع ذلك لم تُصدر أي صوت. لأنها لا تستطيع أن تخاطر بفقداني. لست من أصحاب المشاكل. في السنوات الأولى لزواجنا كانت تعترض كثيرًا، فانفصلنا على الفور.

أي نوع من الكلام هذا؟ لم أستطع تحديد ما إذا كان يشير ضمنيًا إلى مدى ثقته بنفسه، أم إلى مدى إهانته للنساء من خلال شخصية زوجته. لهذا السبب لا أستطيع أن أشعر بقربي من هذا الرجل، أو أن أصدّق ألمه. أسأله بصوت أعلى.

- كيف ذلك؟
- إنها قصة طويلة! كانت صديقة زوجتي المقربة تأتي إلينا كثيرًا في ذلك الوقت. في الحقيقة هي من بدأت بهذه العلاقة. كانت امرأة جميلة وجذابة. وأنا بدوري لم أرفض ذلك. عندما علمت زوجتي بذلك حزنت كثيرًا. وفي تلك الأثناء انفصلنا فورًا، ثم تزوجتُ بتلك المرأة.

أستمع إليه وأنا أتململ في مكاني. من الجيد أن تونا أحضرت هذا الشاي. أحاول أن أسيطر على مشاعري من خلال تناولي رشفات صغيرة من الشاي. لا يجب أن تكون العلاقات بهذا الرخص وهذه التفاهة. إن حدث هذا فلن يعود هنالك أي فرق بين الإنسان والكائنات الأخرى. وإنني من أولئك الذين يؤمنون بقدسية الإنسان.

يمكنه ومن دون تفكير أن يترك زوجته من أجل امرأة جميلة وجذابة تهتم لأمره. وعلاوة على ذلك لا وجود للعشق أو الحب.. تحدق عيناي في الساعة. لقد تأخرت.

- ولكن ذلك الزواج لم ينتهِ. عندما بدأت زوجتي بالاتصال بي، بدأنا نلتقي معًا بشكل سري. كانت أيام مثيرة.
- أنت تحب الإثارة كثيرًا.
- صحيح، أحبها. تبدو الحياة بالنسبة إليّ فارغة جدًا من دون إثارة. ولهذا السبب فإن حياتي الآن فارغة وعديمة الإثارة.
- ماذا حدث بعد ذلك؟
- هذه المرة انفصلت عنها، وتزوجت زوجتي من جديد.
- هل كنتَ تتأثر بتلك الفراقات في ذلك الوقت؟
- لا يا روحي، بل على العكس تمامًا، كنت مسرورًا جدًا من حياتي.
- وما هو الفرق بين آخر فراق، والفراقات الأخرى؟
- لقد تُرِكْتُ يا غول سيران خانم، تُرِكْتُ. لا يمكن لأحد أن يتركني. بشكل أو بآخر، ستعود إليّ في يوم ما، وأحاسبها على فعلتها.

- هل تود أن تعود بسبب مشاعر الانتقام لديك يا ترى؟ لأنك لم تذكر قط أنك تحبها.
- لا أعلم، ربما كان كذلك. لا يهمني السبب. ما يهمني فقط هو عودتها.

بحسب ما فهمت، فإنه في البداية يُحكم قبضته على النساء قبل حتى أن يدركن ما يحدث، ثم يرميهن مثل قطن الحلاج. لكن هذه المرة، فإن التخلي آلمه أكثر مما كان يعتقد. لماذا يا ترى؟

- ألا يوجد نساء أخريات في حياتك هذه الفترة؟
- لا، لا يوجد. ولن يوجد قبل أن تعود هي.
- هل هذا مجرد قرار، أم أنه لن يحدث حتى لو أردتَ ذلك؟
- وكيف لي أن أعرف! لا أريد من جهة، ولا يحدث من جهة أخرى. عقلي مشوش تمامًا، وأنتِ أيضًا تسألين كثيرًا.

يغضب مني أيضًا. هل شعور الغضب هذا هو ما يشعر به تجاه سائر النساء يا ترى؟ أعتقد أنه كان يفكر بأنني قد أغضب من كلماته هذه، لأنه بدأ ينظر حوله فجأة، ويحاول تغيير منحى الحديث.

- يا لها من عيادة جميلة! فُرشت بذوق عالٍ. يبدو أنكِ تحبين اللون الأحمر.

أومئ برأسي بمعنى نعم، لأن ما أريده هو العودة إلى موضوعنا بأسرع وقت ممكن، ولكنه يتابع كلامه.

- في طريقي إلى هنا، كنت أخشى أن ألتقي بامرأة مسنّة، مسترجلة، تضع نظارتين بإطار أسود. ولكن ما خشيت منه لم يحدث. أنتِ امرأة شابة، وجميلة، ولطيفة يا سيدتي. وعلاوة على ذلك لديكِ ذوق رفيع. ثم إن هذا المكان لا يشبه ما اعتدنا عليه من عيادات. لا يريد المرء مغادرة هذه الغرفة أبدًا. بالطبع شريطة أن تكوني أنتِ في الغرفة...

أكتفي بابتسامة خفيفة. لقد سبق وسمعت هذه الكلمات المبتذلة، ولكنها تخرج من فم كنان بيك متخذة شكلًا آخر، وتصبح ذات مغزى وتأثير أكبر. إذن فالوقت قد حان لمغازلتي بشكل خفيف.

إن كنتم أطباء نفسيين، فإنكم معتادون على مثل هذه المواقف. غالبًا ما نواجه مثل هذه المواقف في جلسات العلاج بالتحديد. نتعلم مسبقًا ألا نخاف من هذا الأمر. أتى هذا الرجل إلى الدنيا لمغازلة النساء، وجعلهن جزءًا مهمًا من حياته. ربما لا يعرف كيفية إقامة علاقة أخرى مع النساء. يجب عليّ أن أتحدث معه عن هذا الأمر في جلسات العلاج القادمة.

لا يريد أيضًا التحدث عما يحدث في حياته خلال هذه الفترة، ربما لأنه ثمة أشياء لا يرغب بمشاركتها مع امرأة. أتمنى لو يستطيع أن ينظر إليّ كطبيبة تحاول مساعدته وليس كشخص من الجنس الآخر. في الواقع، أعتقد أن هنالك مشكلة مماثلة في حقيقة أنه لم يستطع التعامل مع الأطباء الذكور الذين ذهب إليهم من قبل. ربما لم ينظر إليهم كأطباء، بل كرجال منافسين له. إن لم أستطع أن أسأله أي سؤال، فكيف ستستمر هذه الجلسة، علاوة على ذلك، وبغض النظر عن عودة فتوش، فهو لا يعطي معلومات كافية عن نفسه. ثم إنه يغضب بسرعة. تمامًا مثل الجلسة الماضية...

- كنان بيك، يبدو أنك تغضب بسرعة. هل تغضب بسرعة هكذا من كل شيء في حياتك اليومية؟
- بل على العكس تمامًا، إنني رجل أحب الدردشة، والتحدث مع الناس، والضحك. أو بالأحرى كنت كذلك. لقد أزعجتكِ المرة الماضية أليس كذلك؟

يسألني ذلك بابتسامة خفيفة، وكأنه يريد إقامة علاقة أوثق معي.

- ردة فعلك التي لم فأفهأفهمها، وليس سبب غضبك.
- غول سيران خانم، إنني شخص معتاد على اهتمام النساء بي. لقد طردتني خلال خمس دقائق في ذلك اليوم. مع أنني أتيت إليكِ للتحدّث بشكل مطول.

- أنت معتاد على اهتمام النساء بك... يبدو أنك تنسى أحيانًا بأنني طبيبة تعمل على مساعدتك، أم أنني أتوهم ذلك؟
- حضرتكِ محقة. ولكن ماذا نفعل؟ أنا هكذا. إن الحياة تؤثر على كل شخص بشكل مختلف. جعلتني أصبح على ما أنا عليه بمرور الوقت. لا أذكر إن كنت كذلك قبل زمن طويل. وإن كنت هشًا لهذه الدرجة فيما يخص النساء، فهن من فعلن ذلك. في البداية حملنني، ورفعنني إلى السماء. أتصدقين، حضرتك، أن مساهمتي في هذا الأمر قليلة جدًا؟ لم ألهث خلف أي منهن، ولم أجبرهن. لقد أحببت النساء، وهن أحببنني. وإنني أدرك أن الأمر ليس كذلك بالنسبة لباقي الرجال. يسألونني دائمًا عن كيفية فعلي لذلك، ولكن صدقيني تحدث هذه الأمور من تلقاء نفسها. ربما أعرف ما تريده النساء، وما يبحثنّ عنه. ربما أكون رجلًا حساسًا، وحتى رومانسيًا قليلًا. يسعدني مدى اهتمامهن بي. وأنا بدوري لا أترك ذلك الاهتمام أبدًا دون مقابل. وأعتقد أنني لست الوحيد الذي طار إلى الغيوم بهذه الصحبة. نرتقي سوية. يجدن فيّ ما لا يجِدنه في أي رجل آخر، ويعبّرن عن ذلك صراحة. فهنّ يُصَبن بالسعادة وأنا كذلك.
- ومع ذلك فإن العلاقات تمتد لفترات قصيرة.
- تستمر لفترات قصيرة لأنهن جعلنني أعتاد على عيش إثارة جديدة بشكل مستمر. فكما يسافر الناس في جميع أنحاء العالم لتناول أطباق جديدة، واكتشاف أذواق جديدة، أعتقد أن ما يحدث معي أشبه قليلًا بذلك. فكل علاقة تفتح لي أبواب عالم جديد. وكأنني أولد من جديد في كل منها. وأي رجل يرفض ذلك؟

أقول لنفسي: "ربما كان على حق". يرغب الكثيرون في ذلك، ولكنني على يقين تقريبًا من وجود باثولوجيا عميقة مخفية داخل هذا الأمر. لو كان الأمر كما

يقول، فلن يؤلمه الهجران بهذا الشكل. ثم إنه هو من اعترف بمدى هشاشته أمام النساء قبل قليل.

أشبهه بالشخص البدين الذي لا يستطيع الحصول على ما يكفيه من الطعام. إنه شخص لا يستطيع العثور على ما يبحث عنه أثناء انتقاله من غصن لآخر. ولا أعتقد أنه هو نفسه يعرف ما يبحث عنه. أعتقد أن هذا هو الفراغ المظلم والعميق للنرجسية.

- في الحقيقة إن فكرت بشكل منطقي، فليس عليّ التأثر بهذا الفراق. ورغم ذلك لا أستطيع إطفاء النار في داخلي. عندما أخرجتموني من العيادة في ذلك اليوم شعرت بسوء شديد.

أحيانًا يبدو هكذا، مثل الطفل تمامًا. إنه أمر عجيب في الحقيقة.

- اعتقدت أنكِ ستمنحينني الأفضلية. إن فعل ذلك الأطباء الذكور فلن أتأثر كثيرًا، ولكن إن فعلت ذلك طبيبة أنثى سأتحطم. فبعدكم، استلقيت في السرير دون حراك لعدة أشهر. شعرت بأنني تعرضت لخيانة عظمى. ولكنني مع ذلك، وفي النهاية، أتيت إليكم.

لقد شرفني بمجيئه إليّ. الوضع أخطر مما كنت أعتقد! لذلك يجب أن أكون أكثر حرصًا في علاقتي مع كنان بيك. أدنى حركة مني ستجعله يشعر بأنه رُفض. ولكنه في الوقت نفسه لا يكفّ عن ملاطفتي.

- هل تتناول الأدوية التي وصفتها لك؟

- نعم، أتناولها. أستطيع القول بأن الأدوية كانت جيدة. على الأقل لم أعد أخسر وزني، وإن استلقيت فإنني أنام، ولكن الأدوية ليست حلًا لمشكلتي. أريد تلك العاهرة مجددًا.

- تريد العاهرة مجددًا؟ إنها عاهرة من جهة، وذات قيمة كبيرة من جهة أخرى، أليس كذلك؟

- إنني غاضب منها ومشتاق إليها في الوقت ذاته. وهل يترك الإنسان شخصًا يحبه فجأة بلا مقدّمات ويغادر؟

- هل حدث كل شيء فجأة؟
- لا يمكننا اعتبار ذلك تمامًا، ولكنها في النهاية غادرت. ماذا سأفعل الآن؟
- أنت رجل معتاد على أن تَترك لا أن تُترك. ربما أنت من يمكنه معرفة إجابة هذا السؤال أكثر من أي شخص. لماذا تترك النساء؟
- كنت أشعر بالملل.
- هل ربما تكون قد ملّت هي أيضًا؟
- مني؟

تجحظ عيناه، وينظر إليّ مذهولًا. وهل يمكن أن تسأم منه امرأة في عالمه؟ فهو قد تلطّف وقَبِل المرأة، فماذا تريد أكثر من ذلك؟

- لا يمكن للنساء أن تملّ مني. أم أنكِ أنتِ أيضًا قد سئمتِ؟
- وهل يعقل يا سيدي، وهل من الممكن أن يُسأم منكَ؟

وللحظة، لا يعرف ما سيقوله مقابل رد فعلي الساخر هذا، ولكن بعد ذلك تعمّ وجهه ابتسامة قسرية. في الواقع لا يجب عليّ أن أظهر له ردود أفعال كهذه. لكن ليس من الممكن على الإنسان التعامل مع نفسه دائمًا. ففي بعض الأحيان تخرج التصرفات الطبيعية هكذا من تلقاء نفسها.

- حضرتكِ لم تتعرفي إليّ جيدًا بعد. هذه حالتي المرضية. لا يمكنني أن أقول ذلك لنساء أخريات. إنهن يرين وجهًا آخر لي.
- كيف؟
- إنني رجل واثق من نفسه، لا يحني رأسه أبدًا، مختلف عن الآخرين، أي رجل مميز يصعب الوصول إليه.

أتمنى لو يستطيع أن ينظر إليّ كطبيبة وليس كامرأة! يجب علينا هنا أن نناقش حقائق حياته. تحدق عيناي في الساعة مرة أخرى. لقد تأخرت.

- هل هذا حقيقي؟ أم أنه مجرد قناع تُظهره للآخرين، ولكنك لا تؤمن به تمامًا؟

(بيرسونا) "Persona" تعني الشخصية، وهي كلمة مشتقة من اللاتينية وتحمل معنى القناع. ينظر إليّ بعيون مليئة بالغضب. لم تعجبه كلماتي أبدًا. حتى لو لم تعجبه، فإن لم أتمكن من عرض بعض الحقائق له، فسوف يعاني أكثر.

أثناء تفكيري بذلك، أراجع نفسي. هل أزيد الحمل عليه يا ترى؟ لماذا أفعل ذلك وأنا على علم تام بأنه في قبضة اكتئاب حاد؟ وبدلًا من فهم الحقائق، فهو مثل الطفل الذي يصر على قول أريد هذا وذاك. هل سيهرب من الحقائق دائمًا؟

- ولماذا القناع! لقد كانت حالتي الطبيعية، ولكنْ، ثمة الآن قناع عالق على وجهي لم يسبق لي أن عرفته. كانت تعرف أنني متزوج منذ البداية. هل يترك الإنسان شخصًا يحبه بعد عشر سنوات؟
- هذا يعني أنها انتظرتكَ عشر سنوات؟
- طبعًا ستنتظر. ألا تنتظر زوجتي هي الأخرى؟ إنها تنتظر.
- لديكَ فلسفة غريبة في الحياة. يعني تقصد أن تبقيا، كلاهما.

يهز رأسه قليلًا وينظر في وجهي. هذا يعني أنه يريد الاثنتين معًا! والحقيقة أنه حصل على ما أراد تمامًا خلال عشر سنوات. يا له من رجل محترف. على الرغم من كل شيء، من غير المفهوم أن كلتا المرأتين تحملتا هذا الأمر بصبر مدة عشر سنوات، تمامًا، ومع أنني لا أعرف زوجته بعد، فإنني أعرف لماذا لم تتركه فتوش وتغادر.

- كيف سنرجعها الآن، قولي لي. يكفي هذا. ليوقف أحدٌ ما هذا الألم.

إنه يبدو كشخص يعاني من ألم حاد منذ وقت طويل. لو لم يكن حبيب فتوش. إنني وبدلًا من الحكم عليه، عليّ أن أشاركه ألمه. حتى لو كان كل شيء كذبًا، فإن الألم الذي يشعر به حقيقي.

- أنتَ محقّ يا كنان بيك، ومهما كان السبب، فإن المعاناة أمر صعب. ولكنكَ لستَ الوحيد في هذا الأمر. وهل يمكن العيش دون معاناة؟ من يدري ماذا جلبت لكَ الحياة من أشياء جميلة، وسعيدة، ومثيرة، والآن

أتـى دور الألـم. لا تخـف. فلكـل ليلـة صبـاح. سيمرّ هـذا أيضًـا. لا تكـن متشائمًا لهذه الدرجة.

تمتلئ عيناه بالدموع فور سماعه كلماتي هذه. ينظر إليّ بامتنان وحب.

- في النهاية فهمني أحدهم. إنني بحاجة لهذا كثيرًا... لا أريد أن يُحكم عليّ، بل أريد أن أُفهم.
- أنت محقّ، فالألم يخفّ بمشاركته مع آخرين.
- وجعي لم يخفّ أبدًا. ربما لأنني لم أشاركه. لم أصدق لشهور أن العلاقة قد انتهت. لقد كانت مغرمة بي.. ربما كانت تتدلل.
- حتى لو كانت تتدلل، فإنه وبعد عشر سنوات يُعتبر هذا من حقها، أليس كذلك؟
- لها الحق، طبعًا.. ربما لو كان بيدها لما فعلت ذلك. استفزتها صديقاتُها. كل واحدة منهن قالت شيئًا. وفي النهاية أصرت قائلة: "أنا لن أكون عشيقتك". ولك كم سنة مرت، هل عدت إلى رشدك الآن؟ التوبة يا الله... أطفأت نور حياتي. لم أعد أجد النساء الأخريات جذابات. تذوقت طعمهن جميعًا، يكفي ذلك..

لقد شبهته قبل قليل بالسمين الذي لا يشبع. الآن هو نفسه يعترف بذلك. إذن فهو يتذوق طعم النساء! أثناء استماعي لهذا الرجل، ليس عليّ أن أنسى فتوش فقط، بل أن أنسى أنني امرأة أيضًا. فهو عند أدنى خطأ، سيشعر بأنه رُفض مرة أخرى، وقد لا يتمكن من النهوض من الفراش لعدة أشهر أخرى. يجب عليّ أن أكون حذرة للغاية. آمل أن يساعدني تعليمي الذي تلقيته في هذا الصدد.

- ربما ستفتح هذه الآلام التي عانيتَ منها صفحات أخرى في حياتك. ليس هنالك أي ألم يأتي سدى يا كنان بيك. إننا نتعلم شيئًا ما من كل ألم نعيشه.
- ولكنني حزنت كثيرًا هذه المرة. لقد حزنت هي أيضًا.. أليس كذلك؟

- حزنت بالتأكيد.
- الحزن الذي نقصده كم يستمر؟ ألا ينتهي خلال يوم واحد؟
- وهل انتهى حزنك؟
- لم ينتهِ. وبما أنه كذلك، فإن حزنها لم ينتهِ أيضًا.. بما أنها حزينة لهذه الدرجة، فهي بالتأكيد ستعود يومًا ما. ليكن كذلك. متى آتي المرة القادمة؟
- تعال الأسبوع المقبل.
- هل يمكن أن آتي غدًا؟ لماذا عليّ الانتظار مدة أسبوع؟ أنتِ لا تحاولين طردي أليس كذلك؟

أبتسم قليلًا. يا له من شخص هشّ وحساس!

- لا يمكن غدًا، أنتظر حضرتكَ الأسبوع المقبل.
- أشكر حضرتكِ أيتها الطبيبة. لا أريد أن أغادر قبل أن أقول لكِ مرة أخرى كم أنتِ امرأة جميلة ولطيفة. أشكركِ كثيرًا على قبولكِ لي في هذه الساعة.

ينحني ويصافحني باحترام كبير. يده دافئة ومؤثرة! أنظر إلى ساعتي، لقد تأخرت. أتناول حقيبتي بسرعة وأنطلق. تنادي تونا عليّ من الخلف: "قبّلي يَغمور بالنيابة عني".

(15)

خرج كنان هذه المرة من غرفة الطبيبة أكثر سرورًا. بعد أن تبادل الحديث مع سكرتيرة الطبيبة عند الباب وحدد موعدًا في الأسبوع المقبل، ودّعها بابتسامة. لم يكن يريد العودة إلى المنزل على الفور. كان سيمشي قليلًا ويفكر بالقضية مطولًا. كان الطقس باردًا ولكنه صافٍ، القمر متوهج في الأعلى، يضيء كل مكان. أين هي فادي يا ترى، هل ترى القمر هي أيضًا؟ هل تتذكر كنان عندما تنظر إليه؟

كانت الطبيبة امرأة جيدة على الرغم من تقطيب وجهها في بعض الأحيان. هذا يعني أن فادي أيضًا كانت حزينة مثله بسبب هذا الأمر. ربما لا يوجد في حياتها أحد آخر.

من الجيد أنه أتى إلى هذه الطبيبة. فهي ستحاول بطريقة أو بأخرى مساعدته لإرجاع فادي. كما أنها امرأة في النهاية. ثم إن الرجال لا يفقهون هذه الأمور. ومجددًا من سيساعده هي امرأة. ويا لها من امرأة! لقد أعجبت به الطبيبة منذ أول يوم. كان يشعر بذلك. فهي حتى لو لم تبيّن ذلك ولكنها عشقته حتمًا. وعلاوة على ذلك فهي تبدو ذكية. في الحقيقة كان الرجال الآخرون يخشون النساء الذكيات. قال في نفسه: "أين الشجاعة عندهم؟" لو كانوا مثله لما فوتوا مثل هذه النساء.

ذهب إلى البيت مسرورًا، وقال لزوجته بأنه سيفعل ما تقوله هذه الطبيبة التي منحته الثقة. وبالمقابل سُعدت هاندان لذلك من جهة، وضحكت بطرف فمها من جهة أخرى. ومجددًا وجد زوجها امرأة على مزاجه. إنه رجل هكذا حاله. لا يكنّ ولا يهدأ، عقله عند النساء حتى في أشد أيامه مرضًا. فهو لن يتغير بعد هذا العمر!

في اليوم التالي، استيقظ كنان باكرًا على غير عادته، ومر إلى مكان عمله ولو بضع ساعات، في البداية مازح السكرتيرة، وقرصها من خدها، لكنه لم يرغب في

الذهاب أبعد من ذلك. اهتم بأعماله قليلًا، وفي فترة بعد الظهر اتجه إلى الملهى. سُعد أصدقاؤه الذين رأوه. في المساء تم إحضار العرق، وبينما كانوا يشربون جهزوا طاولة القمار كالمعتاد.

لم يكن كنان محظوظًا في اللعب كما في السابق. ولأنه يعرف أن أصدقاءه سيغضبون إن تفوه بشيء، فقد جلس صامتًا رغم غضبه. كان جزء من عقله عند فادي والجزء الآخر عند الطبيبة. لنرى ماذا ستقول الطبيبة هذه المرة. سيشرح لها بمزيد من التفصيل، وربما تستطيع أن تجد له حلًا عندما تعلم بكل شيء. ولهذا السبب لم يعد يذهب ويقف أمام منزل فادي في الوقت الحالي. وفي الليل، عندما يستلقي في فراشه، ورغم أن عقله هناك، إلا أنه سينتظر أسبوعًا وسيفعل ما تقوله الطبيبة.

ماذا يجب عليه أن يرتدي هذه المرة عند ذهابه إلى الطبيبة يا ترى؟ إنه يذهب دائمًا مرتديًا بدلة رسمية، ولكن هل الطبيبة تحب أولئك الرجال الذين يرتدون هكذا؟ والواقع أنها هي أيضًا كانت ترتدي ملابس رسمية للغاية. تنورة، سترة، وإلى ما هنالك... ومهما حاولت أن تعطي لنفسها مظهرًا ذكوريًا، إلا أنها كانت جذابة للغاية. وخاصة شعرها المجعد قليلًا المائل للحمرة، فقد أحبه كثيرًا. كانت نبرة صوتها فقط هي ما تزعجه. كانت تتحدث وكأنها تعطي الأوامر، وتضحك وكأنها تسخر منه قليلًا. ولكنه مع ذلك فقد تأثر بها أكثر من الأطباء الذكور. يشعر بأن ما تقوله سيحدث. مما يعني أنه يثق بهذه المرأة. هذه المرة سيحاول جاهدًا التأثير بها آملًا من الله أن يحصل في النهاية على ما يريد. كان عليه أن يستخدم ألوانًا مختلفة. سيكون جيدًا إن ارتدى السترة الكشمير ذات اللون البيج الداكن، وقميصًا حريريًا تحتها. عليه أن يجد وسيلة لجذب انتباه هذه المرأة.

ربما لن يكون كافيًا مجرد ارتداء الملابس لجذب انتباه المرأة. ماذا لو أحضر لها الأزهار وهو في طريقه إليها؟ أزهار باهرة لم يحضرها أحد من قبل، مزينة بأوراق ملونة!

كان يتقلب يمنة ويسرة في سريره، لم يستطع أن يقرر ماذا يفعل عندما يحين الموعد. إنه يهاب هذه المرأة. لم يكن يخشى أي امرأة قبل ذلك. لماذا كان يخشى هذه الطبيبة يا ترى؟ فهي لم تفعل أي شيء يثير خشيته...

لن يكون قادرًا على النوم هذه الليلة. نهض من سريره ببطء. بعد أن أشعل المصباح الموجود عند السرير، لبس نعليه واتجه نحو الصالون. دخل الصالون وهو مستند على الجدران محاولًا عدم إحداث ضجيج. لم يكن يريد أن يشعل الضوء. فإن استيقظت هاندان ستنهض وتأتي إليه. ثم إنه لا يوجد ما يقوله لها. فأي من خواطره هذه يمكن لهاندان أن تفهمها! أشعل سيجارته فورًا. كانت الشوارع فارغة. عندما ينظر للأسفل، يخطر في باله الليلة التي هاجمته فيها فادي. يدير وجهه فورًا. لقد قالت الطبيبة بأنها لا بد من أن تكون هي أيضًا حزينة، ألم تقل ذلك؟

عند تفكيره بالأمر بهذه الطريقة، شعر بالسرور ولو قليلًا. سحب نفسًا طويلًا من سيجارته. كان ما يزال ثمة خمسة أيام على موعده. كم كان يمر الوقت بصعوبة!



من مذكرات طبيبة

تتسلل الشمس إلى غرفة معاينتي من بين التول[1] الأبيض. رؤية ذلك بحد ذاتها تمنح الإنسان فرحة العيش. سيدخل الآن كنان بيك. هذه المرة قام بتحديد موعد مثله مثل أي شخص آخر. عندما كانت فتوش تتحدث عنه كانت تشبهه بـ الملك باستمرار. ورغم أنني لم أكن أفهم سبب هذا في ذلك الوقت، إلا أنني في الغالب فهمته الآن. فهذا الرجل يظن نفسه ملكًا حقًا.

النرجسية عنده قوية إلى درجة أنها تتسبب له بالمتاعب. وربما يكون الاكتئاب قد نشأ تمامًا بسبب هذه الإصابة النرجسية. تأثر كثيرًا بالهجر. فكيف تتركه المرأة التي يسميها عاهرة وهو الملك؟

قضى حياته مع نساء فتحن له قلوبهن، وأعجبن به، والأهم من ذلك أنهن جعلنه يشعر بأنه على قيد الحياة، حتى تخلت عنه أحدهن... لقد تغير أسلوب حياته الذي اعتاد عليه، وطريقته في الوجود. طغت الشكوك على كل ما يعرفه عن نفسه.

ورغم كل شيء، يضايقه رؤيتي كامرأة، لأن كل ما يعرفه عن النساء هو علاقاته القصيرة بهن، ثم ممارسة الحب معهن. وربما لهذا السبب يشعر بأنه مضطر للمغازلة، حتى لو كان في هذه الغرفة، وأمام طبيبة.

في الواقع، أستطيع أن أفهم كيف يمكن للمرأة أن تتأثر به. حتى إنني أشعر بذلك في داخلي. ربما قد تطورت الهالة الكثيفة التي تلفه مع مرور الوقت لأن هذا كان المعنى الوحيد لحياته. فمن المستحيل عدم الشعور بالطاقة الشديدة التي تشع منه.

---

(1) التول: قماش صناعي يستخدم في صناعة فساتين الزفاف والأزياء، كما يستخدم في صناعة نوع من أنواع الستائر. (المترجم)

هدفنا من العلاج النفسي دائمًا هو التأكد من أن الشخص يقيّم نفسه ويتعرف عليها بشكل صحيح. وفيما يتعلق بحياته المستقبلية، من المهم دائمًا أن يرى الإنسان الجوانب الإيجابية والسلبية لشخصيته. أي أنه من الواجب إزالة الأقنعة في هذه الغرفة. ومع ذلك فإن سقوط هذا القناع ربما يجلب معه آلامًا أكثر مما يمكن تحملها. من يدري أيضًا ما هي الآلام التي عانى منها تحت اسم "الترك من قِبل امرأة". أعتقد أنه يدرك ذلك أيضًا، وربما يتجنبه لأنه لا يستطيع تحمل رؤية الحقائق.

مهما كانت الحقيقة مُرّة، فإنها تمنحنا دائمًا فرصة لتغيير شيء ما، وإصلاحه. إن القيام بنفس الأشياء طوال الوقت، والحصول على نفس النتائج يعني استدعاء الألم. وكأن كنان بيك يستدعي الألم برفضه رؤية الحقيقة. أعتقد أن غضبي تجاهه سيقلّ تدريجيًا كلما عرفته أكثر. أتمنى لو أتمكن من مساعدته!

في الواقع لا هو يعرف نفسه، ولا النساء اللاتي لم يفارقنه. كان عبارة عن ذئب في يوم من الأيام، ذئبًا متوحشًا يتجول بين الخراف! لكن هذا الذئب ينزف من مكان ما. إنها مسألة وقت قبل أن تتحول إلى فضيحة.

وبينما كنت غارقة بالتفكير، دخلت تونا وهي تضحك. كان خداها ورديين. نعم، ورديين! فرحة الحياة تشع حلقات من عينيها من جديد! تحمل في يدها باقة أزهار ضخمة.

- آه، الرجل ينتظر في الخارج، متى ستُدخلينه. هو من أحضر هذه الأزهار لكِ سيدتي. انظروا يا لجمال هذه الأزهار! من الصعب إيجاد زهرة بيضاء في هذا الفصل. أووه، رائحتها رائعة. إن بائع الأزهار الذي صنعها ماهر حقًا. انظري لهذا التول والربطة المخملية هذه. لقد رشوا عليها شيئًا يشبه ماء الذهب. لم أرَ باقة أزهار كهذه من قبل. أتساءل عن عدد اللآلئ التي وضعوها حولها. كنت سأضعها في مزهرية ولكنني رغبت بأن تريها، حضرتكِ، أولًا.

- أليس مبالغ فيها قليلًا؟
- وهل يُبالغ بالأزهار؟ لقد صنعها وانتهى الأمر! يستحيل إلا أن تجدي حجة. الرجل يحضر الأزهار ليشكركِ، وأنتِ على وشك أن تغضبي منه. لماذا تفعلين هذا؟
- لم أفعل شيئًا. لماذا تدافعين أنتِ عنه؟
- عندما تغضبين أنتِ منه، يقع على عاتقي الدفاع عنه. لقد أدهشتني حقًا.
- أنتِ محقة يا حلوتي، أنتِ محقة. هيا أدخلي مريضنا لنرى.

تنظر تونا في وجهي برهة. ثم تسألني بصوت رقيق وحنون للغاية.

- لم تغضبي مني، أليس كذلك؟

أبتسم لها. تخرج من الغرفة وعيناها عليّ والأزهار في يدها.

يبدو أن الوضع خطير، سيما وأن تونا أدركت غضبي منه. لو لم أكن أعرف فتوش، فهل كنت سأغضب منه هكذا؟ وقبل أن أجد إجابة لهذا السؤال يدخل كنان بيك.

يرتدي سترة كشميرية بلون البيج الداكن. تتلألأ طيات قميصه الحريري ذي اللون الكريمي بفعل غروب الشمس. في البداية اعتقدت أن بنطاله أسود، ولكنني بعد لأي لاحظت أن لونه أخضر داكن. تمامًا مثل ربطة عنقه ومنديله... كم كان أنيقًا، وكم يتقن اختيار ما يرتديه.

بعد أن عصر يدي بقوة، اتخذ مكانه المعتاد. وأثناء جلوسه سحب بنطاله برفق. أما أنا فلم أجلس مكاني، بل وقفت وراء طاولتي ورحت أنظر إليه. فور ملاحظته بأنني لم أجلس، يقفز من مكانه.

- عفو حضرتكِ، يبدو أنني تواقحتُ قليلًا!
- هل ترتدي هكذا دائمًا؟
- هممم، تمدحينني. أشكركِ. إنني مهتم بالملابس بشكل عام، ولكنكِ أنتِ أيضًا أنيقة للغاية.

- أشكركَ على الأزهار.
- لا داعي. حتى إنها قليلة... إنني أتعبكِ كثيرًا. سعيد جدًا لأنها أعجبتكِ.
- أعجبتني طبعًا، ولكن من فضلكَ لا تكررها ثانية.

وبينما أجلس مكاني يجلس هو أيضًا مكانه، دون أن يرفع عينيه عني.

- ماذا نقدم لكَ؟
- شكرًا، شكرًا. شربت الشاي مع تونا خانم في الصالون أثناء انتظارك.
- كيف مر هذا الأسبوع؟
- صعب، صعب جدًا... الوقت لا يمشي بأي شكل. أرجوكِ لا تؤخري المواعيد طويلًا هكذا. فأنا أريد المجيء إلى هنا بشكل أكثر. ثمة الكثير لأخبركِ عنه.
- تفضلوا، أنا أستمع إليكم.

سماع صوته وحده كفيل بأن يشعرني بالضيق. لماذا أعامل هذا الرجل بهذه القسوة؟ أما هو فيبدأ بالحديث على الفور، وكأنه اعتاد على مواقفي هذه منذ زمن. يتحدث دائمًا وبالتفصيل عن فتوش، والأيام الجميلة التي قضياها معًا، وخدمتها إياه، وتدليكها إياه، وشغفها به. ثم يأتي الدور إلى الحديث عن ظهور فتوش في مواجهته وهو في طريقه إلى حفل الزفاف. ولكنه يتحدث عن ذلك باختصار. أعتقد أنه يصعب عليه إخباري بكيفية تعرضه للضرب على يد فتوش.

أستمع إليه دون أن أقاطعه. في بعض الأحيان يتوقف عن الكلام، وينظر في وجهي محاولًا معرفة رأيي عن الموضوع. أما أنا فأكتفي بابتسامة خفيفة في كل مرة.

لقد واجهت الكثير من الصعوبات في حياتي المهنية، ولكن ربما تكون هذه المرة هي الأصعب. أعرف كيف سيؤثر عليه أصغر خطأ أرتكبه، بل وكيف سيُدخله الفراش مدة طويلة. إنها مسؤولية كبيرة، ولكن فتوش تخطر في بالي دائمًا أثناء استماعي إليه. يخطر في بالي دموع فتوش المنهمرة من عينيها.

علاوة على ذلك، لدي رجل موهوب بشكل استثنائي في جذب النساء، ويتوقع مني أن أهتم به أكثر من الآخرين.

- ولكن لم تعد فادي موجودة. لقد ذهبت. ربما لن تعود مرة أخرى.

فادي؟ وأيّ فادي؟ أم أنه حبيب فتوش يا ترى!

- من فادي؟
- ومن تكون، إنها الظالمة التي ذهبت وتركتني.
- إنه اسم غريب. هل هو اختصار لاسم آخر؟
- يناديها الجميع بـ فتوش الآن. ألم تصبح سيدة مرموقة؟ لهذا..

عندها أفهم أن فادي هي فتوش، وأتابع.

- نعم، فادي ذهبت، وربما لن تعود أبدًا. أجد أنه من الجيد أن ترى الحقائق وتعبّر عنها. كلنا بشر. وكل شخص لديه نقاط قوة ونقاط ضعف. لقد أحزنكَ هذا الفراق وجرحكَ، ولكن الأصح دائمًا هو رؤية الحقائق وتقبّلها بدلًا من الهروب من الألم. لأنه فقط إن رأيت الحقائق وتقبّلتها ستتاح لك الفرصة لاتخاذ خطوة نحو الأمام.
- ولكنني لا أستطيع تقبل ذلك بأي شكل. فقد أتيت إلى هنا لتنقذيني من المشكلة.
- وأنا أيضًا أحاول فعل ذلك تمامًا. لقد آلمك الهجر كثيرًا. وعلاوة على ذلك، وحتى لو لم ترغب بقول ذلك، إلا أن هذه الفتاة قد شغلت مكانًا مهمًا في حياتكَ. لتسمه حبًا، أو عشقًا، أو عادةً إن أردت.
- عادة.
- هل يزعجك تسميتها حبًا أو عشقًا؟
- لا أعرف. لكنها لم تكن حالة عشق.. لو أردت أن أعشق فقد مر في حياتي الكثير قبلها. لو أردت أن أعشق لعشقتهن.
- هذا يعني أنكَ لم تعشق أبدًا.

- لطالما أحببتُ النساء، لكن اهتمامي هذا بهن سرعان ما يتلاشى. ربما يجب أن نسميها إثارة. وعندما تنتهي الإثارة لا يعود للصحبة أي معنى بالنسبة لي، فأنهي العلاقة على الفور.
- لا بد أن تكون حياتًا كهذه متعِبة. ألم تتعب؟

يفكر. على وجهه حزن شديد، وكأن الطبيب أخبره بأن حياته أوشكت على نهايتها. كل علاقة تحمل آثارًا من الماضي. لا أعرف إلى الآن ما الذي جعل هذا الرجل على ما هو عليه، لكن، أعتقد أنه من الأفضل أن أعرف شيئًا عن ماضيه.

- لم أشعر بأي تعب قبل أن تهجرني، أما الآن فإنني أشعر بالتعب لمجرد جلوسي في المنزل ودون عمل أي شيء. حتى إنني متعب جدًا.
- لا بد من وجود سبب جعلك تتأثر برحيل هذه المرأة على الرغم من مرورك بكثير من العلاقات. هل فكرت بذلك من قبل؟
- لم أكن أفكر بشيء غير فادي.
- هل ربما كان شعور الشوق والغضب هذا تجاه فادي يحميك من أفكار أكثر خطورة؟
- ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من ذلك؟
- ألا تشعر بالغرابة من معاناتك كثيرًا بسبب الانفصال عن امرأة لا تشعر بشغف كبير تجاهها، وخاصة بعد كل هذا الكم من النساء؟
- أشعر. حتى إنني أقول لنفسي أحيانًا "أنت لستَ ذلك الرجل الذي يصيبه شيء كهذا" ولكن ذلك لا ينفع. فأفكر مجددًا بفادي، وقلبي يشتعل حرقًا. إنه حريق كبير لدرجة أن الإنسان يعاني منه فقط عندما يفقد طفله.

يا له من تشبيه غريب! إنني أعرف بأنه لا يملك أطفالًا، ولكنه لا يعرف أنني أعرف ذلك. يبدو أن الألم بداخله شديد.

- هل لديك أطفال يا كنان بيك؟
- لا. حدث ذلك مرة واحدة، ولم يعش. هل تفهمينني؟

- أفهم ما تعاني منه أكثر مما تقوله. أي إنني مدركة لحجم المعاناة التي تشعر بها.
- النساء يفهمنني. أنتن فيكن الجمال والإثارة والمعاناة.

يؤكد مرة أخرى بأنه لم ينسَ بأنني امرأة من خلال إشراكي بالأمر.

- ولكن مع ذلك، فمن الجيد أنكن موجودات! فلن يكون العيش ممكنًا دونكن. لا أعرف شيئًا عن الآخرين، لكن لطالما كانت المرأة هي من تعطي لحياتي معنى. ألم تعيشي مثل هذه العلاقات؟
- أنا؟ لا أعتقد أن للموضوع علاقة بي.
- أعرف، إنك طبيبة، ولكن هذا لا يغير من حقيقة أنكِ امرأة.. كنت أتمنى لو التقينا في مكان آخر في الحياة وليس هنا. كم ستكون الحياة رائعة.

ولوهلة، لا أعرف ما أقول. إنه أول رجل يملك الشجاعة لقول هذا لشخص مثلي قريب من الناس من جهة، ويضع حدودًا بينه وبينهم من جهة أخرى. إنه يفعل ذلك كما لو كان شيئًا سهلًا وطبيعيًا. فرغم كل شيء هو محترف للغاية في هذا المجال.

كان من الممكن لإجابتي أن تكون أكثر وضوحًا لو لم أعرف إلى أي مدى ستؤذيه كلماتي، لكن غضبي وكوني متخصصة في الصحة النفسية يغيّران من طبيعة الأمر. يجب عليّ الآن أن أكون قادرة على إيقاف موقفه الغزلي هذا، وعدم إيذائه عند قيامي بذلك. إنه خبير في النساء، وأنا أجيد الطب النفسي.

- حياتك مليئة بأمثلة كهذه، لكن يمكننا اليوم استخدام هذا المثال لفهم مشكلتك. إنك تحب العلاقات المثيرة والقصيرة. وقد أصبحت تقريبًا المغزى الوحيد لوجودك. لطالما كان منح الحياة معنى واحدًا فقط أمرًا خطيرًا. إنك من أولئك الذين يدركون تمامًا مدى خطورة ذلك. أليس هذا هو سبب شعورك بألم شديد؟ هل فكرت من قبل لماذا فعلت ذلك؟
- ماذا؟ هل تقصدين العلاقات مع النساء؟

- نعم، أنا أتحدث عن العلاقات التي تبدأ بسرعة وتنتهي بسرعة. إن أمضى الرجل حياته كلها هكذا، فأنا أعتقد بأن هنالك مشكلة مهمة وراء ذلك. حتى إنني في بعض الأحيان أشبهك بالبدانة التي لا يكف حاملها عن تناول الأكل.

يطلق ضحكة مبهجة. إن الضحك يليق بهذا الرجل، حتى إنه يضحك بشكل جميل جدًا. تخطر فتوش في بالي مرة أخرى، فتوش التي كانت تتوق في طفولتها لرجل ضاحك.. ربما يكون ضحكه هذا هو أحد الأسباب المهمة في انجذاب فتوش نحو هذا الرجل إنها محقة، فضحكه لطيف جدًا على الأذن.

- إذن تُشبّهينني بشخص سينفجر من البدانة. لكنك مخطئة. لم أكن أبدًا بدينًا في حياتي. بل على العكس، أهتم بوزني دائمًا.
- لا تطلب مني أن أصدق أنك لا تفهم ما أقوله. يبدو أن هذه المواضيع تزعجك في الوقت الحالي.
- ثم كيف عرفتِ بأن علاقتنا ستستمر لفترة قصيرة؟ ربما يُسرّ كلانا كثيرًا، فتستمر العلاقة لفترة طويلة، وطويلة جدًا.
- لقد خرجتَ للتو من علاقة استمرت لفترة طويلة جدًا، وأنت أفضل من يعرف الألم الذي عانيت منه.
- هل يمكن أن تتركيني أنت أيضًا؟

لا يتراجع. يواصل التركيز عليّ. يعتقد بأن إقامة علاقة معي ستُشفي جراحه التي تنزف. أُدرك بأنني لست أنا شخصيًا من يهمه. فهو سيقترب من أي امرأة جالسة على هذا الكرسي بهذه الطريقة. في البداية سيجذب انتباه المرأة، ثم يرى مدى إعجابها وعمق غرامها به، وبعد أن يقيما عدة مغامرات يبحر باحثًا عن إثارة جديدة. هذه هي الأشياء التي يمكنني رؤيتها في الوقت الحالي في نقوش قدَر كنان بيك. إن كنان بيك يبحث عن السعادة هنا. فنقوشه نقوشٌ تتكرر دون أي تغيير..

هو، من ناحية، يدرك بأنه جاء إلى هنا بحثًا عن علاج لمشكلته، ومن ناحية أخرى لا يستطيع التخلي عن عاداته. يخطر في بالي قصة العقرب الذي حاول العبور إلى الضفة الأخرى وهو على ظهر ضفدع.

- يخطر في بالي حكاية. هل تود سماعها؟
- طبعًا، بكل سرور.
- في أحد الأيام طلب عقرب من ضفدع المساعدة لعبور نهر للطرف الآخر. يسأله الضفدع: "ماذا لو لسعتني؟" فيقول العقرب: "ولكن عندها سنغرق كلانا في الماء. هل يعقل أن أفعل ذلك؟" عندما يصلان منتصف الماء يلدغ العقرب الضفدع ويُفرغ كل سمومه فيه. وقبل أن يغرق الضفدع يسأل العقرب: "لقد قلتَ بأنك لن تلدغني. انظر لما فعلته، سنموت كلانا الآن". فيقول العقرب: "وماذا أفعل، إنه طبعي."

يُطلق واحدة أخرى من ضحكاته المشهورة. ربما يستخدم ذلك كوسيلة للتهرب من الموضوع.

- هكذا إذن... يبدو أنني العقرب هنا. لا يا عزيزتي، أنا لست شخصًا سيئًا. لست سيئًا ولا غبيًا. أنا فقط عاطفي قليلًا. هذا كل شيء.
- نعم عاطفي ولا تتخلى عن عاداتك بسهولة. لدى كل منا عاداته، وهذه العادات مع الوقت تشكل شخصيتنا. في معظم الأحيان، نقبل هذا باعتباره الحقيقة الوحيدة في العالم، ونفكر بهذه الطريقة. ولكنك الآن بحاجة إلى إعادة النظر في عاداتك هذه.
- أي عادات تتحدثين عنها؟
- إذا ألقينا نظرة على ماضيكَ بناء على ما أخبرتني به، فأرى أنك تحب القيام بغزوات جديدة. وإنك تقوم بهذه الغزوات من خلال النساء. في البداية ستحبك المرأة، وعندها ستشعر بأنك جالس إلى مأدبة رائعة، وستأكل الطعام بسرور، ولكن بعد فترة ستشعر بالجوع مرة أخرى.

وعندها ستبحث عن موائد جديدة. والأسوأ من ذلك كله أنك لا تعرف أين تتوقف، لأنك ترى جميع النساء مرشحات لملء هذه الحلقة الفارغة.

أتوقف عن الكلام للحظة راغبة برؤية ردة فعله. يميل رأسه للأمام قليلًا بينما يتحول وجهه إلى اللون الوردي.

- أنا لا أقول ذلك لأزعجك، ولكن مثل قصة العقرب التي قصصتها قبل قليل، فقد تكلفنا عاداتنا أحيانًا غاليًا. أنت جائع مرة أخرى، وتبحث عن ملذات مختلفة لنفسك. بطريقة أو بأخرى فقد تمكنت من العيش بهذا الشكل، أما بالنسبة للمستقبل فأتمنى أن تتمكن من تغيير هذا السيناريو بدلًا من تمثيل نفس السيناريو مرارًا وتكرارًا في حياتك.

يسكت. آمل أن يفهم ما أعنيه.

- يجب أن يكون كل هذا الألم الذي عانيت منه قادرًا على تغييرك الآن. يجب عليك مراجعة حياتك مرة أخرى، ومعرفة أين ولماذا أخطأت، والأسباب التي أوصلتك إلى هذه النقطة. إنني هنا لمساعدتك في هذه الأمور. أنتظرك مجددًا الأسبوع المقبل. ولا انقطاع عن الدواء.
- إذن سأنتظر أسبوعًا آخر مجددًا. حسن، شكرًا على كل شيء.

بينما كان كنان بيك يصافحني مودعًا إياي عند الباب، ينظر هذه المرة نحو الغرفة وليس في عينيّ، وكأنه نسي شيئًا ما...

(16)

خرج كنان هذه المرة من عند الطبيبة وهو مستاء جدًا. لقد حذرته المرأة بأدب. هذا يعني أنه كان مخطئًا. كان يقول "ربما ليست لحوم كل الطيور صالحة للأكل".. مع أنه في الماضي، كان يتغلب على هذا الأمر بوسيلة ما.

ثم يخطر في باله كلام الطبيبة. كانت تقول "غيّر السيناريو". فهو لو غيّر السيناريو لا يعرف بماذا يستبدله. كما أنه وبعد أن عاش على هذا النحو لسنوات طويلة، فهل سيسحب نفسه ويذهب إلى المنزل كرجل متقاعد كبير في السنّ؟ قال في نفسه: "آه، كل هذا بسبب فادي. لو لم تذهب بهذا الشكل، لكنت أواصل حياتي من حيث توقفت، كما في الماضي".

رغم ذلك، فقد بدا وكأن أملًا ما قد زرع فيه منذ بدء ذهابه إلى الطبيبة. فمن جهة كان يعلم بأن هذا الأمل لن يعيد فادي، ومن جهة أخرى كان يحاول التمسك بهذا الأمل مثل غصن ممتد لشخص على وشك السقوط من جرف. شعر بالضيق للحظة وهو يفكر بهذه الطريقة. كيف أفسد حياته هكذا؟ شعر بشوق لا يطاق للأيام الخوالي. لم يكن يعلم قيمة تلك الأيام! ترقبت امرأتان في آن معًا مجيئه بفارغ الصبر. أما الآن فقد تلاشى شغفُهما به مثل بالون ثُقب بإبرة.

يبدو أن سحرًا قد وقع عليه. لا يوجد تفسير آخر لهذه الحالة. من يدري أي امرأة فعلت ذلك، وجعلته على ما هو عليه؟ ربما ليست امرأة هي من سحرته، بل رجل. هل يمكن أن يكون أحد أصدقائه الذين يحسدونه. كان يخسر باستمرار حتى في القمار. اختفت فرحته السابقة وحماسه، وتحول إلى شخص عادي.

كان يخشى أن يصير شخصًا عاديًا. لو كانت أمه على قيد الحياة، لكانت وجدت طريقة ما لكسر هذا السحر. حتى إنه ذهب، ذات مرة، مع والدته إلى شيخ

يقطن في مكان بعيد. في ذلك الوقت كان كنان شابًا. قالت والدته: "يا ابني، لقد سُحرت. لنذهب ونكسره. لو كان بيد هؤلاء النساء لمزقنك. كل واحدة منهن تسحبك إلى جهة. معاذ الله، أخشى أن تتزوج فتاة لا تحبها". ثم أمسكته من ذراعه، وصحبته إلى ذلك الشيخ. قرأ الرجل ونفخ عليه. ولكسر السحر زارت أمه نوافير إسطنبول كلها، فجلبت الماء من سبع منها، وأشربت كنان. ثم إن (خديجة العمياء) التي تسكن في منطقتهم كانت تأتي إليهم باستمرار، وتسكب الرصاص على كنان حتى لا يمسه الحسد. أما الآن وبعد موت أمه، فلا يوجد من يسكب عليه الرصاص، أو يكسر له السحر.

على الرغم من أن النساء حملنه على رؤوسهن طوال الوقت، إلا أن أيًا منهن لم تحل محل أمه. لم يكن عبثًا قولهم بأنه: "لا يوجد حبيبة كالأم".. هل يمكن له أن يفاتح إسماعيل بهذا الموضوع يا ترى؟ لم يكن يريد أن يكون قريبًا منه إلى هذه الدرجة. كان عليه أن يجد شخصًا آخر. وفي النهاية خطر في باله صديق له. الأصح أنهما كانا صديقين. عندما صار كنان غنيًا افترقت طرقهما.

في اليوم التالي، ذهب إلى مكتبه باكرًا. كانت السكرتيرة مستاءة، ولكنها مع ذلك استقبلته بحماس. كانت فتاة جميلة وجذابة. عندما بدأت عملها هنا، كانت مخطوبة لشاب من الحي. ولكن خطيبها كان داهية، فعندما علم بعلاقة الفتاة مع كنان أثار ضجة صغيرة في البداية، لكنه سرعان ما انفصل عنها. اكتسبت الفتاة سُمعة سيئة في الحي، وأصبح الجميع ينظرون إليها بعين السوء. ومنذ ذلك اليوم شحب لونها، وجحظت عيناها، وصارت تتجول باكية طوال الوقت. لم يكن كنان يحب النساء الحزينات والمهمومات هكذا. ونظرًا لأنه لم يعد يأتي إلى المكتب كثيرًا في ذلك الوقت، فقد بردت علاقتهما، ولم يقترب كنان منها مرة أخرى.

اليوم كانت الفتاة تنظر في عيني كنان بإثارة، ولكن لم يكن لديه الكثير من الوقت للتعامل مع مثل هذه الأشياء في الوقت الحالي. قرص الفتاة من خدها برفق، ودخل غرفته على الفور، وبدأ يعبث بأدراج المكتب. ثم أصابته فرحة الطفل عندما

وجد دفتر الهواتف الذي يبحث عنه. اتصل بصديقه على الفور. بعد أن تبادلا الحديث قليلًا، أفصح له عن مشكلته. اهتم صديقه بالموضوع كثيرًا. وفي اليوم التالي التقيا في مكان ما، وسلكا طريق شيخٍ يعرفه صديقه جيدًا.

كان الشيخ يعيش في كوخ واسع، حيث سجادات الصوف ممدودة في كل مكان. حتى إنه ثمة على الحائط سجادتان معلقتان. كان يجلس على فرشة طويلة لها وسائد منفوخة. كان يستمع إليه باهتمام مثل طبيب وهو يمسد لحيته البيضاء. حكى للشيخ ما حدث معه بالتفصيل: كيف أن المرأة تركته فجأة، وكيف اعتادت على ألا تفارق قدميه، وكيف تحولت إلى شيطان عند رؤيته، وكيف هاجمته، وكيف لا يستطيع أن يهدأ دون رؤية هذه المرأة، وكيف ينهض من سريره في أنصاف الليالي، ويصبّح أمام منزلها. وبينما كان يحكي كل هذا، كان صديقه الذي بجانبه والشيخ لا يكفان عن قول "أووه، أووه" بصوت يسمع بصعوبة.

أدرك الشيخ على الفور بأن سحرًا قد وقع له. حتى إنهم عملوا له "سحر الشموع".[1] لم يكن من السهل كسره. لا بد أن إحدى النساء قد قامت به، لكن الأمر سيستغرق وقتًا حتى يكسره. في البداية قرأ ونفخ، ثم أشربه مياه قُرأ عليها أدعية الشفاء، وفي النهاية طلب بعضًا من القمصان الداخلية التي كان يرتديها سابقًا.

قضى كنان تلك الليلة وهو يتفحص نفسه. هل كان نفَس الشيخ قويًا يا ترى؟ كم يومًا سيستغرق اختفاء ضائقته؟ ومتى ستتصل به فادي؟

في اليوم التالي مباشرة، ودون أن تشعر هاندان بذلك، تناول قميصين من قمصانه الداخلية، وشق طريقه إلى منزل الشيخ. أخذ الشيخ قميصيه، وعمل ما يلزم، ثم أعطاه تميمة ملفوفة بقماش مشمع لونه أخضر داكن. لن ينزعها عنه بعد اليوم. وطالما واظب على ارتدائها، فإن هذه التميمة والقمصان ستحميه من كل أنواع السوء.

(1) سحر الشموع: أحد أنواع السحر، تقوم به النساء لجذب الرجال. (المترجم)

وعندما خرج كنان من عند الشيخ متجهًا نحو الملهى، كان غارقًا بالتفكير. هل كان ما يفعله صحيحًا؟ كم كان وحيدًا. كيف كان أصدقاؤه سيسخرون منه لو سمعوا ما فعله.

صحبه سميح إلى الطبيب عدة مرات، أما سامي وإيرول فقد زاراه مرة أو اثنتين عندما كان نائمًا في غرفة الطوارئ. هذا كل شيء. حتى إنهم كانوا سعداء بانفصاله عن فادي، ولم يستطع أن يشرح لأي أحد منهم مدى اشتعال النار في داخله. لم يكن من الواضح ما ستفعله الطبيبة. ومع ذلك فقد كان إفصاحه لها عما يشعر به يريحه ولو قليلًا. كان موعده في المساء، وكان سيغادر الملهى باكرًا ويتجه إلى الطبيبة.

مر الوقت بسرعة، وكان المساء قد حلّ. أتى كنان إلى باب العيادة، وكان متحمسًا مرة أخرى. شعر ببعض الارتياح عند تذكره ما تم الحديث عنه في الجلسة الأخيرة. لذلك كان عليه أن يكون أكثر حذرًا أثناء حديثه مع الطبيبة.

لقد تعب كثيرًا منذ الصباح بسبب ذهابه إلى الشيخ أولًا، ثم إلى الملهى. وعلى الفور طلبت له تونا قهوة سادة. في الحقيقة كان عادة يشرب القهوة السادة بعد أن يثمل، ولكن بعد هذا التعب كانت القهوة جيدة. في الملهى شرب الآخرون عدة أقداح. ولأنه سيزور الطبيبة فلم يأخذ أي رشفة. حتى إن أصدقاءه شكّوا بالأمر وقالوا له: "إنك تخبئ شيئًا ما مجددًا". هكذا كان أصدقاؤه، يتعقبونه كما لو أنه ثعلب، ويبحثون عن المكر في كل حركة يفعلها.

من مذكرات طبيبة

مرة أخرى جاء دور كنان بيك.. أتوقع تغييرًا جادًا في موقفه الغزلي تجاهي اليوم. يا للعجب! فرغم بلوغه هذا العمر، فهو يعتقد بأن الطريقة الوحيدة لإقامة علاقة مع النساء هي مغازلتهن. على الرغم من مقاومة كنان بيك، إلا أن الحياة تبدو لي مصممة على تعليمه شيئًا جديدًا. وبما أن تخلي فتاة عنه آلمه كثيرًا فربما لم تكن فتوش هي من تخلت عنه، بل الحياة! إنه يبكي على موته الوشيك وليس على فتوش.

بالنسبة للنساء، أعتقد أن ظَفَرَهن بإعجاب رجل مثل كنان بيك، وتفضيله لهن، يمنحهنّ متعة كبيرة. كما يداعب ذلك كبرياءهن وثقتهن بأنفسهن. في الواقع، إن كنان بيك يُعرّف نفسه من خلال النساء. هذا الرجل الذي يطير إلى السماء بوجود النساء، يشعر بالامحاء في حال غيابهن. قلة تفضيله، والاهتمام به، وخاصة التخلي عنه، يمنحه ألمًا مميتًا.

في هذه الحالة، يعتقد بأن العلاقة التي سيقيمها مع أكثر امرأة غير مناسبة له ستشعره بالراحة وتساعده على الخروج من الحفرة التي يعيش فيها. بالإضافة إلى ذلك فإن المخاطرة في العلاقة دائمًا ما تزيد من قوة تلك العلاقة وجاذبيتها. لهذا السبب يجدني جذابة. يراني حلًا للحالة الواقع فيها. يخيل إليه أن يعود كنان القديم من جديد بعلاقته معي؛ كنان القديم الموهوب، الذي لا يُقهر، الناجح، الذي لا يمكن لامرأة أن تقول له "لا"، الذي يمكن أن يُغري حتى طبيبة نفسية!

بغض النظر عن كل هذا، فهنالك الشعور بالذنب، وهو الأهم في اعتقادي! سيكون من المؤسف لكنان بيك أن يستسلم لتلك المشاعر المتراكمة على مر السنين، والتي جعلته يشعر بكيانه من حين لآخر، حتى لو تجاهلها.

أثناء تفكيري في ذلك، يُقرع الباب ويدخل كنان بيك. إنه يبدو منفعلًا اليوم. يشبه الطلاب الذين يدخلون امتحانًا شفويًا. كما أنه يبدو متعبًا جدًا! لماذا يا ترى؟

ينحني قليلًا ويصافحني باحترام. يبتسم أحدنا للآخر. بعد أن اتخذ مكانه المعتاد، يتحقق من جلوسي في مكاني أيضًا. ثم، بصوت ناعم، يسألني عن حالي كما لو كنا صديقين لم يلتقيا منذ فترة طويلة. إنه متوتر حتى عند قيامه بهذا الفعل.

بعد ذلك يخبرني بأنه يتناول أدويته بانتظام، وينام بشكل أفضل في الليل. كما يحاول أن يبدو جيدًا بالنسبة لي. فهدفه كان مكافأتي بقوله إن الأدوية التي وصفتها له جيدة جدًا، ولكنني ما زلت ألاحظ أنه لا يبدو جيدًا بتاتًا.

ومن ناحية أخرى، كان يتفحصني جيدًا دون أن يُشعرني بذلك. أتفحصه أنا أيضًا وأستمع له مبتسمة. حقيقة أنه وجّه كل اهتمامه إليّ بدلًا من معالجة مشاكله الخاصة، هذا يجعلني غير مرتاحة قليلًا من ناحية، كما يجعلني أفكر بأسباب ذلك من ناحية أخرى.

في الواقع، إنه يحتاج إلى طبيبة تُظهر له العطف في الوقت الحالي، إنه جائع للحب، والدعم، والتفاهم، والثناء في بعض الأحيان، والتقدير أيضًا.. إنني أفعل ذلك مع مرضاي الآخرين، ولكنني لا أستطيع فعل ذلك معه لأنني إن أظهرت له، بعض التعاطف، ولو قليلًا، فلن يكفيه ذلك، وسيتخطى حدوده.

- كيف مر هذا الأسبوع؟
- بانتظار هذا اليوم على الدوام.
- حسنًا، أنت هنا، وأنا أستمع إليك.
- في الحقيقة لا أعرف ماذا أحكي، ولكن مجرد المجيء إلى هنا هو أمل بالنسبة إليّ. فادي لا تتصل أو تسأل. وأنا مستمر بإرسال الرسائل إليها، ولكنها لا تجيب نهائيًا. إنها ليست في المنزل أيضًا. في الواقع أملك رغبة لمعرفة ما تفعله من جهة، كما أنني خائف من ذلك من جهة أخرى. الآن وعلى الأقل لدي أمل.
- ولكن هذا الأمل يؤذيك.
- لا، لا. اتركي هذا الأمل حيًا معي. فإنني أقف على قدميّ بفضله.

- لقد حزنت بما فيه الكفاية. إن استمر هذا الأمل فلن يتلاشى حزنك. يمكنك قتل هذا الأمل الذي في داخلك، وبدء الحياة من جديد.
- لا تفعلي ذلك أيتها الطبيبة. افهميني ولو قليلًا. إنني أحترق من الداخل. كلما فكرت بأنها لن تعود، أشعر وكأن قلبي سينفجر. لا أستطيع تحمل ذلك.

بينما يحني كنان بيك رأسه إلى الأمام قليلًا وهو يقول ذلك، يُذهلني رؤية الدموع المتراكمة في عينيه. لم أكن أتوقع ذلك في الحقيقة. يبدو أن الحقائق تخيفه كثيرًا. لا يجب عليّ أن أضغط عليه كثيرًا.

ثم يتابع الكلام بصوت خفيض وكأنه يتمتم.

- حتى إن زوجتي في المنزل تنظر إليّ نظرة مختلفة.
- ماذا تقصد؟
- لم تعد تنظر في عينيّ كما في السابق. لم تعد تُسرّ لعودتي. بل تفعل فقط ما هو واجب عليها. لا شغف أو إثارة، بل كل شيء سطحي. إنني رجل الحب يا سيدتي الطبيبة! لا أستطيع العيش دون حب.

يقول بأنه رجل الحب، ولا يعرف شيئًا عن الحب. حتى إنه لا يعرف هذا الشعور نهائيًا، ولكنني مع ذلك أعرف ماذا يقصد. يريد من النساء أن يقعن في حبه. لا يهم من تكون المرأة. وعلاوة على ذلك فلا بأس إن كانت جميلة قليلًا، ومرموقة قليلًا، أيضًا.

كلّما فهمته أكثر تتغير مشاعري تجاهه. لا أعتقد بأنني غاضبة منه كما في السابق. وكل ما قاله موجود في طينته، فهذه هي حالته الطبيعية، وفوق ذلك هو يرى كل هذه الأمور على أنها أكثر الأشياء طبيعية في العالم. إنه شيء أشبه برؤية الأشخاص المصابين بعمى الألوان اللونَ الأخضرَ أحمرَ.

في الحقيقة، لقد عاش حياة ناقصة! فهو لا يعرف نكهة أن يكون عاشقًا لشخص ما.

إنه يحدّق بي وعيناه مفتوحتان على مصراعيهما. أقول في نفسي: "أتمنى ألا يفعل ذلك ويخرب نفسه وهو في أمس الحاجة إلى العطف والألفة". بينما يعيش أحزانه ومخاوفه في هذه الغرفة، فهو في نفس الوقت يفعل ما اعتاد عليه. في الواقع هو أيضًا مثل فادي، لا يملك شيئًا خاصًا به. يأخذ كل شيء من الخارج. ألم يُهزم هذا الرجل أو يواجه عقبة في حياته؟ هل عانى من قبل، أم أن ألمه كان عرضيًا؟ كيف يمكن للإنسان أن ينمو وينضج في مثل هذه الحياة المستقيمة الخالية من العوائق، والألم، والحزن؟

- لقد زرت شيخًا هذا الأسبوع. يقول بأن سحرًا وقع عليّ. حتى إنه كتب لي تميمة.
- تميمة؟ هل تصدق مثل هذه الأشياء؟
- لم أكن أصدق في السابق، ولكن، يقولون إن الغريق يتمسك بأفعى.
- إنك تبحث عن مخرج.
- نعم، نعم. أشعر وكأنني محاصر. كما لو أنني في زنزانة ضيقة. والجدران من حولي. لو لم تقبض علينا فادي في تلك الليلة، لكنا نعيش شيئًا مختلفًا تمامًا الآن.
- لا شيء في الحياة هو مجرد صدفة يا كنان بيك. لو تتمكن من رؤية الأحداث بعمق أكبر! إن هذه النهاية تنتظرك بأية حال. في تلك الليلة أو في ليلة أخرى. لا تستطيع أن تُسمّي ذلك حظًا أو مصادفة. أعتقد أنه ليس خيارًا جيدًا الهروب من المشكلة بدلًا من معالجتها. لا يمكن حل هذا الأمر عن طريق السحرة والعرّافين. ألا ترى أن الحياة تقول لك: "يكفي هذا؟ توقف!". تقول أيضًا: "تغيّر، تعلم رؤية الحياة من نافذة أخرى". كما أنها تقول: "ثمة أشياء عليك أن تُدركها". أتمنى لو تستطيع سماع صوت الحياة..

ينظر في وجهي وكأنه يتساءل عمّا أقوله. عندما يأتي دور الحديث حول الحقائق يفعل ذلك دائمًا.

- أليست تلك المرأة مذنبة؟ تلك المرأة التي تركتني وغادرت بعد كل هذه السنوات؟

يا له من شيء غريب. فقد سألتني فتوش نفس السؤال. قالت لي: "أليس ذلك الرجل مذنبًا؟"

- ما يجب القيام به ليس البحث عن مذنب الآن، بل الاتعاظ مما حدث. إن استمريت بفعل نفس الأشياء، فإن كل الطرق ستوصلك إلى نفس النقطة.
- ليس لي ذنب في هذا الأمر على الإطلاق. كانت تعلم بأنني رجل متزوج منذ البداية. لم أجعلها تشعر بوجود النساء الأخريات. في الواقع لو كان أحد غيري لقُبض عليه متلبسًا، ولكن رغم كل شيء فأنا خبير في هذا الموضوع.

انظروا لما يفاخر به! لا أستطيع أن أتمالك نفسي أكثر وأبدأ بالضحك.

- أبارك لك يا كنان بيك. إن هذا نجاح عظيم بالفعل!
- إنكِ تضحكين ولكنني أقول الحقيقة. ثم إنها ذهبت، فماذا حدث؟ لقد دُمّرنا كلانا. من يعلم الآن ما هي حالتها؟ لا يستطيع أحد أن يحل مكاني. وهي تدرك ذلك أيضًا. دمرت كل شيء بسبب عنادها. إنني شخص محظوظ، ولكن في هذه الفترة تراجع حظي. برأيكم ماذا عليّ أن أفعل حتى يعود حظي؟

لا يمكن أن يكون هذا الرجل قد حصل على كل هذه الأشياء بمجرد الحظ. في الحقيقة لو عاد كنان القديم الذي طالما أراده، ولم يكن خائفًا بهذا القدر من فقدان النساء اللواتي يدخلن حياته، ولم يقدم كل هذه التنازلات، ولم يكن خائفًا من المخاطرة، لما حدث كل هذا. يمكنه فعل ذلك فقط عن طريق المخاطرة، لذلك وجب عليه أن يكون على استعداد للخسارة... ولكن لم يبقَ فيه أي شجاعة أو ثقة بالنفس. إنه الآن مدمّر لسبب لم أستطع معرفته بعد، أو ربما أشك فيه. لو تمكنا على الأقل من رؤية ذلك، ووجدنا أسباب ذلك معًا، لربما أمكننا إيجاد حلول جديدة وأكثر ملاءمة.

- إن كنان القديم يخاف من المخاطرة والخسارة.
- ولكنني الآن خائف.
- إن الفرق الأساسي هنا. يمكن للآلام التي يعاني منها الإنسان أحيانًا أن تطوره وتقويه. أنتم أيضًا عانيتم كثيرًا. لو تستطيع المحاولة برؤية الحقائق بدلًا من الهروب منها.

عندما يصل الكلام إلى هذه النقطة، يسكت مجددًا. هذه المرة يهرب من الموضوع بالصمت. كم يُتعبني هذا الرجل!

الفرق بين الحيوانات والإنسان هو التحكم بأفكارهم. والحال أن الحيوانات تفعل ما تخبرها به الطبيعة الأم. على سبيل المثال، لا يستطيع الطائر الذي حان وقت هجرته أن يقول: "لا أريد الرحيل هذه المرة". أي إنه لا يستطيع اتخاذ قرار بمفرده، بل يترك نفسه للحياة. هذا الرجل لا يريد الهجرة هذه المرة، حتى إنه يصرخ قائلًا: أوقفوا الفصول، لا أريد أن أغادر.

- بالنسبة لفادي، يبدو أنني آذيتها كثيرًا. كلما غضبت مني كانت تقول: "ليحلّ عليك البلاء إن شاء الله". هل يُستجاب دعاؤها هذا يا ترى؟
- لا أعرف، ما رأيك أنت في هذا؟
- انظروا لحالتي! أملك كل شيء ولكنني تعيس. هل حل عليّ البلاء برأيك؟

مشاعر الذنب تأكله كالدود. هذا شيء سيء! يبدو أن الوقت قد حان لأكون الطبيبة التي يريدها تمامًا.

- لا يا عزيزي، وأي بلاء هذا؟

وفجأة يحدق في وجهي بتمعن. وكأنه لا يصدق...

- لا تعتقدين ذلك... ما هو اعتقادك الحقيقي ذلك؟

يا للغرابة، يريد مني أن أخبره الحقيقة. عندما أخبره بالحقيقة يُسكتني. هذه المرة قلت لنفسي إنني أفعل ما يريد ولكنه مع ذلك يعترض.

- تريد الحقيقة ولو كانت مُرّة. لا تخف من الألم إلى هذه الدرجة. ربما ما زلتَ غريبًا عن هذه الأشياء، ولكن الحياة جميلة بحلوها ومرها. أدعية فادي لا تستجاب، أما أدعيتك فتستجاب.
- ولكنني لا أدعو على أحد أو ألعن أحدًا أبدًا..
- انظر كيف سجلت ما تقولُه فادي في عقلك.

ينظر في وجهي دون إبداء أي ردة فعل، ومع ذلك فإنني أعتقد بأنه لم يفهم. يغمرني الحزن لعدم قدرتي على إسماعه صوتي.

- وكما أن الإعطاء دون مقابل هو أمر مخصص لله فقط، لربما الأخذ دون مقابل هو أمر مخصص لك فقط! اجتهد قليلًا، اخطُ خطوة ولو صغيرة. أرِح ضميركَ ولو قليلًا. ستجيبكَ الحياة بالتأكيد.
- لقد اجتهدتُ كثيرًا من أجلها. انتظرتُ كثيرًا عند باب تلك المشؤومة حتى الصباح. أرسلت لها رسالة تلو الأخرى، ولكن دون إجابة.
- يبدو أنك لا تريد أن تفهمني. رغم كل ذلك فإن الأرض مستمرة بالدوران. ولا تتوقف مثلك.
- في الحقيقة لقد توقفتُ كثيرًا. أعرف ما سأفعله عندما أجد هذه المرأة.
- ماذا ستفعل؟ هل ستقتلها؟
- لِمَ لا؟
- هل تعرف مَن الذي يمكنه القتل؟ في هذه الفترة نقرأ في الجرائد الكثير حول قتل رجالٍ زوجاتهم أو حبيباتهم. بقي عند هؤلاء الرجال طلقة واحدة فقط. إنهم لا يقتلون تلك النساء لكثرة محبتهم بهن، إنهم ضعفاء، لا حول لهم ولا قوة... لقد استخدموا الطلقة الوحيدة المتبقية في أيديهم... إن خسروا تلك المرأة أيضًا فلن يعرفوا كيف يتمسكون بالحياة ويعيشون. لذا فهم خائفون... وهذا الخوف الذي بداخلهم هو ما يجعلهم قتَلة. هل ما بقي في جعبتك هو طلقة واحدة أيضًا؟

يحني رأسه إلى الأمام ويسكت. ومجددًا ثمة خوف في عينيه.

- ربما لأول مرة في حياتك تتعثر بحجر. ومع ذلك فبإمكانك تحويل ذلك إلى فرصة وإعادة تشكيل حياتك من جديد والنظر إليها من منظور جديد أيضًا. لقد تعثرت ولكنك ما زلت واقفًا.
- ما أزال واقفًا أليس كذلك؟
- نعم، ما زلت واقفًا. إن لم توقِع نفسك عمدًا، فأنت واقفٌ.
- حتى الكتب الدينية تعِد الإنسان عند موته بجنة مليئة بالحور العين الجميلات. وأي رجل لا يريد أن يختبر هذه الجنة قبل الذهاب إليها؟ من يقول لا أريد فهو إما فاشل، أو لا يملك نقودًا. وأسوأ هؤلاء الرجال من هو مفتون بزوجته، ومن يخاف منها. إنني أغضب من هذا النوع. ثم إن مثل هؤلاء يحاولون ذمّنا.
- هل هذا هو رأيك بكافة الرجال الذين لا يخونون زوجاتهم أو حبيباتهم؟
- عزيزتي الطبيبة، هذا من طبيعة الأمر. لا أعرف بما تفكرين فيه الآن، ولكن الحقيقة هي كذلك تمامًا. زوجة واحدة وإلى ما هنالك، كلها مجرد ترهات! من فضلك لا تنخدعي بالهراء حول إنشاء حياة منتظمة. إنني أحكي لكِ كل شيء بإخلاص. ثم إن هنالك شيء وهو أنكِ طبيبة نفسية، والرجال عامة لا يخبرون المرأة بمثل هذه الأشياء حتى لو كانت طبيبة نفسية.

أقول لنفسي "هذا صحيح". لا يريدون إخبار النساء بكل هذه الأشياء إلا إن كانوا مجبرين على ذلك. ربما كان هذا الرجل يتفاخر بكل هذا.

- إن كان كذلك، فلماذا تحكي أنتَ؟
- بما أنني جئت إلى هنا من تلقاء نفسي، ألا يجب عليّ أن أحكي كل شيء؟
- يبدو لي بأنكَ تتفاخر بهذا الجانب منكَ.

- بالطبع سأتفاخر. أنا أخبركِ بأشياء يحلم الكثير من الرجال بفعلها ولكن لا يمكنهم ذلك. ثم إن مثل هذه الأمور تُعتبر مصدر فخر بالنسبة للرجال. نحكي ذلك لبعضنا ونضحك.
- ولماذا الضحك؟
- يمكنكِ تشبيه ذلك بالأطفال الذين يتفاخرون بما يشاغبون به سرًا عن آبائهم وأمهاتهم. أليس أكثر ما يحبه الأطفال هو عمل الأشياء التي تغضب أبويهم والتفاخر بإخبار أصدقائهم عنها؟
- ربما كان في الأمر شيء من إثبات الذات!
- ممكن. فأكبر دليل على إثبات الرجل لنفسه هو هذا النوع من المشاغبة. إن انتهت هذه الأمور، هذا يعني بأنك أنت أيضًا قد انتهيت.
- من الواضح أنك تحب النساء كثيرًا، ولكنك لا تقيم معهنّ علاقة مليئة بالحب والثقة والطمأنينة. تنهض جائعًا من مائدة مفتوحة وغنية. إنك فقط تتذوق الأطعمة المعروضة. معدتك لا تشبع، وفوق ذلك فإنك تتغذى بشكل سيء. لم تعِش مع أي منهن علاقة صحيحة ومستقيمة.
- وما هي العلاقة الصحيحة والمستقيمة التي تقصدينها؟ لدي في المنزل زوجتي التي تنتظرني وتظهر لي اهتمامًا بالغًا. أما الأخريات فيثرنني. ويصبح لدي حياة جنسية مفعمة بالمتعة والحيوية. وماذا يريد الرجل أكثر من ذلك؟
- إنك لا تشاركهنّ الحياة.
- أليست هذه هي الحياة التي تقصدينها؟
- ماذا؟
- في جيبك نقودك، وفي البيت زوجتك، وفي الخارج حبيباتك. هذه هي الحياة بالنسبة لي.

يتضح أن هذا هو معنى الحياة بالنسبة له. في الواقع، إن فكرنا في الأمر بشكل حيادي، فإن ما قاله ليس كذبًا. ربما كل الرجال يرغبون بذلك لفترة مؤقتة، ولكن

هذا الوضع اكتسب الاستمرارية في حياته. قد تبدو هذه الأمور جميلة في سن المراهقة المبكرة، ولكن يبدو لي أنه من الصعب على أي رجل أن يكون واثقًا من نفسه، وأن يعطي معنى لحياته، وأن يكون سعيدًا فقط بمجرد قضائه حياته كلها بالتعرف على نساء جدد، والنوم معهن دون إقامة أية مشاعر عاطفية.

أشبهه بمقامر راهن بكل أمواله على اللون الأحمر. ثم دارت عجلة الروليت واستقرت عند اللون الأحمر مدة، ولكن الدور قد أتى الآن على اللون الأسود!

- ألم تشعر بالوحدة قبل ذلك؟
- الوحدة؟ لا أحب الوحدة أبدًا. معاذ الله، أتمنى من الله ألا أبقى وحيدًا.

إذن فهو يخاف من البقاء وحيدًا. ربما لهذا السبب يريد الكثير من النساء في حياته وليس واحدة فقط. هو يعتقد بأنه يؤمّن نفسه هكذا. ولكنه لا يعلم بأن النساء هن على اللون الأحمر دائمًا.

- إنك تحب النساء كلهن ولكنك لا تقدّرهن. لا يمكن للازدحام أن يخفف من شعور الوحدة للإنسان. ألن تشعر بتحسن كبير إن كان لديك امرأة تحبها وتشاركها الحياة؟
- كانت موجودة، كانت موجودة، ولكنها رحلت.
- هل تقصد فتوش؟
- لماذا تقولين عنها فتوش؟
- ألم يكن اسمها فتوش؟
- أنا أقول عنها فادي، وأنتِ تقولين فتوش.

الحمد لله أنني أنا الوحيدة التي أشعر بالعرق الذي يبدأ بالتسرب من رقبتي. يجب ألا يعرف نهائيًا بأنني أعرف فتوش.

- على أية حال، تقصد أنكَ كنتَ تتشارك الحياة مع فادي.
- وما أدراني، كنا نعيش على أية حال. كنت مسرورًا منها.

يدّعي بأنه مسرور!

- فادي كانت مختلفة عن الأخريات. جوهر الأمر ليس فادي أو كذا. أنتِ أعيدي لي كنان القديم فقط، كنان الذي لا يهابهن، الذي يستهزئ بهن، الذي يقول إن لم تكن هذه المرأة موجودة نختار الأخرى..

أسكت. وماذا يمكنني أن أقول مقابل هذه الكلمات؟ إنه يلحّ مثل الأطفال. تخيفه الحقائق أكثر مما كنت أعتقد. لم يعجبه سكوتي. إنه لا يحب الحزن أو السأم. يلتفت إليّ كما لو أن شيئًا جديدًا كليًا قد خطر في باله. في عينيه ثمة ابتسامة لَعوبة. كيف يمكن له أن يتغير بهذه السرعة؟

- هل أصابني الحسد يا ترى؟ هل أطلب أن ينسكب الرصاص فوقي؟

قطع أمله مني، فصار يبحث عن الحل عند السحرة والعرافين. هل يفعل ذلك لأنه يشعر بعجزه الكبير؟ أم أنه حقًا يؤمن بهذا؟ أبتسم قليلًا دون أن أقول شيئًا.

وأثناء نهوضه وهو على وشك المغادرة، يتأمل الغرفة مطولًا مرة أخرى كما لو أنه قد نسي شيئًا. أشعر وكأنني شخص أكل كثيرًا ولم يستطع هضم ما أكله. أخرج من عيادتي فورًا. وسرعان ما يبدأ المطر بالهطول. القطرات تكبر وتكبر، وتتحول إلى حبيبات متلألئة من الفضة تشع لتنير الظلام.

(17)

في ذلك الأسبوع ذهب كنان إلى الشيخ مرة أخرى، ولكنه لم يتحسن. مما يعني أن فك "سحر الشموع" لم يكن بتلك السهولة. لقد فعلت هذه المرأة السافلة هذا السحر ليتأذى كنان، ويُبتلى. ماذا لو استجيب دعاء المرأة وبقي طوال حياته يعاني، عندها ماذا سيفعل؟ كيف له أن يتحمل ذلك؟ ثم إنه لا يريد أن يموت وهو وحيد..

الواقع أنه نجا من الذهاب إلى غرف الطوارئ بعد تناوله الأدوية التي وصفتها له الطبيبة، وصار ينام في سريره ليلًا. ولا يخرج. ولم يعد يقف عند باب فادي حتى الصباح، ولكن إلى أي مدى يمكن أن يكون الدواء فعالًا؟ إن مشكلته من نوع آخر. فهو يريد استرجاع حياته السابقة. وأي دواء يمكن أن يعيد له حياته السابقة!

ورغم ذلك فقد كان يسحب الأيام التي سيذهب فيها إلى الطبيبة بالحبل. كانت الطبيبة تعامله بوصفها صديقة لا امرأة. لقد كان هذا جيدًا من ناحية، ومخيبًا للآمال من ناحية أخرى. أم أنها لم تعجبه يا ترى؟

سيكون من السهل لو استطاع استجماع شتات روحه، وأطلق ضحكاته كما في السابق، ووثق بنفسه، ولم يخف من كل شيء إلى هذه الدرجة. لو استطاع فعل ذلك لما لهث وراء تلك العاهرة فادي، ولما حزن من أجلها إلى هذه الدرجة.

كان يواصل الذهاب إلى الطبيبة بشكل منتظم. ورغم إصرار الطبيبة على إحضار زوجته معه، لكن ما من ضرورة ملحة لذلك في الوقت الحاضر. ثم ماذا ستفعل الطبيبة بتعارفها بهاندان؟ وما الداعي لذلك؟ إنه يحكي لها عنها بنفسه. كلما ذهب، يرغب بالبقاء في تلك الغرفة، ولكنه يدرك مدى انزعاج الطبيبة من ذلك، من خلال أفعالها، ولا ينجح بالخروج من هناك في حينه. عندما يحين وقت خروجه من الغرفة يشعر وكأن حملًا ثقيلًا يقع على قلبه، كما يشعر وكأن الحديث ينقطع من منتصفه، ومع ذلك كان يحاول دائمًا إيجاد موضوع جديد ومهم.

من مذكرات طبيبة

كانت الحياة تتدفق مسرعة. أتيت إلى العيادة، لم أستطِع أن أعي مدى سرعة حلول المساء. عندما آتي إلى المنزل تبدأ حياة أخرى بالنسبة إليّ. منزلي دافئ وهادئ. معرفتي أن زوجي وطفليّ ينتظرونني بفارغ الصبر تضفي على حياتي معنى كبيرًا. أريد لطفليَّ أن يكبرا بسرعة من جهة، وإنني أشعر بالقلق قليلًا، من جهة أخرى. عندما يكبران سيغادران هذا المنزل. كما فعلنا نحن تمامًا.. في ذلك الوقت ستبدأ مرحلة أخرى من الحياة. إنها في الوقت الحالي مرحلة أجهلها قليلًا، بل وأخاف من معرفتها.

لهذا السبب أحاول قضاء أكبر قدر ممكن من الوقت معهما. ندخل أنا وابنتي إلى المطبخ ونفرز الخضار ونطهو الطعام. ابنتي مهتمة جدًا بهذه الأمور. وكل منا ناجحة بشكل خاص في الشوربات التي لا نترك نوعًا من الخضروات إلا نضيفه إليها. كما أننا نحب صنع بيتزا كبيرة في فرن المنزل. أصبحت هذه البيتزا تقريبًا رمزًا ليوم الأحد. إنها لذيذة جدًا.

أما بالنسبة لابني، فهو يحب التقاط مفك البراغي وإصلاح الأشياء. لحسن الحظ فإن والده أيضًا يفهم في هذه الأمور. يجد كل أسبوع أشياء لإصلاحها في المنزل. لديه أيضًا شغف بالكومبيوتر. اشترينا له كومبيوترًا في عيد ميلاده السادس، ولكن في عيد ميلاده الثامن قال مُصرًّا: "صار قديمًا، أريد واحدًا جديدًا". ما زال عمره صغيرًا، ولكنه شغوف بالابتكارات. يا لهذه الكومبيوترات، لم نفهم سبب مدى قِصر عمرها. يبدو أنه في كل سنة يُطرح نوع جديد. وعلى أية حال لا يوجد في البيت من يفهم في لغة الكومبيوتر سوى (حسن). ومع أن يَغمور تكبره بخمس سنوات إلا أنها لا تجيد الكومبيوتر كما يجيده هو.

سيأتي كنان بيك اليوم مجددًا. ورغم إلحاحي إلا أنه لم يحضر زوجته، كما لم يتفوه بأي كلمة عن ماضيه. لا أستطيع إيجاد تفسير لصمته هذا، ولكنني، وكالعادة،

أجتهد في عدم الضغط عليه. في الحقيقة بدأت الأدوية بإظهار مفعولها، وتراجع الاكتئاب إلى حد كبير، ولكن ما يزال ثمة أشياء لم أستطع حلها. سأحاول اليوم جاهدة أن أذهب به إلى الماضي.

علاقتنا صارت أفضل مقارنة بالسابق. صار يعاملني كصديقة لا كامرأة، ولكنه لم يتراجع عن توقه لأن يعود كنان القديم.

أستقبله على الباب ضاحكة. إنه أنيق كالعادة! منذ أن عرفته وإلى الآن ما زال مستمرًا بالتعامل مع هذا الموضوع بدقة متناهية. إنه صاحب ذوق رفيع! يرتدي ملابس ذات جودة عالية وغالية الثمن، ويستعمل أكثر عطر مؤثر كل مرة. في أغلب الأحيان يحمل في يده حقيبة أوراق جلدية سوداء. ماذا يحمل في هذه الحقيبة يا ترى؟

- كيف حال حضرتكَ كنان بيك؟
- لستُ سيئًا... انخفضت مشاكلي السابقة، ولكنني لم أعد كنان القديم بعد.
- أتمنى لو أستطيع معكَ خلق كنان جديد كليًا.
- لا أريد أن أكون شخصًا عاديًا.
- هل تعلم؟ الواقع أن لا أحد يُعتبر شخصًا عاديًا. إنني أمارس هذه المهنة منذ سنوات عديدة، ولم أرَ إلى الآن أحدًا يُمكن اعتباره عاديًا. عالم كل شخص مختلف عن الآخر بشكل عجيب... تخلق الطبيعة باستمرار تحفًا فنية متجددة. أنتَ واحد من هذه التحف الفنية.

تُشعره هذه الكلمات بالراحة. تعم وجهه ابتسامة الكبرياء. كم يحتاج هذا الرجل إلى المديح والإطراء، والشعور بمدى خصوصيته.

- ولكنني لا أعرف المزيد عن هذه التحفة الفنية حتى الآن. وإنك لم تُحضِر زوجتك بعد؟
- وماذا ستفعلين بزوجتي؟ إنني أحكي لكِ كل ما يجب.
- لا يمكن أن نعتبر ذلك صحيحًا تمامًا. لم تحكِ لي نهائيًا عن أي نوع من العائلات كانت عائلتكَ، وأي نوع من النساء كانت والدتك.

- أمي؟ أمي كانت امرأة رائعة. كانت تحبني كثيرًا. لا يمكننا تسمية ذلك حبًا، بل كانت تعبدني تقريبًا. ولدتني طفلًا محظوظًا. ولدت في يوم الأحد. في إنكلترا يسمون ذلك "أطفال الأحد / Sunday Babies".[1] يُقال إن الأطفال الذين يولدون في يوم الأحد محظوظون. أما هي فلم تكن محظوظة مثلي.

وأخيرًا سيحكي شيئًا عن ماضيه. أعتقد أنه سُعد من تشبيهي له بالتحفة الفنية. ربما هو يحب الحديث عن أمه. أنتظر أن يتابع كلامه دون أن أتكلم أو اسأله شيئًا. لأن أي رد فعل مني ربما يوقفه. الأطباء السابقون الذين ذهب إليهم سألوه أيضًا عن ماضيه، ولكنه لم يحكِ شيئًا لأحد منهم. يتابع بعد أن يفكر قليلًا. يتكلم ببطء وبصوت حزين!

- عندما تعرّفا على بعضهما كان أبي متزوجًا. استمرت علاقتهما على هذه الحال مدة طويلة. لطالما رغبت أمي بأن يكون لديها طفل. يوجد في (بورصة- ضريح "تِز فيران")[2]. كانت تذهب إلى هناك وتنذر القرابين. في وقت لاحق صرنا نذهب أنا وهي باستمرار إلى ذلك الضريح. في النهاية صارت أمي حاملًا. مما اضطر أبي للزواج بها. أما تلك المرأة فلم تقبل الانفصال عن أبي بأي شكل. أعطاها أبي كل ما يملك لتقبل الانفصال عنه. كان موظفًا في أحد المصارف. أي لم يكن ثريًا. لم تقبل عائلة أبي بأمي. في الحقيقة لا أتذكر الكثير عن طفولتي. وإذا طلبتم أن أحكي عن أبي فلا أستطيع. فكل ما أعرفه هو ما حكته لي أمي.
- مع ذلك فكر قليلًا إن أردت. أحيانًا يلاعبنا دماغُنا، فيحتفظ بما لا نريد أن نتذكره في الأعماق ولكنه لا يمسح شيئًا.

---

(1) وردت في النص الأساسي باللغة الإنكليزية. (المترجم)

(2) هو ضريح الشيخ عبدالله أفندي. أحد شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية في الفترة بين (1806 م - 1807 م) وهو موجود في مدينة بورصة التركية. (المترجم)

يُقطب حاجبيه ويضع يده تحت ذقنه ويشرد. يبدو وكأنه يريد حقًا تذكر شيء ما. ثم يبدأ بالكلام وكأنه يتمتم مع نفسه.

- لطالما كان أبي عابسًا، ومتجهمًا، وبائسًا. كان يتشاجر مع والدتي دون معرفتي سببَ ذلك. وفي ذلك الوقت كان يغضب مني أنا أيضًا. كانت أمي تنتشلني من يد أبي دائمًا. كان يجلس في المساء على الأريكة الموجودة أمام النافذة ويقرأ الجريدة. ربما لم يكن يهتم بي كثيرًا.. وعندما كنت نائمًا في المستشفى كان يأتي لزيارتي. في ذلك الوقت داعب شعري على ما أذكر...

يسكت مجددًا. إذن لقد دخل المستشفى عندما كان طفلًا. ما السبب يا ترى؟ يجب أن أستمع إليه دون أن اسأله شيئًا. يطول الصمت. يزداد تقطب حاجبيه مع عمق تفكيره. أعتقد أن ما يراه في أعماق ذهنه لم يرق له.

- عندما كنت في الثانية أو الثالثة من عمري مرضت أمي. لا أذكر تلك الفترة جيدًا ولكنهم أدخلوا المرأة المسكينة المستشفى. عندما بقيت وحيدًا أخذني أبي ومكثنا عند جدتي أم أبي. إنني أذكرها جيدًا. لم تكن تشبه أمي نهائيًا. كانت امرأة عابسة، وبدينة، وبشعة. ربما كانت مثل أبي لا تحبني كثيرًا. عشنا هناك بضع سنوات. في تلك الفترة مرضتُ كثيرًا. وفي إحدى المرات أدخلوني المستشفى.

يعمّ الهدوء الطويل مجددًا. ثم وفجأة، يلتفت نحوي ويتكلم بصوت عالٍ.

- هل يجب عليّ أن أحكي لكِ هذه الأمور؟ ثم إنني لا أتذكر معظمها..

عند قوله ذلك، تتجه يده مجددًا أسفل ذقنه، ويُقطِّب حاجبيه، وتحدق عيناه في البعيد. لقد فُتح صندوق باندورا[1] وانتهى الأمر. سيحكي حتى لو لم يرغب.

---

(1) صندوق باندورا: في الميثولوجيا الإغريقية هو صندوق حُمل بواسطة باندورا يتضمن كل شرور البشرية من جشع، وغرور، وافتراء، وكذب، وحسد، ووهن، ووقاحة. وباندورا طبقًا للعقيدة اليونانية هي أول امرأة وجدت على الأرض. وقد خلقت بأمر من زيوس. (المترجم)

ربما كان إغلاق هذا الصندوق طوال سنوات مرتبطًا بما عاناه من ألم في تلك الأيام. لدى كل منا في عالمنا الداخلي صندوق مقفل كهذا ومُخبأ ينتظر اليوم الذي سيُفتح فيه. وحتى لو كان هذا الصندوق مغلقًا فإن رائحته لا تغادر أنوفنا. وعلى الرغم من عدم معرفتنا مصدر الرائحة، ولكنها تستمر بإزعاجنا.

- آه يا غول سيران خانم، آه... كانت أيامًا سيئة. وخاصة في الليل، فقد كنت أخاف وأصحو من النوم وأصرخ. في الواقع لم أكن وحيدًا في الغرفة. العديد من الأطفال كانوا نائمين مثلي على الأسِرّة الحديدية، ولكن أثناء النهار كانت أمهات الأولاد فوق رؤوسهم. أما أنا فقد كنت وحيدًا. كان أبي يمرّ كل يوم، يداعب شعري، يتكلم مع الأطباء ويذهب. كنت وحيدًا.

آه يا كنان بيك، آه. لماذا لم تحكِ كل هذا من البداية؟ من الغرابة أن تختفي أمه فجأة! يقول إنه دخل المستشفى، ويبدو أن المدة طويلة جدًا. جذور المعاناة التي تعيشها اليوم مخفية في تلك الأيام. إنني أستوعب الآن جيدًا لماذا كَسَره هجرُه من قبل امرأة، ولماذا يخاف من البقاء وحيدًا لهذه الدرجة. أتمنى لو تستطيع رؤية ذلك أنت أيضًا، ستكون حزينًا في البداية لأنك رأيت ذلك، ولكنك بعد ذلك ستولد من الرماد!

- لا أذكر كم لبثت هناك. أتذكر الأنابيب الحديدية الباردة التي كان الأطباء يُدخلونها في فمي كل يوم، والإبر المؤلمة التي كانت تحقنني إياها الممرضات في الصباح والمساء، وتَبلُّلُ سريري كل ليلة، بشكل منتظم. كنت كلما بللت سريري تغضب الممرضات مني قائلات: "إنك فتى كبير، ألا تخجل من تبليل سريرك كل ليلة؟" ربما كنت أفعل ذلك عمدًا بسبب غضبي منهن. عندما أستيقظ من نومي صارخًا كنّ يقلن: "اسكت، ستوقظ الأطفال الآخرين!" في الحقيقة كنت أعتقد بأنني نسيت معظم هذه الأمور، بيد أنني لم أنسها.

أعتقد أن هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها عن هذه الأمور. على الرغم من صعوبة إفصاح الإنسان لشخص آخر بما يخشى أن يتذكره، وسماعه بأذُنه ما يتفوه به فمه، إلا أن لها جانبًا مفيدًا أيضًا. إنها مثل الخرّاج الذي يصيب الإنسان بالمرض. فمثلما يتألم الإنسان عند فتح الخراج، فإن هذا يؤلم أيضًا.

يستمر بالحديث بصوت ناعم ومميز تمامًا. أرى في وجهه عجز طفل صغير ووحدتَه.

- في الليل، كانوا يطفئون مصابيح الجناح، فينسل إلى الداخل الضوء المتسرب من الممر فقط. وعندها ندرك أن وقت النوم قد حان، ولكن أحدًا منا لم يكن يستطيع النوم. كنا نتبادل النظر هكذا دون كلام. البعض منا لديه ضمادات، والبعض الآخر لديه مصل في ذراعه. كانت عيوننا تتجمد كأعين الموتى. في أحد تلك الليالي مات أصغرنا سنًا. لم نكن نعي، وقتئذ، ما هو الموت. في البداية أحاطوا السرير الحديدي الذي كان ينام عليه ذلك الطفل بالستائر البيضاء. اجتمع كل الأطباء والممرضات فوق رأسه. وعندها أدركنا أن شيئًا مهمًا قد حدث. ظننا بأنهم سيحقنون الطفل إبرة، وسيصرخ كثيرًا ويبكي، ولكن أي صوت لم يصدر منه. بعد قليل أتوا بنقّالة ووضعوا الطفل فوقها. ثم وضعوا فوقه شراشف بيضاء وأخذوه. في تلك الليلة بقي سريره فارغًا. تأملنا جميعًا ذلك السرير حتى الصباح. في اليوم التالي أتى مكانه طفل ضخم وبدين. ومقارنة مع ضخامته كان صوته ناعمًا، كان يبكي دائمًا. هذه المرة بدأنا جميعًا بتأمله. كلما ننظر إليه كان يبكي، وبعد ذلك يسكت. ولاحقًا لم يعد يبكي مثلنا إلا عندما يُحقن إبرة.

كم كان هذا مُحزنًا! يبدو أنه كان محقًا في خوفه الكبير من الكلام. إن دخول طفل في مثل سنه إلى المستشفى ولفترة طويلة يتسبب له بصدمة لا تُنسى طوال حياته. وعلاوة على ذلك فإن أمه لم تكن بجانبه في تلك الفترة. ربما مرض بسبب

غيابها. إن غياب الأم عن أطفالها وهم بهذا العمر يؤثر بشدة على صحتهم الجسدية. كما تشير الدراسات إلى أن الأطفال الذي يُتركون من قبل أمهاتهم، لا يمرضون فحسب، بل يتوقفون عن النمو أيضًا. أما الصدمة النفسية التي يسببها ترك الأم فلا يمكن وصفها بالكلمات.

- خلال النهار، كانت أمهات الأطفال الآخرين يجلبن إليهم الكثير من الأطعمة والمشروبات، وعندما يلاحظن عدم وجود أي أحد بجانبي، كن يعطينني منها، ولكنني لم أكن آكل شيئًا. كما أنني نحلت كثيرًا في تلك الفترة. تضاءل الخوف الذي كنت أشعر به في السابق، أصبحت مثل الأعشاب التي لا تستجيب. كنت أصرخ عندما أتألم كثيرًا فقط، وبخلاف ذلك كنت أستلقي بهدوء دون إبداء أي رد فعل. لم أكن أريد الركض واللعب أيضًا. كان أبي يحضر لي كتبًا مصورة، وأقلام تلوين. كنت قد وضعتها في الخزانة بجانب سريري ولم ألمسها نهائيًا. تحاول الممرضات إنهاضي وجعلي أسير، ولكنني أكون متعبًا جدًا لدرجة أنني أنام على الفور، وأسحب الغطاء الأبيض فوقي كما لو أنني أرغب بالاختباء تحته طالما أنهم لم يفتحوه. في أحد تلك الأيام الكابوسية حدثت معجزة.

عندما يصل بالكلام إلى هنا، يُضاء وجهه، ويتوقف عن تقطيب حاجبيه، ويوجه رأسه نحوي متابعًا كلامه.

- أتت أمي. أتت لتنقذني من ذلك المكان. بمجرد رؤيتي إياها من بعيد بدأت أبكي وأنتحب. وبينما كنا نتعانق كالمجانين من جهة، كنت أخدش أمي وأسحب شعرها من جهة أخرى. لم يستطيعوا أن يوقفوا بكائي بأي وسيلة. عندما انتهى وقت الزيارة وحان وقت ذهاب أمي صرختُ كثيرًا لدرجة أن الممرضات، ولكي أهدأ، اضطروا لحقني إبرة آلمتني كثيرًا. ومع ذلك كنتُ في تلك الليلة أنام بشكل متقطع. أتت أمي ولكنها ذهبت مجددًا. قالت بأنها ستأتي في اليوم التالي وتنقذني، ولكنني ما عدت

أصدقها. أكلت نفسي حتى الصباح وأنا أفكر "ماذا لو لم تأتي". يا لها من ليلة طويلة! في اليوم التالي أتت أمي وأخرجتني.

كان يسحب نفسًا عميقًا. وكأنه خرج من غرفة تعذيب. أي أن أمه أنقذته مجددًا. إن هذا يذكرني بأيامه الأولى من العلاج. أنقذيني... خلاصه على يد شخص ما صار رمزًا مهمًا في حياته.

- هذه المرة لم نذهب إلى منزل جدتي، بل ذهبنا إلى مكان آخر. ثم بعد ذلك أتى أبي، ولكن، على الرغم من ذلك، كان حضوره وغيابه سيان. كان يقرأ الجريدة باستمرار، وأمي تنزوي في غرفتها وتبكي، ولكن الشجار والضجيج ما كانا يحدثان في البيت كما في السابق. يخطر ببالي الآن أن أمي وأبي كانا تعيسين كثيرًا في تلك الأيام. يبدو أن سنوات حياتي الأولى مرت في ذلك البيت التعيس. ثم في أحد الأيام مرض أبي. صحبته أمي إلى المستشفى، ولم يعد بعدها.

أعتقد أن طفولته هذه انتهت بموت أبيه. يا له من أمر سيء أن تفقد والدك في هذا السن!

- كانت أمي متعلقة بي كثيرًا. لم تكن لها حياة خاصة، كنت أنا وحدي الموجود بالنسبة إليها. كان هذا الوضع يزعجني كثيرًا في طفولتي. لم أكن أستطيع الخروج إلى الشارع كالآخرين، والركض واللعب كما أريد. كانت تضع على ظهري الخرق المبللة، ولا تفتح النوافذ كيلا أبرد، ولا تُشربني الماء البارد، وإن لم آكل كانت تجلس وتبكي. نمت بجانبها حتى صرت فتى كبيرًا. والحقيقة أنني أنا أيضًا لم أكن أريد النوم بعيدًا عنها... كنت أخاف... إنها الطفولة.

تبين أن ما فكرتُ به صحيح. لم تكن علاقته مع أمه سويّة.

- لم أستطع أن أعي تمامًا سبب اختفاء والدتك فجأة. قلت لي إنك كنت طفلًا صغيرًا.

- وأنا أيضًا لا أعرف سوى ما حكته لي أمي. أدخلوها إلى بكر كوري.[1] وكانت جدتي أم أبي تقول عنها دائمًا "الكنة المجنونة". إنني الآن أفهم أمي تمامًا. مرضت المرأة المسكينة بسبب همها. ثم لم يكن لها أحد في الحياة سواي. آذاها أبي كثيرًا. لو لم تلدني لربما لم يتزوجها أبي نهائيًا. بعد أن ولدتني بعدة أشهر سجلا زواجهما بشكل رسمي. وعندما عارضت عائلتها هذا الوضع، ضاقت الدنيا بها. كانت جدتي تقول عن أمي دائمًا "قحبة". أي قحبنة رأتها من المرأة المسكينة!

يا لها من حكاية غريبة! يبدو أن مستقبلنا مخفي بالفعل في ماضينا! لو كنا قادرين على الرؤية والنظر جيدًا، لكنا قرأنا قدرنا مثل العرافين. عاش نفس الظروف، مثل أبيه تمامًا. عاش مع فتوش سنوات، مع أنه كان متزوجًا، لو حملت فتوش لكان جعلها تجهض لكيلا يضطر للزواج بها. الجانب الأكثر غرابة في هذا الأمر هو أنه أثناء حديثه عن أمه حَزِن كثيرًا، واستخدم تعبير "المرأة المسكينة" المليء بالشفقة، بينما استخدم تعبير "العاهرة" أو "القحبة" أثناء حديثه عن فتوش.

- كان عقل أبي عند زوجته القديمة دائمًا. لم أرَ تلك المرأة نهائيًا، ولكن بحسب ما حكته أمي؛ كانت امرأة قروية وقحة. كانت أمي امرأة أكثر عصرية. وكان أبي غيورًا جدًا، يعتقد بأنها تخونه مع أحد آخر.

والده بالنسبة إليه شخص غريب، حتى إنه عدو. لم يشبهه أبدًا. لم يستطع أن يتخذه قدوة، ثم إن الأم على أية حال لم تكن لتسمح بهذا. وبدلًا من أن يكون مثليًا قرر أن يصير رجلًا حتى أكثر من مجرد رجل. شخص غزلي، تعشقه النساء...

- كانت أمي هي معيلتي؛ لا تأكل بل تطعمني، لا تلبس بل تلبسني. كانت امرأة حساسة، ونظيفة. كان المنزل يلمع دائمًا. الطعام اللذيذ الذي كانت تطهوه لم أجد مثيلًا له في أي مكان آخر. والحقيقة أن فادي كانت تصنع

(1) بكر كوي: حي من أحياء إسطنبول. اشتهر بوجود أكبر وأحدث مستشفى للأمراض العقلية، وسميت المصحة بنفس اسم الحي. (المترجم)

طعامًا لذيذًا أيضًا. ومع أنها لم تكن تشبه أمي إلا أنها كانت تعتني بي مثلها. صرت رجلًا كبيرًا، ولكنني لم أكبر بعين أمي نهائيًا. كانت تصنع طعامًا أحبه، وتحضر الشاي والقهوة بصواني عليها تطريزات.

كانت أمه هي معيلته طوال الوقت. يبدو أن والده لم يكن يعيله أبدًا، أو يحميه، أو يحرسه، أو يمنحه الثقة، أو يحبه حتى.

- هل كانت تخدم أبيك بنفس الشكل؟
- لا، كانت تغضب منه.
- كم كان عمرك عندما فقدت والدك؟
- كنتُ في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمري أو شيء من هذا القبيل. ولكننا نحن الاثنين لم نحزن عليه.

يفقد والده وهو في سن المراهقة. كيف تعامل مع شعوره بالذنب هذا يا ترى؟

- أعتقد أننا حصلنا على راتب ضئيل بعد وفاة والدي. كان من الصعب أن يكفي هذا الراتب لمصروفنا. ولأننا لم نكن نستطيع دفع الإيجار كنا نبدل المنزل باستمرار. وبالتالي كانت مدرستي تتغير. في ذلك الوقت بدأت أمي بالذهاب إلى دروس تعليم الخياطة. كانت تساهم في مصروف المنزل من خلال الخياطة في المنزل. بعدما بدأت بالخياطة لم نغير المنزل نهائيًا. وبالرغم من كل شيء، فقد كبّرتني ورعتني مثل الملوك. فقد كنت طفلًا ضخمًا ومتألقًا. لم أكن أشبه والدي نهائيًا.
- كيف كان والدك؟
- كان شخصًا عاديًا.

شخصًا عاديًا! كان كنان بيك يخشى أن يصير شخصًا عاديًا.

- لقد شُبهت بأمي. كانت امرأة طويلة، وجميلة. كانت تُلبسني أنظف الثياب وأفخمها دائمًا. وحتى عندما لم نكن نملك خبزًا نأكله، كان من يرى ملابسي يشعر بأنني أعيش في قصر.

- هل كانت هي أيضًا ترتدي هكذا؟
- لم تكن تحب صرف النقود على نفسها. كان لديها طقم كحلي أنيق. ترتديه دائمًا عندما نذهب إلى مكان مهم. كانت تضع على ياقته دبوسًا ماسيًّا، وهو الشيء الوحيد المتبقي لها من أمها. عدا ذلك كانت ترتدي ألبسة قطنية بسيطة في المنزل، ولكنها مع ذلك كانت جميلة لدرجة أنها تبدو أنيقة بها.

مرت سنوات طفولته بقرب أمه. وصار رجل المنزل الصغير الذي يتلقى الاحترام والحب دائمًا.

- كانت تتحدث معي باستمرار. فعلى أية حال، لم يكن ثمة لهذه المرأة المسكينة أحد غيري يمكنها الحديث معه.
- ماذا كانت تتكلم معك؟
- كان أكثر حديثها عن مرحلة شبابها، وعن أبي أيضًا. كانت تحكي عن أحلامها واصطدامها بالواقع، وعدم اهتمام أبي بها، لم تكن تسمع كلمة جميلة واحدة منه، حتى إنها مرضت بسبب ذلك. كانت تقول إنهم رموها في زوايا المستشفيات، وأنهم نعتوها بالجنون. أعتقد أنها مرت بمرحلة اكتئاب حاد. لطالما أرادت في تلك الأيام قتل نفسها. وجودي فقط هو من ساعدها على الوقوف على قدميها.
- هل بقيت في المستشفى سنوات عديدة؟
- لا أعرف بالضبط.

أثناء قوله هذا يضطرب وجهه. ربما ثمة بعض الأشياء التي لا يعرفها عن أمه. لا أعتقد بأنه لم يفكر بذلك طيلة هذا الوقت. ومثلنا جميعًا، ثمة أمور كان يخشى معرفتها، فدفنها في أعماق نفسه، ولم يخرجها من هناك نهائيًا. كما أن إصابة أمه باكتئاب حاد، منح كنان بيك تمهيدًا وراثيًا حول هذا الأمر.

- رحيل والدتك، وما قلته لاحقًا، أثر عليك كثيرًا.

يشرد بعيدًا لفترة من الوقت. يفكر في طفولته.

- في تلك الفترة، اعتدنا على تبديل المنزل باستمرار، مما اضطرني للتكيف مع بيئة جديدة، ومدرسة جديدة، وأصدقاء جدد، وجعلني مقبولًا بالنسبة للآخرين.
- لقد منحك هذا الأمر القدرة على التواصل بسهولة مع الناس.
- ربما.. كنت من جهة أحزن من أجل أمي، ومن جهة أخرى أجد عذرًا وأهرب من المنزل حتى لا أستمع إلى أشياء محبطة منها. كانت تتملكني الرغبة للعودة إلى المنزل، والرهبة من ذلك في آن واحد.

هذا ما حدث أيضًا في مراحل حياته التالية. لم يرغب بالعودة إلى المنزل نهائيًا، وكان يجد ذريعة للتهرب من البيت دائمًا. وعلاوة على ذلك كان قد تعرف على النساء جيدًا بفضل أمه. ولأنه يعرف جيدًا ما يَتُقنَ إليه، وما يَحلُمن به، فقد تحول مع الوقت إلى رجل يجذب انتباه النساء ويُشبع رغبتهن. لطالما كان جذابًا بالنسبة لكنان بيك أسلوبُ الحياة السريع هذا والعالم الذي وجد فيه الكثير من النساء. ففي النهاية كان الرجل الذي تحلم به كل امرأة. وفوق ذلك، فقد جعله كل هذا يشعر بقيمة ذاتية كبيرة، لدرجة أنه لم يضطر للتركيز على أشياء أخرى في حياته.

- عندما بدأت الدراسة في الجامعة، فتحت صفحة جديدة في حياتي. في تلك الفترة بدأت البنات يظهرن اهتمامًا كبيرًا بي. وبفضل هذا الاهتمام بدأت استجمع شتات نفسي رويدًا رويدًا. أدركت أنني رجل ذو قيمة تُحبه النساء جميعًا، وليس والدته فقط. أسعدني هذا الوضع أكثر مما ينبغي. كانت تأتي إحدى الفتيات وتذهب الأخرى، ولكن إثارتي التي أشعر بها في البداية كانت تتلاشى بسرعة، فأبحث عن إثارة جديدة في كل مرة.

إن رغبته بالتقدير، والقبول، والإعجاب من قِبل الجميع هي ما يريد أن يشعر به باستمرار. ولكن، ومع أن القائمة مليئة، إلا أنه باعتقادي لم يستطع إثبات ذلك لنفسه حتى الآن.

- في الواقع قد تبدو لكِ كل العلاقات التي أقمتُها أنانية للغاية، ولكن أيًا منها لم تكن كذلك. لطالما كانت النساء بالنسبة لي كائنات مقدسة. إنني أُظهر لهن اهتمامًا أكثر من ذلك الذي يحلمن به، وأفعل ما بوسعي حتى أجعلهن يشعرن بنفس الإثارة معي. كنت أستمع إليهن وأفهمهن. تحتاج المرأة دائمًا من الرجل أن يفهمها ويكتشفها. وهذا ما كن يجدنه فيّ. ثم في النهاية يشعرن بأنهن ما عدن قادرات على العيش دوني، فيستسلمن لي. وعند هذه النقطة تمامًا تتغير الأمور، وأصبح راغبًا بأن أجعل امرأة أخرى تعيش نفس الشعور.

يوضح مرة أخرى بأنه لا يكتفي بالحب والقبول من امرأة واحدة فقط.

- صرت أرى أنني رجل جذّاب للغاية، ومن كل النواحي، وقد جعلني هذا أشعر بشعور جيد جدًا. النساء يقتربن مني في أكثر الأوقات. في تلك الفترة لم تكن لدي أية مشكلة، ولكنني في بعض الأحيان، ولسبب أجهله، يصعب عليّ أن أقابل تلك النساء اللواتي يفضلن البقاء بعيدًا عني. وكأن شعور الثقة بنفسي يتضاءل، ولهذا كنت أعاني من فترات اكتئاب، ولكنني في النهاية، بطريقة أو بأخرى، أجد وسيلة لإقامة علاقة مع هاته النساء، وأرتاح.

ماذا حدث لكنان بيك اليوم؟ إنه يرى ويشرح الحقائق المتعلقة به بشكل جميل. يخطر في بالي الاهتمام البالغ الذي أظهره لي في الأيام الأولى لمجيئه إلى هنا. فبينما كان يعاني من ألم التخلي عنه من قِبل امرأة، شعر بأنه سيكون من الجيد جدًا لو أقام علاقة مع امرأة أخرى، يهتم لأمرها ويطلب منها المساعدة، وأن يغويها ويعلقها بنفسه. أساسًا، هذه هي الطريقة المثلى التي عرفها منذ سنوات شبابه وإلى الآن.

يحذرنا فرويد، نحن المعالجين، من هذا، ويؤكد بأن هذا الاهتمام، في الواقع، ليس حبًا، وإنما عملية تنتقل من الأبوين إلى المعالَج. مما يعني أن هذا الرجل

الوسيم الجالس أمامي يشعر بالفراغ وعدم الثقة عند عدم وجود حب أو علاقة ما في حياته.

- في تلك الفترة ظهرت هانداي. كنا صديقين، وكانت تحافظ على المسافة بيننا، ولم تستسلم لي بأي وسيلة. حتى إنه يخطر في بالي أحيانًا أنها ستذهب وتتركني. في النهاية وبدل أن تستسلم لي، استسلمت أنا لها وتزوجنا. بالطبع تغيرت الأمور بعد الزواج. إنها زوجتي، وهي مهمة بالنسبة لي، ولكنني مع ذلك لم أكن أستطيع العيش دون فتوحات جديدة. كانت تغض نظرها عن كثير من الأشياء، وتستمر علاقتنا. هذا التسامح الذي أظهرته لي هانداي، زاد من احترامي لها أكثر. كنت أحاول أن أبقى بعيدًا عن الأمور التي تسبب لها الإزعاج. وفي اللحظة التي بدأت فيها حياتنا الزوجية تتحسن تمامًا، فقدتُ أمي.

تمتلئ عينيه بالدموع وكأن والدته ماتت بالأمس.

- عندما ماتت أمي ظننت بأن الدنيا ستنهار على رأسي. عندما مرضت أتيت بأحسن الأطباء الموجودين في تركيا، ولكن بلا فائدة. هذا ما حدث يا سيدتي الطبيبة، وبهذا الشكل تركتني أمي ورحلت.

يقول هذا بصدق وألم كبيرين. يقول تركتني ورحلت، أي هجرته. الأطفال عادة يفسرون الموت على أنه هجر. في الحقيقة من الغريب جدًا أن يفسر هذا الرجل وهو في هذا العمر، موت أمه على أنه هجر. ربما لهذا السبب تأثر كثيرًا بترك فادي له. لا يهم كم كانت أسبابها محقة في تركه، فهو لا يعد حتى الموت مبررًا.

- مررت بأول اكتئاب حاد في تلك الفترة. لا تكفي الكلمات لوصف مدى الألم الذي عانيته. لقد تغيرت أمور كثيرة في حياتي بعد أن خرجت من ذلك الاكتئاب. وحتى ذلك الوقت، كنا أنا وهانداي نتدبر أمرنا ونعيش معًا. على أية حال لا يُمكن الموت مع الميت. هي رحلت، وأخذت معها طعم الدنيا القديم، وأنا فبقيت.

يتابع كلامه بعد أن يمسح دموع عينيه بمنديل حريري أبيض اللون أخرجه من جيبه.

- في ذلك الوقت لم يفهمني أحد. كان أصدقائي يواسونني قائلين بأن عدم حدوث موت الفجأة في هذا العمر هو شيء يجب أن نشكر الله عليه. أعلم بأن ما قالوه صحيح. كان عمر أمي أربع وثمانون عندما ماتت، ولكنني مع ذلك لم أتقبل موتها بأي شكل.

بعد أن وضع المنديل بهدوء في جيبه، تابع كلامه.

- هذا ما فعلوه أيضًا بموضوع فادي. لم يفهم أحد منهم حالتي. كانوا يقولون باستمرار: "لقد طالت هذه العلاقة، اترك هذه العاهرة وشأنها".

"اترك هذه العاهرة وشأنها..." مما يعني أن الآخرين أيضًا ينعتون فتوش بالعاهرة من ورائها. يا لها من صدفة ويا له من قدر! كيف يمكن لكاتب القدر أن يهتم بكل هذه التفاصيل لهذه الدرجة؟ يحلّ عليّ الحزن. كيف لي أن أفسر كل هذا؟ وأي شخصية من شخصيات اللعبة عليّ أن ألوم؟

- بعد والدتي، أصابني شيء ما. فبدأت مجددًا بالبحث عن المواساة في النساء. لم أكن أرغب بالذهاب إلى المنزل نهائيًا، وكنت أستيقظ كل يوم في حضن امرأة مختلفة. كأنني فجأة نسيت أنني متزوج، أو أن زوجة تنتظرني في المنزل. ورغم كل شيء لم أكن أستطيع ملء حياتي، ولطالما شعرت بالفراغ. صارت العلاقات التي أقيمها أقصر من السابق، وعلى الرغم من أنني ما زلت أجد النساء جذابات، إلا أنني لم أشعر بقرب عاطفي منهن.

تلاشت ثقته واهتمامه بالنساء مع موته والدته. ربما كانت هذه طريقة لعدم خيانة الأم من خلال عدم حب امرأة أخرى سواها.

- في تلك الفترة حملت هاندان. ولم أكن في تلك الفترة أريد أن يكون لدي طفل، كما كنت أقول ذلك لهاندان باستمرار. اعتقدتُ أن الطفل يمكن أن

يربطني بالمنزل. كنا كلانا متوترين. كلما اقتربت فترة الولادة زاد توترنا. في أحد المساءات، وعندما لم يبقَ سوى ثلاثة أو أربعة أسابيع على الولادة، ارتفع ضغط هاندان كثيرًا. صحبتها فورًا إلى المستشفى، وولدت باكرًا. بقي الطفل في الحاضنة عدة أيام، ولكنه لم يحيَ. كان صبيًا يشبهني كثيرًا، ولكن لم يكن لنا نصيب به.

يخفض رأسه كالمذنب، وينظر حوله بعينين شاردتين، يبقى صامتًا لفترة.

- ثم بدأت الأيام السيئة مجددًا. ورغم عدم تفوه هاندان بأي شيء، إلا أنني أعتقد بأنها لامتني في داخلها بسبب هذه الحادثة، وأنا أيضًا لمت نفسي. لم أستطع تقبل نظرات اللوم هذه من أقرب شخص إلي، فهربت كالمعتاد.

تحدث لتوه عن كيفية هربه من والدته، على الرغم من حبه الشديد لها. إذن فإن ترك الساحة عند مواجهة أي مشكلة يُعد من العادات المهمة في حياته.

- ومجددًا، دخلت نساء جديدات في حياتي. كان يماطلني وجود الأعمال من جهة، والنساء من جهة أخرى. ولكنني مع ذلك بدأت أشعر بتعبي من هذه العلاقات التي لا تنتهي. وعلى الرغم من علمي بأنني لا أستطيع العيش دون نساء، إلا أنني لم أستطع العودة إلى المنزل، إلى هاندان، كما لم أستطع التخلي عن النساء.

في تلك السنوات، ظهرت فادي أمامي. لم يخطر في بالي ولو للحظة أن أقيم علاقة معها، ولكنها مع ذلك لم تكن تشبه بقية النساء اللواتي عرفتهن. كانت شابة، طيبة، قروية، لم تلتقِ برجل قبل ذلك قط. الأصح أنها كانت مسكينة. كنت أتقبل الاهتمام الذي أظهرته لي بشكل طبيعي جدًا، ولم يكن في نيتي أي شيء آخر. ثم، ودون معرفتي كيفية حدوث ذلك، منحتني الدفء الذي أحتاجه. ولم أكن أستصعب الذهاب إلى المنزل الذي كنا نعيش فيه سوية، وهذا شيء لم أكن أشعر به مع بقية النساء. ولكن اتصالها المستمر، المستفز، بي، كان يزعجني قليلًا. لم أكن أنا فقط من يغضب من ذلك، بل أصدقائي أيضًا، ولكنها، وفي وقت غير متوقع،

وجدت طريقة تربطني فيها بالمنزل. خلال فترة حياتنا معًا كنت في بعض الأحيان أجد طرقًا للهروب، ولكن ذلك تضاءل أكثر من السابق بكثير. كنت متعبًا ولكنني مطمئن. لو تُرِكَ الأمر لي لاستمرت هذه العلاقة إلى الأبد.

- إن كان كذلك فلماذا لم تستمر؟
- تعلمين، هي من تركتني.
- لو تزوجتَ بها، هل كانت ستتركك أيضًا؟
- لا أعتقد ذلك أبدًا. فقد كان هدفها الوحيد هو الزواج بي.
- لماذا لم تتزوجا؟
- كنا كالمتزوجين أساسًا. نادرًا ما كنت أذهب إلى البيت الذي أعيش فيه مع هاندان، ولكنني لم أتقبل فكرة أن أطلقها مرة أخرى. لم تكن تلك المرأة تستحق ذلك.
- هل يمكنني القول بأن إحساسكَ بالعدالة هو وراء ذلك، أم أن هناك أسبابًا أخرى؟
- وماذا يمكن أن يكون؟
- شعرتُ وكأنك أنتَ أيضًا لا تريد التخلي عنها.
- صحيح، فالمرأة لم تفتح فمها. ثم إن وجودها يُشعرني بالأمان. لو ذهبت لربما حزنت كثيرًا.
- هل أفصحت بذلك لهاندان خانم؟
- لا يا عزيزتي، وهل يمكن أن أتحدث بهذه الأمور؟
- ولمَ لا؟ إن عدم ذهابك إلى المنزل بانتظام قد جعلها تشك بشيء ما.
- وهل يمكن ألا تعلم؟ هي تعلم بكل شيء، ولكنها لا تلطم أي شيء في وجهي.
- بماذا تفكر الآن؟
- لو كنت على ما أنا عليه الآن لطلقت هاندان فورًا، وتزوجت بفادي.

- هل أنت متأكد؟

في البداية حاول الإجابة على الفور، لكنه يستسلم، ثم يفكر بالأمر.

- في الحقيقة لو كان الأمر بيدي، لأردت أن تستمر العلاقة كما كانت في السابق.
- أي أن تبقى المرأتان كلتاهما عندك. لماذا يا ترى؟
- لا أعلم. ربما يشعر الإنسان بأنه في مأمن أكبر بهذا الشكل. خوفي الأكبر هو أن أبقى وحيدًا.
- تحاول أن تؤمِّن نفسك.
- لم أفكر بذلك أبدًا، ولكن ربما كان صحيحًا. ربما رحيل فادي أجج المخاوف في داخلي.
- هاندان خانم بجانبك الآن. إنها ما تزال معك. هل تجاهد لعدم خسارتها؟
- وأي مجاهدة هذه! إنني من الآن فصاعدًا في المنزل، ولا أخرج إلى أي مكان. أليست هذه رغبتها منذ سنوات؟
- أهكذا؟

يفكر مجددًا. لا يصر على الكلمات النمطية اليوم.

- في الحقيقة لو سارت علاقتنا على نحو أفضل، لربما لم أضطرب بهذا الشكل. لا أعلم لماذا لم تعد تُظهر لي الألفة السابقة. في السابق، عندما كنت أمر على المنزل ولو مرة في الأسبوع، كانت تهتم بي كاهتمامها بعيونها، وتُظهر لي المحبة والعطف، وخاصة إذا بقيت في المنزل ليلًا، وكانت تتغلغل فيّ مثل قطة. والآن، وبدل أن تُسرّ لعودتي إلى المنزل، لم تعد تظهر لي ألفة كما في السابق. كما أنها فصلت الغرف.
- ربما هي من ينتظر منك الألفة.
- لست متذمرًا على الإطلاق، وأشكرها على كل شيء تفعله من أجلي، ولكن ماذا عساي أفعل أكثر؟ لا أذهب إلى أي مكان، وأبقى بجانبها

دائمًا، ولكنها هذه المرة لا تعي قيمة هذه الأشياء.

يريد أن تُعرف قيمته دائمًا، وأن يكون حل المشاكل من مسؤولية الطرف الآخر. له فلسفة حياتية غريبة ولكنها خطيرة.. ربما لا يعرف هذا الرجل كيفية إعطاء الناس شيء من تلقاء نفسه. أيمكن ألا يكون قد تعلم ذلك قط؟

- ربما لا تعطي مجالًا لنساء أخريات في حياتك هذه الأيام!
- لا أعرف ما إذا كانت النساء هن اللواتي لم يعدن يهتممن بي كما في السابق، أم أن شيئًا ما قد تغيّر فيّ. ما رأيك أنت في هذا الموضوع؟
- أعتقد بأنك أنتَ الذي تغيرت.
- ماذا تقصدين؟ هل كبرت في السن؟ أم أنني لم أعد وسيمًا كما في السابق، ما الذي تغير؟

إن تقدمه في العمر وفقدانه وسامته وجاذبيّته هو كابوسه. أعرف ذلك منذ البداية.

- لم تكبر، حضرتكَ، في السن، ثم إنكَ ما زلتَ وسيمًا.
- هل حقًا تجدينني، حضرتك، وسيمًا؟

لا يوجد في هذا السؤال موقف غزلي كما في السابق. يسأل هذا السؤال بصراحة مثل الأسئلة السابقة. وهذا يريحني أيضًا.

- نعم، ما زلت وسيمًا. لقد حكيت لي أشياء كثيرة متعلقة بك. هل تعلم؟ بعد أن حكيت لي ذلك، تعرفت إليك أكثر من جهة، وفهمت جيدًا مصدر المشاكل التي تعيشها اليوم، وأسبابها، من جهة أخرى. هل أدركت أنت أيضًا أمورًا ما في كلامك هذا؟

ومجددًا، لا يجيب فورًا. ثم، ودون أن يرفع رأسه، يجيب على سؤالي.

- ضايقني كثيرًا الحديث عن هذه الأشياء. الماضي يصيب الإنسان بالحزن دائمًا. لا أريد لتلك الأيام أن تعود. أشكركِ على اهتمامكِ. لقد منحتِني الكثير من الوقت اليوم.

وبقوله هذا ينهض على قدميه فورًا، ويصافحني بودية ولطافة، ثم يخرج من الغرفة، أي أنه يهرب كما في كل مرة. لم ينظر خلفه هذه المرة كما لو نسي شيئًا.

عندما خرج، أغلقت الباب وجلست إلى طاولتي، ثم فتحت ملف كنان بيك. أقول في نفسي: "هكذا إذن يا كنان بيك، والآن أفهمك جيدًا". بدا أن لديك قصة حزينة جدًا! إذن لقد تُركتَ من قِبل أمك الحبيبة التي اشتهرت بولعها بك وأنت ما تزال طفلًا، وحتى والدك لم يعيلك. سلموك لامرأة أخرى شعرت في رأسك الصغير هذا أنك لم تعرفها قط، أو تحبها، أو تحبك. وهل يوجد أكبر من هذا الألم وهذه الصدمة بالنسبة لطفل؟ وليس مدة شهر أو شهرين، بل بضعة سنوات لم تستطع أنت نفسك تحديدها تمامًا. إنني متأكدة من أن هذه الصدمة الكبيرة هي التي أمرضتك في تلك الأيام.

ثم إن لك أيامًا قضيتها في المستشفى. تركوك هناك وحيدًا تمامًا. حتى إنك لا تعرف كم لبثت هناك. لماذا بكيت عندما رأيت والدتك؟ هل بسبب فرحك، أم بسبب الغضب الذي تشعره تجاه والدتك التي تركتك وذهبت. وهل يمكن لك أن تثق بالنساء بعد كل هذه الأحداث؟ هل هذا السبب وراء عدم استطاعتك العيش دون نساء من جهة، وعدم نفاذ شعورك بالغضب منهن من جهة أخرى؟ هل مصدر خوفك من أن تكون وحيدًا هو بسبب الأيام التي عشتها في الماضي عندما كنت صغيرًا؟

كانت مخاوفك المختبئة في الزاوية لسنوات، والمنتظرة اليوم الذي تظهر فيه بفارغ الصبر، ترتقب فرصة سانحة. إذن هذا هو سبب تأثرك بهذا القدر من ترك فتوش لك. أنت لا شيء دون النساء، ولكن الإنسان يفهمك جيدًا عند النظر إلى ماضيك والتفكير بالأيام تلك التي قضيتها في المستشفى. والطفل في هذا العمر لا يساوي شيئًا عند غياب أمه أو من يعيله.

هل أنت خائف من أن تكون شخصًا عاديًا بسبب غضبك من والدك يا ترى؟ ألهذا السبب لطالما أردت أن تكون شخصًا خاصًا؟ ولكن ثمة جزء منك ما يزال بحاجة للنساء. لفهم سبب اعتقادك الشديد بأن المرأة ستنقذك من المكان الذي وقعت فيه، فمن الضروري معرفة ما مررت به في الماضي. لذلك لم تكن امرأة

واحدة تكفيك. ولهذا السبب ثمة دائمًا احتياطي دائم. ولهذا السبب أيضًا كنت خائفًا دائمًا من الالتزام تجاه امرأة واحدة.

وثمة أيضًا خطاياك وشعورك بالذنب التي تستعد لتطفو على سطح الماء ببطء. هذا هو أخطر ما في الأمر! بغض النظر عن مدى إنكارك ذلك، وعن بحثك المتواصل عن طريقة لتبرير نفسك، فأنت للأسف تعلم بأنك تُسبّب للنساء الكثير من الألم. إنك تخشى أن تُعاقَب يومًا ما على ذنوبك هذه، ولا تعترف بذلك حتى لنفسك. لهذا السبب أيضًا تخيفك أدعية فتوش.

والأسوأ من ذلك أن المحاكمة قد أقيمت بالفعل. كيف ستعاقب نفسك؟ هل قَبْضُ فتوش عليك في تلك الليلة فخ نصبه لك اللاوعي؟ هل تمت العقوبة حينها؟ أم أنك عاقبت نفسك بهذه الطريقة في النهاية؟

كيف أُخلّصك من نفسك؟ وبغض النظر عن ظهورك بمظهر طالب النجاة، هل تطلب مني، في الحقيقة، ألا ألمسك، وأتركك تُعَاقَب؟ هل ستعامل نفسك بقسوة، كما كنت تعامل النساء بقسوة؟

* * *

تشير الساعة التي على طاولتي إلى السادسة. كم يمر الوقت مسرعًا! القصص التي استمعت لها اليوم فقط تكفي لتكون كتابًا. كما أن المريضة التي خرجت الآن أثرت فيّ بشكل سيء. إنها راقصة باليه شابة وواعدة. حصلت أخيرًا على الدور الذي لطالما حلمت فيه. في ذلك الوقت طارت من الفرح، وعند عودتها من المطعم الذي ذهبت إليه للاحتفال بهذه المناسبة، تعرضت لحادث سير. في ذلك الحادث الصغير كُسر ساقاها. قال الأطباء: "لا يوجد خطر على حياتك، سيلتحم العظم بسرعة، ولكنك لن تستطيعي الرقص مجددًا أبدًا!" مع أن الرقص بالنسبة لها هو حياتها.

إنه موعد كنان بيك.. مرت شهور منذ حديثنا عن أمه وأبيه. أتى عدة مرات في هذه الفترة، ولكنه لم يرغب بالعودة إلى ذلك الحديث نهائيًا. كنت أود في هذه الفترة لو أتى بشكل مكثف إلى هنا. طلبت منه ذلك، وأشرت إليه عدة مرات قائلة بأنه إن أراد أن

يستفيد من المعالجة النفسية فعليه ألا يهرب منها، ولكن ذلك لم يُجْدِ. أعتقد أن حديثنا الذي جرى في ذلك اليوم كشف له عن أمور تتعلق بشخصيته لم ترق له نهائيًا. والأهم من ذلك أن العودة إلى تلك الأيام أحزنته كثيرًا. الآن يحاول جاهدًا أن ينسى، ويُنسيني ذلك اليوم الذي تحدثنا فيه من خلال المجيء خلال فترات متباعدة أكثر.

عندما يدرك أنه بحاجة إلى التغيير، ويتعين عليه بذل جهد لذلك، فإنه يفعل ما يعرفه جيدًا كما هو الحال دائمًا، أي: يهرب. في الواقع إنني أريد مساعدته أكثر من أي وقت مضى، ولكنه لا يسمح بهذا. لنر عمَّ سيحكي لي الآن.

أستقبلُه عند الباب. يدخل ضاحكًا. يبدو اليوم أفضل حالًا. أنيق ونظيف كعادته! لم يعد الآن يتكلم عن فتوش عندما يجلس. إنه يُخرجها من عقله رويدًا رويدًا. بمجرد تحول جروحه إلى رماد يجد حبيبة جديدة لنفسه. أعتقد بأن بدء دخول النساء في حياته مرة أخرى حسّن من معنوياته.

يصب الآن اهتمامه على زوجته. إنه يمتدحها كثيرًا. علامة جيدة! أظن بأنه يفعل ما لم يفعله أبدًا، ويكون أهلًا لحياته الزوجية. والحال أنه حتى لو سارت حياته الزوجية على ما يرام فستكون في حياته نساء أخريات بالتأكيد. إنه مُصرّ على ذلك.

واحدة من أهم رغباته هي أن يتباهى أمام أصدقائه كما كان في السابق. كان يبدي حرصًا على ملابسه وهندامه حتى عندما يكون مزاجه سيئًا. ربما بعد ذلك، وبفضل هذه الأمور، يحاول الوقوف على قدميه.

يتكلم ضاحكًا اليوم. إنه أحد أولئك الذين يُعبرون عن فرحهم بالضحك، ولكنني أشعر بأن ضحكاته هذه المرة ليست نابعة من قلبه. أنظر إليه بتمعن. إذا استطاع إغلاق أبواب عالمه الداخلي ولو قليلًا، فستتغير الأمور عندئذ، ويصبح رجلًا آخر تمامًا. إنه يخلق انطباعًا عن شخص يعرف ما يفعله، مبتهج، وحيوي، واجتماعي، وذكي، ومريح، وواثق من نفسه، ولديه عالم داخلي ثري. عندما يضاف إلى ذلك التفوق في المظهر الجسدي، والدقة التي يظهرها في ملابسه، يسهل على الناس، وخاصة النساء، أن يضيعوا في هذه الريح.

على الرغم من قوله إن حالته جيدة جدًا، ولكنني ما زلت أستطيع أن أرى الخوف في عينيه. أشعر وكأن القدر ينسج شباكه. تقريبًا، كل الحقائق التي كنت أحاول أن أظهرها له منذ أشهر مُسحت من ذاكرته. إنه يريد كنان القديم مجددًا، وهو يتقدم في هذا الطريق بسرعة، ولكن يبدو أن الحساب الخاطئ يعود من بغداد![1] وهو مدرك وغير مدرك بنفس الوقت بأنه يخدع نفسه.

يصعب عليّ معرفة كل هذا وعدم مشاركته معه.

***

وأخيرًا سأتعرف اليوم بهاندان خانم زوجة كنان بيك. رغم إلحاحي الشديد إلا أن كنان بيك لم يصحبها معه. ثم في النهاية حددت المرأة موعدًا بنفسها وأتت.

تدخل سيدة أنيقة للغاية في منتصف العمر. ترتدي ثوبًا أسود بسيطًا. يجعلها هذا الثوب تبدو أنحل مما هي عليه. على رقبتها عقد مؤلف من صف واحد من اللآلئ اللامعة. تبدو أنيقة بحذائها ذي الكعب المنخفض والحقيبة الصغيرة الموجودة تحت إبطها.. تمشي مرفوعة الرأس توزع نظراتها كما لو كانت ملكة. شعرها الأشقر متجمع خلف رقبتها. لدى هذه المرأة شكل أرستقراطي.

أثناء جلوسها في مكانها، تحدق فيّ بنظرات فضولية ومتيقظة. يبدو أنني أثرتُ فضول هاندان أيضًا. المرأة محقة. فعندما يكون لدى المرأة زوج كهذا، يخطر في بالها كل شيء.

بعد أن تركت حقيبتها الموضوعة تحت إبطها على الطاولة الموجودة أمامها، أجالت نظرها في الغرفة. ولأن الجو مائل إلى الظلام، فقد تركت مصابيح الطاولة مضاءة.

- كنت أنتظر قدوم حضرتكِ منذ فترة طويلة.

- عندما لم تتصلي حضرتكِ، لم أهتم..

---

(1) الحساب الخاطئ يعود من بغداد: مثل شعبي تركي يدل على أن الإصرار على الخطأ أمر غير مرحب به، وأن الخطأ سيظهر في النهاية بشكل أو بآخر. (المترجم)

- هذا يعني أن كنان بيك لم يبلغكِ!
- هو لا يقول ما لا يروق له، ولكن حالته في الفترة الأخيرة تحسنت. يتناول أدويته دون انقطاع. ظننتُ أنه وعلى أية حال، سيتخلى عن أدويته في الأيام الأولى، ولكنه لم يتركها هذه المرة. لقد أحَبّكِ.

لقد أحَبّني! لا يمكن تجاهل المعنى الكامن في هذه الكلمة. لنرى أين ستنتهي هذه المحادثة.

- كنت أظن بأن كنان بيك لا يمكن أن يحب أحدًا آخر سوى نفسه، ولكن هل من الممكن أن أكون مخطئة؟
- إنكِ محقة، لا يمكن أن يحب. ولكن مع ذلك فإنني لا ألومه. اللوم علينا لا عليه.

ماذا تقصد بقولها "علينا" يا ترى؟ هل تشير إليّ كواحدة من النساء اللواتي دخلن في حياته؟

- لقد حكى كنان عنكِ كثيرًا. سلمتِ، لقد أرحتِه كثيرًا. السنة الماضية كان وضعه سيئًا، وقد ظننته سيصبح مجنونًا في إحدى الفترات. حدث أن تحدث مع نفسه، فكنا نركض به إلى المستشفيات في أنصاف الليالي. لا يستطيع النوم في فراشه الدافئ، بل يرمي نفسه في الشوارع غير عارف صباحه من مسائه. الشكر لله أنه تغلب على كل هذا. إن كنان رجل مختلف. عقله شارد دائمًا. مرت السنوات على هذه الحال..

صوتها مفعم بالحزن. ما حجم الأحداث التي تعرفها؟ وإن كانت على دراية بكل شيء، فكيف تتحمل؟ عليّ أن أكون حذرة في حديثي مع هاندان، وألا أذكر أمامها شيئًا لا تعرفه.

- لم تسر حياتنا الزوجية تمامًا على ما يرام. لا بد من أن كنان حكى لكِ.
- أعلم. تحدث كنان بيك عن بعض الأمور. ولكن رغم كل شيء لكم مكانة خاصة عنده.

ومع أن هانـدان تأثرت بهذا الكلام، فقد رمـت نظـرات ذات مغـزى عميـق إلـى عينيّ، وهزت يدها اليمنى كأنها تقول: "دعكِ من هذا كله". تبدو امرأة حزينة.. لقـد انسجمتُ معها. بماذا كانت تفكر يا ترى أثناء مجيئها إلى هنا؟ إنها تعلم ولع زوجها بالنساء. وبغض النظر عن كوني طبيبة فأنا في النهاية امرأة. فبينمـا رفض هـو الأطباء الذكور الذين صحبوه إليهم، فهو يصر على المجيء إليّ، وأعتقد بأن هانـدان خـانم بطبيعتها تقييم الأمر من ناحية مختلفة تمامًا.

- إن كنان صديق جيد جدًا، ولكنه لـيس زوجًـا جيـدًا. لـم تغـب النسـاء عـن حياتـه. أساسًـا هـو حتـى لـو لـم يبحـث عـن النسـاء، كـن هـن يجدنـه. وهـو بـدوره لـم يرفضـهن قـط. إن هـذا صـعب جـدًا بالنسـبة للزوجـة. لقـد تمـت خيـانتي كثيـرًا لدرجـة أنني محتـارة عـن أي منهـا أحكـي لـكِ. كنـان رجـل مفعـم بالحيـاة. يحـب كـل مـا هـو حيـاتيّ. كمـا أنـه رجـل مبتهج، ثرثار، مزوح، يحب التجوال والسفر والمتعة. يستقبله الأشخاص الـذين يـذهب إلـيهم عنـد البـاب. في الحقيقـة، هـو يمتلـك كـل مـا ترغـب بـه المـرأة، ولكنهـا لا يمكـن أن تُسـر مـن الحقـائق الأخـرى الموجـودة في حياته. لا يتحمـل المسـؤولية، ولا يحـب الحـزن، والهـم، والغـم. فهـو يهرب من هذه الأجواء. إن لـم تلمسيه لا يؤذيكِ، كما يجب ألا تطلبي منه شيئًا أبدًا.

بعد أن تأخذ نفسًا، تتابع حديثها.

- إنه مولع بالمتعة، وأناني جدًا. ولكننا عنـدما افترقنـا لـم أسـتطع رؤيـة هـذه الحقائق بالكامل. كان عقلي وتفكيري ما يزالان عنـد كنـان. لـم أكـن أرى أي شـيء آخـر. ثـم تزوجنـا مـرة أخـرى، ولكـن مشـاكلنا لـم تتغيـر. نفـس الطاسة ونفس الحمام! في تلك الفترة حملـت. ولـم يرغـب كنـان الطفـل. والواقع أن لديه أسبابًا وجيهة، ولكنني أصررت على ولادتي له.

- لماذا لـم يرده؟

- كنان لا يحب المسؤولية. كان يقول: "لا يمكنني أن أنشغل بالأطفال". ورغم ذلك فقد أصررتُ على ولادة الطفل. كان في وسعي الانتظار، والتمكن من القيام بعمل كهذا بعد أن ينضج كنان قليلًا.

أعتقد بأن والد كنان، أيضًا، لم يكن يريده هو.

- في تلك الفترة بكيت وعانيت كثيرًا. ورغم ضغوط كنان كلها إلا أنني لم أكن لأتحمل إجهاض الطفل الذي في بطني، فولدته. فكرت بأنني إن ولدت الطفل فإن غضبه سيزول، وسيحبه، وربما يصبح أبًا جيدًا، ويرتبط بمنزله. ولكن اتضح أنني مخطئة.

والدة كنان أنجبته، وتحملت أن تكون أم طفل، علها تقنع الأب بالزواج منها. يبدو أن هاندان أيضًا فكرت بشيء مشابه. لم يكن عبثًا القول بأن التاريخ يعيد نفسه، ولكن فادي لم تقم بذلك. ومع أنها حملت مرتين إلا أنها أجهضت. يبدو فعل هذا طبيعيًا، باعتبار أن الطفل غير مرغوب به.

وتحكي هاندان خانم عن أحداث تلك الليلة. الشجار الذي حدث بينها وبين كنان، وذهابها إلى المستشفى على عجلة، وولادة الطفل المبكرة.

- كان كنان مهمومًا أكثر من أي وقت آخر. تلاشى غضبه، ولكنه كان على وشك البكاء بمجرد لمسة من أحد. وخاصة بعد رؤيته الطفل، فقد ساءت حالته تمامًا. كان يشبهه كثيرًا. لم ينم طوال الليل ولم يبتعد عن الطفل. كان يدعو في داخله دون أن يشعرني بذلك. تصوري رجلًا مثل كنان لا يذهب إلى المنزل ولا يغير ثيابه على مدى ثلاثة أيام. عندما ابتعد عني ظننت أنه ذهب إلى المنزل، ولكن اكتشفت بأنه كان يتجول في حديقة المستشفى حتى الصباح والسيجارة في فمه. وفي النهاية مات الطفل. وخرجنا من المستشفى بأياد فارغة.

يا لها من حكاية حزينة! بماذا كان كنان يشعر ويفكر وهو يتجول حتى الصباح مبتهلًا من أجل طفل لا يريده يا ترى؟ كيف جمع كاتبُ القدر كل

هذه التفاصيل معًا؟ ماذا أراد أن يُظهر؟ ولمن؟

في هذه الأثناء، تتساقط الدموع كالخرز من عيني هاندان الجميلة. ومن على الطاولة، آخذ عدة مناديل ورقية وأعطيها لها. تتناول المنادل وهي تهز برأسها شاكرة.

- بعد ذلك اليوم اتخذت علاقتنا لونًا آخر. لم يستطع هو أو أنا أن نغفر لبعضنا. لقد مات الطفل بسببه. هو أيضًا يعلم ذلك. نِدم كثيرًا، ولكن ماذا ينفع الندم بعد وقوع الفأس بالرأس! ولكن في النهاية، ومرة أخرى، وقع الأمر على رأسي. فأنا التي جعلته يعاني ويقع في الخطيئة. في السابق وعلى الرغم من رذالته إلا أنه كان يحبني، وكان دائمًا يجد وسيلة لكسب قلبي ومسامحتي له. بعد ابني، نأى بنفسه عني تدريجيًا. ثم إن أعماله كثرت في تلك الفترة. كان يذهب كل يوم إلى موقع عمل مختلف. لا أعرف إن كان عليه الذهاب حقًا أم أنه يجد في ذلك ذريعة للابتعاد عن المنزل.

تواصل هاندان السرد من كل قلبها.

- لقد نشأ كنان ضمن جو من الدلال الكبير. كانت أمه مولعة به.
- كيف كانت حماتكِ؟
- كانت امرأة غريبة جدًا. لم تقبل أبدًا أن تتحدث معي. ابنها هو كل شيء. لم تكن ترى شيئًا في الدنيا سواه. كانت دائمًا فخورة بكنان، تهتم لأمره كثيرًا، وتعطيه الحق في كل شيء، وتخشى أن يحزن أو يستاء. كنان أيضًا كان مولعًا بأمه. لكن ولعه كان مختلفًا. يجب أن تضحوا بحياتكم من أجله، أما هو فلن يحرك حتى إصبعه من أجلكم. هكذا، لديه فلسفة حياتية غريبة. يعود سبب ذلك جزئيًا إلى أمه. إذا كنتم تودون العيش معه، فعليكم اتباع قواعده هذه، وليس لديكم خيار آخر.
- وماذا لو لم نتّبعها؟
- يذهب دون أن يلتفت وراءه، ولا يعود أبدًا. لقد قضى حياته بهذا الشكل. كل النساء اللواتي دخلن حياته اتبعن هذه القاعدة. أنا أيضًا فعلت هذا.

- لماذا فعلتِ هذا يا هاندان خانم؟

تنظر في وجهي بتعبير يدل على ذهولها ودهشتها. يبدو أنها لم تسأل نفسها هذا السؤال حتى اليوم. تابعت الكلام بعد أن شردت بنظرها بعيدًا لبرهة، وتنهدت.

- كان الانفصال عنه يخيفني على الدوام. عندما انفصلنا لبست الأسود. اتضح أن عشق كنان كان عبارة عن خطر كبير. لقد لفّنا جميعًا سحر كنان. جازفنا بالتخلي عن أشياء كثيرة من أجل هذا السحر، ولكن مع ذلك لم ننجح.

أستمع إلى هاندان خانم مذهولة قليلًا. نعم، صحيح أنه رجل وسيم وفاخر، ولكنني لم أرَ ذلك السحر الذي تتحدث عنه.

- إنكِ لا تعرفين كنان جيدًا بعد. لقد صادفتِه في وقت هو فيه ميت. وعلاوة على ذلك فهو يُعبر لك عن مشاعره وأفكاره الحقيقية باعتبارك طبيبة. إنه مختلف جدًا من الخارج. ألا ترين ملابسه حتى في أسوأ حالاته المرضية؟ إنه يهتم جدًا بنفسه، أنيق، ومرتب. لا يخرج قط دون أن يحلق أو يرش عطرًا. حتى في غرف الطوارئ التي كنا نذهب إليها في أنصاف الليالي، تدور الطبيبات والممرضات حوله. لقد اعتدت على هذه الأمور. عند ذهابنا إلى مكان لتناول الطعام، تستدير كل رؤوس الرجال والنساء إلينا. ينظرون إليه. هو أيضًا يعي ذلك. ولهذا فإن أنفه في الهواء دائمًا. يثق بنفسه كثيرًا، ولكنه تضرر بشدة هذه المرة.

تعم وجهها ابتسامة مختلفة، أواجه صعوبة في تفسيرها.

- في شبابي، ثمة الكثير من الأشياء التي لم أهتم بها. كنت أظن أن وجود كنان بجانبي يكفيني، ولكن مع مرور الوقت، اكتشفت أن ذلك ليس بالأمر السهل نهائيًا. أرأيت رجلًا يدور برأسه في كل زاوية فيرى امرأة ترنو إليه؟ الإنسان لا يعرف كيف يعتبر مما يعيشه. عدت إليه برجليّ. كل ما فعلته كان بيدي أنا. ليس لي الحق بعد الآن أن أشتكي من أي شيء.

يلف الغرفة هدوء عميق. وأنا أيضًا لا أتكلم.

- أنا لست امرأة غبية. كان كنان يعتقد بأنني لا ألاحظ شيئًا، ولكنني كنت ألاحظ أكثر تلك الأمور. حتى إنه عندما كان يذهب ليستمع بوقته مع النساء، كان يجعلني أحضّر حقيبته. كنت أقول لنفسي "إنكِ تستحقين ذلك". كان يقبلني من خدي ويغادر وكأنه يفعل شيئًا طبيعيًا. كنت أطلّ من النافذة وأراقب مغادرته. كم كانت تملؤه البهجة والمتعة أثناء ذهابه. عندما ماتت والدته، فقط، اعتقد بأن الدنيا انهارت على رأسه.
- هل حزن كثيرًا من أجل والدته؟
- كثيرًا! لم يأكل، أو يشرب، أو ينام لأيام. كان يتجول في البيت حتى الصباح، ولكنه مع ذلك وجد المواساة في النساء. في ذلك الوقت كان يتجول كل يوم مع امرأة مختلفة. اعتدتُ مع الوقت. علمتني الحياة مرة أخرى أن هذه الحقيقة لن تتغير أبدًا طوال مدة عيشي مع كنان. آه يا غول سيران خانم، في الحقيقة لم تسأليني "وما عملكِ إلى الآن معه؟.." أشعر أحيانًا بالإذلال الشديد. في السنوات الأخيرة كان يعاملني وكأنني أمه. والآن وضعني مكان أمه التي فقدها منذ سنوات. هو سيعيش مع تلك النساء، أما أنا فسأتعامل مع هذا الأمر وكأنه أكثر أمر طبيعي في الدنيا، وسأستمر بإظهار العطف له. ولكن إن سألتموني عن الأمر، فإنني لم أعد أغضب من كنان. على أية حال اقتربنا من نهاية الطريق. لم يكن بجانبي في أكثر الأيام التي احتجته فيها. وأنا سأفعل هذا. لن أكون بجانبه في أكثر الأيام التي سيحتاجني فيها. إنه لا يسألني عن شيء، ولكنني أعتقد بأنه يشعر بذهابي عنه في داخله.

هذا شيء سيء جدًا! هل يعلم كنان حقًا بأن هاندان ستغادره؟ حتى لو قالت ذلك، فهل تملك هاندان القوة لفعل ما تقوله؟ تتركه النساء الواحدة تلو الأخرى. وفي النهاية فقد كنان قوته، وهزل.

- لماذا الآن؟ لماذا في الوقت الذي عاد فيه كنان إلى منزله؟

- أذللت نفسي كثيرًا. الآن أنا أكره كنان وأكره نفسي أيضًا. ثم إنني إنسان أيضًا. أنساني ذلك لسنوات، ولكن في النهاية عدت إلى صوابي. لقد عانيت من كل الآلام الممكنة. والآن حان دوره هو!
- أرجو ألا يكون هذا القرار قد تم اتخاذه في لحظة غضب.
- لا، إنه القرار الأصح في حياتي.
- متى اتخذتِ هذا القرار؟
- في تلك الليلة!
- أية ليلة؟
- في الليلة التي ضُرب فيها من قِبل عشيقته أمام البناء. وكأن كائنات دودية دخلت إليّ في تلك الليلة، ونهشت وَلعي به رويدًا رويدًا وأنهته.

النساء يغفرن كل شيء، ولكنهن لا يغفرن للرجل الضعيف أبدًا. يا للغرابة، فتوش أيضًا اتخذت هذا القرار في تلك الليلة. يبدو أن سحره تلاشى في تلك الليلة.

- لم تتفوهي بأي شيء عن ذاتكِ. كيف أنتِ؟
- أنا امرأة مضطهدة على الدوام. ابنة عائلة ثرية ومعروفة. كان والدي أحد قادة البلاد. كان متسلطًا. لم ينقرنا بإصبعه قط، ولكنه كان يأكلنا بنظراته. عندما توفت أمي بمرض ذات الرئة، وباعتباري الابنة الكبرى، فقد وقعت على عاتقي مسؤولية المنزل كاملًا. لي أخوان أصغر مني. في ذلك الوقت كان عمري اثنتا عشرة، وأحد أخويّ عشرًا، والآخر ثمان سنوات. لم يتزوج أبي فورًا. لا أعرف لماذا. كنا دائمًا نخشى أن تأتي زوجة الأب إلى البيت. كنا نعيش في قصر ضخم. في البيت دائمًا خادمتان أو ثلاث، ولكن تدبير المنزل وقع على عاتقي وأنا في ذلك العمر. كان أبي شخصًا متجهم الوجه، عنيدًا. يريد نظامًا في المنزل. يتم تجهيز الطعام في وقته، أثناء قراءته الجريدة لن يصدر أي صوت في المنزل، في اليوم الذي يخلع ملابسه وقمصانه يجب أن تُغسل وتُعلق في خزانته، لا يجب أن يتغير أي شيء في المنزل، وأن يبقى

نظيفًا، وهكذا... كان رجلًا صعب المراس. لم يعاملنا معاملة البشر أبدًا، لم يكن ينظر في وجوهنا حتى. وكان منزلنا لا يخلو من الضيوف.

- ماذا كان عمل والدكِ؟

- قائم مقام.[1] بعد ذلك عمل في السياسة قليلًا. لم يعِ مطلقًا أنني طفلة في ذلك العمر، كان يحاسبني على كل نقص في المنزل. استمر على هذه الحال حتى ذهابي إلى إسطنبول والدراسة في الجامعة.

- كيف كانت أمكِ؟

- أمي، آه لأمي المسكينة. أشبهها أيضًا. كان هدفها الوحيد في الحياة إسعاد أبي. كانت ابنة عائلة فقيرة. عندما تزوجت أبي أصاب السعد العائلة بأكملها. ابتهجوا كما لو أن طائر الحظ هبط على رؤوسهم. تزوج أبي بأمي لجمالها فقط. بذلت نفسها في سبيل زوجها. أما هو فلم يُعاملها معاملة البشر أبدًا، لا يعجبه أي شيء تفعله، ويستمر بلومها. كانت تعيش في قصر ضخم، الجميع يضعونها فوق رؤوسهم لأنها زوجة القائم مقام، ولكنني الآن أفكر في الأمر فأجد أن تلك المرأة لم تكن سعيدة مطلقًا.

- إذن أمكِ كانت جميلة للغاية! هل كان أبوكِ وسيمًا أيضًا؟

- لا يا عزيزتي، حتى يمكن القول عن أبي بأنه قبيح. قصير القامة، ممتلئ الجسم، ذو كرش كبير، شعره تساقط مبكرًا، أنفه طويل. تزوج مجددًا في السنة التي ذهبتُ فيها إلى إسطنبول للدراسة. وجد لنفسه امرأة شابة وجميلة تعتني به. أنفق كل ماله وهو يقول "سأدخل في السياسة". ثم مات.

- لقد فقدتِ والدتكِ باكرًا جدًا. لا بد أن الموت أرهقكِ كثيرًا وأنتِ في ذلك العمر..

---

(1) القائم مقام: تتكون كل مدينة من عدة مقاطعات تتبع لها إداريًا. يترأس كل مدينة والي (محافظ)، وينوب عنه القائم مقام في كل مقاطعة على حدة. (المترجم)

- لا تسألي. بدأت حياتي مجروحة. أساسًا لم أبتسم بعدها أبدًا. أستثني الأيام الأولى لبداية علاقتي مع كنان.. لقد أنساني كنان كل أوجاعي. يا لها من أيام!

تدير وجهها نحو النافذة من جديد، وتفكر بعيون مليئة بالحزن، كأنها تتذكر تلك الأيام.

- يتمتع كنان بكل الصفات التي تبحث عنها المرأة لتعشقه، وليس لمجرد العيش معه فقط. يلتقط الإنسان من الأرض ويرفعه إلى السماء، يجعلكِ تعيشين تجربة حب كالتي في الأفلام. وخاصة بعد شخص مثل والدي، فقد كان كنان جذابًا للغاية بالنسبة إلي. تخيلي أمامكِ رجلًا ضاحك الوجه، حلو الكلام، يرفعكِ إلى السماء، وفوق كل هذا وسيم.

- أنتِ أيضًا فعلتِ ما رأيتِه من والدتكِ، فخدمتِه لسنوات، ولم تجعلي كلمته تصير اثنتين.

تفكر للحظة.

- كنت أقول لنفسي دائمًا: "لقد تزوجت كنان بسبب أبي". أنتِ تقولين شيئًا مختلفًا. لم أفكر بذلك مطلقًا. يبدو أنني فعلت ما رأيت أمي تفعله. بذلت نفسي في سبيله، ولكنني على يقين بأن كنان سينال عقابه الذي يستحقه. لست أنا من فرض عليه هذه العقوبة. لا يمكن التدخل بأحكام الرب، ولكنني من ناحية أخرى سأكون كاذبة إن قلت إنني لست حزينة من الداخل. فهذه لا تعد شيئًا بعد، بل إنه سيعاني كثيرًا. لا أريد أن أكون شريكة في هذه العقوبة، لأنني قد عوقبت بالفعل. لو كان الأمر بيدي لعشنا في الجنة سوية إلى الأبد، ولكن ذلك لم يحدث. والآن جهنم قد فتحت أبوابها، وهي بانتظاره. لن تستطيعي أن تغيّري القدر يا غول سيران خانم. حتى أنتِ لن تستطيعي إنقاذ كنان!

أستمع إليها وأنا حائرة. تبدو هاندان تمامًا مثل الوسيط الروحاني الذي يحدق في الفراغ وهو يرى المستقبل، وتقول ذلك بموقف واثق للغاية. ماذا أرادت أن تعني بقولها "حتى أنتِ لن تستطيعي تغيير القدر"؟ ثمة فيما تقوله حقد ووجع ثقيلان،

وكأن هذا الوجع يتجه نحوي كالأمواج، ويأخذني في داخله. أجد نفسي مقطبة الحاجبين قليلًا، باهتة الوجه.

ترفع هاندان رأسها قليلًا، ثم تتابع كلامها بعد أن تحدق فيّ بعمق من خلال عينيها الجاحظتين.

- كلامي ليس موجهًا إليكِ. ثم لا تعتبريني امرأة سيئة من خلال ما قلته. أتمنى لو كنت سيئة قليلًا. لا يعرف الإنسان إلى أين سيجره القدر. لم أكن أنا أيضًا أريد أن يحدث شيء كهذا، ولكن ما حدث قد حدث. يجب البقاء بعيدًا عن الإنسان الذي يجازيه الله.. ستحل العدالة الإلهية. كل ما يفعله العبد هباء! لذلك سأبتعد عن هذا المكان بأسرع وقت ممكن. لقد تمت معاقبتي، والآن جاء دوره. أنتِ طبيبة طيبة. أرجو حضرتك أن تستمري بتقديم المساعدة لكنان. إنني سعيدة بتعرفي على حضرتك. إن آلمني رأسي في المستقبل، سآتي إليكِ مجددًا. أشكركِ لأنكِ استمعتِ إليّ. كان هذا الحديث جيدًا بالنسبة لي. كنت، ولسنوات، أحلم بالحديث مع شخص ما عن هذه الأمور. أشعر بأنني أخف وزنًا، ومرتاحة من العبء الذي كنت أحمله داخلي طيلة سنوات.
- أنا أيضًا سُعدتُ بحضرتكِ. إن واجهتِ مشكلة فتستطيعين الاتصال بي في أي وقت.
- على الرغم من أنني سأتركه، إلا أن جزءًا مني لا يريد له أن يعاني أكثر من ذلك، ولكن ما بيدي حيلة بعد الآن.

وكأن ضبابًا مظلمًا حلّ على الغرفة. يتناهى إلى مسامعي صوت كعب حذاء هاندان خانم التي تسير في الممر مبتعدة. تِك، تِك. تِك، تِك... إذن فهي متأكدة من أنه سيعاني. إنه غضب النساء اللواتي أحببنه ولم يُحببهن. ومع مرور السنين يتحول الأمل إلى يأس. يحل الانتقام محل العشق، والحب، والولع.

في الواقع إنها تعاني نفس قدر فتوش. كلتاهما أحبتاه، وكلتاهما أيضًا ضحتا بحياتهما حتى لا تفقدا كنان. فبينما كانت الحقيقة تنهشهن مثل الدود،

إلا أنهن واسين أنفسهن لسنوات، متجاهلتين اللعبةَ التي تُلعب أمام أعينهما.

باعتبار وجود نهاية لكل شيء، بما في ذلك الحياة، أليس ثمة نهاية للصبر؟ لكن لبعض الأمور وقتها ومكانها. وكلتاهما انتظرتا هذه اللحظة.

اللحظة التي بدأ فيها الدود بالتضخم.

* * *

إنه يوم مشمس وليس حارًا جدًا. بدأت العمل في الساعة العاشرة صباحًا، وعند خروج المريض الأخير من غرفتي نظرتُ إلى ساعتي بحماس. هل تأخرت عن البيت يا ترى؟ لا بد أن آيدن وطفليّ ينتظروني بفارغ الصبر. طاولتي مبعثرة تمامًا، ولكنني عادة أترك كل شيء على حاله وأرمي بنفسي إلى الشارع.

أحاول التخلص من المشاعر السلبية التي تتشبث بي من خلال أخذ أنفاس عميقة طوال الطريق. إن آيدن زوج مولع بي وبطفلَيه. يأتي إلى المنزل أبكر مني دائمًا. حتى إنه، وقبل وصوله إلى البيت، يتفقد الولدين عبر الهاتف ليرى إذا كانا قد عادا في وقتهما المحدد أم ليس بعد. ماذا كنت لأفعل لو لم يكن لديّ زوج كهذا؟ هل كنت لأتمكن من القيام بعملي الذي أحبه بهذه الطمأنينة؟

بما أنني لا أحب فتح الباب بالمفتاح نهائيًا، فقد قرعت الجرس كالمعتاد. يفتح آيدن. عندما سمع الطفلان بمجيئي ركض كل منهما تاركًا مكانه. نقبّل بعضنا البعض ونشم بعضنا كل في دوره. وأثناء تناولنا الطعام نتبادل الأحاديث. حسن لا يحب الكلام كثيرًا، ولكن يَغمور تتكلم باستمرار.

بعد مدة، يحين وقت نوم الطفلين. أجهز لهما الحليب بالعسل، وأذهب إلى غرفة كل واحد منهما وأجلس، وبعد محادثة قصيرة أنيّمهما. كلاهما لا يرغب بالنوم دون هذه المراسم. أنا أيضًا أحب مناوبات الليل هذه. إنه الوقت الوحيد الذي يمكنني فيه أن أكون مع طفلَيّ كل منهما على انفراد، لذا فهذا الوقت مهم وقيّم للغاية بالنسبة لي.

عندما أعود إلى الصالون، أنظر إلى الساعة، تقترب من الحادية عشرة. أنجزت كل مسؤولياتي. يمكنني الآن أن أرتاح قليلًا. يشاهد آيدن ملخصات المباريات على التلفاز. أنظر إليه من بعيد. كم هو جميل زوجي بشعره الرمادي، وأنفه الظريف المرسوم بالقلم، وطول قامته، وعينيه الخضراوين المشعّتين نورًا كالمعتاد. عندما أفكر بذلك يخطر كنان بيك في بالي فورًا. يا لدرجة الاختلاف بينه وبين زوجي! إنه مليء بالحب والحنان!

أقترب منه وألمسه برفق. يعانقني على الفور. يقول: "لقد تعبتِ، تعالي واجلسي". أجلس بجانبه. نشعر ببعضنا البعض من خلال جلوسنا جنبًا إلى جنب لبعض الوقت على الكنبة دون أن نتحدث، أو نهتم بأي شيء. أوه، يبدو أنني تعبت حقًا. لو يغلق آيدن هذا التلفاز، ويشغّل بعض الموسيقى، ونستمع معًا.

يغلق التلفاز وكأنه يقرأ ما يجول في داخلي، ومن المسجلة يشغل موسيقى يحبها كلانا. يعرف كم أنني أحب الموسيقى التركية الكلاسيكية، لذلك فهو يجمع أقراصًا مدمجة "CD" تعود للزمن القديم توفرت في السوق حديثًا. في هذه الأيام، أصبح يحب هذه الموسيقى بسبب سماعه المستمر لها. مزاجي جيد، لقد جعلني آيدن أنسى تعبي. وعند أجمل مقطع من الموسيقى يرن الهاتف.

أقول في نفسي: "يا إلهي". سيستدعون آيدن مجددًا لإحدى العمليات الجراحية الطارئة. كم كانت جلستنا لطيفة. ولكنني بعدها أدرك أنهم هذه المرة يتصلون لاستدعائي أنا، وليس هو، إلى المستشفى من أجل حالة مريض طارئة.

لقد اعتدنا على ذهابه إلى المستشفيات في أنصاف الليالي، ولكن الأمر نفسه لا ينطبق عليّ. فمرضاي لا يتصلون بي في هذه الساعة بتلك البساطة. بعد التحدث مع الطبيب الذي كان على الهاتف، فهمت منه أن كنان بيك خضع لعملية جراحية خطيرة، وأنه في العناية المشددة منذ ثلاثة أيام. عندما تحسن وضعه اليوم أخذوه إلى غرفته، لكن هذه المرة كانت المشكلة كبيرة. عندما لم يستطع الأطباء التعامل معه، اضطروا للاتصال به باعتباري طبيبته السابقة.

لا يستطيع آيدن تحمل أن أذهب وحدي في هذه الساعة، لذلك نرتدي ثيابنا على عجل. وقبل أن نخرج، نلقي نظرة على غرفتي الطفلين، لقد غطّا في النوم منذ زمن. وكالعادة يكتب آيدن ملاحظة يبيّن فيها إلى أين نحن ذاهبان ولماذا، ويضعها على القنصل في الردهة.

وبمجرد دخولنا المستشفى، تستقبلنا هانددان خانم. في البداية تعتذر المرأة المسكينة لإزعاجنا في مثل هذه الساعة. ألقي بنظري عليها، يا لها من امرأة لطيفة ومرموقة. من الواضح أنها ومجددًا، لم تترك زوجها وحيدًا في أصعب أوقاته. عند صعودنا في المصعد إلى الطابق العلوي يستقبلنا جيش من الأطباء. ندخل غرفة الطبيب معًا. آيدن يعرفهم كلهم تقريبًا، على عكسي. في البداية يشرحون الحادثة باختصار. لقد حدث نزيف مفاجئ مع كنان بيك في اليوم الذي تلا العملية، وأدخلوه إلى العملية الثانية بشكل طارئ. وعندما بدا كل شيء على ما يرام، بدأ هذه المرة اضطراب وقلق شديدان. لم يستطيعوا إيقاف المشكلة بأي دواء أعطوه له. كان يصرخ ويتحرك كثيرًا لدرجة أنهم كانوا قلقين من أن تنفجر الغرز (القُطب) ويبدأ النزف من جديد.

أسألهم: "ما خطب كنان بيك؟ ما نوع العملية الجراحية التي خضع لها؟" فيبدؤون بالقول: "أجرينا جراحة تجميلية لوجهه. في الحقيقة إن مثل هذه العمليات لا يسبب مشاكل كهذه". وأستمع إلى الباقي. إذن فقد أجرى عملية تجميلية. أغضب، حتى إنني ألومه في نفسي. إذن فهو يلهث وراء تجديد شبابه هذه المرة!

في تلك الأثناء، يأتي الشاي إلى غرفة الطبيب، ولكنني أترك الشاي وأخرج من الغرفة لرؤية كنان بيك بأسرع وقت ممكن. يرافقني طبيب كنان بيك، وهو أحمد بيك. أما هانددان فتنتظرنا عند الباب. كلما تقدمنا في أعماق الممر أكثر يتناهى إلى مسمعي أصوات غريبة. يا إلهي، إنه صوت كنان بيك! يا له من صوت مفجع. أسرع خطواتي أكثر. عندما أصل إلى الباب أقول للآخرين: "توقفوا، لأدخل وحدي".

أفتح الباب بهدوء. إنها غرفة كبيرة! عند السرير ثمة مساعدان وممرضة، يحاولون منع كنان بيك من الحركة. أقترب منهم بسرعة. ينظرون إلى وجهي بأمل.

وجه الثلاثة محمرّ، كما لو أنهم يصارعونه.

في الحقيقة يريد الثلاثة أن ينجوا منه، ولكنهم من ناحية أخرى يخشون تركه. في تلك الأثناء يدير كنان بيك وجهه وينظر إليّ. يبدو وكأن عينيه خرجتا من محجريهما والخوف يتدفق منهما. وجهه شاحب. شعره مبلل من كثرة التعرق، كل شعرة من شعراته مبعثرة إلى طرف وملتصقة على وجهه. لا يبدو بحالة جيدة حقًا. أتدخل فورًا، وأمسك بيد كنان بيك. أشير إليهم بأن يعطوني واحدًا من الكراسي الموجودة في الأطراف. أقول لكنان بيك: "اهدأ يا كنان بيك، إنني بجانبك. سوف تمر هذه المشكلة الآن. ثق بي". ثم أقول لهم: "اخرجوا".

ينظر إليّ كنان بيك بحيرة وعجز. أبتسم له قليلًا. أثناء تنفّسه يعلو صدره وينخفض. وكأن النفس الذي يأخذه لا يكفيه. ثمة ضمادات كبيرة على وجهه وتحت ذقنه مباشرة، وفي إحدى يديه مصل. كما أنه موصول بشاشة لمراقبة القلب. يحاول مرة أو مرتين النهوض من مكانه، أهز رأسي إلى كلا الطرفين قائلة له: "إيّاك، الآن سوف تستلقي بلا حراك، وتفعل ما أقوله لك". فيستسلم بهدوء.

بعد ذلك نبدأ بممارسة تمارين التنفس معًا. نستمر بأداء التمارين مدة عشر دقائق، أو خمس عشرة دقيقة، وأنا أقول له: "خذ نفسًا، احبسه، الآن أخرجه ببطء. أبطأ.. حسنًا.. لنعد الكرّة.." يرتاح قليلًا. لا بد أنهم أعطوه الكثير من الأدوية لكي يرتاح، لذلك لن أعطيه أنا أيضًا. عليّ أن أريحه من خلال الكلام، والضحك، وأداء تمارين التنفس. إن حالتي الهادئة والمستقرة، وابتسامي له باستمرار، وإمساكي بيده، والأهم من هذا كله وجودي بجانبه، هو ما يريح كنان بيك مع مرور الوقت. يلتفت نحوي ويبدأ بالكلام متثاقلًا.

- إنني أموت أيتها الطبيبة، أموت! أرجوكِ سيدتي، أنقذيني.

أنقذيني.. يخطر في بالي أمه التي جاءت لتنقذه من هذا الألم بينما كان يرقد في المستشفى وهو صغير. هل خطرت في باله هذه الأمور أيضًا يا ترى؟ ولكن الوقت ليس مناسبًا الآن لأعود إلى الماضي. بل على العكس تمامًا، سيكون من الجيد إن

اقتربت منه قدر المستطاع، ومازحته. من غير المألوف بالنسبة إليّ أن أمازحه ولكنني متأكدة من أنه سيحب ذلك.

- لن يحدث شيء سيء يا كنان بيك. لا تخف، انظر لقد تحسنتَ بالفعل.

تنتشر ابتسامة خفيفة ولكنها بريئة على وجهه من خلال لَيّ فمه.

- يبدو أن مزاجكِ جيد اليوم!
- هيا، هيا، رغم ذلك فأنتَ محظوظ! يقول الأطباء بأنك عدت من الموت.
- هل عدتُ حقًا؟
- هذا ما يقولونه. لم يعد هنالك أي خطر.
- هل حقًا هذا ما يقولونه؟ لقد كادوا أن يقتلوني. خضعت لعملية جراحية مجددًا. بقولهم نزيف وكذا، كادوا أن يروّحوني.
- من أين أتت هذه العملية الجراحية؟ لماذا لم تخبرني بذلك؟
- شعرت بأنكِ ستغضبين، وتقولين لا تخضع لها.
- نعم، كنت سأقول إنك لست بحاجة إليها.

تروق له هذه الكلمة. تنتشر على وجهه ابتسامة خفيفة رغم أنه ما يزال غير قادر تمامًا على التخلص من محنته. سواء أكان مريضًا أو محتضرًا، فإن سماع مثل هذه الكلمات من قِبل امرأة يُشعره بتحسن. في الحقيقة كانت حالته تبدو جيدة في الأيام الأخيرة وصار نادرًا ما يأتي إليّ. كان على وشك العودة إلى حياته القديمة. ربما من خلال ثقته بهذا التحسن أوقف أدوية الاكتئاب، ولكنه عندما خضع إلى عملية جراحة، عادت المشاكل مجددًا. هذه المرة واجه الموت حقًا. لا بد أنه خاف. ومن لا يخاف!

- لقد أوقفت أدويتك أليس كذلك؟
- في الواقع... كان عليّ أن أوقفها قبل العملية.
- ابدأ بها غدًا على الفور. لم تتركك هاندان وحدك مرة أخرى.
- نعم، نعم... سلِمت. إنها امرأة طيبة.
- لقد خافت المرأة. لم تخِفها هي فقط، بل حتى الأطباء أيضًا.

- دعكِ منهم كرمى لله.. أنا الذي خفت أساسًا.

ما زال يبدو بحالة سيئة، وكلما رأيت صدره يرتفع وينخفض، أحاول تشتيت انتباهه إلى غير اتجاه.

- أنتَ أيضًا لا يُستهان بكَ.. لقد أقمتَ المستشفى وأقعدته. هاندان أيضًا فوق رأسك... من يدري كيف تدللت عيها.
- هؤلاء الجراحون لا يعرفون شيئًا غير القص والقطع. عليكم أن تُظهروا قليلًا من العناية والعطف للمريض. لا يمكن أن يسير الأمر بالقص والقطع فقط.
- حسنًا، ولكن كيف يعلمون بأن الشخص الموجود مقابلهم هو ملك؟ حسبوك واحدًا من عبيدك. فليس أمامك أحد يركع، أو يقبّل. أنت محق بغضبك وصراخك، وحتى بقلبك رأسَ الدنيا على عقبها. ليروا الدنيا على حقيقتها.
- أنتِ بكامل لياقتكِ اليوم، ولكن ما يحدث، يحدث لي.
- إي، وماذا نفعل؟ أنتَ الذي خضع للعملية. متى ستُنزع الضمادات؟
- هل قلقتِ حقًا؟
- نعم، قلقت. ما فهمته هو أنك تنوي سوءًا.
- لا يا عزيزتي!

يبتسم قليلًا مرة أخرى. هدأت قليلًا الارتفاعات والانخفاضات في صدره. الآن يمكننا ولو قليلًا أن نتكلم عن مخاوفه.

- هل خفتَ كثيرًا؟

قبل أن يجيب، يتجهم وجهه لبعض الوقت، جاهلًا ما يقوله، ثم يدير وجهه إلى الحائط المقابل له ويتحدث هامسًا.

- بالطبع خفت. ولكن هذا الخوف لم يكن هباء، كنت أموت فعلًا. لم أسعد أبدًا باقترابي من الموت إلى هذا الحد. حتى أن جسدي صار باردًا

كـالثلج في وقـت مـن الأوقـات. قلـت في نفسـي "حسـنًا، إلـى هنـا فقـط".
انتصـب شـعري. كـم يبدو الإنسان عاجزًا أمام الموت! يبدو أن المـوت هـو
الشيء الوحيد الذي يساوي الناس مع بعضـهم الـبعض! لـيكن لـديكم مـا
تريدون مـن المـال، ولتكونـوا أهـم شـخص في العـالم، ولكـن عنـدما يـأتي
عزرائيل، ستشعرون بالوحدة والعجز التامَّين. تذكرت الأيام التـي مكثـت
فيهـا في المسـتشـفى عنـدما كنـت طفـلًا. لقـد أصـبحت الآن رجـلًا كبيـرًا،
ولكنني شعرت بعجزي مثل تلك الأيام تمامًا. والأسوأ من ذلك أنني هذه
المرة لم أستطع سحب الأغطية وإخفاء رأسي تحتها.

يصمت ويشرد لبعض الوقت. أستمع إليه دون أن أتكلم. ثم ألـيس عملنـا هـو
الاستماع في أغلب الوقت؟ الاستماع والفهم...

- هذه المرة أنتِ من أتيتِ لإنقاذي. أشكركِ.

أبتسم له قليلًا. إذن فقد تذكر ما تذكرته أنا أيضًا. إن وقع في موقف صعب فإن
المرأة هي من سينقذه. إنها إحدى السمات المتكررة في حياته... وكل ما عليـه فعلـه
هو الانتظار.



- لماذا أرهب الموت إلى هذه الدرجة؟
- جميعنا نرهب الموت.
- ربما أرهبه أكثر مـن أي شـخص. أعلـم أننـي لـم أكـن شخصًـا جيدًا. هـل
تقولين إني سوف أسأل عما فعلته في الطرف الآخر؟

آه يا كنان بيك، آه.. كم مرة قلت لكَ. قلت لك تعـال إلـيّ بانتظـام، ولنتحـدث حـول
مخاوفك هذه، ولكنك لم تستمع. انظر لهـذا السـؤال الـذي تسـأله! لـو سـألتني ذلـك أثنـاء
الجلسات! ستكتب هذه المخاوف قدرَك، وليس عندك علم بذلك! أما هو فيتابع الكلام.

- لـو استطعت أن أكـون شخصًـا جيـدًا، لمـا خفـت مـن المـوت إلـى هـذه
الدرجة. لقد لُعنت كثيرًا. تخيفني هـذه الأمـور. ثـم إننـا لا نعلـم أي شـيء
عن الموت. ربما سأموت وينتهي كل شـيء، ولكـن مـاذا لـو كـان مـا قالـه

صحيح، ماذا لو فتحت جهنم أبوابها بانتظاري؟

أتذكر كلمات هاندان. هذا ما قالته تمامًا. بعدها يتابع كلامه فاتحًا عينيه على مصراعيهما.

- أثناء وجودي في العناية المشددة فكرت بحياتي. ألا يقولون بأن الإنسان عندما يموت فإن حياته تمر مثل شريط الفيلم أمام عينيه...

- ماذا رأيت في هذا الفيلم؟

- فادي بالطبع. يبدو أنني أخطأت بحقها. النساء الأخريات كن يحببنني، ولكنها كانت أكثرهن حبًا لي، وأنا أحببت حبها لي. لو تزوجت بها. لكنني لم أكن أفكر هكذا في تلك الأوقات. كانت حبيبة جيدة من جهة، وصديقة جيدة من جهة أخرى. لطالما قللت من شأنها، حتى إنني لم أعتبرها بشرًا. كثيرًا ما كنت أردد ذلك في نفسي. لا يقدّر الإنسان ما فيه عندما يعيشه.

يبدو أن بعض الحقائق تطفو من تلقاء نفسها عند ظهور الوجه البارد للموت.

- لو كنت أملك عقلي الحالي لما أضعت امرأة كهذه. كلما فكرت بذلك لعنت نفسي. لقد قلبتُ حياتي رأسًا على عقب. لم يخطر في بالي الموت طوال السنين الماضية. عشت بأسلوب سريع لدرجة أنني لم أكن أملك وقتًا للتفكير بذلك. اعتقدت أن الأمور تسير على هذا النحو. يبدو أنه عليّ أن أستمع إلى ما تقولينه بانتباه أكبر. إنني أخطأ بحق هاندان هذه أيضًا.

أومئ برأسي كأنني أقول له "أنتَ محق". يبدو أن هاندان تراجعت عن المغادرة باعتبار أنها لم تترك زوجها. ليكن هكذا إن شاء الله.

- لأطيّب خاطرها على الأقل...

- إنه أمر جيد.

- مع أنني في الواقع لا أفهم في هذه الأمور جيدًا! لكن الجميع يخضعون للعمليات الجراحية، وينهضون على أقدامهم بعد يومين أو ثلاثة. أما أنا فانظري إلى وضعي هذا!

وأخيرًا بدأت جفون عينيه بالتثاقل. أنظرُ إلى ساعتي، إنني هنا منذ نصف ساعة.

- بقي القليل. بعد عدة أيام لن يبقى فيكَ شيء. أنتَ الآن بحال أفضل، أليس كذلك يا كنان بيك؟ لقد اختفت المشكلة التي كانت قبل قليل.
- لا أعلم.

لا يريدني أن أذهب، ولذلك فليس في صالحه أن يقول "إنني بخير".

- ماذا لو عادت تلك المشكلة عند ذهابكِ، أرجوكِ لا تغادري بهذه السرعة.
- لا تقلق، لن تعود مجددًا. ثم إنك تعلم بأنني سأعود لو اضطر الأمر، أليس كذلك؟

تنتشر ابتسامة ممتنة على وجهه.

- لقد تعبتَ كثيرًا. تحتاج لنوم طويل. أعطوك أدوية كثيرة. لن تستيقظ قبل ظهر الغد. عند خروجك من هنا أنتظرك بشكل مكثف أكثر في عيادتي.
- لماذا؟ لقد كنتُ جيدًا جدًا في الأشهر الأخيرة لولا هذه المشكلة.
- ثمة الكثير من الأشياء التي علينا التحدث فيها معًا. إن هذا الأمر مرتبط بالأدوية ارتباطًا تامًا! ثم إننا لم نتمكن بعد من الجلوس معًا ومناقشة أي من المشاكل التي أوصلتك إلى هذه النقطة.
- حسنًا، سآتي. لقد أتعبتكِ بمجيئكِ إلى هنا في مثل هذه الساعة من الليل. أشكركِ.
- لا بأس. عمتم مساء.

يلوّح كنان بيك بيده قليلًا قائلًا: "مع السلامة". وبمجرد خروجي من الغرفة أجد الطبيب أحمد وهاندان خانم عند الباب. ينظران في وجهي مدهوشَين. يسأل أحمد بيك فورًا.

- ماذا فعلتِ حضرتكِ كرمى لله؟ كيف أسكتِّه بهذه السرعة؟ لم يبقَ دواء لم نعطِه إياه. لو أعطينا كمية الدواء هذه لجمل، لانهار منذ وقت طويل.
- وهل أسألكم أنا عن كيفية إجرائكم للعمليات الجراحية لمرضاكم؟ لكل

عمل أسراره.

- يا إلهي، نحن راضون عن إجراء العمليات الجراحية. لكن يبدو أن عملنا سهل جدًا! صبّركِ الله.

في هذه الأثناء تتدخل هاندان خانم.

- كيف حال كنان؟ لا بد أنه ارتاح عند رؤيتكِ، لكنني أخاف من حدوث هذه المشكلة معه مرة أخرى في الليل.

- لا تقلقي، ستكون ليلته هذه هانئة. سأتصل بكِ في الصباح، وسآتي إن احتاج الأمر.

تشكرنا هاندان خانم مرارًا وتكرارًا وهي تصحبنا حتى الباب. لقد فرغت شوارع أنقرة منذ وقت، وأطفئت الأضواء، وغط الجميع في نوم عميق. نخرج أنا وآيدن من المستشفى ممسكَين بأيدي بعضنا. يدا زوجي دافئتان.. يومض البرق من بعيد. كلانا ننتظر ضجيج الرعد القادم بحماس. نركب سيارتنا مسرعَين بينما تئنّ أنقرة بسبب هذا الضجيج.

* * *

بعد مضي عدة أشهر، وفي وقت الظهيرة يأتي كنان بيك. تدخل تونا غرفتي راكضة قبل أن يدخل هو.

- آه، ما الذي أصاب هذا الرجل؟

- عمن تتحدثين يا تونا؟

- عن كنان بيك ذاك!

عيناها جحظتا، شفتاها زمتا. وضعت يدها على فمها، يتحرك بؤبؤا عينيها دون توقف، وهي تتكركر ضاحكة من جهة، وتتكلم محركة يديها وذراعيها كثيرًا من جهة أخرى.

- آه، وكأن عصا سحرية مسّت الرجل. لقد صغر خمسة عشر عامًا على الأقل. عندما ترينه أنت أيضًا ستُذهلين. ويا للباسه! من يره يظنه فتى. لقد

تخلى عن البدلات القديمة التي كان يرتديها. يا للمعاطف الكحلية، والبنطلونات البيج... إنه باهر كالعادة! والله لقد تجمدتُ من الدهشة.

- إنكِ مولعة بهذا الرجل.

- آه، إنه ليس رجلًا لا يمكن الولع به.. ما شاء الله، يا لوسامته!

وأثناء قولها ذلك تنقر طاولتي بيدها، ومن ناحية أخرى تتمتم بـ "ما شاء الله".

تونا هذه، يا لها من امرأة ساخرة! ربما كنت لأتعب بشكل أسرع لولا تونا، ولكن بوجودها، ومن خلال الطاقة الإيجابية التي تنشرها، هل من الممكن أن أتعب؟

- لا بد أنك قدمتِ له الشاي والقهوة.

- وهل يمكن دون ذلك؟

- أنت لست قليلة يا تونا! هل تعتقدين أنني لن أحكي هذا لـ (يالتشِن)؟

كنت أضحك أثناء قولي لذلك.

- أنا أحكي له هذه الأمور أساسًا. تأتي إلى هنا أجمل النساء، ويأتي أكثر الرجال وسامة، هو يعرف كل هذا. آه، لا يمكن تبادل الأحاديث المرحة معكِ ياه...

تخرج تونا من الغرفة وهي تتمتم بينها وبين نفسها. وأنا أضحك خلفها. إذن فإن العملية التي خضع لها استحقت منه هذه الأوجاع التي عانى منها في المستشفى. وبينما أنظر نحو الباب بفضول، يتجه كنان بيك نحوي بخطوات رشيقة. وبمجرد رؤيتي إياه أقول في سري: "ما شاء الله!". كانت تونا محقة. لقد شبّ الرجل كثيرًا! وكالعادة، تنتشر رائحة عطره الرائعة في الغرفة. هذه المرة ينظر في عينيّ وهو يصافحني. بعد أن اتخذ مكانًا للجلوس، يدير رأسه نحوي، ويتفحصني بدقة.

لقد تغيّرت نظراته. لم تعد نظرات صداقة. ينظر إليّ مجددًا نظره لأنثى. ماذا أصاب هذا الرجل؟ لماذا عاد إلى عهده السابق مجددًا؟ في الواقع، أنا أيضًا أتفحصه بدقة. خسر بعض وزنه، ونحلَ. ولكن إلى جانب الإثارة التي حاول عدم إظهارها في هذه النظرات، ثمة حزن مخفي.

- يبدو أن الأمر استحق إجراء عملية في الحقيقة. لقد شببت.
- من الجميل سماع ذلك منك! هل أعجبتكِ؟
- لم تقم بهذه العملية لكي أُعجَب بكَ، أليس كذلك؟
- أيًا يكن الأمر، فأنتِ امرأة في النهاية.
- وأنتَ لستَ رجلًا لا يمكن ألا يُعْجَب به. ولكنني أعتقد أن ما تريد سؤاله ليس هذا تمامًا.

يتحرك قليلًا في مقعده. يطول الصمت. لا يعرف ما يقول.

- لأُجيب أنا عن هذا السؤال بدلًا عنك إن أردت. تنتظر مني أن أولع بك مثل كل النساء. أليس كذلك؟

ينظر في وجهي وهو يرمش بعينيه. ثم يحرك وجهه يمنة ويسرة كأنه يقول: "ربما" أو شيئًا من هذا القبيل. ثم بعدما أجرى العملية الجراحية وصار أكثر شبابًا ووسامة، زادت ثقته بنفسه في هذا المجال.

- إنك تستخف كثيرًا بالعلاقات العاطفية. أنا طبيبتك، وصديقتك أيضًا. يحب الناس أن يكونوا محط إعجاب بالطبع، ولكن الإعجاب وحده لا يكفينا. نريد أيضًا أن نحظى بمحبة بعض الأشخاص الذين نهتم لأمرهم. يسميه البعض حبًا، ويضفي إثارة كبيرة عليه، ولكن هل من الممكن البحث عن الحب عند جميع النساء، وأن نحظى بمحبة جميع النساء إلى النهاية؟
- أليس ممكنًا؟
- أنت تفعل شيئًا ضد الطبيعة، وتريد من كل النساء اللواتي يرينك ويتعرفن إليك أن يقعن في حبك بلمح البصر ولا يتخلّين عنك أبدًا. ألا تعتقد بأن هذه حالة مرَضية؟
- ولمَ تكون مرَضية؟ إن هذا ما يريده كل الرجال.
- يريدون ذلك حتمًا، ولكن، من ناحية أخرى، يدركون عدم إمكانية حدوثه. وعلاوة على ذلك، هم لا يشوّهون حياتهم لمجرد عدم حدوثه، ولا يتوقعون

ذلك من كل امرأة يصادفونها، ولا يصابون بحالة اكتئاب حادة.

يدير رأسه نحو النافذة وينظر للبعيد. انزعج مما قلته. في الحقيقة هو لا يريد أن يسمع أيًا من ذلك. لديه ميول غريبة لعدم الرغبة بسماع أو رؤية أي من الحقائق. وكأن الحقائق ستتغير إن لم يرها. إنه شعور طفولي!

- بالنسبة لي فإنني أهتم لأمركَ وأحاول ما بوسعي مساعدتك. كما لا أحيد عن كوني طبيبتك على الرغم من غضبي من حين لآخر. هل تعلم لماذا أغضب؟

- لأنكِ ترينني رجلًا سيء النية.

أضحك في داخلي. لم أكن أتوقع إجابة كهذه منه. كنت سأقول له بأنني أغضب لأنه لا يستمع إلي، ولا يريد أن يفهم ما أقوله، لكن عقله ما زال بنفس السوء.

- في الحقيقة، إن ما تقولَه صحيح. أعلمُ أنك شخص لا يمكن أن يتجه عقلُه في منحى آخر سوى سوء النية، ولكنني لا أستطيع أن أكون طبيبة جيدة لك، وأكثر ما يغضبني هو أنك لا تسمح بذلك بأي شكل. قبل وقت طويل حكيت لي أمورًا مهمة تتعلق بطفولتك. اعتقدتُ بأننا سنتحدث عنها مرارًا وتكرارًا لنكتشف إلى أين سيأخذك مصيرك، ولكنك لا تسمح بذلك.

- لا، لا.. في الواقع ليس الأمر كذلك. سنتحدث عن ذلك بشكل أو بآخر. ألا ترين بأنني عندما أقع في مشكلة أركض إليك فورًا. لم يفهمني أحد مثلك. ثم إنني لا أملك صديقًا سواك، ولا أثق بالأشخاص الموجودين حولي كثقتي بك. كلهم أصدقاء أيام الخير. أما أنت فلست كذلك.

- ولكن أسوأ ما في الأمر أنك تفعل ما بوسعك لتفقد هذا الصديق.

- أنتِ محقة. لقد فكرت بذلك أنا أيضًا. قلت لنفسي بأنني سأفقده من أجل هذا الأمر، ولكنه طَبْع. تخرج الروح والطبع لا يتغير.

أضحك مرة أخرى. يخطر في بالي قصة العقرب والضفدع مجددًا.

- أي مثل قصة العقرب والضفدع..

هذه المرة كنان بيك هو من يضحك. لقد ارتاح. وهكذا أنهينا هذا الموضوع بشكل جيد، ولكن رغم كل شيء ثمة شيء غريب فيه اليوم. تنظر عيناه بحزن منذ دخوله الغرفة.

- ماذا أصابك؟ ثمة شيء غريب فيك اليوم. يبدو أن حتى الشباب لم يكفِ لإسعادك.
- وهل يبدو هذا واضحًا كثيرًا؟

أنظر في وجهه دون أن أتفوه بشيء. يلوي فمه ويهز رأسه قليلًا متابعًا الكلام.

- أشعر بالانزعاج. فبينما يتحسن شيء ما في حياتي، يتدهور شيء آخر. لقد وضعني هذا القدر في رأسه. عندما كنت على وشك العودة إلى رشدي، وضع عائقًا أمام قدميّ. هذه المرة هاندان أيضًا تغادر. تهجرني. لا أعي ما حدث لهاته النساء.. وهل يُترك رجل من هذا النوع؟ وخاصة بعدما يعود إلى منزله وعياله.

إذن فهو يحاول ملء فراغ هاندان من خلال إغواء كل امرأة يصادفها. ومرة أخرى فقد رتب اللاوعي كل شيء.

كانت هاندان بجانبه أثناء العملية. يبدو أنها انتظرت حتى يصحّ، وعندما سارت الأمور على ما يرام، أعلنت قرارها. أقول في نفسي: "هاته النسوة مخيفات حقًا". فرويد كان محقًا في عدم فهمهن...

- ليكن خيرًا. متى ستغادر؟
- لم تُفاجئي بذلك، أم أنكِ تعلمين بأنها ستغادر؟
- ليس تمامًا، ولكنني توقعته. ولذلك كنت أقول لك باستمرار أن تعتني بهاندان خانم جيدًا. حتى إنني توقعت بأن علاقتكما ستتحسن بعد العملية. لقد اهتمت بك كثيرًا، أليس كذلك؟
- نعم، اهتمت كثيرًا. اعتنت بي كطفل.
- وماذا فعلت أنت؟

- كنت مريضًا أساسًا في ذلك الوقت. بقيت في المنزل مدة. ثم بعد أن تحسنت قليلًا عدنا إلى حياتنا المعتادة. ومع ذلك لم أستطع إدارة عملي بشكل جيد. كنت أذهب بعد الظهر إلى الملهى، وصدقيني لم أخنها أبدًا.
- لم تخُنها، أليس كذلك؟
- أقسم إنني لم أفعل شيئًا كهذا. النساء تنظر في عينيّ مباشرة، أما أنا فأدير وجهي. في الحقيقة إنه أمر صعب.. وإن زوجتي لا تفيد بشيء في المنزل! بالنسبة للخدمة فهي تقوم بواجبها، ولكن ما عاد الحب والجنس مثلما كانا! نستمر بالعيش هكذا، هباء. مللت قليلًا. ربما كان ذهابها أفضل. ولكن إن كانت ستذهب ولا بد، فيا ليتها ذهبت أثناء وجود فادي! لو ذهبت وتزوجت بفادي، لكنا سعداء. إنهن خنازير، كلهن خنازير.. إننا نجلس هنا باحترام، ولا نذهب إلى أي مكان. قدّري ذلك ولو قليلًا! ثم ألا ترى عيناكِ؟ لقد شبّ زوجك، وأصبح أجمل من السابق. وهل يمكن المغادرة في وقت كهذا؟ سوف تضيّعين الرجل مجددًا، بعد ذلك ستعودين برجليك. ولكن البكاء والأنين لن يجديا هذه المرة. يكفي هذا! ما هذه المغادرة بين الحين والآخر؟

يهز كنان يديه وذراعيه، ويتابع الكلام بصوت عالٍ وهو يؤنّب هاندان. أستمع إليه بصمت. أقول في نفسي: "لا أحد يفعل بالإنسان ما يفعله بنفسه". لو حصلت هاندان على بعض الحب والعطف والاهتمام لما غادرت. لم يغيّر نظامه. وحتى لو غضبت كثيرًا، فهي ما زالت تحب زوجها. ربما هذه العملية الجراحية وحب التجديد أغضبا المرأة تمامًا. أدركت مرة أخرى أن الرجل لن يتغير مطلقًا.

- لكنها ستندم كثيرًا، وستذرف الكثير من الدموع. أعلم، الذنب ذنبي. لو تجاهلتها في ذلك الوقت، لما حدث أي من هذا. لكن من الواضح أنها أصرت على تركي. انتظرت بصمت كالأفعى لكيلا أنجر وراء الأخرى. وعندما حان الوقت، لدغتني بلسانها السام. أين تعتقدين بأنني أخطأت؟

أفكر، أي من أخطائه عليّ أن أخبره يا ترى؟ أساسًا هو تابع كلامه دون انتظار إجابة مني.

- على الإنسان أن يكون متعقلًا قليلًا. زوجك استقر، وعاد إلى المنزل، ولا يكاد يبتعد عن قدميكِ. فلتذهب إذا أرادت. تذهب واحدة، وتأتي أخرى. لو أستطيع الوصول لفادي على الأقل. لو علمتْ فادي أن هانداn غادرت ربما تعود. بالتأكيد تعود... فادي التي أعرفها لا تتخلى عني. وخاصة أنني أطلق زوجتي الآن. أي إنني عازب. كالعنب بلا بذور!

كيف يمكن للإنسان أن يخدع نفسه إلى هذه الدرجة؟ رغم ترك هانداn له غصبًا عنه إلا أنه ما زال يتكلم وكأنه هو مَن سيطلقها. ولكن الكثير من المياه تدفقت تحت الجسور! أنت أيضًا تعلم ذلك وتخاف منه. لو تستطيع أن تقول ما تفكر فيه بصراحة، بدلًا من رمي الكلام هذا! لو تتمكن هذه المرة من عدم خداع نفسك كما كنت تخدع النساء! أنت لم تعد كنان القديم بعد الآن. لقد قال لك القدر "قف" ولمرة واحدة. فلتقف! فلتصغ إلى هذا الصوت... في الحقيقة هنالك جانب منك يَسمع، ولكن طرفًا آخر يستمر بالإنكار. لأنك خائف. ومع ذلك، وحتى لو كنتَ خائفًا جدًا، لربما استطعنا أن نغير قدَرَك لو تمكنت من الاستماع... هل ستفهم إن قلت لك ذلك الآن؟

- لماذا لا تقولين شيئًا؟ ألستُ محقًا؟
- هل ما زلت تخاف من البقاء وحيدًا؟
- البقاء وحيدًا؟ ولماذا سأبقى وحيدًا؟ هل لأن هانداn ذاهبة؟ لتذهب إن أرادت. لقد فعلت ما بوسعي. والباقي عليها. الشكر لله، لست جائعًا أو بلا مأوى. يمكنني أن أجد أحدًا ما بجانبي بطريقة أو بأخرى.
- أحد ما!
- وهل نفدت النساء من الدنيا؟ أريدها شابة وجميلة. وألا تكون رعاعًا مثل فادي، أو مسنّة وعديمة الروح مثل هانداn. أي، لتكن لاثقة بي. هذه

الأمور ليست صعبة عليّ.

- قبل قليل كنتَ تتمنى لو تعود فادي...

- طبعًا، لتعد. فأنا أريدها. هل تعود برأيكِ؟

على هذا المعدل، فلا فادي ستعود، ولا كنان سيفهم شيئًا. يتحدث كما يراه مناسبًا بنظره. إنه لا ينوي حتى الاستفادة من هذه الجلسات ليرى نفسه ويعرفها قليلًا.

إنه الطب النفسي... الناس الذين يزورون نفس الطبيب، بعضهم يتعلم ويذهب، وبعضهم يضيّع وقته هكذا.

- الآن يجب عليّ أن أعطيها مبلغًا ما. أعمال الشركة لا تسير على ما يرام في هذه الأيام. نعاني من الخسارة منذ وقت طويل. لديّ في أنقرة شقتان باسمي. سأضطر لأن أعطيها إحداهما. ستخلق نظامًا جديدًا لنفسها. ستغادر هذه الأمكنة. أي بعبارة أخرى، ستترك أنقرة. هل تعلمين؟ فادي تركت أنقرة.

- حقًا؟

- في أحد الأيام الماضية، ذهبت إلى بيتها، لقد أفرغت الشقة. لو تعلمين كم حزنت. لولا الحياء لبكيت. بذلت حياتي في سبيلهما، ولكنهما تذهبان بالتسلسل. لم تتركاني أنا فقط، بل تركتا المدينة أيضًا. ستتصلان بي كثيرًا، كثيرًا جدًا..

هل أنت من بذلت حياتك في سبيلهما؟ أم هما؟ هل هما من سيتصلان بك؟ أم أنت؟ متى سيتخلى هذا الرجل عن خداع نفسه يا ترى؟ إنني أحاول أن أظهر له بعض الحقائق مرة أخرى، ولكنه لا يريد أن يسمعني، ويغلق الموضوع فورًا. يبدو أنه ليس بوسعي فعل شيء... لماذا يأتي إلى هنا يا ترى؟ هل من أجل أن يشاركني همومه فقط؟ إن هذا أحد الحلول... وأنا لا بد لي أن أسمعه وأوافقه الرأي بقدر ما أستطيع. هذا ما ينتظره مني فقط.

أعماله تتجه نحو السوء. لا أندهش من ذلك نهائيًا. فهو لم يهتم بعمله جيدًا بسبب انشغاله بالنساء أساسًا. ينهض على قدميه قائلًا: "حياتي انقلبت رأسًا على

عقب. سيكون من الجيد أنني أتيت إليكم كثيرًا هذه الفترة".

أرافقه إلى الباب كالعادة. ومجددًا ينظر خلفه باستمرار وكأنه نسي شيئًا ما. إنه يفعل ذلك بكثرة عندما يكون مضطربًا ومزاجه سيء.

* * *

بعد ذلك اليوم اختفى كنان مجددًا. لم يصلني خبر منه على مدى سنوات. يا له من رجل غريب! كلما حاولت أن أحكي له بعض الأشياء يغيب.

في أحد أيام الشتاء، أرى اسمه مجددًا في لائحة المواعيد. ولكن هذه المرة لا تأتي تونا إلى الغرفة قبله. أصابني هذا الأمر بالقلق. فهذا يدل على أن شيئًا ما قد تغير.

عندما يحين دور كنان بيك، أنهض من مكاني وأتجه نحو الباب مباشرة. كالعادة أراه في نهاية الممر، ولكنه بدا متهدل الكتفين. أستقبله كالعادة قائلة: "أهلًا وسهلًا". وهو بدوره يبتسم لي ويصافحني عندما يراني. بعد أن ينزع عنه المعطف الكشمير ويضعه على كرسي المعاينة، يتجه نحو مكان جلوسه المعتاد. يرتدي اليوم بدلة ذات لون بني غامق. إنه يبدو أنيقًا بقميصه الحريري، وربطة عنقه الملونة، ومنديله... أثناء وضعه نظارته الشمسية بعناية في بيتها الجلديّ الأنيق، يسأل عن الحال والبال. بقينا لفترة من الوقت نتبادل الأحاديث كصديقين اشتاقا لبعضهما. ثم يحين دور المشاكل. يُجهّم وجهه قليلًا ويبدأ بالكلام.

- أينما لفّ الثعلب ودار فنهايته عند بائع الفراء. ها قد أتيت مجددًا...
- أستغفر الله. ما هي الأخبار، هل هنالك أي خبر من هاندان؟
- مر وقت طويل على إغلاق هذا الموضوع. قلت لكم، إن القدر لا يدعني وشأني. هذه المرة تعطلت أعمالي. لساني يعجز عن قول إنني قد أفلست. إن لم أستطع تحصيل ديوني فربما يصل بي الأمر إلى التضور جوعًا. عندما لم أستطع دفع مستحقات القروض، استولت البنوك على كل ما أملكه. من الجيد أنني أعطيت إحدى شقتي أنقرة لهاندان في ذلك الوقت، وإلا لكانت ذهبت هي الأخرى. حتى إنهم حجزوا على سيارتي. إنني

الآن أعيش في تشانكايا بالإيجار. لا أستطيع إعطاء عنواني لأحد لأنهم من الممكن أن يحجزوا على أشيائي كلها في أي لحظة.

أقول لنفسي: "إن هذا شيء سيء جدًا". كانت قوته المادية هي الوحيدة التي تبقيه واقفًا على قدميه، أما الآن فقد فقدها هي الأخرى. ولكن في الواقع هذا ما كان سيحدث، لأنه في السنوات الأخيرة، وبسبب الاضطرابات التي يعيشها في حياته الخاصة، لم يهتم بعمله نهائيًا، حتى كان يستصعب المرور على المكتب بين الفينة والأخرى. لقد اتخذ ذلك الخوف مكانًا في عينيه مجددًا. في السابق، كانت عيناه مليئتان بنظرات رشيقة، أما الآن فيبدو أن نور عينيه قد انطفأ.

- وكيف حدث ذلك كله؟

- والله حتى أنا لا أعرف. في السابق كنت أتعجب من أصدقائي المفلسين. كنت أقول لو أنهم اتخذوا الاحتياطات اللازمة من البداية لما حدث شيء كهذا، حتى إنني كنت أجدهم أغبياء. ولكن يبدو أن الأمر ليس بسيطًا إلى تلك الدرجة. كنت أقول حتى لو كان عليّ ديون، لدي ممتلكات، يمكنني أن أبيعها وأسدد ديوني على الأقل. وفجأة، وكأن غيمة سوداء حلت عليّ. حسد الناس إياي أوصلني إلى ما أنا عليه. حسدني الجميع طوال سنوات. عيونهم على كل ما لديّ. كانوا ينفجرون من الغيرة. وفي النهاية حدث ما يصبون إليه. إنهم الآن يتظاهرون بالحزن، ولكنني أعرفهم جيدًا. يقولون "أووه، وأخيرًا" في دواخلهم. حضرتك لم تصدقيني، في تلك الأيام، عندما كنت أقول لك وأكرر إن حظي قد تعثر. لم يحصل شيء لأي منهم، بل أنا فقط هو من أفلس. عندما يكسد عملهم كنت أحزن، وأجد حلًا لمساعدتهم، أما الآن فهم لا يُحركون ساكنًا. يتظاهرون بالاهتمام بي. ولكن لا فائدة من اهتمام كهذا.

ومرة أخرى، يحاول التخلص من كل المسؤوليات التي على عاتقه من خلاله غضبه من الآخرين. لا يمكنني الآن أن أقول له: "كان واضحًا منذ البداية أن هذا ما

سيحدث. فأنت لم تهتم بأعمالك منذ سنوات". فهو مستاء بما فيه الكفاية، وقد أتى إلى هنا ليرتاح ولو قليلًا.

- ألم يهتموا بك نهائيًا؟
- أشياء لا تذكر.. زاروا البنوك. وأخّروا بعض الديون. هذا كل شيء.. كيف سأنهض من هذا الركام؟ من ناحية التأمين الاجتماعي فأنا متقاعد، ولكن الراتب الذي أقبضه لا يكفي حتى لسجائري. والأسوأ من ذلك كله أنني لست معتادًا على قلة المال. احترت ماذا أفعل. كما أنني لم أخبئ أي شيء هنا وهنا.. لا أستطيع أيضًا بعد هذا العمر أن أعمل عند أحد... في الحقيقة إن أصدقائي كلهم ذوو نفوذ. فإن أرادوا فعل شيء من أجلي، يستطيعون، ولكنهم لا يفعلون شيئًا.
- وماذا يمكنهم أن يفعلوا يا كنان بيك؟
- وما يدريني... يمكنهم أن يجمعوا النقود فيما بينهم ويعطوني إياها، أو أن يرتبوا شيئًا ما مع الدولة. لا ضمير أو رحمة في أي منهم! نأكل ونشرب معًا منذ أربعين سنة. مررنا بأيام جيدة وسيئة. هل هذا ما يفعله الإنسان لصديقه؟

أنت افعل ما بوسعك، لسنوات، محاولًا إثارة الغيرة في الناس، بل وحتى تمزيقهم، ولا ترى أحدًا سوى نفسك، ثم تعال وانتظر المساعدة منهم... اعتاد طوال حياته على التفكير بهذه الطريقة، أن يتوقع من الناس فعلَ أكثر مما يمكنهم فعله. في الواقع، هو ما يزال ينتظر العون. أفتح ملفه بهدوء وألقي نظرة على ما كتبته فيما مضى. هذا مما كتبته في الملف تمامًا: عندما يقع في مأزق ما، يهرب وينتظر أن ينقذه أحد ما.

- كنان بيك، إنني على يقين بأن هنالك شيئًا ما يمكنك فعله للخروج من هذا المأزق. فلو تفعل شيئًا ما بدل الجلوس هكذا والانتظار.
- وماذا يمكنني أن أفعل؟ أقول لكِ لقد أفلست. ما عدتُ أملك شيئًا.
- ولكنك تملك خبرة طويلة في العمل. لو تحاول القيام بشيء بنفسك بدل الجلوس هكذا والانتظار.

يُجهّم وجهه وكأنه منزعج. لا يحب أن يُقال له أشياء كهذه. إنه يريد مني كالعادة أن أستمع إليه، وأن أشاركه همومه فقط. أغيّر الحديث فورًا.

- هل تتواصل مع هاندان خانم؟

- نتحادث على الهاتف أحيانًا. بعد تلك الحادثة اتصلت بي عدة مرات. ومع ذلك فإن هاندان وفية أكثر من الأخريات. القحبة فادي في إسطنبول. يقولون بأنها صارت غنيّة جدًا. عندما كانت فتاة مسكينة لم تكن تفارق قدميّ، وعندما وقفت على قدميها، كان أول عمل لها هو الانفصال عني. دعكِ من الاتصال والسؤال، فهي تقول: "ليزداد سوءًا فوق سوء". بعد كل تلك السنوات التي أكلنا وشربنا فيها معًا، أليس لدي الحق في ذلك؟ الإنسان يتصل ويسأل عن الحال والبال على الأقل. كلهنّ هكذا...

- بما أنك قلت "كلهنّ" فلا بد أن هنالك نساء أخريات.

- وكيف لا؟ فبعد أن رحلت هاندان، أقمت علاقات مع الكثير من النساء، ولكنني لا أعرف لماذا لم أعد أجد المتعة نفسها كما في السابق. أساسًا عندما تدهورت أعمالي، تفرقن من حولي مثل النمل. إن كنت تملك مالًا فيا للروعة، وإن لم تكن تملك فلا يتعرفون إليك.

- هل أنت وحيد الآن؟

ينظر إليّ بملء عينيه. مثل الهر الذي بقي في الشارع.

- إنني وحيد. يصعب عليّ جدًا البقاء وحيدًا في هذا الوضع. لا أتقن الاعتناء بنفسي، ولا أفهم في أعمال البيت نهائيًا. تأتي زوجة البواب، ولكن بعد وقت قصير لن يبقى معي أية نقود لأعطيها لها. عادت المآزق القديمة لمطاردتي مرة أخرى. نومي سيء للغاية، أستيقظ وأنا أحترق من الداخل. أقفز من الفراش بسرعة. ثم أنظر، فلا أجد أحدًا، إنني وحيد... وفي ذلك الوقت تمامًا يبدأ الذعر. أتجول في البيت ذهابًا وإيابًا. إلى أي مدى سيستمر هذا؟ تهرب النساء مني وكأنني آفة. في السابق كن هن من

يلاحقنني وأنا أهرب. أما الآن فقد تبدلت الأدوار، أنا من يلاحقهن. إنني غريب تمامًا عن هذا الموضوع. لا أستطيع أن أقبض عليهن بشتى الوسائل.

- حزنت حقًا على وضعك. ولكن انظر، لقد تدبرت أمرًا لا بأس به لنفسك. على الأقل ثمة راتب لك. فأنت رجل أعمال تمتلك خبرة. ربما تستطيع أن تعمل بالاستشارات. فبدلًا من قولك لا أستطيع عمل هذا أو ذلك، فكر بماذا يمكنك أن تعمل.
- ولكنني وحيد، ولا أحد في حياتي.
- إنها الحياة، ثمة أشياء غير متوقعة يمكن أن تحدث لنا. في أوقات كهذه علينا أن نبقى صامدين. فبدل أن تغضب من أصدقائك، كن أقرب إليهم، تكلم معهم، ناقشهم. إنني على يقين من أنكم ستجدون حلًا معًا.
- أنتِ لا تعرفينهم. لو كان الأمر بيدهم لفقؤوا عيني. لا أحد يفهم حالي.

في الحقيقة أنا أتفهم وضعه، وأحاول ألا أضغط عليه. بل أحاول أن أرشده بقدر ما أستطيع، ولكن كنان بيك، على عادته، لا ينوي التعاون معي.

الطبيب الجيد هو الشخص الذي يمكنه دائمًا أن يقوم بـ "التقمص الوجداني" مع الشخص الجالس أمامه، أي أن يضع نفسه مكانه ويشاركه مشاعره. لا أجد صعوبة في ذلك مع مرضاي الآخرين، ولكن الأمر يختلف عندما يحين دور كنان بيك.

مرت سنوات على معرفتي به، ولكنه ما يزال كما كان في يومه الأول، لم يتغير أو يتطور نهائيًا.

- كنان بيك، من الأفضل لو بدأت بتناول أدويتك من جديد بأسرع وقت ممكن.
- سأبدأ بالطبع، وبأسرع وقت ممكن، ولكن من سيعطيني الأدوية؟ ثم إنه لا يوجد أحد في البيت يصنع لي الحساء الساخن. أنا أنسى ساعات تناول الدواء. أنتِ أيضًا لا تفهمين حالتي.

يجر يديه كلتيهما إلى رأسه، وينهض على قدميه فجأة، ويبدأ بالتجول في الغرفة ذهابًا وإيابًا. يبدو أن هنالك تهديدًا ما مخفيًا في هذا التصرف. ربما يقول "سيتفاقم وضعي وأمرض إن ضغطتم عليّ". أفهم الرسالة فورًا. لا يوجد شيء يمكنني فعله أكثر لشخص يقول بأنه من الصعب عليه أن يأخذ الدواء في وقته المحدد.

– هل هنالك شيء ما أستطيع فعله لك؟

– هل يمكنني ألا أدفع أجرة الكشفية هذه المرة؟

في ذلك الوقت أدركت تمامًا سبب هذا التصرف. أقول في داخلي: "وما الحاجة لذلك؟ قل هذا بوضوح من البداية".

– لا تحزن، ليس هذا بالأمر المهم. أنتظرك متى شعرت بمأزق.

يتردد كنان بيك مرة أخرى في مغادرة الغرفة. يتناول بإحدى يديه معطفه الكشمير الموضوع فوق كرسي المعاينة، وباليد الأخرى حقيبته الجلدية، ويخرج من الغرفة. في الواقع إنه في وضع صعب جدًا... ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من الإفلاس بالنسبة لرجل أعمال؟ كل هذا التعب والجهد، وكل هذا الاستثمار المادي والمعنوي يختفي في لحظة واحدة. لا أعرف بتفكيره هذا كيف يمكن له أن يصمد أمام كل ذلك.

لقد بدأ بالسقوط منذ وقت طويل! أرجو من الله ألا يتحسر على هذه الأيام في المستقبل. يا إلهي، هل يمكن أن يكون كل ذلك هو عدالة اللاوعي؟

* * *

بعد ذلك اليوم استمر كنان بيك بزيارتي. ولأنه ما عاد يملك النقود، فلا يدفع أجرة الكشفية، ولكنه لا يخرج من الغرفة دون أن يقول كل مرة بأنه سيسدد هذا الدين في أسرع وقت ممكن. أعلمُ حقًا أن وضعه صعب جدًا. حالته تصيبني بالحزن. على الرغم من أنه ما يزال أنيقًا ونظيفًا للغاية، وعلى الرغم من طول المدة التي تبقى فيها رائحة العطر الذي يستعمله في الغرفة، إلا أن هذ الرجل المسكين يبدو وكأن سحره أُبطل ونور عينيه انطفأ.

أستقبله بوجه مبتسم كما في السابق، وأحرص على معاملته بعناية واحترام. وتونا أيضًا لا تهمل الشاي والقهوة، ولكن عينيها لم تعودا تلتمعان كما في السابق أثناء حديثها عنه، حتى إنها لا تتحدث عنه نهائيًا. ويتضح من ذلك أنه لم يعد يختلف عن الآخرين بنظر تونا. يشير ذلك إلى أدلة مهمة. إنني آخذ دائمًا ردود أفعال تونا تجاه مرضاي بعين الاعتبار. فهي مرآة المجتمع.

كل مرة يأتي إليّ فيها ويتذمر. ولأنه آل إلى هذه الحال، فإنه يصب غضبه على القدر، والحظ، وعلى كل الأشخاص الذين يعرفهم لعدم مساعدتهم إياه بما فيه الكفاية. مع أنني فهمت أن أصدقاءه يقدمون له أفضل دعم ممكن.

المستقبل يخيفه. يبدو وكأن هذا الخوف قد سيطر عليه تمامًا. يعتقد بأنه إن نجا ولا بد، فلن يكون ذلك سوى على يد امرأة، ولا يخطر في باله أي حل آخر. يقول لي باستمرار إن المرأة يجب أن تكون مشابهة لفادي، وأن تكون ماهرة مثلها، ومولعة به أيضًا. يجب أن تدلّله، وأن تضحكه بنكاتها، وأن تدور حوله كمروحة، وأن تُسعده في الفراش ليلًا. لا بد أن تكن شابة وجميلة أيضًا. وبخلاف ذلك لن يستطيع التحمل. وحتى لو لم يكن معه المال في هذا الوقت، فإن المرأة لن تشتكي من ذلك إن كانت تحبه كثيرًا، بل على العكس، يجب أن تشكر الله لأنها صادفت شخصًا مثل كنان.

أحلامه لا تنتهي هنا. يقول بأنه سيعود إلى رشده في ذلك الوقت فقط. وسينقلب حظه في الملهى الذي ما يزال يذهب إليه كل يوم، وعلى الأقل سيربح بضعة قروش من القمار. وإن أصدقاءه لن يعجبهم هذا الوضع حقيقة، فسيخدعونه مجددًا، ولكنها مشكلتهم. الآن ورغم حالته هذه، فما تزال عيونهم عليه. ليس لديه نقود، لكن خزانته مليئة بالملابس التي تحمل ملصقات أشهر الماركات، والتي اشتراها من مختلف الأمكنة التي ذهب إليها منذ سنوات. فقط العطور هي التي كانت على وشك النفاذ. وبغض النظر عن ذلك، لا ينقصه أي شيء، بل ويزداد. يستطيع تدبر أمره بهذه الملابس طوال سنوات. لقد كان متعقلًا جدًا بالحصول عليها في الوقت المحدد. كان أصدقاؤه

أيضًا مهتمين بالملابس، لكن أيًا منهم لا يملك خزانة كالتي يملكها.

لديه اعتقاد بأنه إن تحدث عن ذلك فإن أحلامه ستتحقق يومًا ما. أما أنا فأستمع إليه بصبر وبقليل من الحزن دون مقاطعته حتى لا أكسر خاطره أو أزعجه. لقد تخليت منذ وقت طويل عن التكلم معه وإرشاده. فهو لا يريد هذه الأمور. في هذه الأيام يحتاج إلى صديق يستطيع أن يفصح له عن أحلامه التي تدور في رأسه باستمرار. وفي النهاية أصبحت طبيبة كالتي يرغبها.

يا للأسف...

يقول إنه سعيد بالمنزل الجديد. وخاصة عندما أثثه، فقد تحول إلى قصر. وعلى الرغم من عدم تمكنه من دفع الإيجار لعدة أشهر، إلا أنه سيسدد جميع ديونه في اليوم الذي يُحصّل مستحقاته. لا يحب أن يستدين أبدًا، ولكنه اضطر هذه الفترة لذلك. أقرضه كل واحد من أصدقائه مبلغًا معينًا. هو أيضًا باع جزءًا من أغراضه الثمينة، ولكنه لا يعرف ماذا سيفعل إن لم يستطع تحصيل مستحقاته. والأسوأ من ذلك كله أنه يخسر في القمار باستمرار. لا يلعب على مقدار كبير مع أصدقائه ولكن مع ذلك كان يخسر. وكلما خسر أكثر ساء مزاجه، وعندها تزداد رعشة فكه، ويصدر من أسنانه صوت يشبه صوت اللقلق. ولا يستطيع إيقاف هذه الأصوات مهما حاول جاهدًا. وهل تليق به أشياء كهذه؟ إذا استمر على هذا المنوال فسوف يفقد سمعته في الملهى. وأساسًا إن الناس ما عادوا يُظهرون له الاحترام كما في السابق.

فكر كثيرًا بسبب ذلك. يلبس جيدًا ولا يخرج من البيت قبل أن يحلق، ولكن ما عاد لديه سيارة أو سائق مثلهم. حتى لو ركب الحافلة في بعض الأحيان، فإنه يخفي ذلك عن أصدقائه. صارت زوجة البواب تأتي إلى المنزل من أجل غسيل الثياب وكيها فقط. لقد مر وقت طويل على عدم القيام بالتنظيف. يشتري بعض الأشياء من الفرن الموجود في الزاوية من أجل الفطور. ولا يأكل شيئًا وقت الظهيرة، وفي المساء يأكل في الملهى. لا يجعله أصدقاؤه على الأقل يدفع ثمن هذا الطعام، فكل يوم يدفع واحد منهم الحساب.

ولا يتوقف الأمر على دفع نقود الطعام في الملهى فقط، فعندما علموا بإفلاسه، جمعوا مبلغًا ماليًا كبيرًا وأعطوه له، ولكن فيما بعد لم يمد أحد يده على جيبه، فلا يُقرضونه دون أن يطلب. ومع ذلك فإن كنان كان يشعر بالذل عندما يطلب نقودًا، ويعتقد بأنه لو طلب كل مرة مائة ليرة فسيعطونه مائتين. لا أحد منهم غنيّ ومعطاء مثله. حتى عندما يعطونه ما يطلبه فإن وجوههم صارت تتجهم في الآونة الأخيرة.

وهو في الواقع كان ينفق الأموال التي في جيبه بحذر شديد. لا يشتري أي شيء جديد لنفسه، ويركب الحافلة بدلًا من سيارة الأجرة قدر الإمكان، لا يصنع الطعام في المنزل، ولا يجعل أحدًا يصنعه له، ولا يأتي بخدامة من أجل التنظيف أيضًا. ومع ذلك لا يستطيع إدارة أمواله بين الإيجار، ومصروف الطريق، والخدامة، والسجائر، والمشروب، والقمار، وما إلى ذلك.

بالتأكيد يجب إيجاد حل جذري للتخلص من هذا الوضع. وقد قال ذلك لأصدقائه. فلو جمعوا مبلغًا من المال واشتروا له منزلًا صغيرًا في مكان ما جيد، وأودعوا مبلغًا من النقود في المصرف، فمن الممكن له أن يدير أموره بالفائدة التي تأتي من تلك النقود، ولن يكون مضطرًا كل يوم لطلب نقود منهم. عندما يقول ذلك يضحكون جميعهم في آن واحد. كلهم سيئون، وقلبهم مليء بالحسد. ولكنه كان يعرف كيف يضحك عليهم عند خروجهم من الملهى. يفتح السائقون أبواب سياراتهم لهم، ويستقبلونهم بانحناءة خفيفة. الشكر لله، إنهم يوصلونه بالتسلسل إلى منزله. ألن يفعلوا ذلك أيضًا؟ مزاجهم جميعًا جيد. ورغم كل شيء فإن زوجاتهم ما زلن ينتظرنهم في المنزل. وبعد تبادل الأحاديث، يدخل هؤلاء الأوغاد الفراش في أحضانهن.

وبغض النظر عن كل هذا، فهو يشتكي كثيرًا من الوحدة. وكأنه فقد مهاراته السابقة مع النساء. إن لم يتمكن من العثور على امرأة تصير حالته في الويل. يتناول أدويته ولكن الدواء في هذه الفترة لا يؤثر أبدًا. تلزمه امرأة صادقة وفية، امرأة بكل معنى الكلمة...

لا أعرف ما إذا كان يجب عليّ أن أحزن أو أغضب لسماعي ما يحكيه كنان بيك. صار على هذه الحال على الرغم من أن ذلك كان واضحًا منذ البداية. لقد تعبت وجهدت كثيرًا من أجله، ولكن ذلك كله كان هباء. وعلاوة على ذلك ما يزال أنانيًا... لا يكتفي مهما فعل الناس له، بل يريد المزيد كل مرة.

من ناحية أخرى أحزن كلما رأيت ما آل إليه. إنه يائس للغاية... ما يزال يلاحق الأحلام التي لا يمكن تصورها. لا أستطيع جعله يواجه الحقيقة بأي وسيلة. يؤثر العجز على الأطباء بشكل سلبي دائمًا. إنني أشعر بالعجز أمام هذا الرجل. ولعدم دفعه رسوم الكشفية في الآونة الأخيرة فأحاول أن أكون أكثر حرصًا عند التحدث معه. فربما يسيء فهمي.

وأثناء تفكيري الدائم بهذه الأمور، قال لي في أحد الأيام.

- إننا الآن صديقان قديمان. خلال السنوات الماضية دفعت أجرة الكشفية دون أي تقصير. والآن إن لم أكن أستطيع الدفع فهذا ليس بمحض إرادتي. ومساء كل يوم يدخل ويغادر الكثير من الأشخاص في هذه العيادة. وبما أن أصدقائي لا يساعدونني، ساعديني أنتِ، افعلي ما لم يفعلوه هم.

- ماذا تقصد؟

- لو تشترين لي منزلًا صغيرًا، وتودعين لي بعض النقود في المصرف...

لا أعرف ما أقول له. يبدو أن هذا الرجل قطع صلته بالواقع تمامًا!

- إنك تخسر كل الأشخاص الموجودين في حياتك واحدًا تلو الآخر. هل حان دوري الآن؟

ينظر إليّ مذهولًا. وكالعادة، أخرج الأدوية التي يحتاجها من درجي وأعطيه إياها. هذه المرة لم يُظهر التردد الذي يُظهره عادة عند الخروج من الغرفة.

بعد ذلك اليوم مرت فترة لم يأت فيها إليّ. ربما فهم في النهاية أنه سيخسرني، فأعطى استراحة لهذه العلاقة، أو أن هنالك أمورًا أخرى لا أعرفها.

هو لا يأتي، ولكن الذي قرع بابي هذه المرة، وبعد أشهر عدة، هو سميح بيك صديق كنان المقرب. يا لمدى شبه مظهره العام، وحاله وسلوكه بكنان بيك! إنه وسيم أيضًا، ويعتني بملابسه جيدًا، ومتفاخر، ويعرف كيف يجلس وينهض، واجتماعي.

- أهلًا وسهلًا بحضرتك سميح بيك. تفضل، إنني أستمع إليك.
- يا سيدتي، أنا لم آتِ إلى هنا من أجل نفسي، بل أتيت من أجل صديقي المقرب كنان. نعلم جميعًا أنه يأتي إليك منذ فترة طويلة. سلِمتِ فقد قمتِ بمساعدته كثيرًا، ولكنه هذه المرة يضعنا في موقف حرج. احترنا ماذا نفعل. اختارني الأصدقاء متحدثًا وأرسلوني إلى هنا.
- خير إن شاء الله! هل حدثت أمور لا أعرفها؟ ثم إنه ما عاد يأتي إليّ في الأشهر الأخيرة.
- أعلم، ولكن لا تقلقي، سيأتي قريبًا. لن يتراجع.

ماذا أراد أن يعني بهذا القول يا ترى؟ وماذا يمكنني أن أفعل أيضًا من أجل كنان بيك؟ يتقطب حاجباي دون إرادة مني أثناء الاستماع له وأنا مذهولة.

- نحن أصدقاء قدامى لكنان. قضينا عمرنا معًا، ولكنه في السنوات الأخيرة، وكما تعلمين، تغيّر، وخاصة بعد كساد أعماله، فخرج عن المألوف تمامًا. نحن بدورنا فعلنا ما بوسعنا. قدمنا له الدعم المادي والمعنوي بجميع أنواعه، ولكن أي شيء مما فعلناه لم يكفِه. وخاصة في الأشهر الأخيرة، فقد صار غريبًا جدًا. يلعب معنا القمار كل ليلة بالمال الذي يقترضه منا. أليس هذا الوضع مضحكًا بنظركِ؟ إذا لم يكن لديكَ المال الكافي لتأكل فماذا تفعل على طاولة القمار يا رجل! ثم إننا سئمنا كل مساء من الاستماع لأصوات (الزَحْك) التي تصدر من أسنانه. صدقي، حضرتك، أنه من الصعب تحمل شخص يزحك باستمرار مثل نقار الخشب. في البداية حزنا جميعًا على وضعه. صدقيني لقد فعلنا ما بوسعنا وأكثر، ولكن لكل شيء حدّ. لا يكفيه أي شيء مما نفعله. يأتي كل مساء قبل

الجميع ويجلس إلى الطاولة. يستاء كل من يراه. لقد سئمنا جميعًا من رجل يتذمر باستمرار ويزحك كاللقلق أثناء ذلك.

أقول في نفسي: "حسنًا، ولكن ماذا يمكنني أن أفعل".

- رغم كل ما حلّ على رأسه، لم يحرك ساكنًا للتخلص من وضعه. فهو سيجلس، ونحن من سيجد حلًا لهذا الوضع بالنيابة عنه. لا يمكن لشيء كهذا أن يحدث يا عزيزي! في أحد الأيام السابقة اتصلنا بزوجته السابقة هاندان خانم. حكينا لها معاناتنا، ولكن المرأة المسكينة لم تستطع أن تقول شيئًا. في النهاية خطرتِ أنتِ في بالنا. سيدتي الطبيبة أرجوكِ أنقذينا من هذا الرجل. أنتِ آخر حلولنا. لقد قلب حياتنا جميعًا. صدقيني، نحن لا نتحفظ بالمال عنه. لو يجلس في منزله سنجمع له نقودًا تكفيه لملء بطنه كل شهر، ولكنه لا يجلس. يريد أن يتابع حياته القديمة وكأن شيئًا لم يحدث. لقد نفد صبرنا جميعًا. عندما يبدأ بالزحك ننظر في عيون بعضنا ونمسك أنفسنا عن الضحك بصعوبة. هل جن أم ماذا؟

إنه محق، فهذه أشياء لا يفعلها رجل عاقل. أتذكّر ما قاله لي في آخر زيارة. حين طلب مني أن أشتري له منزلًا، وأودع مبلغًا من النقود له في المصرف.

- لو رأيتِ لباسه وهندامه لتعجبتِ. وبالنسبة لمنزله فما يزال كالقصر.. لديه قطع أثرية غير موجودة عن أحد. لو يبيعها فمن يدري كم سيجني؟ أعتقد أنكم تعرفون هاندان خانم أيضًا. إنها سيدة مرموقة لأبعد درجة. لقد غضّت المرأة الطرف عن كل شيء طوال سنوات، وعانت كل أنواع الحزن، ولكن ماذا يمكن لها أن تفعل؟ في النهاية هي الأخرى لم تعد تتحمل. غادرت. هذا الإنسان فيه لمسة شيطانية. تنصعق كل امرأة تراه. وهو ما شاء الله لا يفوّت أي واحدة منهن، ولكنه ظلم الكثيرات. أساء للعديد من النساء. بالطبع هذا ما سيصيبه في النهاية. في ذلك الوقت، قلنا له الكثير من هذا الكلام، ولكنه لم يكن يستمع، ولم يقلل من مباهاته

علينا أيضًا، ولكن يبدو أن الطريق انتهى. والآن يحاول أن يدفّعنا نحن ثمن ذنوبه. قبل أيام، طلب من أحد العاملين في الملهى نقودًا. وهل يُطلب نقود من شخص كنتَ في الماضي تعطيه إكرامية؟ لم يعد في هذا الرجل حياء أبدًا. أرجوكِ سيدتي الطبيبة، أنقذينا من كنان.

- ماذا تريدني أن أفعل؟
- أنتِ طبيبته. قولي له ألا يخرج من منزله، ولا يأتي إلى الملهى مرة أخرى، ولا يلعب الورق معنا، وأن يتناول أدويته، ويجلس في منزله. وإلا فإننا سنكسر خاطره. لا نريد فعل ذلك. فهو على الرغم من كل شيء صديقنا القديم. ثم ليقتصد بصرف نقوده. لا يمكن لأحد أن يعطيه نقودًا فقط لمجرد أن يعيش برفاهية. ألستُ محقًا؟

لا أعرف ما أقوله لسميح بيك. في الحقيقة، ما يقوله صحيح، أعرف ذلك. وهو يفعل أشياء مشابهة معي. وسميح بيك مدرك أنني لا أستطيع أن أساعدهم كثيرًا في هذا الموضوع، ولكنه ربما أتى إلى هنا ليفرغ ما في قلبه قليلًا.

ينتشر ألم خفيف في داخلي. هل كانت لي يد، أنا الأخرى، فيما آل إليه يا ترى؟ أين ارتكبت خطأ؟

* * *

بعد عدة أشهر يقرع كنان بيك بابي مجددًا. أين كنان بيك القديم من هذا الرجل العجوز الجالس أمامي.. يبدو منفعلًا ومضطربًا. أصبحت الرجفة في حنكه واضحة تمامًا وتؤثر بشكل سيء على كلامه. أتذكر سميح بيك وكلامه حول الزحلك بالأسنان.. حقًا إن الصوت الصادر من أسنانه أثناء كلامه يزعج الإنسان. أعاينه عدة مرات لأتأكد إن كان ما أصابه هو مرض باركنسون، ولكنه ليس كذلك. عندما ينتهي قسم السؤال عن الحال والمعاينة يبدأ بالكلام. يبدو أن هنالك أشياء يريد أن يشاركني إياها.

يقول إنه تعرّف بامرأة قبل فترة. في إحدى الصباحات ذهب إلى الفرن ليشتري فطائر لنفسه، وهناك صادفها. توددت المرأة إليه. جلسا إلى الطاولة وبدأا بتبادل

الأحاديث. إنها متوسطة العمر، ذات ملابس هزلية، تتكلم كثيرًا، وغريبة قليلًا. في اليوم الأول لتعارفهما، وبعد خروجهما من الفرن، ذهبا إلى منزل كنان بيك. هي خريجة جامعية، ولكنها لا تبدو كذلك عند النظر إلى حالها وسلوكها. في البداية لم يرد كنان بيك أن يصدقها، ولكن المرأة أخرجت شهادتها من حقيبتها وأرته إياها.

أجد الأمر غريبًا أن تحمل المرأة شهادتها في حقيبتها، ولكن يا للعجب مما يوجد في تلك الحقيبة... يقول إنها متزوجة، ولديها ثلاثة أطفال. ابنة عائلة مشهورة وغنية جدًا، لدى زوجها مصانع. بدا كل هذا هراء بالنسبة لكنان بيك، ولكن هذا أفضل من بقائه وحيدًا.

يقول إن المرأة ليست من أنقرة، في الواقع، وإنما أتت إلى هنا من مدينة أخرى. عانت من الملل، فأتت إلى أنقرة من أجل التغيير قليلًا. وجدت لنفسها منزلًا هنا. كانت تقول الكثير من الأشياء، إلى درجة أن كنان لم يكن يصغي لأكثرها. ثم إن كلامها لا يتطابق مع بعضه. في يدها هاتف محمول من أحدث موديل. من يدري كم ثمنه.

لم تكن هي المرأة التي يريدها على حد قوله، ولكنه مع مرور الوقت اعتاد عليها. فهو يخاف من الوحدة كثيرًا، وعندما لا تأتي المرأة تبقى عيناه على الطريق. كما أن المرأة وقحة للغاية. في بعض الأحيان كانت توبّخه بشدة. ووقتها لا يصدر كنان صوته نهائيًا، وعلى العكس تمامًا فإن المرأة تصرخ كثيرًا لدرجة أنهما يتعرضان للفضيحة في البناية.

يقول إن هذه المرأة لا تخجل ولا تشكو من أي شيء، ولكنها تعد مائدة جميلة كل مساء، يشربان الكحول كل يوم حتى الصباح. تتناول أحيانًا أدوية غريبة تُخرجها من حقيبتها. كالأدوية التي تحتوي ليثيوم أو ما شابه... تغضب بسرعة، ولكنها سرعان ما تلين.

تقول سآتي، ولا تأتي. تقول لن آتي، فتخرج في الصباح الباكر، وتأتي. لا يكف كنان بيك عن القول عنها "هذا ما تفعله الوحدة بالإنسان". أستمع إليه بقليل من الدهشة والحزن. إذن فالمرأة تستخدم أدوية الليثيوم!

ومع مرور الوقت اكتشف اختفاء بعض الأشياء من المنزل. لم يخطر في باله أن تكون المرأة هي التي أخذتها، لأن ما يضيع هي أشياء غريبة. حيث بدأ بالاختفاء من منزله، بالتسلسل، ربطة عنق حريرية أولًا، ثم سترة كشميرية، وطقم رسمي موضوع في كيسه منذ سنوات، ومسبحة من فضة. وفي النهاية، عندما اختفت النقود والبطاقات الائتمانية من جزدانه، عاد إلى رشده. لم يذهب إلى الشرطة لأن الشرطة كانت أساسًا تبحث عنه. المصارف ودوائر الضرائب أيضًا تلاحقه. ولهذا السبب فإنه يُخفي عنوان سكنه عن الجميع. فلو قبضوا عليه سيحجزون على كل ممتلكاته. وعلاوة على ذلك فهي امرأة غريبة جدًا، لدرجة أنها تسرق، وتواظب على المجيء إلى المنزل وكأن شيئًا لم يحدث. وأثناء مجيئها، أيضًا، تكون يداها ممتلئتين، فتصعد الأدراج بصعوبة. تشتري الخضار، والفاكهة، واللحوم، والدجاج، والسمك، وزجاجات الكحول الممتلئة، ثم تتجه إلى المطبخ وكأنها سيدة المنزل، وتصنع الطعام. تحضر مائدة لا ينقصها سوى لبن العصفور! يجلسان سوية ويتناولان الطعام والشراب. ولكن عند حلول الصباح تأخذ شيئًا من البيت وتخرج باكرًا.

يتجهم ويهز رأسه يمنة ويسرة، ثم ينظر إليّ بعينين متسائلتين.

- هل هذه المرأة مريضة برأيكِ؟
- للأسف نعم. قلتَ بأنها تتناول الليثيوم. هذا يعني أنها تعاني من نوبات هلع.
- وماذا يعني ذلك؟
- "الاضطراب الثنائي القطب" مرض شائع في جميع أنحاء العالم. يأتي على هيئة نوبات، ولكن المرأة التي ذكرتها تعاني من نوبات شديدة للغاية. في هذا النوع من المرضى تختفي آلية التحكم تمامًا. يبالغون في كل أمر. يغضبون بسرعة، ولا يدركون ماذا يفعلون عند غضبهم. ينفقون الكثير من النقود، يكذبون، ويميلون إلى ارتكاب الجرائم. هذا الدواء الذي يتكون من مادة كربونات الليثيوم النشطة، يُستخدم حتى لا يعاني المرضى مرة

أخرى من أي نوبة، ولكن من الواضح أنها لا تتناول الدواء بشكل منتظم. ربما تُعتبر هذه المرأة خطيرة بالنسبة لكَ. أرجوكَ أن تبتعد عنها.

- هكذا إذن؟ في الواقع أنا مدرك جنونها بعض الشيء، ولكن حتى مفاتيح منزلي معها. إنني أخاف منها من جهة، وأنتظرها بفارغ الصبر من جهة أخرى. الوحدة أمر صعب! ولا أحد غيرها يتصل ويسأل عن حالي. فقدتُ سمعتي القديمة أيضًا. لو بقيت أفكر أربعين سنة لما خطر ببالي بأنني سأصير على هذه الحال. وبعد كل هذا بقيت مع هذه المرأة. إنها مجنونة، وليكن. فعلى الأقل هي بجانبي.
- كنان بيك، إن هذه المرأة مريضة! لا يمكن توقع ما ستفعله! يمكن أن تسبب لك خطرًا. انظر، لقد أتيت إلى هنا لتسألني عن هذا الموضوع، وأنا أجبتك، ولكنك ما زلت تقرأ ما تعرفه. لا تفعل هذا!
- وماذا يمكنها أن تفعل لي؟ ثم إنها أخذت ما تريده. لقد أخذت كل ما هو ثمين في المنزل. لا يمكن أن تصل بها الحال لأن تحضر شاحنة وتأخذ أغراض المنزل.. لا تقلقي بشأني. بما أنني علمت بأنها مريضة، فسأتصرف معها بحذر من الآن فصاعدًا.

بعد قوله هذا، يخرج من الغرفة مسرعًا. لا يريد الحديث معي كثيرًا اليوم. أرافقه حتى الباب كالمعتاد.

ربما أغلقت آلياتُ اللاوعي جميع الطرق. لم يعد لديّ أي مجال لأصل إليه. مع أنه لو طبق العلاج بشكل منتظم، ولو رأى ما تمكنت أنا من رؤيته، ولو استطعت أن أقرأ له ما نقشه القدر، لربما تمكنا من تغيير الكثير معًا. وفي النهاية استسلم لمشاعر الذنب، وهو يعيّش نفسه جحيمًا على الأرض. ومع أنه علم بأن تلك المرأة مريضة إلا أنه لن يتخلى عنها. يمكنه حتى المخاطرة بحياته من أجل هذا. إذن فالوحدة بالنسبة لكنان بيك أسوأ من الموت! إن كان كذلك، فإن العقاب سيأتيه من أكثر مكان يؤلمه.

أعتقد بأن الإنسان عند اختياره قدرًا كهذا، فإن الحياة ستدعمه حتى النهاية. هل يمكننا اعتبار ظهور هذه المرأة في حياته محض مصادفة؟

* * *

إنه أحد أيام أنقرة السخامية والضبابية. ومع أن الوقت ما زال مبكرًا، إلا أنه من الصعب رؤية السماء. نحن الأنقراويّون معتادون على هذا الطقس. حتى لو كان ضبابيًا، أو سخاميًا، فهي في النهاية مدينتنا. فمن ولد هنا وقضى عمره هنا، سيجد بأي وسيلة شيئًا ما يحبه فيها. حتى لو زرنا أجمل الأماكن في الدنيا، فإننا ندرك اشتياقنا لأنقرة عند عودتنا، لأن في كل زاوية ثمة ذكرى من الماضي بانتظارنا.

وكالمعتاد، أرى مريضًا في غرفتي التي في العيادة. جدول مواعيدي ممتلئ مجددًا. على الرغم من أنني أبذل قصارى جهدي في إدخال المرضى في وقتهم المحدد، إلا أن بعض التأخير لا بد أن يحدث. وحوالي الساعة الثالثة، تركض تونا إلى غرفتي. بما أنها مضطربة كل هذا الاضطراب فلا بد أن مشكلة قد حدثت.

– غول سيران خانم، لقد أتى كنان بيك. حالته سيئة جدًا! هل تذكرين اليوم الأول الذي أتى فيه إلينا؟ حدث الشيء نفسه، تمامًا. يتجول في الصالة ذهابًا وإيابًا. ولكن هذه المرة خاف المرضى من حالته. هلّا أدخلناه أولًا؟

– حسنًا، لندخله. ماذا حدث يا ترى؟

بينما تونا خارجة من الباب، يظهر كنان بيك. يدخل وهو مرتجف وينفخ. يا إلهي، ماذا حل بهذا الرجل! إنه كالشبح...

– أنقذيني، أرجوكِ حضرتكِ أنقذيني. لا أستطيع التنفس، سأختنق.

أنقذيني.. بدلًا من أن يفعل شيئًا ليتم إنقاذه، يركض باتجاه إحدى النساء مجددًا. ألن يكبر هذا الرجل أبدًا؟ على الرغم من أن عقله لم يكن سليمًا، إلا أن مشاعره استقرت عندما مكث في المستشفى وهو في ذلك العمر. يقول فرويد بأن الهوس الذي يظهر في هذه الفترة فيما يخص الهوية الجنسية يمكن أن يؤدي إلى ضعف أو تشويش. عندما أفكر بما حكاه لي عن تلك السنوات، يستحيل ألا أتفق مع فرويد فيما قال. ربما

لهذا السبب يحاول التمسك بالحياة كرجل كامل، أو حتى كرجل متميز.

- تعال، لتجلس هنا، ماذا أصابك؟
- لا، لا أستطيع الجلوس. لو تعرفين ماذا حلّ بي؟ قشّرتني (سَمرا) ورمتني مثل البصلة.
- من هي سمرا؟
- تلك المرأة التي حكيت لكِ عنها في ذلك اليوم.

إذن فقد حدث ما فكرت به. إنه لا يصغي للنصح أبدًا. ماذا فعلت المرأة يا ترى؟ أفتح الدروج فورًا باحثة عن دواء يمكن أن يريحه. عندما أعطيته الحبّة في يده، بلعها دون أن ينتظر من تونا إحضار الماء.

- ستمر هذه الحالة بعد قليل وترتاح. تملّكني الفضول لمعرفة ما حدث.
- قلتِ لي ابتعد عن تلك المرأة. ومجددًا لم أفعل ما قلتِه لي. التجأت إليها. التجأت إلى مجنونة. تعلمين أن واحدًا من مفاتيح منزلي معها. انتظرت خروجي من البيت، ثم أحضرت شاحنة إلى الباب وشحنت كل شيء موجود في البيت.
- ماذا تقول يا كنان بيك؟ وكيف يمكن أن يحدث شيء كهذا؟
- حدث وانتهى الأمر. قلت لكِ في آخر زيارة لي "لا يمكن أن تصل بها الحال لأن تحضر شاحنة". ولكن يبدو أن المرأة أكثر جنونًا مما كان يتهيأ لي. شاهدها الجيران، وحتى البواب، ولكنهم ظنوا بأنني على علم، لأنها تأتي إلى البيت باستمرار. لم يخطر في بال أي منهم شيئًا سيئًا. حتى إنها طلبت المساعدة من البواب. انظري إلى هذه الجرأة، تسرق منزلي في وضح النهار وعلى مرأى من الجميع! أكثر أغراضي قطع أثرية قديمة. إنها قيّمة جدًا. كانت هي آخر ما تبقى معي.

ما يزال كنان بيك واقفًا على قدميه، يتكلم وهو يجول في الغرفة. أثناء كلامه يتوقف باستمرار لاهثًا أنفاسه. وحقًا إن كل ما تبقى في يده كانت تلك الأغراض.

- تلك المرأة الوقحة، أخذت حتى أغراضي الخاصة. إنكِ تعلمين كم أهتم بملابسي وهندامي. القمصان الماركات، ربطات العنق الحريرية، السترات الكشمير، المعاطف الصوفية الخالصة، الحقائب الجلدية... المرأة الظالمة أخذتها كلها. هل يمكنكِ تصور ذلك؟ لقد أخذت حتى ملابسي الداخلية. لم أعد أملك أي شيء سوى ما ترينه عليّ. أصبحت أجرد. ولا أملك نقودًا لأشتري ثيابًا جديدة!

يا إلهي! ماذا سيفعل هذا الرجل الآن، إلى من يلجأ؟

- لقد تعبتَ، لتجلس قليلًا! هل تشرب الشاي الخفيف إن قدمته لك؟
- حسنًا، أشرب. هل يوجد بعض البسكويت أو أي شيء؟
- يوجد، يوجد.. سأخبر تونا بأن تحضر الآن..

أشعر بالغرابة. إذن هو جائع! ألا يملك هذا الرجل نقودًا ليأكل حتى؟ أضغط زر الهاتف على عجل وأخبر تونا بأن تحضر الشاي وبعض الكعك. أما هو ينكبّ على الأريكة المقابلة للطاولة مباشرة. بعد قليل تدخل تونا وبيدها صينية فيها فنجان مليء بالشاي، وصحن مليء بالسندويش البارد والكعك. وبعناية تضع ما في الصينية على الطاولة الموجودة أمام كنان بيك، وتبتسم له قليلًا. وفي النهاية تضع بعض المناديل الورقية أمامه. لم يتجاهل كنان بيك الشكر أبدًا، مع أنه ليس بحالة تمكنه من القيام بذلك اليوم. تقول تونا "بالصحة والهناء" وتخرج من الغرفة.

كان كنان بيك يأكل من جهة، ويتابع كلامه من جهة أخرى.

- ماذا سأفعل الآن؟ أرجوكِ أرشديني يا غول سيران خانم!
- هل أخبرت الشرطة؟
- عندما أتيت إلى المنزل ورأيت الوضع ذهبت إلى الشرطة فورًا، فعلت ذلك لأنه لم يعد لدي ما أخسره. تقول الشرطة "سنجدها، لا تقلقوا" ولكن ليس من المعلوم متى سيجدونها. ثم، لو وجدوها، من يعلم في أي حالة ستكون أغراضي الجميلة. ضاعت من يدي كلها. هذه المرة

المصارف هي من سيحجزها. كما ترين، حضرتك، ليس لدي سرير أنام عليه، أو ملابس أرتديها. أفلست، وانتهى أمري! ليس في جيبي ولا حتى خمسة قروش! لم أعد أملك نقودًا لآكل حتى. كما أنني لم أدفع لكِ منذ وقت طويل. أرجوكِ افهميني قليلًا. إنني رجل أحفظ ديوني. أسجلها كلها في دفتر ملاحظاتي. إنني مدين لأصدقائي أيضًا وليس لكِ فقط. سأدفعها في يوم من الأيام بالتأكيد. كيف صرت على هذه الحال؟ كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث؟ أحيانًا أتساءل بيني وبين نفسي إن كنت أحلم أم لا. أقول إن هذا كابوسًا، وسأستيقظ منه الآن، وأجد نفسي داخل حياتي القديمة. لكن هذا الكابوس لا ينتهي بأي وسيلة، وأنا لا أتمكن من الاستيقاظ. قبل عدة سنوات كنت أملك التريليونات. أما الآن...

كيف يمكن للإنسان أن يسقط بهذه السرعة؟ أنا أيضًا لا أستطيع الاستيعاب.

بعد أن ينهي كنان ما في الصحن بسرعة، يتابع كلامه.

- إنني رجل أعمال، ورجل الأعمال على الحافة دومًا. يمكن أن تكسد وظائف الجميع ذات يوم. كم مرة انحسر أصدقائي في الزاوية وخرجوا، الكثير من الناس أفلسوا، ولكن أحدًا منهم لم يحل به ما حل بي. عانوا لبعض الوقت، لكنهم سرعان ما جمعوا شتاتهم. ابتعدوا قليلًا عن الرفاهية، انزعجوا قليلًا، وهذا كل شيء.. لكن ما حدث معي مختلف! لا شيء يتحسن. وعلى العكس من التحسن، إنني أغرق أكثر مع مرور الوقت. يا لي من رجل غبي! ألا يفكر الإنسان بمستقبله أو يؤمن نفسه أبدًا! كيف يمكن أن أكون بهذه السذاجة؟ أنهيت نفسي بنفسي. غرقت حتى حنجرتي. لم يعد أحد بجانبي، تركني الجميع. بقيت وحيدًا تمامًا! كان أكثر ما يخيفني هو البقاء وحيدًا، ولكنني أعلم بأن كل ما حل بي هو من وراء فادي العاهرة تلك. قضت وقتها وهي تدعو عليّ. انظري لقد حل عليّ البلاء. هنيئًا لها.

يُفرغ كنان بيك ما بداخله كالشلال. يا لكثرة الأشياء التي يريد قولها! كان يستشيط غضبًا منذ اليوم الأول لمجيئه إلى هنا. لا يوجد في الحياة من لم يغضب منه، أما فادي فمكانها مختلف. فهي دائمًا في صدر البيت.

- أظن أن هانداان قد لعنتني هي الأخرى. لم تقل لي ذلك صراحة في وجهي، لعلها فعلته من ورائي. لو فعلتُ ذلك أنا أيضًا، لحل البلاء على كلتيهما، وليس عليّ وحدي.

أضحك على هذه الكلمات بألم.. ما زال يعتقد بأنه ابتلي بسبب الدعاء، لا يعتبر أن لنفسه جزءًا من المسؤولية. إن كنان بيك يائس حقًا! أعرفه منذ سنوات، وكأنه غدا جزءًا من حياتي. كنت شاهدة على ما عاناه من ألم. يدفع ثمن خطاياه بنفسه. أنا أيضًا لم أستطع إيقاظه. أحزن لهذا الوضع من جهة، وألوم نفسي من جهة أخرى. أما هو فيتابع الكلام.

- لو لم تمت أمي لما حدث لي شيء من هذا. على الأقل كانت دعت لي وحمتني من لعنة هذه النساء. إلى متى سأتحمل هذا؟ سأموت. إنني أخاف كثيرًا من الموت. هل سأموت فورًا برأيكِ؟
- لا تقل هذا يا كنان بيك، من أين خطر الموت في بالك؟ إنكَ سليم تمامًا.
- لست شخصًا متدينًا أيضًا. لم أصلّ ولم أصم في حياتي. ليتني قمت بتلك الأشياء ولو قليلًا. أسوأ ما في الأمر أنني عندما أموت سأذهب إلى جهنم. الرب غاضب مني أيضًا. قولي لي أليس غاضبًا؟

مشاعر الغضب والذنب تتبادل الأماكن من حين لآخر!

- ليس هو الغاضب، بل أنتَ.
- لا، لا. أعلم أنه غاضب مني. إن لم يكن كذلك، فهل كان سيعاقبني بهذا الشكل؟ أنتِ أيضًا ترين، لم يبقَ شيء لم يصِبني. حتى سمرا هذه وجدتني في مدينة بحجم أنقرة. لو لم ألتقِ بها لكنت أتدبر أمري وأعيش. على الأقل كان لدي منزل أدسّ رأسي فيه، وسرير أنام عليه، ولباس أرتديه. أما الآن فقد ذهبت كلها.

- كنان بيك، لتهدأ أولًا، ثم نتحدث عن المشكلة التي بينك وبين الله. لنقل بأنه غاضب، ولكن أنت أيضًا تعاني من العذاب منذ سنوات، تألمت كثيرًا. ألم يغفر لك إلى الآن؟
- لا، لا. لن يغفر. ثم هناك شيء اسمه واجب العبد. الله لا يغفر حق العبد.
- ألم تلحظ بأنكَ أنتَ أيضًا لم تفعل شيئًا ليغفر الله لك؟

ينظر إليّ بعينين غاضبتين. أرتكب خطأ. هل يجب عليّ أنا أيضًا أن أقطع أملي منه؟

- أنتِ أيضًا ما عدتِ تفهمينني. وماذا بإمكاني أن أفعل؟ أقول لكِ بأنني قد علقت في المنتصف.
- حسنًا يا كنان بيك، لقد فهمت. لنفكر الآن بصحتكَ.
- لن أشفى بعد الآن. لن أشفى! أنتِ الوحيدة التي بقيت لي، لا تتركيني أيضًا. أرجوكِ، استمري في البقاء بجانبي. أنتِ أيضًا لا تديري وجهكِ لي. سأدفع ديوني المستحقة لكِ. يكفي ألا تتخلي عني.
- هذه أمور ليس بتلك الأهمية يا كنان بيك. يكفي أن تشفى بأسرع وقت ممكن. إن أي شخص آخر يمكن أن يصيبه ما أصابك بعد الذي حدث. إن استجمعت قواك قليلًا فإنني متأكدة من أنك ستجد حلًا. الحل الوحيد لتستجمع قواك هو ألا تغضب من نفسك إلى هذه الدرجة.. أرجوك، لا تنهمك بتقريع نفسك في هذه الفترة. ثم إنك حزنتَ بما فيه الكفاية.
- إلى أين سأذهب الآن بعد خروجي من هنا؟ أنتِ أيضًا تطردينني. لا أحد يستمع إليّ. هل تريدين أن تُخرجيني من هنا بسرعة لأنني لا أستطيع دفع النقود؟
- ما هذا الذي تتفوه به يا كنان بيك؟ يمكنك الجلوس هنا بقدر ما تشاء.
- وماذا سيحدث للمرضى الذين ينتظرون؟
- أنتَ لم تفكر بهذه الأمور في السابق.

- أعتذر، أعتذر. لقد ارتكبت الكثير من الأخطاء بحقكِ، أليس كذلك؟
- لا، أنا لم أقل شيئًا كهذا. اليوم هو يوم خاص! وضعكَ حرج، وأنا أحاول مساعدتك باعتباري صديقة قديمة.
- لقد أغضبتكِ الآن. لن تقبليني بعد الآن نهائيًا. إن خرجت من هذه الغرفة فلن أدخلها مرة أخرى. أعرف ذلك.

إنه مضطرب تمامًا. لم يعد لديه أي إمكانية لإجراء محادثة. يرتجف كل جسده ابتداءً من أسنانه. وأنا احترت، لا أعرف ما أفعل. أريد أن أساعده، ولكن كيف؟ أفضل شيء الآن هو السكوت، والانتظار ريثما يهدأ قليلًا.

- لأبقى قليلًا في هذه الغرفة، ولنتحدث. كم أحتاج للحديث مع أحد ما. أرجوكِ، أتوسل إليكِ.
- أسند ظهركَ واجلس بشكل مريح يا كنان بيك. إنني أستمع إليك.
- أسند ظهري؟ إنني لا أستطيع الحراك من مكاني بسبب ما أعانيه، فكيف لي أن أسند ظهري؟
- اجلس كما تريد.
- لم تعامليني بهذه الرقة من قبل. إنكِ تعاملينني الآن باعتباري مجنونًا.
- لا. أريدكَ أن ترتاح. أنا أدرك مدى المعاناة التي تعانيها. انظر، إن هذا المكان هو أكثر مكان ترتاح فيه. لمَ تعلّق الآن على كل ما أقوله؟ أريدك أن تنجو من هذه المعاناة بأسرع وقت ممكن. ألست طبيبتكَ منذ سنوات؟
- بلى، إنكِ كذلك.. ولكن لا تتركيني.
- ولماذا أتركك؟ كل الأدوية التي تأخذها موجودة عندي. الآن سأعطيك إياها. وأنت بدورك ستعطيني وعدًا بأنك ستتناولها بشكل منتظم.
- هل ستقضي هذه على معاناتي؟
- ستقضي. ستقضي عليها الآن كما قضت عليها من قبل.

- أعلـم، إننـي أُحزنـكِ أيضًـا. الصـالة مليئـة بالزبـائن. المرضـى ينتظـرون خروجي بفارغ الصبر. وعلاوة على هذا فقد أعطيتِني دورهـم ومـع ذلـك فلا أستطيع الخروج.
- حسنًا، لا تستعجل. لتجلس قليلًا.

إنني الآن أتحرك ببطء. وأثناء إعطائي الدواء لكنان بيك لا أسـرع أبـدًا. أتمنـى لو كنت أستطيع فعل أكثر من ذلك..



- هل كتبتِ طريقة الاستعمال عليها؟
- إنني أكتب.
- هل أستطيع زيارتكِ مجددًا؟
- بالطبع، أنتظركَ في كل وقت، ولكنني أحبذ أن تأخـذ موعـدًا مـن تونـا قبـل المجيء. وقتها يمكننا الحديث براحة أكبر، ولفترة أطول.
- وهل يمكن لتونا أن تعطيني موعدًا؟
- طبعًا.
- جيد، لأذهب إذن.. لـم أنسَ شيئًا أليس كذلك؟

يـئن مـن جهـة، وينظـر حولـه مـن جهـة أخـرى. أقـول في داخلـي: "يـا إلهـي، اغفر له".

(18)

عندما صار كنان بلا منزل، أو مأوى، أو دون أي نقود، لجأ إلى سائقه السابق إسماعيل. كان إسماعيل يعيش مع أطفاله في منزل مؤلف من ثلاث غرف في بناء متواضع. عندما رأى رب عمله السابق بحالة تعيسة ذُهل بداية، ولكنه اضطر لاستقباله في منزله. أفرغوا واحدة من الغرف وأعطوها لرب العمل. يئن باستمرار ويشتكي دائمًا من شيء ما، ولأنه كان يغمغم أثناء الكلام فأي شيء مما يحكيه لم يكن مفهومًا. ثم هنالك الأصوات الغريبة التي كانت تصدر من أسنانه مثل نقار الخشب، فهذا كان أكثر شيء لم يستطيعوا تحمله.

هم عائلة تعيش على قدر إمكانياتها. في الواقع، إن طفليه كبرا، ولكن أحدهما يدرس والآخر يعمل أجيرًا في دكان قريب. أما زوجته فقد كانت تنظف البيوت ثلاثة أيام في الأسبوع، وغالبًا ما يكون ذلك في المساء، على الرغم من عدم وجود سيارات الأجرة بشكل مستمر في موقفها الذي على الزاوية. ومع أنهم عاجزون عن الاعتناء بأنفسهم، فإلى متى سينشغلون بهذا الرجل!

بالطبع هذا ما سيحدث. استمرَّ أنت بالأكل، والشرب، واللهاث وراء النساء، وعدم الاهتمام بالعمل، سنوات، وعندما تنفد نقودك الجأ إلى منزل سائقك، وكأنه لا يوجد مكان آخر تذهب إليه! أين شوهد شيء كهذا؟ كان يتفاخر وكأنه لا يوجد من هو أعقل منه. قال لكنان بيك أشياء كهذه مرارًا، ولكنه كان يسكته فورًا. لو لم يقلل من شأنه ويناديه بـ "السائق" لربما ما آل إلى هذه الحال. ففي النهاية قد أغضب الله أيضًا.

تشتكي (أمينة)، زوجة إسماعيل، من هذا الوضع كثيرًا. هيّا، لتكن ثلاثة أيام، أو خمسة، لا مشكلة في ذلك، ولكن الرجل، على هذا المعدل، لن يغادرنا حتى آخر العمر. ما الذي يضطرهم للاعتناء به؟ في الماضي كان قد أعطاهم الكثير من المال،

ولهذا السبب وصلت بهم الحال إلى ما هم عليه، ولكن زوجها عمل كثيرًا مقابل هذا المال. كان في بعض الأحيان لا يأتي إلى المنزل حتى الصباح، لأن رب عمله كان يناديه، وبينما كان يقضي وقته مستمتعًا، كان إسماعيل ينتظره متسكعًا في الشوارع.

ثم، وهل كان الرجل هكذا في السابق؟ من يلقِ نظرة عليه، كان يعاود النظر. في ذلك الوقت، كانت رؤية رب العمل من بعيد بحد ذاتها حادثة مهمة. عندما كان إسماعيل يعود في المساء، ويحكي لهم عنه مطولًا، فمن الطبيعي أن يثور فضول الجميع حول هذا الرجل. في النهاية لم يستطع إسماعيل تحمل فضول زوجته، فسمح لها بالذهاب إلى الملهى في أحد المساءات. صُعقت بمجرد رؤيتها الرجل. تبين لها أن زوجها لم يقل عنه سوى القليل. الرجل يرمي الفنانين بالحجارة، ومن شدة تفاخره لم يكن من الممكن الاقتراب منه. بما أنه سيأتي إلى هذا البيت، فيا ليته أتى في ذلك الوقت! كانت نظراته جميلة، لم يكن محتاجًا لأحد، ولم تكن لتطرده حتى لو أراد هو ذلك. ولكن عندما رأت وجه الرجل الآن فار الدم في رأسها، وشعرت بغثيان في معدتها، وتمسك نفسها بصعوبة حتى لا تقرف.

وعلاوة على ذلك كان يلمس كل شيء بيديه الوسختين تلك. نفد صبر الطفلين أيضًا، وما عاد أي منهم يأكل أي شيء يلمسه. عندما لا تذهب إلى العمل تبقى معه في المنزل بمفردهما. ينظر إليها بطرف عينه. ما يزال نقار الخشب القذر يحسب نفسه شيئًا ذا قيمة. ألا ينظر في المرآة أبدًا؟ ألا يعرف بأن حنكه يرتجف، وأسنانه تطقطق وتزحك مثل نقار الخشب؟ إن كان سينظر ولا بد، فلماذا امتنع حتى عن السلام عليها عندما جاءت إلى الملهى في ذلك اليوم؟

ركبوا قفلًا للثلاجة. عندما يخرجون يقفلونها. على أية حال هو يأكل ما تصل إليه يده على المائدة عند وجودهم معه. انزعج رب العمل من هذا الفعل، ولكن لو لم يعجبه الحال لكان حمل نفسه وغادر، فهم لا يجبرونه على البقاء هنا. وكم مرة فعلت الفتاة الكبرى بهذا الرجل ما هو أسوأ من الطرد، ولكن ما عاد فيه ذرة كبرياء.

في النهاية بدأ حتى الابن بتوبيخ الرجل. إن لم يشفق عليه الله، فهل سيشفقون عليه هم؟ إن الله تعالى يحاسبه على أفعاله الآن، وبهذا الشكل كان يبتلى الرجل. إسماعيل كان يعرف الأمر جيدًا، ولكن ربما استجيبت آهات تلك الفتاة التي اسمها فادي، أو مادي! أخذها إلى حضنه وهي ما تزال طالبة. ولكن، لو لم الفتاة ميّالة لذلك لما سارت الأمور على هذا النحو، ولكنه مع ذلك استغلّ تلك المسكينة طوال سنوات دون أي رحمة. استغلها فماذا حدث؟ تتسكع الفتاة الآن في أزقة إسطنبول.

كان إسماعيل غاضبًا جدًا هو الآخر، ولكنه يخاف الله، فيحاول إدارة الوضع. زوجها لا يرى وجه هذا الرجل طوال الوقت التي يرونه فيه. كان يغادر المنزل بحجة أن لديه عملًا. شياطين عقلها تقول لها: "اتركيهم أنت، في أحد الأيام، وغادري، وليروا"، ولكنها كانت تخاف من إسماعيل. فالرجل كان غاضبًا أساسًا، وكان يمكنه أن يخرج غضبه عليها.

لم يعد الأصحاب والأصدقاء يزورونهم. في الأيام الأولى تدفق الناس تدفقًا لرؤية الرجل، ولكنهم بعد ذلك سحبوا أقدامهم. وعندما يأتي أحد إلى المنزل كان كنان يجلس مقابله ويبدأ بالكلام. ويا ليت الكلام الذي يقوله يُسمع! كان ما يقوله غير مفهوم من شدة الزحك والرجفان.

وكأن ما يُدخّنه إسماعيل من سجائر لم يكن كافيًا، فقد كان هذا الرجل أيضًا يملأ المنزل دخانًا بالسجائر التي يدخنها حتى المساء. ولو توفر المشروب في المنزل لكان قد تَسمَّمه، ولكن الشكر لله لم يكن للمشروب مكانًا في المنزل. دخّن، دخّن هذه السجائر، دخّن أكثر علّك تموت بأسرع وقت ممكن، فننجو نحن وأنت أيضًا ترتاح!

من مذكرات طبية

لم يعد كنان بيك يأتي إلى العيادة بشكل مستمر كما كان في السابق. ورغم ذلك فإنني أفكر فيه باستمرار. كما أنني قلقة عليه، وخائفة عليه. أنظر إليه بصفته صاحبًا وصديقًا قديمًا عاني من ضربات الحياة. حدثت له أشياء سيئة، وعاني الألم لدرجة أنه عندما صار يأتي إلى هنا، ولو نادرًا، أفعل ما بوسعي لتخفيف ألمه وجعله يشعر بالطمأنينة.

كيف يمكن لحياة إنسان ما أن تنقلب رأسًا على عقب؟ كيف يجرؤ إنسان على قلب حياته رأسًا على عقب بنفسه ودون أن يدرك ذلك؟ أشعر وكأنني أشاهد مسرحية، تجري أحداثها أمام عيني، ولا يقع على عاتقي سوى المشاهدة. هل من حق أي شخص لا يشكر الله على نعم الحياة أن يتمرد لاحقًا يا ترى؟

ها هو كنان بيك يجلس أمامي مجددًا. ولكن هذا الرجل ليس كنان بيك الذي أتى إليّ قبل سنوات مهيبًا، منتصبًا، ينظر إلى الناس بكبرياء، أنيقًا، نظيفًا، رائحة عطره جميلة، وتحلم كل النساء بمثله.. بل رجلًا مسنًا، مسكينًا، جبانًا، خائفًا، رثًا، شاحب الوجه، مرتجف اليدين والقدمين، يكز على أسنانه باستمرار.

لا بد أنه حلق ذقنه قبل أن يأتي إلى هنا، فوجهه مليء بالدماء. جرح نفسه من كل مكان. أعلم أنه جائع. أساسًا فإن تونا وبمجرد رؤيتها له، تتصل بالفرن القريب منا وتطلب الكثير من الكعك والفطائر. تونا هي الأخرى حزينة لأجله، على الأقل بمقدار حزني. تحضر الشاي بفنجان كبير، والكثير من المناديل الورقية. يأكل بنهم وكأن شخصًا ما أمامه سيخطفها كلها. وفور الانتهاء من طعامه يبدأ بالكلام. وأنا بدوري أستمع إليه بصمت دون أن أقاطعه.

- زوجة إسماعيل تأخذ الراتب مني بمجرد استلامي له. كما أنهم وضعوا قفلًا على الثلاجة دون خجل. أنتظر قدومهم حتى المساء وأنا جائع وعطش.

عندما يأتي الجميع توضع المائدة، ولكنهم لا يُجلسونني إليها لأن أسناني تطقطق. يضعون بعض الطعام في صينية ويعطونني إياه في يدي. حتى إنهم منعوا عليّ مشاهدة التلفاز، والتجول في الأرجاء، وتدخين السجائر أيضًا. أتضايق كثيرًا كلما فعلوا ذلك، فأركض إلى النافذة فورًا وأفتحها. حتى إنهم يغضبون من أجل هذا. يقولون لي هل أنت من تدفع نقود التدفئة؟

أثناء حديثه تنهمر الدموع من عينيه كالمطر. في السابق، كانت عيناه تدمعان في بعض الأحيان، ولكن في تلك الدموع كان ثمة شيء مسرحي. كنت أشعر بأن هدفه كان التأثير عليّ وليس البكاء. أما الآن فهو يبكي بالفعل.

- لو متّ سيرتاح الجميع. سينسونني فورًا. لا أريد لنفسي أن أكون منسيًا. فعندما يكبر الذئب يصبح أضحوكة للضباع.

وكأن نبرة صوته تغيرت أيضًا. ذهب ذلك الصوت الخشن الخصب، وحل محله صوت ضعيف، متصدع، جبان.

- أعيش دائمًا على ذكريات الأيام القديمة. أشعر وكأن معجزة مفاجئة ستحدث وسأعود إلى تلك الأيام. ولكنني مع ذلك لست عديم الرحمة مثلهم. سأشغّل إسماعيل عندي مجددًا. سيأتي الدور أيضًا على أصدقائي الذين لا يتصلون بي، أو يسألون عني في هذه الأيام. سألبس وأتهندم، وأطلق ضحكاتي مجددًا. وعندها سيأكلهم الحسد. ستأتي إحدى النساء وتذهب الأخرى. هنّ أيضًا سيأكلهنّ الحسد.

ثمة أمامي عقل وروح لطفل صغير. لم يعد للأمل وجود في هذا الرجل. وليس لديه أي نية للتفكير في أشياء، كالكفاح، أو البذل، أو التغيير. إنها روح شخص مستسلم للحياة.

يواسي نفسه بهذه الأحلام. في الحقيقة إنها ليست أحلام، فقد عاش هذه الأشياء في الماضي. ثم ألم يُصِبه ما أصابه بسببها؟ متى سيدرك أنه لن يستطيع الهروب من يد القدَر بتكرار نفس النقوش طوال الوقت؟

- قبل مجيئي إلى هنا نظرت إلى نفسي في مرآة الحمام المكسورة. تغيّرت كثيرًا، ولكنني لم أنزعج. إن سار كل شيء على ما يرام فسأتغير أنا أيضًا. سأصبح وسيمًا مرة أخرى كما في السابق. كل هذا بسبب تحطيم المعنويات. وربما بسبب عدم العناية قليلًا.. أعيش في ذلك المنزل نصف جائع ونصف شبعان.

كم سيستمر على هذه الحال؟ إذا وضعه إسماعيل أمام الباب فإلى أين سيذهب هذا الرجل؟ في الحقيقة ثمة دور رعاية للمسنين تابعة للدولة. لماذا لم يفكر بها يا ترى؟

- إلى متى ستبقى في ذلك المنزل يا كنان بيك؟ لو نستطيع إيجاد دار لرعاية المسنين من أجلك! سترتاح هناك أكثر.

يعمّ وجهه غضب لم أتوقعه نهائيًا. كلمة دار رعاية المسنين تثير غضبه كثيرًا. يرى أن البقاء هناك فيه شيء من الإذلال.

- لدي آمال وأحلام لن أتراجع عنها نهائيًا. لنرى عندها ماذا ستفعلون أنتم؟

بقوله هذا ينهض على قدميه. ومع أنه كان غاضبًا ولكن عينيه مبللتان... هل هذه الدموع نذير أمل أم يأس يا ترى؟

* * *

تتدفق الحياة مسرعة. طفلاي يكبران. أنهت يَغمور الجامعة، وذهبت إلى إسطنبول بعد أن نجحت في امتحان إحدى أكبر المؤسسات. أشتاق إليها كثيرًا، حتى إن عينيّ تمتلئان بالدموع كلما دخلت غرفتها.

سينتهي حسن هذه السنة من المرحلة الثانوية. في الحقيقة لم يكن لدي أي أمل منه في البداية، ولكنه فاجأنا جميعًا. ازداد معدل نجاحه في الدروس سنة بعد سنة. نفكر فيما إذا كان بإمكانه أن يفاجئنا بنفس الطريقة في امتحانات دخول الجامعة.

في هذه الفترة يعاني آيدن من مشاكل صحية. بدأ يعاني من أوردة قلبه وهو في التاسعة والثلاثين. والده أيضًا مات بسبب نوبة قلبية في عمر صغير. كلما فكرت بهذا تتحطم معنوياتي كثيرًا.

يَغمور ذهبت، ولكنها مشغولة البال علينا دائمًا، وخاصة على والدها. الأطفال الإناث أكثر تعلّقًا بآبائهم. آيدن أيضًا هكذا. هو يحب حسن أيضًا، ولكن ليَغمور مكانة خاصة عنده.

نذهب إلى إسطنبول باستمرار لرؤية يَغمور. في البداية أرادت أن تكون حرّة وتؤسس حياتها الخاصة، ولكنها، بعد عدة أشهر، وجدت صعوبة كبيرة في ذلك. ما عمل ابنتي في إسطنبول في ظل وجود مكان كأنقرة؟ لكنني لا أستطيع قول ذلك لها. فقد أصبحت في عمر تستطيع اتخاذ القرارات بنفسها! (أعتقد أنها حققت رقمًا قياسيًا بإنهائها الجامعة وهي بعمر العشرين).

أواصل العمل بلا كلل أو ملل في عيادتي. أشعر بنفسي وكأنني شخص أتى إلى الدنيا من أجل العمل فقط. في النهاية أصبحت مدمنة على العمل والقدرة على إعطاء شيء ما للناس. عندما كان الطفلان صغيرين كنت أحاول الخروج في وقت أبكر، ولكنني لم أعد أفعل ذلك كثيرًا الآن. فعملي لا ينتهي قبل الساعة الثامنة. أحيانًا لا أعود إلى المنزل حتى الساعة التاسعة أو العاشرة. آيدن ليس سعيدًا بهذا الوضع أبدًا. في الواقع هو محق، فلا يجب عليّ أن أفعل ذلك. عندما أجلس إلى طاولتي كل صباح أُنبّه تونا باستمرار. أطلب منها تنظيم مواعيدي بحيث تنتهي في السابعة على أكثر تقدير، ولكن لا أعرف ماذا يحدث، فلا أستطيع الخروج في الوقت المحدد بأي شكل.

اليوم الأربعاء؛ منتصف الأسبوع تمامًا! لا أعرف لماذا أحب أيام الأربعاء كثيرًا. أتيت في الصباح سيرًا على الأقدام. كما أنني لا أستطيع أن آتي إلى العيادة بالسيارة. فلا مكان لركنها في هذا المكان. أعود إلى المنزل مساء بسيارة أجرة. صرنا أصدقاء مع سائقي سيارات الأجرة. في ساعة خروجي من العمل تكون الحركة في شارع منزلنا قليلة. كما أن الشارع مليء بالأطباء. يمكنكم فتح مستشفيين جامعيين وليس واحدًا فقط من خلال الأطباء الوجودين في شارع سالونيك فقط. أعمالهم تنتهي في الساعة السابعة على أبعد تقدير ويعودون إلى منازلهم في الوقت المحدد.

بعـد الظهـر وحـوالي السـاعة الثالثـة تقريبًـا، تـدخل تونـا إلـى غرفتـي بـذات الانفعال.

- آه، هل تعرفين حضرتكِ من هي المريضة التي ستدخل الآن؟

أنظر إلى دفتر مواعيدي، مسجل امرأة اسمها (هانـدان تشيفتشـي). أفكـر فـلا أستطيع التعرف عليها.

- من؟
- آآه، إنها زوجة كنان بيك. ألم تأتي ذات مرة؟
- يا إلهي يا تونـا، مـا هـذه الـذاكرة التـي لـديك؟ لا يوجـد خـبر سـيء ألـيس كذلك؟
- والله لا أعلم، فهي لـم تقل لي أي شيء، ولكنها تبـدو سـاكنة وحزينـة إلـى حد كبير. سألتها عن كنان بيك فقالت "بخير". أما الباقي فستحكيه لكِ.
- حسنًا، حسنًا. فلتدخل.

أنتظر هانـدان خـانم بفضـول وانفعـال. أمـا كنـان بيـك فلـم يـأتِ إلـيّ منـذ وقـت طويل. المرأة المسكينة كانت في بورصة. لماذا أتت يا ترى؟

تدخل هاندان خانم غرفتي بذات الأناقة. ترتدي معطفًا أسود من الفرو يـبدو ثمينًـا جدًا. التعب واضح عليها. تسـلم علـيّ برأسـها وتـدخل غرفتـي. متعبـة ولكنهـا لـم تفقـد شيئًا من جمالها القديم. جمعت شعرها للخلف. بعد أن نزعت معطفهـا ووضـعته علـى كرسي المعاينة بعناية، جلست على إحدى الأريكتين الموجودتين مقابلي.

في البداية نسأل بعضنا البعض عن الحال والبال بلطافة. بعد ذلك تبدأ بالكلام.

- لقد دعمتِ كنان لسنوات طويلة يـا سـيدتي. لا يمكننـا رد جميلـكِ. أتيـت لأشكركِ من جهة، ولأنني لم أرغب بالمغادرة قبل رؤيتكِ باعتباري أتيت إلى أنقرة.
- فعلـتِ حسـنًا سـيدتي. سُـررت برؤيتـكِ. كيـف حـال كنـان بيـك؟ لـم يـأتِ خلال هذه الفترة نهائيًا. انشغل بالي.

- لا تسألي. قبل حوالي الشهر تقريبًا مر بأزمة قلبية. لا أعتقد أنكِ تعلمين. إسماعيل هو من أخبرني. تعلمين أنه يقيم عندهم منذ وقت طويل. سأكون كاذبة إن قلت بأنني لم أحزن عليه، ولكنني إن فكرت بالمساعدة فستقع على رأسي هذه المرة. صدقيني لم أعد أملك الطاقة الكافية لتحمل ذلك. ولكن عندما قال إسماعيل "إنه يموت"، أتيت دون تردد. كان واضحًا أن هذا ما سيحدث... آذى نفسه كما آذانا أيضًا. يقول الأطباء إن وضعه كان حرجًا ولكنه، الشكر لله، تجاوز المحنة. إنني بجانبه منذ حوالي خمسة عشر أو عشرين يومًا. الآن وضعه أفضل. أعتقد أنه سيخرج من المستشفى في القريب العاجل. ولكننا لا ندري ما يجب علينا فعله عند خروجه. لم يعد إسماعيل أو زوجته يريدانه. إنهما محقان. ثم من الجيد أنهما تحملاه كل هذا الوقت. في المستشفى يحدق في عيني طوال الوقت. يتوسل إليّ كطفل قائلًا: "لا تتركيني". يبكي كثيرًا لدرجة أن الإنسان لا يتحمل، ولكنني لا أستطيع فعل هذا يا غول سيران خانم. حتى لو أردتُ فلن أستطيع.

لا تستطيع هانداي خانم النظر في عينيّ وكأنها خجلة، تحني رأسها وتبدأ بالبكاء. إنها تبكي بصدق وعمق شديدين ومؤثرين لدرجة أن عينيّ تدمعان أيضًا. وفورًا أمد لها حفنة من المناديل الورقية الموجودة فوق الطاولة. تأخذها دون أن ترفع رأسها. في الواقع تبدو وكأنها تريد أن تسكت فورًا وتتكلم معي بدلًا من البكاء. من الواضح أنها بحاجة للتحدث مع أحد ما.

في النهاية، يبدو أن هانداي خانم هي من سيعيل كنان بيك. فهي في النهاية صاحبة ضمير، كما أنها امرأة عانت بما فيه الكفاية. لن تتركه وتذهب. وعلى الرغم من ذلك ما يزال ضميرها يؤنبها. لا بد أنها تبكي بسبب ما آل وضعهما إليه. من يعلم تحت أي ظروف وشروط تعيش؟ هل لديها معيل، أو صديق داعم، أو قريب؟ أتت لمساعدة الرجل الذي ظلمها طيلة سنوات. أقول في نفسي "أحسنتِ

يا هانداني". فهكذا يجب أن تكون المرأة. متينة ووفية.. بعد قليل سأقول لكِ هذه الكلمات. لن أسمح لكِ بأن تلومي نفسك وتحزني إلى هذه الدرجة.

ترفع هانداني رأسها ببطء بينما تسيل الدموع على خدّيها، وتنظر إليّ بعينين قلقتين لكنهما مليئتان بالألم. أبتسم لها بعينيّ فقط ودون أن أقول أي شيء. وكأننا امرأتان تجدان طريقة ما للتفاهم دون كلام. تنثر هذه النظرات الماء على قلب هانداني. تواصل كلامها بهدوء وهي تهز رأسها إلى الطرفين، وكأنها تريد الحصول على موافقتي.

- تعلمين أنه عندما انفصلنا كان كنان يملك الكثير من المال. لم أجد أنه من المناسب لي، وبعد كل هذه السنوات، أن أقول له أريد هذا وذاك. كرامتي، أساسًا، انسحقت بما فيه الكفاية. أردت منزلًا فقط. في الحقيقة لم أرغب بطلب ذلك أيضًا، ولكنه لم يكن من الممكن لي بأي وسيلة أخرى أن أؤسس حياتي. وهو بدوره لم يُعطِني قرشًا زائدًا. تصرف وكأنني، وبعد كل تلك السنوات، لست زوجته وإنما عدوة له. بعد ذلك عرضتُ الشقة للبيع. حتى إنني تركت المدينة التي عشتُ فيها بسبب هذا الرجل. اشتريت لنفسي شقة صغيرة، وحاولت تدبر أموري براتب مرتبط بوالدي. وفي تلك الفترة لم يتصل كنان بي أو يسأل عني. السنة الماضية ظهر نصيب جيد لي عن طريق المعارف. إنه مسنّ، ولكن ليكن. تزوجت به.

إذن فهي متزوجة! ربما لهذا السبب تشعر بالذنب، كما أنني ألاحظ خجلها الذي يشبه خجل الطفل أثناء قولها ذلك. مع أن الزواج هو حقها الطبيعي.

- ليكن خيرًا، سُعدتُ بذلك. كيف يسير الزواج؟
- جيد... إن زوجي رجل هادئ! بيروقراطي قديم. حالته المادية جيدة. ماتت زوجته قبل خمس سنوات. لديه طفلان، ولكنهما أسسا حياتهما وتزوجا. نعيش في أفضل مكان في المدينة في شقة واسعة. رجل متجهم،

قليل الكلام، ولكن قلبه طيب. لو رأيتِه لتساءلتِ كيف لهاندان أن تتزوج بشخص مثل هذا؟

- لماذا؟

- هكذا... إنه مختلف جدًا عن كنان. كما أنه مسنّ. ربما لم يكن هكذا في شبابه.

لا أسأل أكثر من ذلك. إذن فهو مختلف عن كنان! مسنّ من جهة، ومتجهم من جهة أخرى، ولكن الأهم من كل ذلك أنه ليس وسيمًا مثل كنان، بل قبيح.

تتابع الكلام وهي تنظر في وجهي برهة وكأنها فهمت ما أفكر فيه.

- ولكنه يعاملني بلطافة إلى أبعد حد، ولا يجعل كلمتي تصير اثنتين. يوجد في البيت خادمة. يمر الوقت سريعًا من خلال الضيوف القادمين والمغادرين.

أثناء كلامها هذا، يشدّ انتباهي سحنة الحزن الموجودة في وجهها. إنها ليست سعيدة. أعتقد أنها تبحث عن الطمأنينة والأمان فقط.

- ورغم أن المظهر الخارجي لزوجي ليس لطيفًا إلا أنني أثق به.

يبدو أنني لم أخطئ. ماذا أرادت أن تقول للحياة يا ترى بتركها كنان وزواجها برجل مسنّ وقبيح؟

- عشت مع رجل وسيم طويلًا، فماذا حدث؟ ما حدث لي لم يحدث حتى للدجاج المطبوخ. على أية حال فإنني سأعود بعد انتهاء عملي، ولكن بالي سيبقى مشغولًا على كنان.

تبدأ هاندان مجددًا بالبكاء عند وصولها إلى هذه النقطة من كلامها. في آخر لقاء لنا قالت لي: "حتى أنتم لن تستطيعون إنقاذه". كانت محقة في كلماتها.

- في هذه الدنيا ثمة جنة وجهنم أيضًا. يلاحظ الإنسان هذا ويدركه كلما عاش أكثر. آه يا سيدتي الطبيبة، لا أعرف ما أقول لكِ... لو بقيت أحكي حتى الصباح فمشكلاتي لن تنتهي. ثم ستقولين لي "هل ارتحتِ بذهابكِ

من هنا؟" لم تنقطع دموعي التي على وجهي ولو ليوم واحد. وحتى يوم زواجي، قفلت المنزل على نفسي وكأنني في سجن. أساسًا حياتي انقضت على النوافذ بانتظار كنان. في الحقيقة لا أشعر برغبة في مساعدته، ولكن، مع ذلك، ضميري لا يتركني وشأني. عندما سمعت بأنه مرض حملت نفسي وأتيت. قلت لنفسي "أنتِ لا تنحرين من يسقط".

- أنت امرأة طيبة يا هاندان خانم. إنني أعلم ذلك منذ البداية. اليوم أستمع إليكِ بشيء من الإعجاب.

- أرجوكِ لا تقولي ذلك يا سيدتي الطبيبة. إنكِ تُخجلينني. أحيانًا أجلس وأفكر أيامًا. يا لما عانيته بسبب هذا الرجل! أن أغضب عليه أمر، وأن أشفق عليه أو أرأف به أمر آخر. هذا الرجل أساء إليّ كثيرًا. كيف يمكن التحول من تلك الحال إلى هذه الحال؟ لا يستطيع عقلي استيعاب ذلك بتاتًا. أقول في النهاية فاجأنا الله. ليس لها تفسير آخر... بقي هكذا مثل العصا. لا أعرف ما كان سيحلّ به لو أنني لم آخذ بيده. إنني الآن أعتبركِ أحد أفراد العائلة، ولذلك أخبركِ بهذا.

- التحدث والتعبير عما يوجد في الداخل أمر يشبه تفريغ الخَرَّاج إلى حد كبير.

تتابع كلامها بعد أن عضت شفتها السفلى وتنهدت بعمق.

- كنت أعتقد في زمان مضى بأنني امرأة لها كبرياؤها، ولكنه لم يترك لي أي كبرياء. في تلك الأيام كنت أعاني، وأتألم، وأحترق، حتى لعنتُه دون إرادتي. لا أعلم إن كنتِ تذكرين ما قلتُه لكِ في أول مرة أتيت فيها إليكِ.

هل هو مستحيل أن أنسى؟ أذكر كل شيء. بما أنني أتذكر جيدًا، فيبدو أنني تأثرت بتلك الكلمات أنا الأخرى. بعد أن ترددتُ قليلًا قررتُ أن أخبرها بأنني لا أذكر جيدًا. لربما أرادت هاندان أن تقول أشياء أخرى. كما أن مثل هذه الجمل الثقيلة التي قيلت في الماضي ربما تجعل هاندان تلوم نفسها.

- تفوهتِ بشيء عن العدالة الإلهية، ولكن لا يمكنني تذكر الباقي تمامًا.

- وكأنني أعرف ما سيحدث، قلت بأن العدالة الإلهية ستتجلى يومًا ما، وأن جهنم قد فتحت أبوابها له. في تلك الأيام كانت نار جهنم تستعر في قلبي، أما الآن فقد هدأت عندما رأيته على هذه الحال.

بعد قولها هذا، تدير رأسها نحو النافذة وتستمر بالتحديق هناك بعض الوقت دون أن تتكلم، كما لو أنها تنظر إلى عالم آخر، وتشاهد شيئًا ما. كانت هاندان تحترق بنار الانتقام من جهة، وتلوم نفسها على ما حدث من جهة أخرى.

- لعنته كثيرًا، ليتني لم أفعل!

الانتقام في الواقع شعور موجود عند معظم الكائنات الحية. كما تُظهر الدراسة التي تمت حول الحيوانات ذلك بوضوح. بعض الحيوانات لا تمتلك ذاكرة جيدة حول كثير من الأحداث، ومع ذلك يختلف الأمر عندما يصبح متعلقًا بالانتقام، فلا تنسى الأحداث، وتجد طريقة لإلحاق الضرر بأعدائها وقتلهم. ولكن العلم لا يعرف بعد ما إذا كان شعور الندم ينتاب الحيوانات أم لا، ولكن يبدو من الواضح الآن أن مشاعر الغضب السابقة لدى هاندان تتلاشى شيئًا فشيئًا لتحل محلها مشاعر الندم.

الغضب والندم في الواقع شعوران يسيران جنبًا إلى جنب. مثل طفلين يلحقان بوالدتهما، يتقدم أحدهما، ثم يحاول الآخر جاهدًا أن يفعل ما بوسعه لينجح باحتلال المقدمة. سوف يستمر هذان الأخان المتشاكسان بالتلاعب بقلبها سنين عديدة، ولن يتركا المرأة وشأنها أبدًا. امرأة مثل هاندان، على الأخص، ميّالة للخير أكثر من السوء، حبست الغضب بداخلها سنين طويلة. أنا لا أرى لها مستقبلًا مشرقًا في هذا الخصوص. ثم أليس كون زوجها الآخر مسنًّا وقبيحًا نوعًا من الانتقام؟ هل تتمرد، بزواجها هذا، على كنان، أم على نفسها، أم على الحياة يا ترى؟ وعلاوة على ذلك فإن هذا الرجل يشبه والدها كثيرًا. والدها الذي تكرهه..

- لطالما كنتِ زوجة صالحة. لم تتركيه وحده حتى في أحلك أيامه. أنتِ من أولئك الناس الذين لا يمكن أن يكونوا سيئين حتى لو أرادوا ذلك.

تتراخى ملامح وجهها المتوترة، وينسحب الألم الموجود في عينيها، تاركًا مكانه لحزن عذب.

- كلماتكِ هذه تشعرني بالراحة ولو قليلًا يا سيدتي الطبيبة، ولكنني لا أستطيع السيطرة على نفسي. النساء الأخريات أيضًا صببن عليه اللعنات. لقد آذاهن كلهنّ، وليس أنا فقط.
- وصل إلى هذه النقطة خطوة بخطوة. مثل المقطورة المربوطة بقاطرة. حاولتُ كثيرًا، ولكنني لم أستطع إنقاذه من هذه القاطرة. هل تذكرين؟ لقد قلتِ لي: "حتى أنتِ لن تستطيعين إنقاذه". كنتِ محقة.
- لأكن صريحة، لم أكن أريدكِ أن تنقذي كنان تمامًا في ذلك الوقت.
- أفهمكِ، ولكنه استسلم لقدره بدلًا من المقاومة. القدر هو شيء كهذا يا هاندان خانم. في البداية يُعمي عينيّ الإنسان، ولا يُظهر الحقائق بل يجعلها تتجلى تجليًا.

تستمع إليّ هاندان خانم وهي تهز رأسها إلى الطرفين بحزن.

- تغيير النفس أصعب من تحريك العالم يا هاندان خانم. تخيلي، هل كان سيصيب كنان ما أصابه لو تغير بلحظة، وأصبح رجلًا آخر، وجاهد الحياة، وفهم الآخرين، وتساءل عما فعله من أجل هؤلاء الناس بدلًا من اعتقاده بأنهم يغارون منه، أو يستهزئون به لما أصابه؟

هاندان تفكر. إنني أتكلم من جهة، وأفكر، أنا أيضًا، بجواب لهذا السؤال من جهة أخرى.

- وفي ذلك الوقت كانت ستتحرك كل الكائنات لتنقذه وتفتح أبوابًا جديدة له، ولكن هو الذي لم يكن راغبًا بذلك.
- لماذا؟

تخرج "لماذا!" هذه من فم هاندان تمامًا كالعاصفة.

- لم يستطع كنان بيك، ربما، أن يقرر ما إذا كان مذنبًا أم لا. لو أدرك أنه كان مذنبًا ستخلق له الحياة معجزات، وتنقذه من الحفرة التي وقع فيها. كان يحلم بذلك دائمًا، فماطل نفسه. ولكن إن لم تنقذه فهذا يدل على أنه مذنب. وإن كان مذنبًا فسينال عقابه حتمًا. كان هذا ما يردده دائمًا في داخله. ثم إن هذا القرار قد صدر عن الشخص نفسه، لذا لا مجال لنقضه. يُتخذ القرار ويُكسر القلم. لم يحاول أبدًا أن يسامح نفسه.

يجفّ لسان المرأة المسكينة وحلقها أثناء استماعها إليّ. أضغط على زر الهاتف على الفور وأطلب من تونا كأسين من الماء البارد لي ولهاندان.

كلانا لا نتكلم ريثما يأتي الماء. من الصعب الكلام، وكذلك الاستماع... عند دخول تونا وفي يدها الصينية، نشعر بالراحة قليلًا حتى قبل أن نشرب الماء. مع دخول تونا يبدو وكأن الهواء الثقيل الذي في الغرفة يتبدد. بعد أن نشرب الماء برشفة واحدة ننتظر خروج تونا. ثم أبدأ أنا بالكلام.

- الطب النفسي هو فن مسامحة النفس. لقد حاولت كثيرًا من أجله ولكن لم ننجح. إن لم نسامح أنفسنا فكيف سيسامحنا الله..

هاندان تبكي. من يدري كمية الدموع التي ذرفتها من أجل كنان.

- يجب عليّ الآن إيجاد حل لهذا الوضع. التقيت مع عدد من أصدقائه. ساعدوني في إيجاد دار جيدة لرعاية المسنين. لا تعجبه، ولكنها جيدة جدًا، لديه أصدقاء ودودون للغاية. احتار الناس فيما يفعلونه لأجله، ومع ذلك لم يكن أي من ذلك مقنعًا لكنان. جنّ عند سماعه أمر دار الرعاية تلك. قلب الدنيا رأسًا على عقب وهو يئن قائلًا "لا يمكنني البقاء في دار لرعاية المسنين!". ثمة غرفة له وحده، وفيها تلفاز وثلاجة. إنه مكان فاخر. لديه أيضًا طبيب وممرضة خاصّان. ذهبت ورأيت بأم عيني. أما هو فيصرخ باستمرار، ولكن لا خيار أمامه سوى الانصياع.

يبدو أن هاندان مصممة. سيقضي كنان بيك حياته في دار رعاية المسنين. كلانا يدرك أن هذا هو الشيء الصحيح الذي يمكن فعله، ولكن، ربما قلبانا لا يعرفان ذلك. فذهاب الإنسان إلى دار الرعاية بإرادته أمر، ورميه هناك من قِبل أقاربه ضد إرادته أمر مختلف تمامًا... وخاصة بعدما حكت هاندان عن فخامة المكان، فالإنسان الآن يريد الذهاب إلى هناك بإرادته.

الناس المسنّون هناك يشعرون بالأمان من جهة، ويضعون حدًا لوحدتهم من جهة أخرى. يتشاركون أيام حياتهم الأخيرة، ومشاعرهم المختلفة التي تنتابهم في تلك الأيام، ولكن وضع كنان بيك مختلف تمامًا عنهم.

- أنتِ محقة يا هاندان خانم. تفكيركِ سليم. أنا أيضًا قلت له إن هذا لقاؤنا الأخير.
- سأغادر هذه الأماكن حالما يستقر هناك. أريد الهرب بأسرع وقت ممكن من هذه المدينة. لا صديق لمن يسقط، أما أنتِ فقد فعلتِ ما تفرضه الإنسانية. لم ترفضي كنان رغم كل شيء. وبما أنني سأغادر ولن أراكِ مرة أخرى، أريد أن أخبركِ بشيء أخير، لكيلا يبقى حسرة داخلي.

تنظر في وجهي بتعبير خجل وغامض في آن معًا. ماذا ستقول يا ترى؟

- منذ سنوات مضت، وعندما سمعت بأن كنان ذهب إلى طبيبة أنثى، لأكن صريحة، لم تبقَ فكرة خبيثة لم تخطر في بالي. لأنني كنت أعرف كنان جيدًا، فهو لا ينظر إلى أي امرأة بعين حسنة. وعندما علمت بأنكِ تهتمين به عن كثب، اعتقدت أنني كنت محقة بتفكيري هذا. لاحقًا أتيت إلى هنا لأتعرّف إليكِ. أعتقد أنكِ أنتِ أيضًا أردتِ رؤيتي في ذلك الوقت. وهكذا دخلت غرفتكِ، بهذه الأفكار. ثم بعدما تعرفت إليكِ خجلت من نفسي. والآن أريد الاعتذار منكِ لأنني فكرت بكِ بهذه الطريقة.
- ليس هذا بالأمر المهم يا هاندان خانم.
- هل أدركتِ هذا في ذلك الوقت؟

أبتسم لها وأنا أهز رأسي قليلًا.

- ولكن مع ذلك أنتِ محقة.

- أنتِ صرتِ تعرفين كنان جيدًا أليس كذلك؟ بالنسبة للإدراك فالإنسان يدرك كل شيء مع الوقت، ولكن عندها يكون الأوان قد فات.

- الحياة هكذا... نأتي إليها غرباء، وتمامًا في الوقت الذي نتعلم فيه كل شيء ونصبح خبراء يطرق الموت بابنا.

- كنان أتى إلى هذه الدنيا غريبًا، وسيغادرها غريبًا. لم تعلّمه الحياة شيئًا.

بعد قولها هذا تنهض هاندان خانم. تقترب مني بهدوء وتعانقني بحفاوة. ثم تتناول يدي وتتأملني مطولًا بعينيها الضبابيتين، وبعدها تخرج من الغرفة. نعلم كلانا بأن هذا آخر لقاء لنا.

(19)

في النهايـة نجحـت هانـدان خـانم بإقنـاع كنـان بيـك وأودعتـه في دار لرعايـة المسنين عصرية، ونظيفة، وأنيقة للغاية. وقبل أن تغادر أنقرة، كانت تريد أن تعيش بطمأنينة بعد أن تتم آخر واجباتها تجاه زوجها. ولهذا لـم تتغافل عن أي تفصيل، وأمّنت كل ما يمكن لكنان أن يحتاجه بحسب اعتقادها، ورتبتها في الخزائن بعناية. كانت تتجول في الغرفة جيئة وذهابًا كما لو أنها تريد تأخير لحظة الفراق.

من ناحية أخرى كـان كنـان منزعجًا وهـو مستلق على طـرف سريره، يراقبها بعينين دامعتين، ويئن كعادته. وماذا سيحدث إن لـم ترحـل؟ كـم مـرة قـال لهانـدان بأنها إذا كانت تحبه كثيرًا، وقد أتـت عنـدما سـمعت بمرضـه، ولـم تفارقـه منـذ أيـام، وبما أنها تقدّره كثيرًا، فلماذا تغادر؟ لو أنهما يجدان منـزلًا صـغيرًا، ويجمعـان راتبـه مع راتب والدها الذي تقبضه فسيعيشان مثل الوردة. هذا الأمر ممكـن حتـى لـو لـم يتزوجا. ثم إنه لم يعد يريد أي شيء. ووقتها لن يفارق قـدمي هانـدان، وسـيأكل مـا تطبخه، ولن يعترض على أي شيء. ولكنه لم يستطع إقناعها بأي وسيلة. إلى جانب ذلك أدرك في النهاية مدى حبه لهاندان، وقد أخبرها بذلك عدة مرات.

كان يقول في نفسه: "آه، يا لهذا الرأس الأحمق، كيف لم أدرك ذلك من قبل!". تبين أن المرأة، التي أَحَبها حقًا وعشِقها، والتي أراد أن يقضي عمره كلـه معهـا، هي هاندان. لقد أدرك الحقيقة ولو متأخرًا، ولكنه لم يستطع هذه المرة إقناع أي أحد.

كان كنان يراقـب هانـدان بخـوف وهـي ترتـب ثيابـه الداخليـة، بيجاماتـه، جواربـه، والملابس الرياضية في أدراج الغرفة الصغيرة. كانـت بعـد قليـل ستُنهي واجبهـا وتودعـه راحلة. كيف سيتحمّل ذلك؟ كيف يمكنه العيش وحيدًا مع الناس القادمين إلى هنـا مـن أجل الموت؟ أم أنه هو أيضًا كان سيموت فورًا؟ إنه ما يزال شابًا على الموت. لـم يشِـخ

بعد. إنه مهمَل ومريض وشاحب، ولكن إن وجِد من يعتني به فسيتعافى ويستعيد طاقته بسرعة. سيعود كنان الوسيم، المتباهي، سيحلق كل صباح، ويرشّ العطر، ويلبس، ويُبقي رأسه مرفوعًا أثناء سيره. هل كانت هاندان لا تحبه لأنه بدا مريضًا ومسنًّا يا ترى؟

وقبل أن يجلس على سريره، نظر إلى نفسه في المرآة الموجودة على الخزانة، ولم يُعجب بنفسه. خداه كانا غائرين، وتشكّلت تحت عينيه هالات بنفسجية. فهو مع ذلك عانى من مريض شديد، وعاد من الموت. لم يأذن الله له بالموت. لماذا لم يمُت يا ترى؟ أراد الله له أن يعيش، ولكن لماذا؟ هل أشفق عليه يا ترى، أم أن عقابه على ما ارتكبه لم ينتهِ بعد ولهذا لم يقبض روحه؟

لم يكن يحب التفكير في ذلك أبدًا، كما أن شعره كان ينتصب عند ذكر الموت. عندما بدأ صدره يتألم وعرق الأجل يتصببّ منه في منزل عائلة إسماعيل، كان على وشك الموت، من الخوف وليس من نوبة قلبية. حتى عندما كان يتلوّى في سيارة الإسعاف، فتح عينيه على مصراعيهما حتى لا يموت، ونظر حوله يتقصى مجيء عزرائيل. استمر هذا الخوف حتى رؤيته لهاندان خانم في غرفة المستشفى، فعندما رأى وجهها الجميل في النهاية، ارتاح إلى حد ما. تمامًا مثل والدته، فقد جاءت هاندان إلى المستشفى لإنقاذه. فهي بشكل أو بآخر ستجد حلًا، وتجعل الأطباء يستنفرون، ولا تدعه يموت.

ولكن هاندان كانت راحلة، تتركه مع قدره وجهًا لوجه. والدته أيضًا تركته في المرة الأولى التي جاءت فيها، ولكنها عادت فورًا في اليوم التالي. هل كانت ستعود هاندان فورًا يا ترى؟ إن عادت تلك النوبة إليه فسيموت هذه المرة دون أن تتمكن هاندان من اللحاق به. لم يبقَ له أي أحد في الحياة غيرها. تركه الجميع واحدًا تلو الآخر.

لو عاش ذلك الطفل الذي لم يكن يريده في ذلك الوقت، لما بقي هنا وحيدًا. كلما فكر بذلك تزداد معاناته أكثر. حاول محو هذه الأمور من عقله من خلاله إيماءة، كمن يطرد الذباب بيده.

بينما كانت هاندان تقوم بتجهيز الغرفة، كان يئن ويتأوه باستمرار، ولكنها مع ذلك استمرت بعملها، ولم تسأله حتى عما يؤلمه. وماذا سيفعل إن غادرت؟ بدأ بالبكاء بصوت عالٍ مثل طفل.

في ذلك الوقت كانت هاندان قد أنهت عملها، وكانت تغسل يديها في الحمام الصغير الموجود عند مدخل الغرفة. لقد حان وقت المغادرة. فعلت أكثر مما يجب عليها فعله، وضعت كنان في مكان تأمل أن يكون مريحًا، وأمّنت له جميع احتياجاته من ماكينة الحلاقة، ومعجون الأسنان، وفرشاة الأسنان، وصابون من النوع الجيد، وشامبو، وحتى العطر لم تنسَه. وكأن أنين كنان لم يكن كافيًا، فقد بدأ بالبكاء. كان صوته يصل حتى الحمام. كانت متأكدة مثل اسمها من أنه يقوم بكل ذلك كيلا تغادر. ولكن لم يعد بوسع هاندان أن تتحمل أكثر من ذلك. فهي إنسان أيضًا، وصبرها على وشك النفاذ. لن يستطيع الآن ببكائه وأنينه أن يجعلها تبقى أكثر. أين كان عقله عندما كان يرتدي ويتهندم ويخرج؟ ألم تبكي هي أيضًا خلفه؟ ومع ذلك، وعلى الرغم من كل شيء، قامت بعمل إنساني، فأتت إلى هنا، وأتمّت مهمّتها الأخيرة. لم تخبر كنان بأنها تزوجت. فهي لم ترغب بإزعاجه بهذا الخبر أيضًا.

أتت إلى الغرفة التي يوجد فيها كنان. تناولت سترتها، واقتربت من كنان وهي تبتسم بشكل لطيف. عندما أدرك كنان بأنها ذاهبة، زاد من بكائه. الآن لم يعد يبكي فقط، تناول يدي هاندان وتوسل إليها قائلًا: "أرجوكِ لا تتركيني!". بعد أن قبّلته هاندان من خدّيه تراجعت فورًا. كان مجرد لمسه لها يجعل شعرها ينتصب.

بعد أن قالت له "لا تفعل ذلك يا كنان، لا تبك مثل طفل. فهذا لا يليق بك أبدًا. ثم انظر، سترى كم ستر تاح هنا"، أخذت حقيبتها من على الكومودينة الصغيرة الموجودة بجانب السرير، وسترتها من فوق السرير، واتجهت نحو الباب مسرعة. نهض كنان على قدميه، ونظر إليها وهي تذهب بعينيه اللتين لا تصدقان ما ترياه. كان يتمتم بأشياء كـ "لا تفعلي هذا، لا تتركيني، إن ذهبت سأموت هنا!" ولكن هاندان ما

عادت تستطيع تحمل سماع ذلك. بعد أن وضعت أكثر النقود الموجودة في حقيبتها على حافة السرير، خرجت من الغرفة بخطوات حازمة، ثم أغلقت الباب. لم يعرف كنان ما يفعله. هل كان عليه أن يستمر بالبكاء أم يفتح الباب ويركض وراءها؟

لم يبقَ الآن سوى الطبيب. لم يعد لأي من حبيباته، أو زوجته، أو أصدقائه من وجود. ثمة الكثير من المسنّين هنا، ولكنه لم يعتبرهم أصدقاء. كانوا جميعًا أناسًا مسنّين خرفين ينتظرون موتهم. تركهم أقرباؤهم للموت مثلما حصل معه تمامًا. كيف يمكن لشخص سليم العقل أن يكون مطمئنًا في هذا المكان الذي يسمى دار (الطمأنينة) للرعاية[1]؟ كيف يمكن للمرء أن ينسى الحياة، وجمال الحياة، والشباب، والحب بهذه السرعة؟

بعد ذلك اليوم لم يعد يرغب بمغادرة الغرفة ما لم يجبروه موظفو المؤسسة على ذلك. في الحقيقة، إن المكان الذي يقيم فيه مكان نظيف وفاخر للغاية. فعلت هاندان ما بوسعها لتأمين إقامته في مكان كهذا. كانت امرأة ماهرة، ولكنه لم يدرك قيمتها. يأتي الطبيب كل صباح، يعاين كل من يحتاج إلى معاينة، الممرضات هنّ من يعطين الأدوية لهم. الغرف نظيفة، والطعام جيدًا جدًا، ولكن الحياة ليست كذلك. عندما لاحظ موظفو المؤسسة اضطرابه صاروا يدورون حوله باستمرار، ويغيّرون شراشفه بكثرة، كما شجعوه باستمرار على تكوين صداقات مع النزلاء الآخرين. لكن أيًا من ذلك لم ينفع معه، كان كنان يتجول في الأرجاء وعيناه مفتوحتان على مصراعيهما، وجسده كله مرتجف وخاصة أسنانه، ظهره محني، يتأوه كما لو أنه خائف جدًا من شيء ما. ونظرًا لأن هذا الأمر أزعج الضيوف الآخرين فقد أخذوه في النهاية إلى غرفته، ووضعوه على سريره.

لم يغادر غرفته منذ أيام. كان مستلقيًا على سريره وهو يتنفس بصعوبة وسائر جسده يرتجف. وعندها لم يكن الوقت يمر مسرعًا، ولا يحين المساء. ولكنه كان

(1) دار رعاية المسنين في اللغة التركية تسمى (Huzurevi) وهي مؤلفة من كلمتين huzur وتعني طمأنينة، وev تعني بيت، ومعًا تصبح بيت الطمأنينة، أي دار الرعاية. (المترجم)

يشعر بالراحة في المساء لسبب يجهله هو أيضًا. عندما تعطيه الممرضات الدواء ينام فورًا، ولكنه يستيقظ بمجرد حلول الصباح. في الحقيقة لم يكن يريد هو أن يفتح عينيه، فقد كانت بداية يوم جديد ترعبه. كانت الأيام تشبه بعضها، ولا تنتهي قط.

لو يستطيع أن يستجمع قواه لكان أول عمل يقوم به هو الذهاب إلى الطبيبة، ولكنه كان يخشى الخروج بمفرده. فهو على الأقل يشعر بنفسه هنا وكأنه في المستشفى، وإن وجود أطباء وممرضات يساعدونه إن أصابه شيء يشعره بالراحة. تخيفه القبور الباردة والمظلمة. الموت والحياة، كلاهما كانا أسوأ من بعضهما البعض.

(20)

كان كنان يشعر بالضيق باستمرار، يريد أن يحكي همّه، ويفرغ ما بداخله، ويتحدث لأحد ما مطوّلًا، ولكن لم يكن بجواره شخص كهذا. هم، أيضًا، ما كانوا من النوع الذي يمكن أن يفهمه. كان وحيدًا تمامًا. الوحدة التي هرب منها طوال حياته تفترسه في هذا المكان. في النهاية، حتى هاندان تركته. غادرت. ماذا أراد هذا العالَم منه؟ أهمل عمله لكيلا يبقى وحيدًا دون امرأة، وتحمّل سمرا، التي سرقته ورمته مثل قشرة البصلة، حتى النهاية، والنساء اللواتي لهثن خلفه في زمان مضى تركنه واحدة تلو الأخرى، وبالتسلسل، وكأن بينهن تعاونًا وتنسيقًا.

كان بحاجة إلى شخص يسمعه ويفهمه. حاول عدة مرات التحدث مع طبيب المؤسسة، ولكن الرجل طبيب عائلة. وبدلًا من الاستماع إليه بدأ يُعاينه على الفور، وطلب له تحاليل يومية. ولعدم توفر معظم الأجهزة الطبية في المؤسسة فقد كان يسارع على وضعه في سيارة الإسعاف، وإرساله إلى أقرب مستشفى. تنتظر الممرضة معه حتى أخذ عينات التحاليل، والانتهاء منها، ويعودون إلى المؤسسة بسيارة الإسعاف. وبهذه الطريقة يمر اليوم الطويل بسهولة أكبر، ويحل المساء بسرعة، ولكن الطبيب والممرضات بدأوا يسأمون منه. والآن لم يعد هنالك أي تحليل يتعيّن عليه فعله. ومع أن كنان كان يتجه إلى باب الطبيب كل صباح وهو يئنّ إلا أن الطبيب لم يعد يظهر له الاهتمام كما في السابق. حتى إنه أوصى في آخر زيارة له بأن يراه طبيب المستشفى النفسي. والواقع، كان ثمة طبيبة نفسية بالفعل ولكن ما عاد لديه طاقة للذهاب إليها.

وأخيرًا، في أحد الصباحات، نهض مرتجفًا، ارتدى ملابسه، حلق ذقنه، وحصل على إذن من المستشفى، وخرج متجهًا إلى محطة الباصات القريبة وهو

يئن. كانت المؤسسة بعيدة عن المدينة. لحسن الحظ كان هنالك مقعد واسع للجلوس على الموقف. جلس بهدوء، وبدأ الانتظار. في تلك الساعة لم يكن هنالك أحد عند الموقف غيره، لأن من يريد النزول إلى المدينة كان يخرج من المؤسسة في وقت أبكر. تعيّن عليه الذهاب إلى هناك في وقت الظهيرة حتى تكون الطبيبة (غول سيران) قد أتت إلى مكان عملها.

لم يكن الأمر سيئًا كما كان يخشى. وخاصة عندما وجد مكانًا للجلوس، فقد أدار وجهه للرياح وانتظر وهو يعب نفَسًا نظيفًا. فعلى أية حال، هو خرج من المستشفى وكان جاهزًا للخوض في الحياة. ثمة شخص في انتظاره أيضًا. الآن سيذهب ويحكي كل شيء لطبيبته: ما حدث معه وما أصابه، وكيف بقي وحيدًا، وأن أحدًا لم يأتِ لزيارته، وأنه رُمي كالمساكين في زاوية، وحتى هاندان التي تعرف وضعه، لم تتصل به منذ مغادرتها.

الطبيبة كانت تحبه وتقدّره. فهي، كعادتها، ستستمع إليه بانتباه، وتحزن على حاله. وقد لا تتوقف عند الحزن، بل تفكر بحل له. أليست الحياة مليئة بالمفاجآت؟ في السنوات الأخيرة واجه المفاجآت السيئة، وانقلبت حياته، رأسًا على عقب، ولكن لم يعرف أحد ما سيحدث بعد هذا.

في تلك الأثناء، اقتربت إحدى حافلات بلدية أنقرة الحمراء من الموقف وهي تنثر الدخان والغبار. نهض كنان من مكانه متثاقلًا. عندما فُتح الباب الأمامي للحافلة صعد درجتين وهو يئن. استدار السائق نحوه وقال: "انتبه يا عم، بهدوء". عندما سمع كنان ذلك استاء تمامًا. وماذا قصد بقوله "يا عم"! أم أن السائق صنفه مع باقي العجزة الموجودين في المؤسسة؟ هز رأسه يمنة ويسرة وجلس في إحدى المقاعد الخلفية. أراد أن يبتعد عن السائق قدر الإمكان. لقد كان شخصًا فظًا. وبينما كانت الحافلة تقلع ناثرة الدخان الغبار، اهتز الركاب معًا للأمام أولًا، ثم للخلف. كان كنان يسند رأسه إلى النافذة، وينظر بشوق إلى الحياة التي ابتعد عنها لفترة طويلة. رغم إقامته في المؤسسة منذ أشهر إلا أنها المرة الأولى التي يخرج منها

وحده. مر وقت طويل على رؤيته الطبيبة. لم يعد يعرف ما إن كانت شهور أو سنوات.

وكعادته، مرة أخرى، لم يحجز موعدًا. كم هو أمر سخيف تحديد موعد مع طبيب نفسي. لا يمكن لأي شخص أن يعرف متى سيحتاج طبيبًا. ثم، بأي وجه سيأخذ موعدًا شخصٌ لم يدفع كشفية منذ سنوات. كان يقرع الباب قائلًا أتيت إلى هنا لأن وضعي طارئ وما إلى ذلك. سيفعل ذلك الآن أيضًا. قال في داخله: "ثم بعد مرور كل هذا الوقت، لم يعد في بال أحد دين وما إلى هنالك".

الباص يمر من شارع المشروطية. الموقف مقابل عيادة الطبيبة تمامًا. سره ذلك. إذن فهو سيستطيع القدوم إلى هنا بالباص باستمرار، وبسهولة. كان شارع المشروطية مزدحمًا كالعادة. لم يجرؤ على استخدام جسر العبور ليعبر إلى الطرف المقابل. فهو لم يكن يستطيع صعود كل تلك الأدراج. انتظر ولكن حركة المرور لم تهدأ. في تلك الأثناء توقفت بجانبه مجموعة من الشبان كانوا على وشك العبور إلى الطرف المقابل. سرعان ما تمسك بذراع فتاة منهم. نظر في عينيها كأنه يقول لها "أرجوكم مرروني أنا أيضًا". أمسكت الفتاة به بإحكام، وعبرا إلى الطرف المقابل معًا راكضَين.

لم يمش بشكل متوازن منذ فترة طويلة. يرهقه الجري ولو لمسافة قصيرة. كان قلبه ينبض بقوة. في البداية خاف من ذلك، ولكنه كان ذاهبًا إلى الطبيبة على أية حال. فحتى لو حدث مكروه فهي ستجد له حلًا. وصل أمام البناء بخطوات بطيئة.

أثناء صعوده بالمصعد ألقى نظرة على نفسه في المرآة. لم يكن في حالة توحي بأنه "العم"، كما قال السائق. ورغم أنه لم يكن كما كان في السابق، إلا أنه ما زال رجلًا وسيمًا. عندما توقف المصعد نظر إلى نفسه مرة أخيرة، وخرج ببطء، واتجه مباشرة نحو باب الطبيبة.

يا للدهشة، لم تكن اللافتة المكتوب عليها اسم الطبيبة مضاءة. ركز نظره أكثر، اللافتة نفسها لم تكن مكانها أيضًا. هل صعد إلى الطابق الخطأ يا ترى؟

اقترب من الباب خائفًا. كان رقم الشقة صحيحًا، ولكن اسم شخص آخر كان مكتوبًا عليه. ماذا حدث للطبيبة، إلى أين ذهبت؟ أم أنها هي أيضًا تركته في النهاية؟

وبينما كان يجوّل نظره يمنة ويسرة حائرًا بما يفعله، انطفأت إنارة البناء الأوتوماتيكية، هذه المرة بقي في الظلام. إن لم يجد الطبيبة فماذا سيفعل؟ كانت هي الشخص الوحيد الذي يعتني به ويحبه ويقدّره. كان قلبه ينبض، وكأنه سيقفز من مكانه، ورأسه يدور. سيقع ميتًا الآن هنا في الظلام، ولن يكون هنالك أيٌّ من عباد الله لمساعدته. كان يتعرق رغم البرد الشديد. تفقّد الجدران وهو مذعورٌ وضغط أول زر وجده ففُتح باب الشقة بشكل أوتوماتيكي. دفع الباب ودخل.

كان ثمة أشياء مختلفة تمامًا في الداخل، وكانت فتاة شابة تجلس إلى طاولة السكرتيرة. عندما رأت الفتاة هذا الرجل الغريب المرتعش (كنان) يدخل، نهضت على قدميها واتجهت نحوه. بعد أن ألقى بنفسه على أحد الأرائك الجلدية الموجودة بالقرب من الباب، بالكاد شرح مشكلته. كان يبحث عن طبيبته، إلى أين ذهبت؟ في البداية لم تفهم ما يقوله، ثم أدركت أنه يسأل عن الطبيبة التي كانت تقيم هنا في هذه الشقة قبلهم. قبل ذلك أتى عدة أشخاص وسألوا عنها. كانت الفتاة متوجسة قليلًا من هؤلاء الناس القادمين الذين يبحثون عن الطبيبة، باعتبارهم مرضى نفسيين، أكثرهم مصابون بالجنون! يا لحظها العاثر. بعد كل هذه السنوات من الانتظار اعتقدت بأنها وجدت عملًا جيدًا في مكتب محامٍ، ولكن هؤلاء المرضى الذي استمروا بالمجيء إلى هنا أزعجوها حقًا. وعلى الرغم من عدم حدوث ذلك على نحو دائم، إلا أنها كانت في هذا اليوم وحيدة في المكتب. في العادة يأتي المحامون في فترة ما بعد الظهر. تتساءل متوجسة الآن ما إذا كان هذا الرجل سيهاجمها ويفعل أشياء سيئة.

كانت تقف بعيدًا قليلًا، وتفكر في كيفية التخلص منه بأسرع وقت ممكن. كان الرجل مسنًّا، ولكن هؤلاء، رغم ذلك، يتمتعون بعزم جنوني. قالت الفتاة بصوت عالٍ:

"يا عم، ثمة على الزاوية موقف سيارات للأجرة، وهم يعرفون مكان الطبيبة الجديد".

كان الرجل يحدق في وجهها ببلاهة. إنه مجنون، يبدو هذا واضحًا من نظراته. لو صرخت فهل هناك من سيسمعها يا ترى؟ تراجعت خطوة أو اثنتين إلى الوراء، وكررت ما قالته بصوت عالٍ تمامًا. لربما أذنا الرجل لا تسمعان جيدًا. والأسوأ من ذلك كله أن نظرات الرجل كانت تمتلئ بالغضب أكثر كلما تكلمت بهذه الطريقة، أوحت إليه وكأنه ارتكب جرمًا.

قال كنان: "حسنًا، حسنًا، لقد فهمنا. أعطِني كأسًا من الماء لأذهب".

ربما كانت هذه الفتاة كالسائق، عقلها ليس متوازن. وكأن كليهما اتفقا على مناداته بـ "العم". مع أنه قبل قليل تمعن بنفسه في المرآة. لم تكن تبدو عليه هيئة (عم) كما قالا. هذان إنسانان جاهلان. كلهم جهلة. عميان...

عندما طلب كنان ماء خافت الفتاة تمامًا. فعندما تدخل إلى الداخل الآن ماذا سيفعل هذا الرجل يا ترى؟ بأية وضعية ستجده عندما تعود من المطبخ؟ لربما كان سيتبعها بهدوء، ويهاجمها من الخلف. صرخت قائلة: "ليس لدينا ماء يا عم، لقد نفد الماء لدينا". هذا كثير. نهض من مكانه متذمرًا. اتجه نحو الباب وهو يقول: "وتقول عم أيضًا، كنت سأريك العم على أصوله، ولكن ليكن". وبمجرد خروجه ركضت الفتاة وأقفلت الباب. من الآن فصاعدًا لن يستخدم أحد الباب الأتوماتيكي، بل ستفتحه هي بنفسها مع أنها ستتعب قليلًا، ولن تستقبل أحدًا يسأل عن الطبيبة مرة أخرى.

في تلك الأثناء كان كنان ينزل متذمرًا ومترنحًا وهو يتجه نحو موقف سيارات الأجرة. توترت أعصابه مثل القوس، ومزاجه المكتئب أصلًا صار في الحضيض. كان يكتب سيناريو في عقله باستمرار، يقول: "ماذا لو لم يتمكن من العثور على الطبيبة، أو أنها تركت عملها، أو انتقلت إلى مدينة أخرى، أو مرضت؟". حتى لو كانت قد تركت عملها فسيذهب إلى منزلها ويراها. ولكن ماذا لو رحلت؟

وأمام الموقف، كان يجلس سائقان على كرسيين صغيرين، بأيديهما شاي يحتسيانه. عندما رأيا رجلًا مرتعشًا أمامهما نهض كلاهما ونظرا إليه بتمعّن. عندما قال أحدهما "خيرًا يا خال، هل أنت مريض؟ نأخذك إلى المستشفى فورًا إن أردت" كان كنان على وشك أن يقع ويُغمى عليه من شدة الغضب. كان من الصعب فهم ما يقوله، فأسنانه تضرب بعضها باستمرار. والآن يقولون له "خال". مع أنهم في القديم كانوا ينادونه "السيد المحترم".

اشتهى أن يخنق الرجل ولكنه كبح جماح نفسه. هذا مع أن السائقَين كانا يسعيان لمساعدة هذا الرجل المسنّ المريض. نهض أحدهما، أمسكه من ذراعه حتى لا يسقط، بينما كان الآخر يجهز السيارة فاتحًا بابها، عندئذ تمكن كنان من قول ما يريد. كان يبحث عن الطبيبة التي كانت موجودة في البناء المقابل ذاك. قال السائق الذي يمسك بذراعه "هاا، تلك الطبيبة، بطاقتها معنا، نعلم مكانها، سنوصلك إليها إن أردت". صعد كنان السيارة مترنحًا. ربما كان سينهار لو لم يساعده السائق على الثبات.

تفقّد جيبه على الفور. تأكد مما إذا كان يملك نقودًا لإعطائها للسائق. نعم. يوجد. كان يصرف نقوده بشكل حذر. فقد كانوا يقطعون جزءًا من راتبه التقاعدي بسبب ديونه الضريبية، ولا يستطيع أن يشتري بالنقود المتبقية سوى السجائر، أو أشياء من هذا القبيل. إذا عرف مكان الطبيبة يذهب إليها، من الآن فصاعدًا، بالباص وليس بسيارة الأجرة.

كانوا متجهين نحو منطقة (كواكلي ديري). يقول في داخله "إن شاء الله يوجد باص يأتي إلى هنا". المهم الآن هو أنه سيلتقي بالطبيبة في النهاية. عندما رأى البناء الذي كُتب عليه "مركز ماداليون للطب النفسي" وجد اسم الطبيبة مكتوبًا في الأعلى. قال في داخله "واو، إذن طبيبتنا قد فتحت هذه العيادة".

أجال بصره. رأى فتيات يجلسن على مقعد، بينهن فتى باسم الوجه. سأله عن الطبيبة. فقال له الفتى "هل لدى حضرتكَ موعد يا سيدي؟" هذا ما كان ينقص!

هؤلاء يبدأون باستجواب الإنسان بمجرد دخوله. قال لهم بصوت غاضب "لا، ولكنني صديق قديم لها. إن أخبرتم تونا خانم فهي ستعمل اللازم". أدار الفتى الهاتف فورًا، ثم التفت إليه وسأله "ما اسم حضرتكَ يا سيدي المحترم؟" وأثناء قوله اسمه بدأ صوته بالرجفان مثل سائر جسده، ولكن قوله له "سيدي المحترم" كما كانوا يقولون له، أشعره بالراحة ولو قليلًا. في النهاية قال الفتى باحترام "تفضلوا يا سيدي، غول سيران خانم في الطابق السادس".

عند سماعه ذلك، اتجه مباشرة نحو المصعد. لقد تعب وغضب جدًا منذ الصباح وإلى الآن. إذا صنعوا له قهوة بالسكر، ووضعوا بجانبها ماء باردًا كالثلج، لربما يشعر بالراحة. أساسًا، رؤية وجه الطبيبة كاف ليشعره بالتحسن. وكأن فيها بصيصًا من أمل.

من أين أتت فكرة فتح مكان كهذا؟ وما حكاية العيادة القديمة؟ ثم إن الطبيبة كانت تعمل وحدها هناك. وكل شيء كان ملكها. هذا المكان مزدحم جدًا. يجلس الكثير من الناس في صالة الاستقبال، وعلى اللافتة كُتب الكثير من أسماء الأطباء النفسيين. قال في نفسه "الناس يفقعون من فرط الراحة".

وصل أخيرًا الطابق السادس. وبينما كان ينظر بحماس نحو الصالة وهو مرتجف، رأى تونا جالسة إلى طاولة السكرتيرة. دخل وهو يئن، ويتأوه، ويرتجف. قفزت من مكانها على الفور، واتجهت نحوه مباشرة وجسدها البدين يهتز.

- أوووه، أهلًا وسهلًا بحضرتك كنان بيك. أين أنتَ؟ لقد اختفيتَ مرة أخرى.
- أهلًا بحضرتكِ يا تونا خانم. لا تسألي عمّا أصابني.

كان يقول ذلك وهو يصافح تونا من جهة، ويجيل بصره في المكان من جهة أخرى. يا له من مكان جميل وأنيق. ولكن مع ذلك لم يكن دفء العيادة القديمة موجودًا هنا. لقد اعتاد عليها.

أجلسته تونا في مكان مريح على الفور، وكانت من ناحية تسأله عن حاله وأخباره، ومن ناحية أخرى تحسب كيف يمكن لها أن تُدخل هذا الرجل الذي أتى

بلا موعد. لم تكن تستطيع إدخاله فورًا. إنها تشفق على هذا الرجل من جهة، وتغضب منه من جهة أخرى. ألا يتغيّر الإنسان بعد كل هذه السنين؟ إنه يضعها ويضع الطبيبة دائمًا في موقف حرج. كيف تدهورت حال كنان بيك الهائل ذاك؟ وكيف تقدم به العمر؟ لو لم يقولوا لها على الهاتف بأن القادم هو، لربما لم تعرفته. هل كان هذا الرجل هكذا في الماضي؟ كان من ينظر إليه مرة، يعاود النظر مرة أخرى، ولم يكن من ينتظر دوره في الصالة يستطيع أن يرفع نظره عنه. أما الآن فهو يزعج من حوله بأنينه وتأوهه، والناس ينظرون إليه من أجل ذلك فقط.

عندما خرج المريض الذي في الداخل، وأدخلت تونا شخصًا آخر غيره، تضايق. آت من مكان بعيد، وفي ظروف صعبة. إن فعلت تونا ذلك فماذا سيفعل الآخرون؟ أم أنها لم تكن مدركة ما آل إليه؟ إذن فإن الطبيبة وتونا طارا في الجو عند فتحهما هذه العيادة. لا أحد يسأله عما يمكن أن يأكله أو يشربه. كان قد قطع كل تلك المسافة وحلت الظهيرة، وجاع. في الماضي كانوا يحضرون له الشاي وطبقًا مليئًا بالبسكويت والكعك.

طلب من تونا كأسًا من الماء، بتذمر. في الحقيقة كان الجو لطيفًا ولم يكن عطشًا إلى تلك الدرجة، ولكنه طلب الماء لمجرد إدخال شيء ما في حلقه. بعد أن ارتشف عدة رشفات، وضع الكأس فوق الطاولة الموجودة بجانبه. إن استقبلته الطبيبة بشكل جيد، فسيأتي إلى هنا، من الآن فصاعدًا، كل أسبوع. سيخرج يومًا في الأسبوع من ذلك المكان المظلوم والمليء برائحة الموت، ويخوض في الحياة.

الطبيبة امرأة جيدة، لن تردّه مهما حصل!

من مذكرات طبيبة

انتهيت من مرضى الفترة الصباحية. الآن حان وقت الاستراحة. لم يعد بإمكاني كما في السابق الاعتناء بالمرضى دون آن أكل أو أشرب شيئًا. أخرج من غرفتي بعض الوقت بحجة الطعام، وألتقي بزملاء مهنتي، ونتبادل الأحاديث ولو وقوفًا على الأقدام. سكرتيرتي العزيزة تونا تهتم بمواعيد طعامي كثيرًا، لأنها تفكر فيّ أكثر مما أفكر أنا في نفسي. أستمتع بالعمل جنبًا إلى جنب مع زملاء مهنتي في عيادة ماداليون، وخاصة بعد أن عملت بمفردي في عيادتي على مدى سنوات. كم كنت وحيدة!

عند إنشائي هذه العيادة، كان هدفي الوحيد أن أترك ورائي فريقًا يحتضن الناس بحنان، مستعدًا دائمًا لمساعدتهم بعد أن أغادر هذا العالم. أحاول الآن الوصول إلى مزيد من الناس، لأنني أعلم أن الكثير منهم في بلدنا بحاجة إلى هذا النوع من الدعم.

بمجرد خروجي من غرفتي، تنهض تونا من مكانها وتأتي إليّ مسرعة. تقول أشياء ما في أذني بصوت منخفض. لقد أتى كنان بيك. عندما استدرت رأيته أنا أيضًا. كم بدا منهارًا! ينتشر ذلك الألم القديم المألوف مرة أخرى في داخلي. في الحقيقة لم يكن مسنًّا بمعنى الكلمة، ولكنه شاخ منذ شبابه. ينفطر قلبي للحظة، لكنني أتجه إليه باسمة دون أن أشعره بأي شيء.

أمد يدي وأقول "أهلًا وسهلًا بحضرتكَ". عند رؤيته إياي تلتمع عيناه. ينهض من مكانه ببطء مترنحًا. عند دخوله إلى الغرفة يجيل نظره فيها بتمعن قبل أن يجلس. يلوي شفتيه، ويهز رأسه قليلًا للأمام والخلف، مومئًا بإعجابه بالغرفة. ولكنني لا أحب تلك النظرات. ثم وكأنه يقول ذلك بينه وبين نفسه يتمتم بهدوء: لـ... قدَرٍ كهذا"

أتجاهله وأتجه نحو طاولتي وأنا أشير ليجلس على إحدى الأرائك المقابلة لي. إنه يئن من جهة، ويحدق بي من جهة أخرى. إذن، يحين دوري بالتمعن بعد الغرفة. في الحقيقة سُعدت كثيرة لمجيئه. إنني قلقة عليه، بسبب غيابه الطويل. إنها عشرة السنين! شهدت كل سني حياته، وأين كان، وأين وصل. أحيانًا كنت أشعر بالأسف عليه، وأحيانًا كنت أغضب منه، وأحيانًا أخرى كنت أندهش مما يحصل معه. لقد صرنا، لسنوات، جزءًا من حياتنا بعضنا البعض.

وسرعان ما أبدأ بسؤاله عن حاله. أساسًا أنا على علم بأنه يقيم في دار رعاية المسنين منذ وقت طويل. لا يبدو أنه مرتاح هناك. بعد أن يستريح قليلًا يبدأ بالكلام، عن الأمراض التي عانى منها، عن مساعدة هاندان له، ووقوفها معه في المستشفى لعدة أيام، ثم تركها إياه في دار رعاية المسنين ومغادرتها، ونيتها عدم العودة رغم إصراره الشديد على ذلك.

أثناء الاستماع إليه، أقول في نفسي "يا لما أصاب هذا الرجل". كم تكون الحياة قاسية في بعض الأحيان. ما تبقى منه مجرد حطام. أصبح الآن مسنًّا مسكينًا. تخطر في بالي على الفور أغنية يحبها والدي كثيرًا:

مرت حياتي بالحب، واليوم أصبحت عجوزًا.
بشعري الأبيض الناصع، اليوم صرت أسودَ.

كان يغنيها (مزيّن سينار). حتى إنني كنت أعرضها على الشاشة في البرامج التي كنت أقدمها في قناة TRT، وأستذكر والدي. كان والدي وسيمًا أيضًا، كما كان من السهل أن تحبه النساء وتعجبن به. وكانت أمي تحبه، مثل هاندان خانم تمامًا، كما كانت تدور حوله مثل المروحة عندما يأتي إلى المنزل. ولكن والدي توفي قبل أن يصل إلى سنّ كنان بيك. أتساءل فيما إذا كنت أرى والدي في كنان بيك من حين لآخر.

أعتقد أنني شردت قليلًا... أما كنان بيك فقد كان يتابع كلامه. مَن يعرف كم مرة سمعت هذا الكلام الذي يقوله. وكلما شرح أكثر، كلما أدركت أنه يعيش في محيط آمن جدًا، ولكنه، مع ذلك، حزين لأنه يشعر كثيرًا بأنه وحيد.

وعلى الرغم من محاولتي الإصغاء إليه، إلا أن انتباهي يتشتت بين الحين والآخر. وكأن عينيّ تمسحان كل العناصر الموجودة في غرفتي واحدًا تلو الآخر. في الحقيقة إن غرف الأطباء عادة ما تكون بسيطة. ربما يفعلون ذلك حتى لا يتشتت انتباههم وانتباه المرضى أيضًا. ولربما كانت هذه الغرفة أيضًا هي فقط المكان الذي يمارسون مهنتهم فيه. أما بالنسبة لي فإن الوضع ليس كذلك... بالنسبة إليّ فإن هذه الغرفة معبد! معبد نرتبط به روحيًا مع كل من يدخله..

يا لكثرة الأشياء الموجودة في الغرفة! إنه لشيء يدعو للاستغراب أن ألاحظ ذلك حديثًا. ربما يلعب ذهني معي لعبة، ويحاول أن يحميني من شيء ما. هل يحميني من كنان؟ لا أعتقد ذلك. إنني معتادة على حالته هذه. وأثناء قولي "من ماذا إذن؟" أجد الإجابة، فهذا الرجل يُشعرني بالفشل. إنني أحاول الهرب من هذا الشعور.

أستمر بالنظر إلى غرفتي لأرى ما فيها. أحدق في مشجب كبير علقت عليه مسابح من جميع الألوان والأشكال أهداني إياها مرضاي. ينتابني شعور أن آخذ كل واحدة منها وأداعبها وأستذكر الشخص الذي أحضرها. أما هو فيواصل كلامه. أثناء كلامه يتنهد تنهيدة عميقة أفهمه بها جيدًا... يبدو وكأنه يصرخ كما لو أن شلوًا من جسده سينقطع.

في الماضي كان يبدو وكأنه يريد أن يقنعني بأنه بطل. ويسألني أحيانًا "هل سأموت؟" تتيبّس يداه وقدماه عند ذِكر الموت. يا له من موقف تراجيكوميدي! إذن حتى الموت هو ليس خلاصًا بالنسبة لكنان بيك.

كما أن حُزن كنان ليس حزنًا وجوديًا أيضًا. لم يخسر ماله وملكه، والنساء في حياته، ومكانته الاجتماعية فقط، بل خسر الراحة أيضًا. ومثل الفئران المحاصرة ضمن متاهة يتجول في ممرات الظلام ذاتها، ولا يجد الضوء الذي يبحث عنه بأي وسيلة. ربما هو لا يسعى وراء الضوء. ربما لهذا السبب أيضًا لم يسمح لي بأن أحمل الفانوس وأنير طريقه.

لديه خطط بأن يأتي إلى هناك كل أسبوع. لو كنت مؤمنة بأنها ستكون مفيدة له، لكنت قبلت ذلك. ألم أفعل ذلك طوال سنوات؟ ولكنه مصمم على عدم رؤية الضوء... وكأن كنان اتّحد مع القدر راكضًا باتجاه أحلك ظلام. ولا يريد النظام لي أن أتدخل بينهما.

ربما يدرك بأنه يفعل ذلك، ولكنه يحاول خداع نفسه ومحيطه ببكائه وأنينه المستمر. ربما كانت كل هذه الأزمات والنوبات التي عانى منها تخدم نفس الهدف، وتعصب عينيه. ألم يكن هو شخصيًا من نادى على كل ما أصابه؟ إذن من الواضح أن رؤية الحقائق يخيفه أكثر من المعاناة من هذه الأزمات.

تصفعه الحياة بكل ما أوتيت من قوة، وكأنها تريد أن تريه شيئًا ما. إنها لا تُبدي دعمها لهذا الرجل الذي يعيش الألم والغم بشكل ثقيل وعلى أكمل وجه. يبدو مثل شخص يقف ساكنًا في وجه المياه الهائجة...

أنا، وربما بتأثير مهنتي، أسعى وراء الحقيقة دائمًا. آمنت بأن الحقيقة، حتى ولو كانت مُرّة، فهي الأغلى والأهم من كل شيء. إن كانت لديكم مشكلة ولا تستطيعون تقييم الحقيقة بالشكل الصحيح، فقد تتمكنون من الهرب من ألم شديد جدًا، ولكن لفترة مؤقتة، أما هذه الحقيقة فستستمر بإمراضكم، وجعلكم تعساء، ومضطربين، حتى عندما تتمكنون من فتحها وتفريغها مثل الخرّاج. تسعى وراءكم بإصرار، وتلف حياتكم مثل شبكة العنكبوت. في الوقت الذي تظنون بأنكم ستنقذون يدكم فإنها تسحب ذراعكم أولًا، ثم حياتكم كلها.

لا أعرف السبب، ولكن الله، أو ربما النظام، هو الذي لا يسمح لكنان بفعل ذلك وذهابه إلى الطرف الآخر، مع الخَرّاج الموجود فيه. لو لم يكن الأمر كذلك، لما صفعَتْه بهذه القوة، ولكانت تراجعت في مرحلة ما، وسمحت له بالعيش في إحدى الزوايا. ولكنها لا تسمع بذلك. ثمة، في داخلي، صوت يخبرني بذلك دائمًا. وربما لهذا السبب، ومثل النظام تمامًا، لا أريد التخلي عن محاولة إظهار الحقيقة له، حتى لو كلفنا ذلك زيادةَ معاناته أحيانًا.

برأيي، هذا النظام، وكما قال مولانا (يعمل على مبدأ التبادل، فكل امرئ يكافأ على كل ذرة خير يفعلها، ويعاقب على كل ذرة شر يفعلها). مهما فعلتَ في هذه الحياة، ستعطيك مقابل ما فعلته، حتمًا. إنني أدرك مدى إنصاف اللاوعي الموجود في كل إنسان، الذي يسجل كل شيء في ذاكرته مثل الكومبيوتر، حتى إنه يجعل الإنسان في بعض الأحيان أكثر قسوة على نفسه من الآخرين. ولهذا السبب فإنني أؤمن من كل قلبي بمبدأ التبادل. السنوات التي أمضيتها في مهنتي تعزز إيماني بهذا المبدأ.

في الحقيقة، الحياة بدأت بإخبار كنان ببعض الأمور قبل سنوات مضت. ولكنه لم يتعلم لغة الحياة قط. لم يجاهد في سبيل تعلم هذه اللغة، وفهم ما تقوله له الحياة، وقراءة ذلك، والتعليق عليه بشكل صحيح. قضى كل وقته وهو يشتكي من كل شيء، ومن كل شخص ويلوم الجميع. أولئك الذين لا يتعلمون هذه اللغة يستمرون طوال حياتهم بارتكاب الأخطاء ذاتها، ويعيشون المصير الذي كتبه لهم اللاوعي. مع أنه لو كان بإمكانه سماع هذا الصوت، وفهم أسباب ذلك، وإفراغ الخراج الذي في داخله، لكانت الحياة قد أعطته إجابات مختلفة، وفتحت له أبوابًا جديدة.

كلما نظرت إليه أشعر بفشلي كطبيبة. ربما لهذا السبب أشعر تجاهه بالشفقة والعطف من ناحية، وبالغضب من ناحية أخرى، ولكن الاستسلام والاعتراف بالهزيمة ليسا من طبعي، حتى لو علمت بأنني سأفشل...

تجلب تونا الشاي والفطائر الساخنة، لعلمها بأن كلينا جائعان. يبدأ كنان بتناول ما يوجد أمامه بشهية كبيرة. بعد أن يمسح بالمنديل الورقي فمه بسرعة يتابع كلامه من حيث توقف. الأخبار التي حدثت معه انتهت، والآن مرة أخرى حان دور أحلامه التي لا نهاية لها. لقد حفظتُها جيدًا. أنا الوحيدة التي لم أتركه، وبقي مكاني في حياته أهم بكثير مما أتصور.

على الرغم من تشتت انتباهي في كثير من الأحيان، إلا أنني أحاول سماعه بصبر. هل هذه دلالة على أمل لا ينتهي، أم على يأس مطلق؟ بغض النظر إن كان اسمه أمل أو يأس، فقد كان ذلك هو ستار القطران الأسود الذي يختبئ وراءه.

يقول بعض المفكرين إن الأمل يمكن أن يسبب الكثير من الضرر. وخاصة إن كانت تلك الآمال كاذبة...

أنظر إليه بتمعن. في الحقيقة لا يبدو مسنًّا بمعنى الكلمة. فإذا أُزيلت العوائق الموجودة في طريقه، أي الآمال الزائفة، هل كان سيهرب مجددًا يا ترى؟ ولكنني مصممة الآن، هو لن يهرب.

فجأة، سرعان ما تتجه سبابتي إلى شفتي. أشير لكنان بيك إشارة "السكوت" كتلك الموجودة في اللوحات المعلقة على جدران المستشفيات وفيها ممرضات ذوات وجوه جميلة وهن يرسمن إشارة "السكوت".

أما هو فينظر حوله، وكأن شيئًا غريبًا قد حدث. وبينما كان يتلفّت يمنة ويسرة أبدأ الكلام بنبرة حازمة.

- يوجد حقائق وأساطير... أيٌّ مما تقوله حضرتك ليس حقيقيًا. إنها آمال زائفة... حضرتك، أيضًا، تعلم ذلك. ألم تسأم من هذه الأكاذيب؟ حان الآن وقت قول أشياء جديدة...

يفتح عينيه وينظر إليّ بدهشة وخوف. يبدو وكأنه لا يريد أن يصدق ما يسمعه.

- ما تسمعه صحيح، يا كنان بيك. كما أنني لا أستطيع فهم رغبة حضرتك في العودة، وبإصرار، إلى الأيام الخوالي! ألم توصلكَ الأخطاءُ التي ارتكبتَها في الماضي إلى الحال التي أنت عليها اليوم؟ لماذا الإصرار على أن تكون كنانًا القديم، وأنت تعرف إلى أين سيأخذ هذا الطريق؟ من استطعت، حضرتك، أن تخدع غير نفسك، بالتظاهر بأنك كنان القديم حتى في أحلك أيامك؟ للفردوسي مقولة مشهورة هي: (كل المعاناة، على الأرض، تأتي من عدم القناعة بالقليل). لا أريد سماع المزيد من هذا الهراء. إن استمرّيت على هذا النحو، فحتى أنا لن أكون موجودة.

أنا أيضًا لن أكون موجودة.. في الواقع، حتى لو لم أرَ كنان بيك مرة أخرى، إلا أنه سيبقى موجودًا في إحدى زوايا عقلي، من الآن وحتى أغادر هذه الحياة. أما

اليوم فيجب عليّ أن أزعجه قدر الإمكان، من أجل إظهار الحقائق له، محاولة إنهاضه من تحت الرماد للمرة الأخيرة.

- هذه الآمال السخيفة أنستكَ أنكَ بَشر، أنستكَ الحياة، أنستكَ الموت...
- الموت؟ وهل سأموت؟
- طبعًا ستموت. أم أنكَ تفكر بغير ذلك؟
- أرجوكِ لا تفعلي ذلك، لا تقولي هذا الكلام. أنا لا أريد الموت.

ذكرت له كل ما يخافه دفعة واحدة. لن تستطيع الهرب هذه المرة!

- أنا أيضًا لا أريد أن أموت، ولكنني ما زلت فوق التراب وعلى قيد الحياة. أما أنتَ يا كنان بيك؟
- ألستُ على قيد الحياة؟ ماذا أصاب حضرتكِ، لماذا تقولين هكذا؟
- عندما تغادر هذه الدنيا، ماذا ستأخذ معكَ؟
- ... ذنوبي...

تسقط هذه الكلمات على الغرفة مثل القنبلة الصامتة. أنا أيضًا مندهشة. على الرغم من أنني أنتظر سماع ذلك من كنان بيك منذ سنوات، ولكن بدا لي وكأنه لم يقل ذلك عن قصد. لم يستطع اللاوعي الانتظار أكثر من ذلك...

لا نتحدث لبعض الوقت. تجمد كنان في مكانه، وانكمش، كأنه يريد أن يذوب ويختفي. على الرغم من أنه ارتاح قليلًا، مثل شخص اعترف بجرمه، لكن بدا وكأن حجم العقوبة قد أخافه. يجلس ساكنًا مثل التمثال، محدقًا بي، وفمه مفتوح. إنه استسلام تام! تكتّفت ذراعاه وجناحاه ولم يعد قادرًا على مقاومة العلاج.

ومثل اللحظة التي تسبق بدء المسرحية على الخشبة، بدأ الآن الضوء الأخير يتلاشى ببطء، تاركًا مكانه لظلام دامس. يجلس أمامي كنان بيك وكأن الحقيقة قبضت عليه.

أميل إلى الأمام فوق طاولتي، اقترب منه كثيرًا، وأبدأ الكلام بصوت ناعم، وكأنني أروي حكاية. سيستمع إليّ هذه المرة.

- في ذلك الوقت كنت طفلة... ربما في السادسة من عمري تقريبًا. كانت جدتي أم أبي، رحمها الله، متدينة. تصلي الأوقات الخمسة، ثم تسبّح وقتًا طويلًا. وثمة أغنية كانت تتمتم بها بين الحين والآخر: "عندما يعطيك المولى لا تتكبر، وعندما يأخذ منك لا تتذمر" أو شيء من هذا القبيل...

أغلق عينيّ لبعض الوقت، كما لو أن جزءًا مني يؤلمني، وأبدأ الكلام عندما أفتحهما مجددًا.

- كانت تحاول أن تثقّفنا دينيًا، تقول إذا أسأنا التصرف فإن الله سيكتب لنا سيئة. أنا وأختي الصغيرة متقاربتان في العمر. كانت تخيفنا دائمًا فكرة الله والسيئات المكتوبة. ذات يوم، لم تكن والدتي في المنزل، أجلستنا جدتي على ركبتيها وبدأت بالكلام: لكل إنسان ملاكان يراقبانه باستمرار، وبدقة متناهية، أحدهما على يمينه والآخر على شماله، في إحدى يديهما ورقة وفي الأخرى قلم، فإن عمل الإنسان حسنة سجلاها في قسم الحسنات، وإن عمل سيئة سجلاها في قسم السيئات. يستمر هذا العمل حتى موت الشخص دون أي انقطاع. وعندما يموت الإنسان ويدخل القبر تستقبله الملائكة بسؤالها "هل أتيت أيها الملعون، هل أتيت؟" ويحاسبونه على كل السيئات التي ارتكبها في الدنيا. لهذا السبب يجب ألا ننسى أننا تحت المراقبة طوال حياتنا، وألا نرتكب أية سيئة.

يستمع إليّ كنان بيك مذهولًا وهو فاتح عينيه. في الحقيقة لقد أصابنا نفس الذهول عندما كانت جدتي تحكي لنا هذه الأشياء.

- في ذلك الوقت، أصابنا الخوف مثلكَ تمامًا، وهرب النوم منا في الليل، ولم نعد نجرؤ حتى على الذهاب إلى التواليت. أثار غضبنا وجود الملاكَين اللذين لا يتركاننا وشأننا، ويتبعاننا دائمًا حتى إلى التواليت. الحمد لله أن أمي لاحظت ذلك فورًا، ووجب عليها أن تجتهد طوال أشهر من أجل تصحيح هذا الخطأ الذي ارتكبته جدتي. كما أنني لا

أستطيع أن أنسى قط الطريقة التي كانت أختي ترصد بها الملاك الذي يراقبها وهي تنظر خلفها حتى أثناء سيرها، وتبكي باستمرار.

يركز كنان بيك كامل انتباهه، ويستمع إليّ.

- مرت سنوات على ذلك. بحثت كثيرًا عن ذينك الملاكين اللذين أخبرتنا جدتي عنهما، ووجدتهما أخيرًا في علم الطب النفسي. ربما كان العالم الشهير سيغموند فرويد هو أول من بحث عنهما، وفي النهاية قبض عليهما. أطلق فرويد على القسم الذي عثر فيه على الملاكين اسم "اللاوعي". هذان الملاكان مجتهدان ويقظَان. في أيديهما ورقة وقلم، يكتبان باستمرار كل لحظة نعيشها دون إغفال أي شيء؛ الجيد والسيء، الصحيح، والخطأ، الحسنة والسيئة... ولكنّ لهما عادة سيئة، هي أنهما أثناء كتابة السيئات يستخدمان الأحرف الكبيرة. وكل ما يكتبانه يثبت في مكانه، ولا يُمحى، ولكن السيئات تظهر أمامنا أولًا، باعتبار أنهما يكتبانها بأحرف كبيرة.

الآن يرمش كنان عينيه بشكل أكبر، وأحيانًا يغمض عينيه، وأحيانًا أخرى يفتحهما تمامًا وهو يستمع إليّ. يفعل الشيء الذي لم يفعله قط: يستمع!

- لو تعرف ما هي الحيل التي يقوم بها كل منّا كيلا يَرى تلك الكتابات، مثلكَ تمامًا! إن عدم قراءة ما هو مكتوب هناك يُمرض الإنسان بقدر القراءة المستمرة لها. لطالما كنتَ تخاف من قراءتها. لم تسمح لي أيضًا أن أقوم أنا بذلك. كنتَ تهرب من واقعكَ على الدوام.

يحني جسده للأمام قليلًا، ويقترب مني أكثر قليلًا.

- لكن حتى لو هربنا، فهما ما يزالان هناك. لا يأذن الملاكان بمسح ما يكتبانه على نحو نهائي. كما أننا، في نفس الوقت، نعرف ولا نعرف ما هو مكتوب. نقرأ من جهة، وننسى فورًا من جهة أخرى. إن قرأنا الأشياء المكتوبة وعرفناها نخاف من العقاب الذي سنناله. كما أننا نستمر بإنكار

ما فعلناه، وكأن الذي سيعاقب ليس نحن، بل غيرنا، ندافع عن أنفسنا أمام الناس الخطأ في الأماكن الخاطئة. نشعر بالضيق والانزعاج، ويهرب النوم من أعيننا، وتنبض قلوبنا بقوة، كما لو أننا نخاف من شيء ما، ونتعرق، وتضيق أنفاسنا، ونئنّ، ونرتعش، ولكننا لا نعرف سبب ذلك. نقول إننا مرضى، ونزور الأطباء، ولكنهم لا يجدون شيئًا في أجسادنا. مع أن المحكمة التي تحكمنا موجودة في داخلنا.. لا يمكن لأي جهاز أن يكشف القسم الذي يتربع فيه الملاكان. ولا يمكن لأي برنامج فكّ تلك الشيفرة؛ هذه الشيفرة الموجودة فقط عند من منحوا قلوبهم للطب النفسي.

أشرب كأس ماء آخر من الإبريق الموجود فوق طاولتي.

- قبل قليل ألقيتُ نظرة على ملفكَ، مرت سنوات طويلة على تعارفنا. لقد فككتُ هذه الشيفرة قبل سنوات طويلة، ولكنكَ لم تسمح لي بأن أشرح لكَ هذا. كنتَ خائفًا، ولم تقترب ولو قليلًا من دفع فاتورة الحساب التي قطعتْها لك الحياة، بل استمريت بالهرب منها. مع أن الحياة ترسل هذا الحساب لنا جميعًا، وليس لكَ وحدك. لو كنتَ أكثر شجاعة، لكنا دخلنا معًا تلك الغرفة الكونية، وربما غيّرنا قدَرك، ولَمَا كنتَ حكمتَ على نفسك بهذا العقاب القاسي. العقاب الذي يفرضه الشخص على نفسه لا الله يغفره له ولا البشر. ولكن، إن غفر الإنسان لنفسه، وسامح نفسه، فإنه يخفّف العقاب عن نفسه، وربما يُنهيه. يمكن للمعالِج أن يساعد ذلك الشخص على مسامحة نفسه. أليس هذا ما نسميه العلاج النفسي؟ إنه فن جعل الإنسان يسامح نفسه.

- هل سامحتِني أنتِ؟

كنان هو من يقول ذلك الآن. صوته عميق، ومنفعل، كأنه يأتي من مكان قصي. في الحقيقة لم أتوقع سؤالًا كهذا من هذا الرجل الذي يستمع إليّ مطوّلًا دون أن

يتكلم، وينظر إليّ وكأنه يفهم ما أقوله للمرة الأولى. أغرق في التفكير للحظة.

ليس الغفران مجرد فعل من أفعال إرضاء الطرف الآخر. عندما نغفر نكون نحن أول من يشعر بالراحة. يخفّ وزن الحجر الذي في قلوبنا، ثم ينزاح بعد فترة. صحيح أنني غضبتُ منه في البداية، ولكن عندما تعرّفت إليه عن قرب، وشهدتُ ما عاناه من آلام، أفسح الغضبُ الذي في داخلي مكانه متثاقلًا لشفقة عميقة. لو لم أسامحه فهل كنت سأبحث عن وسيلة لمساعدته رغم كل شيء؟ وهل كنت سأجاهد اليوم في إيقاظه من نومه العميق الذي غطّ فيه؟

- لقد مر وقت طويل على مسامحتي إياكَ. فقد عانيت، حضرتك، من كل الأوجاع الموجودة في الدنيا. أشعر بأنكَ عانيتَ أكثر بكثير مما تستحق.

يسكت مجددًا. لا يعترض على ذلك، ولكن صوتي هذه المرة بدأ يرتعش أثناء الكلام. يلاحظ الرعشة في صوتي فورًا، ويدير رأسه نحو الجهة اليسرى قليلًا، وينظر إليّ بطرف عينه. إنها ابتسامة هزلية بقدر ما هي مليئة بالحزن.

- لكل جريمة عقاب، ولكن العقاب ليس سرمديًا. فمتى ينتهي عقابك أنتَ؟

يحني رأسه للأمام بدلًا من الإجابة عن السؤال. إنه الآن يشبه شخصًا اعترف بجرمه، ويشعر بتأنيب ضمير شديد بسبب ذلك. كم هو عاجز...

- لقد أُصِبْتَ بأزمة قلبية حادة، ولكنك لم تمت. الله يمنحك فرصة.
- لأن عقابي لم ينتهِ بعد.
- ألا يمكن أن تكون هذه الفرصة الأخيرة الممنوحة لكم؟

وأثناء رفع كنان رأسه قليلًا تعمّ وجهه تلك الابتسامة المحزونة مرة أخرى.

- ربما حاولت أن تشغل نفسك ببعض الأمور باستمرار، حتى لا ترى الحقائق. وحاولتَ أن تملأ ذلك الفراغ الذي بداخلك عن طريق آلام أخرى.
- ما في داخلي ليس فراغًا، إنه منحدر..

هذه المرة حان دوري لأقع في الدهشة. إنه مدرك لذلك! إذن فإن هذه المخاوف كانت ولفترة طويلة قريبة جدًا من وعيه.

- متى أدركت ذلك؟
- إنني، ومنذ سنوات طويلة، مدرك لها، وغير مدرك لها، في الوقت نفسه.
- الآن أنت تدركها. أساسًا، ما هربتَ منه ليس بعيدًا أبدًا عنك. كيف هو ذلك المنحدر الذي ذكرته؟

يفكر، ولكن وجهه مليء بحزن لا يصدق.

- إنه لا يشبه أي ألم عانيته في حياتي. إنه بلا معنى... كما أنه يجعل الحياة بلا معنى.

لم يكن ليستطيع تعريف ذلك الفراغ بأفضل من هذا الشكل. في الواقع، إنه ذكي بما يكفي لرؤية كل شيء إن أراد ذلك!

- برأيكِ من أين ظهر هذا الفراغ؟
- لا أعرف.
- غُصْ في الماضي قليلًا. عد إلى طفولتك. ستجده في مكان ما هناك.

الآن لم تعد مسحة الحزن على وجهه! ينظر بعينين فارغتين وبلا معنى.

- لا أستطيع التذكر.
- لم تتذكر أيضًا عندما سألتك في السابق، ولكنك لاحقًا حكيتَ لي عن تلك الأيام، يومًا تلو الآخر.
- تقصدين ذلك الطفل الذي بقي وحيدًا فجأة؟ ذلك الطفل الذي لم يكن لديه أمٌ حتى...

يسكت مرة أخرى ويفكر لبعض الوقت.

- تلك الليالي المخيفة في المستشفى.. ثم عودة أمي في أحد الأيام، وإنقاذها إياي.

أنتظرُ بصمت. لقد وجدَ طرف الخيط. أما الباقي فسيظهر من خُرم الجوارب. إنني أرى حجم معاناته. على الرغم من أن مشاعر الشفقة تتزايد في داخلي، إلا أنني لا أشعر بقربي الشديد منه كما توقعت. لماذا؟ إنني شخص يمكنه بسهولة تقمص مشاعر الآخرين. فلماذا لا أستطيع الوصول إليه في لحظة كهذه؟ إنه سؤال هام، ولا بد لي من إيجاد الإجابة عليه.

أستغل الصمت الذي يعم الغرفة وأبدأ بالتفكير. إذن فإن ذلك الفراغ البارد والمظلم لا يسمح لأي شيء بالدخول إليه أو الخروج منه. يُغلق القلب عينيه. لا يستطيع أن يحب بالقدر الذي يريده، أو أن يتلقى الحب الممنوح له. يقف هكذا مثل حاجز سميك. لم يسمح لأحد بتخطيه حتى الآن. إذن، ولهذا السبب، لا يمكن لأحد الوصول إليه، ولم يقع في الحب قط، ولم يحب أحدًا حقًا...

ثم يتناهى إلى مسمعي صوته المكسور. إذن هو أيضًا غرق في التفكير في هذه اللحظة.

- خوفي من الوحدة إلى هذا الحد، انتظاري لأن تنقذني امرأة دائمًا، عدم قيامي بأي شيء من أجل نفسي، توقعاتي الدائمة من الآخرين، عدم حبي للنساء بالمعني الحقيقي على الرغم من اعتقادي بأنني أحبهن، عدم ثقتي بهن بأي وسيلة، الوجود الدائم لأكثر من امرأة في حياتي، وأنانيتي اللامحدودة...

يا لسهولة كرّ الخيط عندما يعثر على رأسه...

- كنت أحب أمي من جهة، وأغضب منها من جهة أخرى. وكلما زاد غضبي منها زاد حبي لها، وكلما زاد حبي لها زاد غضبي منها. وقد انتقمت منها من خلال النساء الأخريات...

آه يا كنان بيك، آه... ما دمت سترى كل ذلك، لماذا انتظرت كل هذا الوقت؟

- بقيت سنوات أدور في نفس المكان، مثل دولاب الملاهي المربوط أوتوماتيكيًا..

يا له من تعليق جميل! كيف تمكن، وبدقة، من رؤية كل ما يعيشه؟ لطالما أرادت المحكمة التي أنشأها هو في داخله أن يعاني. قبضت عليه مثل مصلاة العقرب. الآن، وبعد رؤيته كل شيء، وإدراكه كل شيء، هل سيتمكن من الإفلات من تلك المصلاة؟

يجلس أمامي مغطيًا وجهه بيديه. لم يعد يتكلم. هو الآن في أمسّ الحاجة لهذا الهدوء. ينتابه تغيير من نوع آخر. لا يرتعش، أو يئنّ، أو يتأوه، بل يجلس على الأريكة فقط. أبدأ أنا بالكلام هذه المرة.

- ظننت، على مدى سنوات، أنني أعرفكَ، الآن أيقنت أن فيك جوانب لم أتعرف إليها بعد. عندما تقرأ ما كتبته الملائكة في لاوعيك، لا تقرأ ما كُتب بالأحرف الكبيرة فقط، بل اقرأ الأحرف الأخرى أيضًا.
- وماذا سيحدث إن قرأتها بعد الآن؟
- من المهم دائمًا للإنسان أن يعرف ما يفعله، ولماذا؟ إن ذلك يعرفك بنفسك أكثر. ثم إن القراءة ليس لها وقت، أو عمر. تذكر أنك ما زلت فوق التراب ولست تحته. ما زلت على قيد الحياة. عليك الآن القيام بأشياء أكثر ديمومة وقيمة. بعد قراءة كل شيء، وإدراكه، لن تسمح لك الحياة أن تكون كنانًا القديم بعد الآن.

يرفع رأسه وينظر إليّ. لا دموع في عينيه، ولكن يبدو أن هنالك صرخة صامتة في نظراته، لا أستطيع تفسيرها تمامًا. ينهض متثاقلًا من مكانه. إذن فهو ذاهب. مع أن ثمة الكثير حول هذا الموضوع للحديث عنه...

هل يهرب مجددًا يا ترى؟ أنظر إليه بتمعن. لا، فقد ألقي القبض عليه. أصبح يرى كل شيء لم يكن يريد رؤيته، وسمعه بصوته هو. طافت هذه الأشياء كلها فوق سطح الماء. من يعلم ماذا سيواجه هناك مع الوقت؟

أنهض أنا أيضًا. الرجل المسنّ الذي كان هنا قبل قليل غادر، وهو واقف الآن أمامي منتصبًا. يمد يده إليّ، وأنا أمدها إليه. يصافح يدي بقوة كالعادة. ينظر في عينيّ ويقول وكأنه يهمس "شكرًا لحضرتكِ"..

في البداية لا أعرف ما أفعله، أو أقوله له، ولكن بعد ذلك فورًا تخرج من فمي كالهمس جملة قصيرة. أقول له "افعل أشياء تعجب أنتَ نفسكَ بها". يهز رأسه قليلًا ويخرج من الغرفة دون أن يقول شيئًا.

أتأمله وهو يغادر. اليوم، وفي هذه الغرفة، حدثت أشياء مختلفة تمامًا. أعاني من ألم ما في داخلي، ألم لا يشبه ما كان في الماضي. وكأن كنان بيك قد رحل دون عودة. أشعر وكأنني قد تُرِكْتُ.

كيف تمكن، وبهذه السرعة، من رؤية الحقيقة التي لم أستطع أن أوصلها إليه خلال سنوات على الرغم من أنني أردت ذلك؟ انسكبت من فمه نقوش القدر واحدًا تلو الآخر.

هل ستكون محادثات اليوم ذات فائدة، وينجح في مسامحة نفسه يا ترى؟ وإن سامح نفسه، فهل سيتغيّر قدَرُه، وتنتهي معاناة سني عمره؟ هل ستمنحه الحياة وقتًا لذلك، وتفتح له أبوابًا جديدة.. والأهم من ذلك كله، تدعه يموت بسلام؟

أشعر برعشة خفيفة. لماذا بردت هذه الغرفة فجأة؟ أم أنني أنا التي أشعر بالبرد؟

(21)

يخرج كنان من العيادة مترنحًا. يشعر كأنه يسير في الفضاء، لا على الأرض. يسير نزولًا من (كاوفاكلي ديري) دون أن ينظر يمنة أو يسرة، أو ينتبه لمَن ينظر إليه، أو يشعر بمن يراهم. هو أيضًا مدرك حالة ارتعاشه وأنينه. لا يريد صعود الحافلة فورًا. الهواء البارد الذي يسحبه إلى رئتيه، لا يتغلغل في رئتيه فقط، بل في سائر جسده. أما جسده فلا يرتجف على الرغم من أنه يرتجف من الداخل. لم يبقَ أي شيء يهرب منه. لقد أُلقي القبض عليه.

يريد أن يفكر، ويعي ما حدث، ولكن ذهنه لا يسمح له بذلك. يمشي مثل رجل آلي. معطفه الرماديّ مفتوح، ويداه في جيبيه، ورأسه مرفوع، وعيناه دامعتان. بعد ساعة، أو ساعتين، يدرك أنه متعب من خلال لهاثه. عندما يتلفّت حوله، متسائلًا عن مكانه، يلاحظ ازدحام الـ (كزل آي).[1] يبطّئ خطواته، ويتجه مباشرة نحو موقف الحافلة التي تستغرق وقتًا طويلًا للوصول، أما هو فما عاد يشتكي من أي شيء. يجلس على أحد مقاعد الموقف، وينتظر بهدوء.

عندما يصل الباص يصعد دون استعجال، أو ترنُّح، أو ارتعاش، ويجلس في إحدى المقاعد الخلفية. الطريق طويل. عندما وصلوا دار رعاية المسنين لم يكن قد بقي الكثير من الناس في الحافلة. ومجددًا ينزل دون استعجال. يفتح البواب عثمان أفندي الباب الحديدي له، يصدر عنه صرير. يدخل ويداه في جيبيه ورأسه مرفوع. بينما يتقدّم شارد الذهن على الطريق المحفوف بالأشجار، إذ يتناهى إلى مسمعه صوت دغدغة متكرر. يستدير وينظر، يدرك أن الصوت قادم من الباب الحديدي. لقد تعطل الزر الأوتوماتيكي، وكلما ضغط عثمان الزر يُوارَب الباب قليلًا، ويسكّ. يحدق فيه برهة، جاهلًا ما يفعله.

---

(1) كزل آي: اسم الساحة الرئيسية في أنقرة، ومعناها الهلال الأحمر. (المترجم)

عثمان أفندي رجل في منتصف العمر، وزنه زائد، وجهه أحمر. تتلاقى نظراتهما. ينظر الرجل فيه وكأنه يريد مساعدته. لا يستطيع أن يقرر ما عليه فعله. ثم وبخطوات بطيئة، ومترددة، يرجع إلى الوراء، ويقترب من الباب، ويمد يده إلى المكان الذي علق فيه الباب. كان عليهما هو وعثمان أفندي أن يتعاملا مع الباب بقوة وعزم. لقد علق الباب الحديدي. وعلاوة على ذلك فهو ثقيل! لو تكاتفا معًا لربما خلّصا الباب من المكان الذي علق فيه. يقول لعثمان أفندي "هيا". عندما يتجهان لأسفل الباب ويرفعانه معًا، يستقرّ الباب مكانه. يقول عثمان أفندي "الله يرضى عنك يا سيدي". ينظر في عيني الرجل الذي تفوه بهذا الكلام. يكرر الرجل مرة أخرى ما قاله محركًا رأسه للأعلى وللأسفل، بنظرات ممتنة بعض الشيء. "الله يرضى عنك يا سيدي".

يبدو وكأن الحجر الذي كان نائمًا داخل كنان بيك، طوال سنوات، قد بدأ ينبض بالحياة، ويلين، ويتحرك. يتبسم الرجل له. تظهر ابتسامة في عيني كنان أيضًا. ينتهي عمله وعليه الآن أن يستدير ويتجه إلى الداخل، ولكنه لا يريد أن يتحرك من مكانه. يستمر بالتحديق في هذا الرجل الأحمر الوجه، الضاحك العينين. ثم يقترب منه خطوة أخرى، ويضع يده اليمنى على كتفه. فيسأله الرجل فورًا.

- يا سيدي، هل تقيم هنا؟ لم أرَكَ أبدًا قبل ذلك...

الرجل محقّ في عدم معرفته إياه. فهو لم يخرج إلى هذه الحديقة قط، ولم يتجول فيها مثل الباقين.. أحضرته هاندان بالسيارة في اليوم الأول، ولاحقًا خرج من هذا الباب من أجل الذهاب إلى المستشفى بسيارة الإسعاف فقط. عندما خرج اليوم ظهرًا كان الرجل في استراحة الغداء. عثمان أفندي كان يعرف كل المقيمين هنا. عندما يتحسن الطقس قليلًا يخرج الجميع نساء ورجالًا، ويتجولون في هذه الأرجاء.

- أنا.. في الواقع أنا هنا منذ وقت طويل، ولكنني كنت مريضًا، لذلك لم أكن أستطيع الخروج...

- عليك العافية يا سيدي. أمد الله بعمرك.
- آمين!

يتبادلان ابتسامة خفيفة. ثم يتابع كنان مسيره. لم تختفِ الابتسامة من على وجهه، بل بقيت كما هي.

من مذكرات طبيبة

تستمر الحياة بالتدفق بأحزانها، وأوجاعها، وآلامها، وكذلك بأفراحها وبهجاتها. وبينما يعيش بعض الناس أشد أيامهم وجعًا، تُفتح أبواب جديدة لآخرين. باختصار فإن الجميع يستمرون بعيش حيواتهم ومصائرهم، وتستمر الدنيا بالدوران. وكما هو الحال دائمًا فمن غير المعروف ما الذي ستظهره الشمس منذ شروقها في الصباح، وحتى غروبها، ولمن ستظهره.

على الرغم من أن كنان بيك، في زيارته الأخيرة لعيادتي، نظر إلى حياتي بغبطة، إلا أنه لم يكن يعلم بأن الشمس ستدير وجهها عني في تلك الأيام، وأنا أيضًا لم أكن أعلم.. بعد عدة أشهر مرض زوجي. وقع ذلك في بيتنا وقوع الصاعقة. لم أستطع تحمل خسارته، ولم أستطع تقبل تلك الحقيقة بأي شكل. لم أكن أنا فقط مذعورة بل ولداي أيضًا. وعلاوة على ذلك فقد كانت ابنتي حاملًا في تلك الفترة، كما ظهرت عندها مشاكل حيوية تتعلق بالحمل. لم تتشت الغيوم الداكنة بأي وسيلة.

اندلعت العواصف في روحي أثناء محاولتي الوقوف على قدمي بكل ما أوتيت من قوة. في الواقع كانت الحياة تُظهر لي عجزي التام. لم أكن أستطيع التحدث عن همومي، ومشاركتها لأحد أو حتى البكاء. في غضون بضع سنوات تبعت الغيابات بعضها البعض. فأنا من الآن فصاعدًا وحيدة قبل كل شيء، لم يعد زوجي الذي أحبه كثيرًا موجودًا.

في ليالي الأرق تحدثت مع نفسي مطولًا. تخليت عن التمرد، وخضتُ حربًا كبيرة لتقبّل العالم كما هو. لم أخض هذه الحرب من أجل الفوز، فمثل هذه الحرب لا يمكن كسبها. في النهاية تعلمت الاستسلام خلال القتال بدلًا من الفوز.

في تلك الأيام كنت أقرأ عن التصوف أكثر من أي شيء. وضعت في أحد طرفي المصباح الليلي المضاء بجانب سريري كتبًا مثل الفيزياء، وعلم الأحياء، وعلم

الفلك، وتاريخ الكون، وتاريخ الإنسان، وفي الطرف الآخر وضعت القرآن، والإنجيل، والتوراة، والمثنوي. كنت أتقصى ما قاله الفلاسفة الذين عاشوا قبلي عن هذا الموضوع، وأستمر بالبحث حتى الصباح عن بعض الأشياء فيها.

وعلى الرغم من كل شيء لم أقطع صلتي بالعيادة أو بمرضاي. يمر يوم أنسى فيه مشكلتي بسماعي مشاكلهم، ويمر يوم آخر أغرق في الهم معهم أكثر فأكثر. إذن فالحياة كتبت هذه الأمور في العقد الذي أبرمته معي.

في الواقع كنتُ، طوال سنوات، أبحث عما كُتب في عقود الآخرين، محاولة فهم ما رأيته وشرحه. لكن كل ما عانيته من ألم لم يذهب سدى. فمن الممكن أن يعلّم الألم الإنسانَ دائمًا أكثر مما تعلّمه السعادة. قال نابليون بونابرت (يجب أن يُعجن الإنسان بالألم حتى ينضج، لأن هذا الألم هو المنحوت والناحت). والحقيقة أنه كذلك. بدا وكأن بإمكاني الآن، وعلى نحو أفضل من السابق، رؤيةَ خطوط نقوش القدر التي يمكن أن تكون مختلفة عند الجميع، كما يمكنني بشكل أفضل أن أسمع بعض الأسرار التي تهمس بها الحياة للناس من حين لآخر. كانت قد جذبت انتباهي هذه النقوش التي أعدتُ اكتشافَها، المختلفة عند كل واحد منّا، ولكنها تكرر نفسها باستمرار.

بعد كل هذه المعاناة، شعرت بامتنان حزين لرؤية هذه الآلام وهي تُعمّق الإنسان. عيادتي الموجودة في أنقرة صارت كما أريد. والآن حان دور إسطنبول.

زرت إسطنبول خلال عدة شهور متتالية. الذهاب إلى هناك كان جيدًا بالنسبة لي. لطالما أعجبتُ بهذه المدينة الساحرة. وفي النهاية، بعد مجهود وتعب كبيرين، تمكنت من افتتاح عيادة هناك.

في ذلك الصباح أتيت إلى العيادة سيرًا على الأقدام مرة أخرى. ولأنني لم أكن أعرف إسطنبول جيدًا فقد جعلت منزلي قريبًا من عيادتي. على الرغم من أن الربيع لم يحلّ بعد، إلا أن رائحة الجو بدت وكأنها تبشر بقدومه. كنت أسير ببطء شديد مستنشقة الهواء.

عندما وصلت العيادة كانت المظلات الحمراء تغمزني. أعتقد أن شغفي باللون الأحمر لن ينتهي. عندما أدخل أتبادل الأحاديث العابرة مع أصدقائي الجالسين ثم أصعد إلى غرفتي. قبل أن أبدأ باستقبال مرضاي، أجيل نظري في الأرجاء. لقد اتخذت الموناليزا مكانها على الحائط هنا أيضًا. الأضواء التي تضيء اللوحة كانت مشتعلة، لكن التماثيل المختلفة الأحجام الموضوعة فوق (الدرسوار) وتحت اللوحة فوضوية كالعادة. بعد أن أرتبهنَّ بالتسلسل، أُشعل الأضواء وأجلس مكاني.

في الواقع أنا لست إنسانة مهووسة، ولكنني أهتم بالديكور. لو كنت مهووسة لما كانت غرفتي مزدحمة بهذا الشكل. ملأت الغرفة بالكثير من الأشياء مرة أخرى. كانت في معظمها أشياء كبيرة وصغيرة أهداني إياها مرضاي. إنني أحصل على الطاقة الإيجابية من كل واحدة منها...

تمد سكرتيرتي الجديدة رأسها من الباب قبل حتى أن أجلس مكاني. تونا الآن في أنقرة. في الحقيقة لست سعيدة بالعمل دون تونا. لو استطعت استنساخ تونا أخرى ووضعِها في إسطنبول لكان ذلك رائعًا جدًا!

تقول لي: أتت فتوش خانم في موعدها الساعة الحادية عشر. إذا كنتِ حضرتكِ جاهزة أدخلها. وأثناء قولي "نعم" يمد وجه مألوف رأسه إلى الداخل. في يدها باقة أزهار بيضاء كبيرة. تضع الأزهار فوق طاولتي، وتقفز على رقبتي كالطفل. يا إلهي، إنها فادي التي نعرفها..

نعانق بعضنا مطولًا. رؤيتها تجعلني سعيدة من جهة، ومتحمسة من جهة أخرى. عند انتهاء مرحلة العناق، تجلس على الأريكة المقابلة لي بعينين رطبتين بعض الشيء.

- ممنوع الجلوس هكذا فورًا. انهضي على قدميك بسرعة!
- لماذا؟
- مر وقت طويل منذ أن التقينا آخر مرة. أريد أن أرى إن كنت قد تغيرت أم أنكِ ما زلت شابة وجميلة كما كنت.

تقفز من مكانها على الفور. تخطو خطوة أو اثنتين في غرفتي كعارضات الأزياء. وأنا أراقبها بتمعن. أعتقد أنها الآن في الأربعينيات من عمرها. شعرها الداكن، الذي تمتزج فيه خيوط الفضة الرفيعة، جمعته إلى الخلف بخصلات صغيرة لامعة مسحوبة من كلا الطرفين. ولكن عينيها ليستا لامعتين كخصلاتها، وإنما كعادتهما تنظران محرومتين من كل أنواع السعادة. فادي امرأة أنيقة، رقيقة العظام، صغيرة الوجه. ما يزال التعبير الطفولي الذي على وجهها في مكانه. لا مكياج على عينيها السوداوين! لا تضع سوى أحمر خدود خفيف، وأحمر شفاه وردي باهت على شفتيها. ترتدي تنورة سوداء ضيقة، وسترة صغيرة كحلية ككحل الليل، تبدو أنها ذات جودة عالية. إنها كالعادة نحيلة، مثل غصن.. كما ترتدي تحتها بلوزة حريرية مفتوحة الياقة بلون عاجي، وفي رقبتها يتدلى عقد ذهبي أنيق. تضع في معصمها ساعة غالية الثمن، ولكن لا خاتم في يدها. تتجول مثل البجعة بحذائها ذي الكعب العالي.

وقبل أن نجلس، نضع الأزهار معًا في مزهرية زجاجية وردية كبيرة في الزاوية. في الحقيقة أريد الاستماع إلى فادي في أسرع وقت ممكن. تجلس مكانها وهي تنقل نظرها في الأرجاء. أسألها فورًا.

- كم مضى منذ آخر لقاء لنا، كم سنة؟
- لا أعلم. أنا في إسطنبول منذ عشر سنوات...
- ولكنكِ ما تزالين شابة وجميلة جدًا. يا لسرعة مرور السنين.
- فعلتِ حسنًا بمجيئكِ إلى إسطنبول.
- كنتِ قد زعلتِ مني. ولكن بما أنكِ أتيت إلى هنا فهذا يعني أننا تصالحنا. مسرورة جدًا برؤيتكِ. كيف حالك؟ كيف تسير حياتكِ؟
- في الحقيقة إن من ينظر إليّ من الخارج يغبطني. أصبحت مديرة عامة في الشركة التي أعمل فيها. ساعدني الله...
- هل حقًا ما تقولين؟

تحني رقبتها أثناء قولها ذلك كما في السابق. كم هي حزينة!

- أجني نقودًا كثيرة، ولكن النقود ليست كل شيء. إنني مدركة لذلك منذ القدم، ولكن العيش وحيدًا في الرفاهية يؤثر في الإنسان.
- إذن ما زلت وحيدة! هل هناك أخبار عن عائلتكِ؟
- توفي أبي قبل أربعة سنوات. لم أحزن أبدًا على موته. سعى للقائي كثيرًا، ولكنني لم أقبل ذلك. اكتفيت فقط بإرسال الكثير من المال له. أساسًا هو كان يريد رؤيتي من أجل هذا المال فقط. ضاق وضعه المادي جدًا. باع كل ما لديه. هو أيضًا مات بالسرطان مثل أمي. قدمتُ له كل أنواع الدعم المادي من أجل علاجه. ثم مات لاحقًا... لم أحضر جنازته أيضًا. أولاده الصبيان في إسطنبول منذ سنتين. أحضروا أمهم إلى هنا أيضًا ويعيشون الآن في منزل صغير. إنهما عاقلان جدًا، ويدرسان. ليس لديهما دخل جيد، ولكنني لا أنقص عليهما شيئًا. يأتيان إليّ أحيانًا في عطلة نهاية الأسبوع. حنيفة أيضًا تأتي. لا أحد من أخواتي تحب هذه المرأة، أما أنا فأحبها. حتى إنني أعتقد بأنها أقرب إليّ من أخواتي. كلما أتت إليّ تدخل إلى المطبخ، وتصنع أطعمة مختلفة لذيذة، ثم تغادر. أتفق جيدًا مع الشابين. ما أود قوله لك هو أننا أصبحنا عائلة متكاملة معهم. أزورهم أنا أحيانًا، وعندها يُسعدون كثيرًا، ولا يعرفون كيف يكرمونني. إنني أشعر معهم بأنني في جو عائلي هادئ. خضعت لعملية بسيطة العام الماضي. مكث ثلاثتهم عندي مدة أسبوع. اعتنوا بي كأميرة. جميل جدًا أن يكون للإنسان عائلة...
- أنتِ فتاة طيبة. رحيمة، لست أنانية، تهتمين بمن حولكِ، وتدركين احتياجاتهم، وتفرحين لفرحهم. أما هذا الغضب الذي بداخلكِ، فلم يؤثر فيكِ في الوقت الذي أثر في كثير من الناس غيرك، وجعلهم سيئين. أنتِ لم تسمحي له بذلك. لقد نجحت بتغيير مجرى المياه.

- هل حقًا ما تقولين؟

رقبتها منحنية كعادتها!

- نعم حقًا. ما أخبار أخواتكِ؟

- علاقتنا ليست جيدة إلى هذا الحد. كل واحدة منهنّ في مكان، تجاهدن في هذه الحياة... صار لديهم أولاد. وكما كن في السابق، لا يتصلن بي إلا عندما يقعن في مأزق، وأنا بدوري أفعل ما بوسعي، ولكنني لا أشعر بنفسي قريبة منهن بقدر الشابين. لدي منزل جميل جدًا، في حديقة منزلي أشجار وأزهار أشتاق إليها دائمًا. في أوقات فراغي أتعامل مع كل واحدة منها على حدة. أحب التراب. على الرغم من أنه يذكرني ببلدي، إلا أنني أحبه. عندما كنت على علاقة بكنان دائمًا ما كنت أحلم ببيت كهذا. بيت له حديقة شاسعة، وأطفال يتراكضون في هذه الحديقة، وقطة أيضًا. ليس لدي أطفال الآن، ولكن أحضرتُ قطة. تذكرين (العاهرة) أليس كذلك؟

- وكيف لا أذكرها؟ الآن، على الأقل لديك قطة.

- (فيلسوف) هذه رفيقتي. حتى إنها تنام على حافة سريري ليلًا. تحب إحدانا الأخرى.

- هل (فيلسوف) هو اسمها؟

- في البداية سميتها (العاهرة)، ولكنني تراجعت لاحقًا. لم يهن عليّ أن أسمي هذه المسكينة (العاهرة). لاحقًا سميتها (البائسة)، وهذا لم يكن جيدًا أيضًا. عندما اشتريتها كانت لم تكن تتسع لها كف اليد. فكرت وفكرت، ثم أطلقت عليها اسم (فيلسوف).

- من أين خطر لكِ هذا الاسم؟

- في القديم كنتُ بائسة. حتى إنكِ كنتِ تغضبين مني عندما أقول عن نفسي هكذا. عندما عشت، ورأيت، واحترقت من الألم، لم أستطع أن أقول عن

نفسي بائسة بعد ذلك. الآلام تجعل من الإنسان فيلسوفًا. ولذلك أطلقت اسم (فيلسوف) على قطتي.

أتذكر الأيام الأولى لمجيء فادي إليّ. كانت هذه الفتاة في تلك الأيام تعيسة حقًا، ولكنها مع ذلك لم تكن بائسة. وفي أسوأ الأحوال، يمكن القول إنها كانت محاربة منزوعة السلاح.

- الشخص الذي يتحدى الحياة، ويكافح من أجل حياة أفضل لا يمكن أن يُسمى بائسًا يا فادي. في تلك الأيام كنتِ محاربة. إذن فأنتِ الآن فيلسوفة.

- فادي؟ هل ناديتني بفادي؟

أتوقف للحظة. نعم، لقد قلتُ فادي. كان اسمها في ذهني فادي طوال سنوات، ولكن كنان بيك فقط هو من كان يطلق عليها فادي. يبدو أنه أُلقي القبض عليّ..

أثناء طرحها هذا السؤال، لا تهرب من عيني موجة الإثارة التي تملأ وجهها. يبدو أن كل ما يذكرها بكنان بيك ما يزال يزيد من انفعالها. إن كان كذلك فبئس هذا الحب حقًا.

- كان كنان بيك يطلق عليكِ هذا الاسم. أليس كذلك؟

- هذا يعني أن كنان أيضًا أتى إليكِ.

- لقد أتى.

- هل ما زال يأتي؟

- لا، لم نلتقِ في السنوات الأخيرة. في الحقيقة أنا أيضًا قلقة عليه. آخر الأخبار أنه يقيم في دار لرعاية المسنين.

- أعلم. لقد خسر كل ما يملك، ماله، زوجته، أصدقاءه، كل شيء...

- أرى بأنكِ تتابعينه أكثر مني.

- لم أستطع حقًا أن أفهم كيف لهاندان خانم، التي كانت تجلس في بيتها سنوات طويلة منتظرة عودة زوجها بفارغ الصبر أن تتركه. لو فكرتُ

أربعين سنة لما خطر في بالي بأن يحل بكنان ما حل به في يوم ما. أحيانًا لا أستطيع معرفة ما إذا كنت قد بالغت في تقديري له، أم أن ما حدث يصيب المرء بالذهول حقًا. عندما تركته كنت أعتقد بأنني أنا من سيُبتلى، وأما هو فسيتابع حياته كالملوك، وكنت أغضب من الداخل كثيرًا لذلك. في تلك الأثناء كنت ألعن قدَري دائمًا، وأتمرد على هذا الظلم. حضرتكِ أيضًا تعلمين كيف وصلتُ إلى هذه الأيام. أما هو فقد كان كالملك الذي يغيّر ثيابه. قرأت في كتب التاريخ أن الملوك يمكن الإطاحة بهم، أو حتى قتلهم بوحشية، ولكنني في الحقيقة لم أتوقع أبدًا أن مصير كنان بيك سيكون أسوأ منهم.

- ما حدث له أصابني أنا أيضًا بالدهشة.
- هل حزنتِ من أجله؟

أنظر في وجهها راغبة بمعرفة سبب هذا السؤال الذي سألته. ولكنني لا أستطيع سوى رؤية انعكاسات الانهيار داخل عينيها اللتين ثبتت نظراتهما.

- نعم، لقد حزنت كثيرًا. في السابق كنت، أنا الأخرى، غاضبة منه، ولكن أسباب غضبي منه تختلف عن أسباب غضبك. لو أخذ العلاج على محمل الجد قليلًا، ولم يتصرف كما أراد، لربما لم يصِبه ما أصابه، ولكنه عاش ظروفًا مؤلمة لدرجة أن أي غضب منه لم يبقَ فيّ. لم أستطع أن أقول للقدر قف، على الرغم من أنني فعلت ما بوسعي من أجله.
- إذن أنتِ أيضًا لم تستطيعي إنقاذه! تعالي ولا تصدقي العدالة الإلهية بعد رؤيتك لهذا. أنا أخشى الآن من أن أهضم حق أحد، أو أتحمل إثمه. يبدو أن الله يحاسب الإنسان هنا في هذه الدنيا على كل ما ارتكبه. أنتِ تعلمين أنني كنت في السابق أغضب منه كثيرًا. وتذكرين أيضًا كم دعيت عليه، ولعنته، أليس كذلك؟
- وكيف لا أذكر ذلك؟

- كنت أقول ليحلّ البلاء عليه. أسوأ ما في الأمر أنه، وبينما كان يُبتلى، ربما كنت أنا أكثر من حَزن عليه. قضيت عمري وأنا ألعنه وأغضب عليه كما لو أنه هو الوحيد المسؤول عن كل ما عانيت منه من آلام حتى ذلك اليوم.
- الدعاء وصب اللعنات سلاح من لا حول لهم ولا قوة. إنه المكان الذي تنتهي فيه كل الكفاحات.
- دعائي هو هكذا أيضًا. حاربت على مدى عشر سنوات، ولكنني لم أنتصر. لم يعد بوسعي فعل أي شيء. ولكن الغضب الذي كان يتلاشى مع الزمن ترك مكانه لحزن عميق.
- هذا ما يحدث دائمًا. في البداية يُعمي الغضب أعيننا، ثم يلحقه الحزن. ألم تستطيعي أن تنسي كنان؟

تُنزل بصرها إلى الأرض، وتجيب على سؤالي بصوت مكسور وكأنها خجلة.

- لا يمكن أن يُنسى بعد كل ما عشته...
- عندما انفصلتما حاول كثيرًا لكي تعودي إليه، ولكنك لم تعودي.
- صحيح أنني تركته، ولكنكِ أنتِ أيضًا تعلمين أن الأمر ليس كذلك. فلو كان يحبني ولو قليلًا فقط، لاختلف كل شيء تمامًا.
- هذا ليس شأنه معك أنتِ فقط، كنان لم يحب أية امرأة. أو ربما أحب كل النساء اللواتي أحببنه وكنّ على استعداد لبذل كل شيء من أجله.
- لم أكن في نظره أختلف عن باقي النساء نهائيًا.
- لا تنظري للأمر على أنه أمر مُذلّ. إنها ليست مشكلة تتعلق بكِ، بل بهِ هو. لو نجح بحب امرأة واحدة فقط، لربما لم تسُؤ الأحوال إلى هذه الدرجة.
- كان شخصًا شرِهًا. يريدهم كلهن في آن معًا. زوجته، وأنا، وكل النساء اللواتي يصادفهن. في السابق كنت أغضب كثيرًا من هاندان خانم، ولكنني لاحقًا أدركت بأننا، كلتانا، نتشارك نفس القدر. هي أيضًا بذلت عمرها لهذا الرجل، ولكن لاحقًا...

- لاحقًا، تركته هي أيضًا مثلك ورحلت.
- لو لم أرحل أنا لما رحلت هي.
- من يدري؟ ربما كنتِ محقّة. فرحيلك غيّر مصير كنان بيك.

تحني رأسها للأمام وتفكر. أحب كثيرًا هذا الجانب من هذه الفتاة. إنها منفتحة جدًا على التفاهم والتطوير.

- هي مثلي، تألمت كثيرًا بسببه. في السنوات الأولى لم أرغب بسماع أي خبر عن كنان بيك، لأن الغضب كان قد أعماني. كنت أعتقد أنه يعيش مع زوجته التي في المنزل، وكأن شيئًا لم يكن، وفي الوقت نفسه كان يقضي كل يوم من أيامه مع امرأة مختلفة. في تلك الفترة أصبح لدي عدة أصدقاء. في الحقيقة لم أكنّ لأي منهم حبًا أو عشقًا حقيقيًا. بدا الأمر وكأن لدي هوسًا بأن أغضبه، وأحزنه، وأجعله يغار. كانوا كلهم رجالًا وسيمين وأنيقين. أساسًا لم تكن تتملكني رغبة بحبهم. ربما كنت أعتقد بأنني ألعب مع الحياة، وأقوم بعدة أنواع من التجارب.
- استقصاء الحب...
- ولكن أيًا من تلك التجارب لم تنجح. لقد أصبحتُ إنسانة حساسة للغاية. أدنى إهمال، وأحيانًا مجرد نظرة يمكن لها أن تؤذيني، وكنت أنسب آلاف المعاني لتلك النظرة.
- أعتقد أنكِ فعلت نفس الشيء لي قبل سنوات مضت.

تجيب على سؤالي وهي تحني رأسها للأمام خجلًا.

- أعلم! في ذلك الوقت غضبتُ منكِ كثيرًا.
- هل تذكرين الآن سبب غضبكِ؟
- شعرت وكأنكِ تهملينني، وكما يفعل الآخرون لا تقدّرينني أيضًا، ولهذا تتركينني.

- كنتِ قد عانيتِ توًا من الفقد، غاضبةٌ من الدنيا كلها، وليس مني فقط. في الواقع، يغضب الإنسان من أجل الهروب من الإحساس العميق بالخسارة. إننا نستخدم الغضب كدرع يحمينا من معاناة أكبر. أعتقدُ أنكِ أنتِ أيضًا فعلت الشيء نفسه. كما أنك كنتِ تتعلقين بي أكثر مع مرور الوقت.
- ذلك أكثر ما كان يخيفني. التعلق بشخص جديد كان شيئًا كارثيًا بالنسبة لي في ذلك الوقت. لم أكن قد كسرت قيودي بعد.
- هل القيود ما زالت موجودة؟
- لا أعلم! أحيانًا أكون معطاءة كثيرًا، كما كنت في السابق، وأفعل ما بوسعي من أجل الرجال الذين أقمت علاقات معهم، أحاول أن أكون أهلًا للحب الذي يعرضونه عليّ. أحيانًا أخرى كان الشيطان يجلب إلى ذهني أشياء غير متوقعة، فيقول صوت بداخلي "هذا الرجل أيضًا يستغلّكِ" وعندها أجد حجة ما لأنهي العلاقة.
- متى ستتخلين عن عطائك المستمر للآخرين وتدَعينهم هم يعطونك؟

يا للماضي الذي يستمر بتتبّع الإنسان! تدرك هذه الفتاة الكثير من الأمور، ولكنها ما زالت غير قادرة على منع رواسب الماضي من كتابة قدَرها.

- يا فادي، أنتِ فتاة ذكية، ولكنني أرى بأن ماضيكِ ما زال مهيمنًا على مستقبلكِ.
- برأيكِ لماذا أفعل ذلك؟
- لأنك تختارين الأسهل. الناس جميعًا يفعلون مثلك. بدلًا من تغيير مسار الماء تتركينه. فيستمر بالتدفق من المكان الذي اعتدت عليه.
- أعتقد ذلك.. نظرتُ فوجدتُ بأنني لا أجد ما أبحث عنه في العلاقات، فتخليت عن اللهاث وراءها. أنا، أساسًا لا أجد وقتًا لأفكر بهذه الأشياء بسبب عملي الكثيف. لذلك اتجهت إلى أكثر شيء أجيده، وهو العمل. لم تكن الحياة ظالمة معي في هذا الموضوع فقط.

- لقد انشغلنا بالكلام، حتى إنني نسيت بأن أكرمكِ. ماذا تشربين؟
- أشرب الشاي المخمر إن وجد.

أضغط زر الهاتف، وأنا أقول لها "حسنًا"، سأطلب كأسين من الشاي، أحدهما خفيف والآخر مخمّر.

- اشتقت للحديث معكِ. أثناء مجيئي إلى هنا، كان عندي كثير من الأشياء التي خططت لأحكيها لك، ولكن أكثرها طار من عقلي الآن. تعلمين أنني هربت من أنقرة، ولجأت إلى إسطنبول. أردت ترك الآلام والأحزان هناك. تمامًا مثلما هربتُ من بلدي عند ذهابي إلى المدرسة الداخلية. أردت الهروب من الشعور بالذنب، والعار، وأن أنشئ حياة جديدة لنفسي. منذ ولادتي وأنا أهرب من الأوساخ، والصدأ، والذل، وقلة الحب، وانعدام الرغبة، وسوء التقدير. في الأيام الأولى كنت ممتلئة بالغضب. حتى أثناء عملي فإن أدنى تنبيه كان يجرّني إلى الأيام القديمة، فأمتلئ غضبًا، وأبحث عن رجل أصطدم به. كأنني لم أعان من أي ألم قبل كنان، فأراه دائمًا الوحيدَ المسؤول عن تعاستي وحزني. كان بالنسبة لي خسارة لا تُعوض. عندما سمعتُ بأنه أفلس، شعرت كما لو أن ماء باردًا انسكب عليّ.

أقول لنفسي "إنه الانتصار الحزين للانتقام" ولكن الخطوط الرفيعة الموجودة حول عينيها تتعمّق من خلال ابتسامة حزينة. بدت وكأنها تفهم ما أشعر به.

- لم يكن ما خسرته هو الحب فقط. كنت أشعر بالهزيمة. عندما سمعت أنه أفلس، قلت بأن العدالة الإلهية قد تجلّت. استجيبت دعواتي، وأخيرًا سمعت الحياة صوتي. بينما كنت أعيش هنا، وإحدى يدي في الزيت والأخرى في العسل، كان هو يُبتلى. على الرغم من أن هذا الوضع لم يخفف من ألمي، ولكنني شعرت وكأن ماء باردًا سُكب عليّ وأظهرت لي الحياة بأن لا شيء يبقى دون مقابل، ولكن ذلك لم يدم طويلًا. أثناء

اعتقادي بأن أسوأ من ذلك لا يمكن أن يحدث، وأنه قد نال عقابه، سمعت بأنه لجأ إلى إسماعيل، وعندها تركت المياه الباردة المسكوبة داخلي مكانها لمياه مغلية كالمُهل. وكأن دودًا دخل فيّ وبدأ ينهشني.

تلوم نفسها على ما حدث. يا لإنسانيتها!

- وقبل أن أدرك بأنني كنت أبكي، بدأت الدموع تتساقط من عيني مثل السيول. عندما هدأت دموعي فكرت طويلًا بسبب بكائي، ولكنني لم أقنع نفسي بأنني لست المذنبة في ذلك. سقط خوف لا يمكن تفسيره في داخلي، وكنت خائفة من الكوارث التي قد تحدث لي، ومن أنني لن أجد الطمأنينة مرة أخرى. صرت أسعى باستمرار لسماع خبر عن كنان، وما يفعله، وعن صحته، وما إذا كانت قد حلت عليه كارثة أخرى أم لا. في الحقيقة كنت أريد أن أفعل شيئًا لأجله، لكنني لم أستطع أن أقرر ما هو.

في تلك اللحظة يُفتح الباب وتدخل (فَطمة خانم) وبيدها صينية الشاي. وأثناء وضعها الشاي أمامنا بحذر قامت فادي بإعادة السكر الموجود جانبًا. أما أنا فأضع مكعبين من السكر في كأسي. ولفترة من الوقت نشرب الشاي دون أن نتحدث.

إذن فإن وضع كنان أثر فيها كثيرًا. كان واضحًا أنه سيؤثر.

- في الواقع أنا أيضًا مثل هاندان خانم، لم أعد أرغب بالبقاء معه، ولكنني لم أكن أستطيع التظاهر بعدم الاهتمام بوضعه هذا. ونظرًا لعدم وجود جريمة بلا عقاب، فإن الحياة تفرض جميع أنواع العقوبات على الناس هنا، قبل الذهاب إلى الحياة الآخرة، وبالانطلاق من ذلك، بدأت أفكر بعمق في العقوبة التي سأعاقَب بها، وأراجع نفسي، وحياتي، وأفعالي. أي باختصار، تحولتُ إلى فيلسوفة.

خيبة الأمل، مهما كانت مؤلمة، تجعل الإنسان يصل إلى مرحلة نضج معينة. يبدو الأمر كما لو أننا خرجنا من شرنقتنا، وبدأنا نتعلم أشياء جديدة، ونقوم بتصرفات تثرينا. إنني أفهم هذا جيدًا...

- لاحقًا خطر والدي ببالي. لقد آذانا جميعًا. ظلم أمي وأكل حقها. لم تستطع أصغر أخواتي تحمل هذا الأذى فرمت بنفسها من الجرف. وفي النهاية ماذا حدث؟ كان يقول أعطِني صبيًا وخذي كل ما أملك. أعطاه الله صبيّين وكأنه سمع صوته، ثم لاحقًا أخذ منه كل شيء. تراكض إلى المستشفيات طوال سنوات، وعانى الكثير. لم تذهب إليه أي ابنة من بناته وتسأله عن حاله. ولو لم أمد له يد العون لبقي وهو وأطفاله يعانون من الجوع والعطش. قلت لنفسي إذن هو أيضًا يُعاقب، فخفت.

عندما يرى الإنسان هذه الأمور في الحياة فإنه يتأثر بها حقًا. هذه الفتاة تقرأ الحياة بشكل صحيح.

- في تلك اللحظة، تركني الغضب وشأني، وبهدوء. أساسًا أنا تعلمت مواجهة الحزن. فبينما كنت أتتبع كنان من ناحية، كانت دائمًا عيني على نفسي، من ناحية أخرى. بدأت أصبح أكثر حساسية تجاه كل ما يحيط بي، بدءًا من مكان عملي. لم أعد أغضب من كل شيء كما في السابق، صرت أحاول فهم الناس ومساعدتهم. لاحقًا سمعت بأنهم وضعوا كنان في دار لرعاية المسنين. ساءت حالتي كثيرًا. وبغض النظر عن مدى رغبتي بمعاناته بالحجم الذي عانيته أنا، إلا أن كل هذا بدأ يحزنني. فبدأت ألوم نفسي.
- إذن لقد لمتِ نفسك.
- لم أستطع بشتى الوسائل أن أدرك ما هو الصواب. وفي تلك الأثناء اتجه كل غضبي نحو هاندان خانم. بدأت أغضب منها لأنها تركت الرجل المسكين هكذا ورحلت. لمتها لأنها إن كانت ستغادر ولا بد فتمنيت لو غادرَت قبل أن ننفصل نحن.

تقف عند هذه النقطة، ثم تتابع دفق أفكارها كما لو أنها تتحدث مع نفسها، عيناها غائمتان، ويداها تتحركان في الجانبين.

- في الواقع، عندما تركناه، كلانا، كان هدفنا ربما معاقبته لأننا؛ أنا وهي، نعرف بأن أكثر شيء يخشاه كنان هو البقاء وحيدًا.. لقد تركناه وحيدًا.. هل فعلت هانداان ذلك عمدًا يا ترى؟ هل تألمت مثلي عندما سمعت ما آل إليه، أم أنها كانت أقوى مني؟ هل استطاعت قول "آه، وأخيرًا حدث ما حدث". هذا ما لم أستطع أن أجد إجابته إلى الآن.

أستمع إليها دون مقاطعتها أبدًا. أساسًا فادي الآن لا تتكلم معي بل مع نفسها، وتحاسبها. تهز كتفيها قليلًا وتتابع الكلام بصوت ناعم.

- في بعض الأحيان لا أعرف كيف يمكن للإنسان أن يشعر بالأسف والشفقة والحزن على شخص غضب منه إلى هذا الحد، ولعنه بهذا الشكل. أقول في نفسي ليتني لم ألعنه بهذا الشكل، ولكنني فعلت. في تلك الفترة كانت يداي تمتدان كثيرًا نحو الهاتف. فكرت بأن أتصل وأسأله عن حاله، ولكنني كنت أتراجع.

- لماذا تراجعتِ يا فادي؟
- لقد وصلنا إلى نهاية الكلام. وأثناء غرقي في التفكير أتى خبر من أنقرة. كانت دار رعاية المسنين التي يمكث فيها كنان مرتفعة الثمن وفاخرة ومميزة. أخذت إحدى الجمعيات الخيرية على عاتقها الدفع لمدة سنة. والأصح أن أصدقاءه هم من تبرعوا للجمعية، ومقابل ذلك قامت الجمعية بتأمين إقامة كنان هناك، ولاحقًا لم تعد الجمعية تريد الدفع، أو لعلها لم تعد تستطيع. لا أعلم ذلك تمامًا. بحث مدراء دار الرعاية مطولًا عن حل لهذا الوضع، ولكن عندما لم يتوصلوا لشيء قرروا نقله إلى مكان تابع للدولة. عندما سمعت ذلك ارتبطت يداي وقدماي. ذُعرت وانفعلت، وقلت بأن الله سمع صوتي مرة أخرى، فاتصلت بدار الرعاية على الفور.
- إاي؟

- قلت لهم بأن شركتنا هي من سيتولى الدفع، ولكننا لا نريد لكنان بيك أن يعلم بذلك. سُعد مديرو الدار كثيرًا لذلك. في الحقيقة هم أيضًا كانوا يبحثون عن وسيلة لكيلا يذهب كنان بيك من هناك. حتى إنهم قدموا لنا بعض الخصومات.
- يعني؟
- يعني أنني أنا من يدفع تلك النقود منذ ذلك الوقت وإلى الآن.

لا أستطيع تصديق ما أسمع. كم يمكن للحياة في بعض الأحيان أن تُدهش الإنسان! كيف تجاوزت نفسها، هذه الفتاة الرقيقة، المرهفة، الطيبة القلب، التي ترعرعت في كوخ، ووصلت إلى هذه الأيام بعد معاناة طويلة!

- أنتِ من يَدفع، ولا علم حتى لكنان بذلك.
- لا يعلم. لا أحد يعلم أساسًا. والآن أخبرتكِ بذلك. أثناء مجيئي إلى هنا كان هذا أهم شيء أرغب بقوله لكِ. لم أستطع أن أبوح بذلك لأحد. أساسًا حتى لو تكلمتُ فلن يفهمني أحد. لربما نعتوني بالغبية أيضًا.
- أنتِ لست غبية يا فادي، بالعكس؛ ذكية جدًا، وحساسة، ورحيمة، وتستحقين كل الثناء. هل تذكرين الأيام الأولى لمجيئكِ إليّ؟ كنت تنعتين كنان دائمًا بـ "الملك"، كما قلتِ "إن كان هو ملك فأنا لا يمكن أن أكون حتى جاريته". لا أستطيع نسيان ما قلتِه نهائيًا. الفتاة التي لم تكن ترى نفسها حتى جارية، كبرت الآن، وكسرت قيودها، ونضجت، وأصبحت هي "الملك" الحقيقي. إنه نصر على الحياة! لا يستطع أحد بعد الآن خلعكِ عن العرش. أصبحتِ الآن في هذه الدنيا، التي أتينا إليها غرباء، من الناس النادرين الذين نجحوا بأن يكونوا ملوكًا وفلاسفة في الوقت نفسه.

بقولي هذا أنهض وأحتضنها بشدة. عينا كلينا ممتلئتان. كلانا دافئ ومنفعل. تعلمت التمكن من إعادة التفكير بالأشياء من خلال امتصاص مشاعر الخسارة والرفض. أثناء جلوسي في مكاني أتابع الحديث.

- حاولت الحياةُ كثيرًا ولكنها لم تستطع التغلب عليكِ. وعلاوة على ذلك لم تكوني أنتِ وحدك فقط المنتصرة، فقد حصل الكثير من الأشخاص على نصيبهم من هذا النصر. كان من الواضح أساسًا أنكِ لن تكوني واحدة من أولئك الذين يأتون إلى الحياة ويغادرون خالي الوفاض. على الرغم من أن الحياة قد أخذت منكِ كل شيء، إلا أنكِ أصبحت الآن تملكين الكثير من الأشياء التي لن تستطيع أخذها منكِ بعد الآن. كيف شعرتِ عندما بدأتِ تدفعين هذه النقود؟

- ارتحت. معركتي مع نفسي انتهت. يعتقد الإنسان بأنه على حق دائمًا أثناء مواجهته بعض الأشياء في الحياة. وأنا اعتقد ذلك على مدى سنوات، ولكنني تشوّشت عندما لم يستمر الفيلم كما أملت. لم أعد الآن ألوم أحدًا.

- ما يحدث في الحياة، يؤثر في كل منّا على حدة. بعض الناس يتخذون مكانًا بين ذكرياتنا الجميلة، وبعضهم الآخر يُشعروننا بالنار التي في داخلنا كلما خطروا ببالنا. أسوأ ما في الأمر أن المرء في أغلب الأوقات يلهث وراء ذكرياته المؤلمة وليس وراء ذكرياته الجميلة، لأن أثرها دائمًا أعمق. لقد تمكنتِ من مواجهتها كلها. والآن جاء دور ماذا؟

- كيف؟

- عمومًا لقد عشتِ الانسحاق، والمعاناة، والظلم، والعمل بجهد يفوق طاقة الإنسان، وأعمق أشكال التعاسة. والآن دور ماذا؟

- سأذهب إلى حيث تأخذني الحياة.

عندما أضطرب أفعل ما أفعلُه دائمًا، أبدأ بمطّ شفتي وهزّ رأسي إلى الجانبين. أما فادي فكانت تراقبني بنظرات مَن لم يفهم شيئًا.

- هل ما زالت السعادة بعيدة عنكِ جدًا؟

ترتسم على وجهها وهي تزم شفتيها ابتسامة حزينة، ويائسة.

- لدي شعور بالذل لا أستطيع التخلص منه. لا شيء مما أفعله يكفي لإصلاح هذا الشعور. إنكِ تعرفين ماضيَّ. لم أتمكن من العثور على ما كنت أبحث عنه، ليس في كنان فقط، وإنما في كافة الرجال الذين دخلوا حياتي، أو ربما وجدته، ولكنني رغبتُ دائمًا بالمزيد. ليس من السهل إشباع جوع السنين. لطالما كانت أكبر متعة عندي هي الجلوس في زاوية ما، وقراءة كتاب. كنت معجبة بأبطال تلك الكتب، وحلمت كثيرًا بأن أكون مثلهم ذات يوم. لم أستطع أن أكون أنا الحقيقية أبدًا. كيف يمكن لشخص لا يستطيع عيش ذاته الحقيقية أن يكون سعيدًا!

إنها تعبّر عن نفسها بشكل جيد، وفوق ذلك فإن كل ما تقوله هو صحيح، ولكن يمكن لهذه الحكاية أن يكون لها نهاية سعيدة. لربما في هذه النقطة بالذات يمكنني كطبيبة نفسية أن أمد يدي إليها، وأرشدها إلى الطريق، وأعلّمها.

تتابع كلامها بصوتها المكسور.

- لم أكن مدركة في ذلك الوقت أنه لا يمكن لهذه الأحلام أن تتحقق. أما الآن فأنا أدرك ذلك.
- لا نهاية للتعلم يا فادي. ما زلتِ شابة. لا نعرف الآن ما تخبئه لنا الحياة من مفاجآت. لا تظني أنني أقصد الأمور الجيدة بقولي مفاجآت. أساسًا، ليس من هموم الحياة أن تسعدنا. السعادة طائر مشاغب، ونشيط، ومراوغ للغاية، لا يمكن لسوانا مطاردته. وكلما كُتب ما نعيشه سطرًا بسطر في إحدى زوايا عقلنا، كلما ابتعد هذا الطائر أكثر فأكثر. وماذا يمكن أن يوجد في شخص مثلكِ غير مشاعر الدونية؟

تنظر في وجهي بسحنة متفاجئة.

- وهل يمكن لشخص عاش كل هذا أن يكون سعيدًا على الفور؟ خطرت في بالي الأفلام التركية. كيف تكون الفتاة الفقيرة سعيدة مع الشاب الغني بمساعدة جيران الحي الطيبين، أليس كذلك؟

- إنني أحب هذه الأفلام كثيرًا.
- هل أدركتِ جيدًا الآن سبب حبّنا لها؟
- لا أعلم!
- لأننا جميعًا نريد هذا. يحلم كل واحد منا بالتخلص سريعًا من تلك الآثار المزدحمة المكتوبة بالحبر والتي تملأ عقلنا بالسواد. أفلامنا تشبه الأساطير المكتوبة منذ مئات السنين. دائمًا يكون للإنسان آمال في تلك الأساطير. لنأت الآن إلى موضوع السعادة، إن كان الإنسان تعيسًا فلا يمكنك إسعاده بأي شيء، السعادة ليست سوى مجرد قرار. القصور، واليخوت، والأراضي، والأماكن، والنجاح، وحتى الحب لا يمكن لها، أحيانًا، أن تُسعد الإنسان. أما نحن فننظر إليهم من الخارج معتقدين بأنهم يجب أن يكونوا سعداء؛ إحدى يديهم في الزيت والأخرى في العسل، ولكن لا يمكن في أي وقت من الأوقات أن تجتمع كلمة "السعادة" مع كلمة "يجب".
- تخطر طفولتي في بالي. لم أكن لأعيش ولو لحظة واحدة في مثل الجمال الذي أنا فيه الآن، ولكن الغريب في الأمر أنني، رغم هذا، لستُ سعيدة.
- إذا اعتقدتِ بأن شيئًا ما سيصيبك فجأة، وتصبحين سعيدة، فستنتظرين طويلًا.
-
- أما بالنسبة للألم فإن كل كائن حي يأتي إلى هذه الدنيا سيواجه الألم. البعض يعاني بشكل مأساوي للغاية، والبعض بشكل خفيف مقارنة بنا، ولكن عليكِ أن تسألي من يعاني. وهل يمكن ألّا يوجد ألم في هذه الدنيا الفانية؟ لكن إن لم تكن هذه الدنيا الزائفة جميلة إلى هذا الحد، فهل تتنحى الحياة جانبًا؟ الآن حان وقت البحث عن السعادة!

إنها تنظر في وجهي بأمل. نظرةٌ وانتظارٌ طفوليّان وبريئان.

- حتى إنني بدأت بسماع صوت خطاها، أقصد السعادة، لأنك اليوم حكيت لي أمورًا ظهر من خلالها طريق بين الغيوم السوداء التي تشغل ذهنك. لقد تطهرت تمامًا، وفتحت لك الحياة أبوابها، ولم يبقَ على عاتقكِ سوى الدخول منها. لا يمكن للقدر أن يفتح هذه الأبواب للناس بسهولة، بل يجب أن يستحقها أولًا. أمر الدخول أو عدمه متروك لكِ الآن. أولًا، اتخذي قرارًا بأن تكوني سعيدة، ثم ابحثي عن السعادة في كل مكان دون كلل أو ملل. ابحثي في الأزهار، والباقات، واللوحات، والكتب، والهواء، والماء، والأصداء، وفي دموع شخص ما، وفي ابتسامة صادقة لشخص ما.

تنظر في وجهي منفعلة. على الرغم من عينيها الدامعتين، أحد ضوئي عينيها يومض والآخر ينطفئ. إنها كالسماء... هاتان العينان اللتان لم تلمعا قط تشبهان الآن ليلة صيفية مليئة بالنجوم، وعندما أرى أنا ذلك التألق، أجد السعادة في تينك العينين المبللتين.

* * *

صرت أذهب إلى إسطنبول بشكل مكثف. هذه الرحلات جيدة لي. أحب إسطنبول ولكن أنقرة هي حياتي. إنني أنقراوية محض. مضت حياتي في هذه المدينة. أينما نظرت تدب الحياة في عينيّ بإحدى ذكرياتي. إنها مدينتي بأوساخها وسخامها ولونها الذي لا يبيضّ لو غُسلت مئات المرات.

ومجددًا، أسعى في هذه الحياة من الصباح حتى المساء. وإن لم تكن النهارات لي فالليالي هي ملكي. عندما آتي إلى البيت، وبعد أن أرتاح قليلًا، فأول عمل أقوم به هو الجلوس على الكومبيوتر والكتابة. إنني أكتب عن كنان بيك، ولكن صعوبة الكتابة عنه هو بمقدار صعوبة أن أكون طبيبته.

بالي مشغول عليه. بعد ذلك اليوم لم يتصل أو يسأل. وكما قالت فادي فإن يديّ أيضًا تتجهان نحو الهاتف باستمرار، ولكنني أتراجع. وصلنا في علاقتنا إلى

النقطة التي ينتهي عندها الكلام. هل هو متذمر مني ومكسور، ولهذا السبب لا يأتي يا ترى؟ أم أنه مريض؟ في زيارته الأخيرة للعيادة لم يكن بصحة جيدة.

في ذلك اليوم لجأت إلى الحل الأخير، وضغطت عليه، مع علمي بأنني سأزعجه. في الواقع لم تكن نيتي في أي وقت إزعاجه. أردت بأن يفهم بعض الأمور. أعلم مدى صعوبة رؤية الإنسان ذاته بموضوعية. حتى إنني أدرك مدى إزعاج هذا الأمر للناس ورهبتهم منه، ولكن إن لم أستطع إيقافه، فآلامه لن تنتهي أبدًا.

يا لجُبن كنان بيك! أصبح أسيرَ مخاوفه طوال سنوات. وضعه القدر في المقدمة، وجرجره من هنا إلى هناك. حتى عندما كان غارقًا في الإصابات لم يكن يريد الخروج من الماء وإمساك الغصن الممتد نحوه، أو ربما كان يريد إمساكه ولكنه لم يستطع.

كلما أفكر فيه أشعر بالعجز تمامًا. إن لم يستطع الوقوف على قدميه في هذه الضربة الأخيرة، فلا يوجد شيء يمكن فعله له بعد الآن. الحلول نفدت، أما هو فيسير نحو الموت متثاقلًا، يتلوى بهذه الآلام.

أشعر كما لو أنني أشاهد شخصًا يعاني تحت التعذيب. وعلاوة على ذلك، فإن يدي ورجلي كلها مربوطة...

في هذه الحكاية التي استمرت لأكثر من عشرين عامًا أعتقد بأن اللوم يقع عليّ وعلى كل تلك الجهود التي بذلتها، وليس عليه وحده. تأثرت بالأحداث لدرجة أنني أردت على الأقل كتابتها، ومشاركتها مع الآخرين.

لهذا السبب فإن تأليف هذا الكتاب صعبة جدًا. كلما كتبت كلما شعرت وكأنني أعيش الأحداث، وأنفعل، وأفكر دائمًا "أين ارتكبت خطأ؟".

لا أحب النهايات الحزينة، ولكن هذه المرة لم تحصل. على الرغم من أن الجلسة الأخيرة التي أجريتها مع فادي في إسطنبول خففت قليلًا من ألم نهاية هذه القصة، إلا أن شعور عدم الارتياح الذي في داخلي يمنعني من إنهاء الكتاب. أشعر وكأنه ما يزال ثمة شيء ناقص أو غير مكتمل في هذه القصة.

لكي أكون صادقة بذلت الكثير من أجل كنان بيك، حتى ولو لم يكن بذلي بحجم ما فعلته هانذان وفادي. في نهاية القصة وجدت المرأتان كلتاهما الطمأنينة بشكل أو بآخر، ولكن الأمر كان مختلفًا بالنسبة إلي. كم يزعجني عدم معرفتي ما يشعر به كنان بيك، وما عاشه بعد لقائنا الأخير. ثم أبدأ بترديد "لو" في داخلي. وربما لهذا السبب ورغم أن الكتاب قد انتهى بالفعل، إلا أنني لا أستطيع كتابة "النهاية" أسفله.

* * *

في مساء أحد تلك الأيام، أتى رجل مسنّ إلى عيادتي في أنقرة. حجز موعدًا وهو يطلب مقابلتي من أجل موضوع خاص. تدخل تونا بهدوء إلى غرفتي. كانت طاولتي مبعثرة. يبدو على تونا التعب أيضًا.

- أعلم أنكِ تعبتِ، ولكنني لا أعتقد بأن هذا الرجل سيبقى عندكِ طويلًا. سألته عما يريد أن يناقشه ولكنه لم يبح بشيء. إنه مسنّ ولكنه لبق جدًا. نحن في الصالة نتبادل الأحاديث منذ خمس عشرة دقيقة. كان سفيرًا في الماضي. لم يترك مكانًا لم يذهب إليه أو لم يزره. أعتقد بأنه سيقابلكِ من أجل شخص قريب له. اسمه (ممتاز).
- حسنًا يا تونا، ليتفضّل.

يدخل رجل نحيل محني ظهره بسبب الشيخوخة. يضع على عينيه نظارتين بعدستين سميكتين وإطار أسود. يرتدي بدلة بنية اللون داكنة. طرازها وقماشها قديمان. ربطة عنقه فاتحة اللون، ومنديله الموجود في جيبه من نفس لونها. كلاهما أيضًا قديم. يحاول إمساك بدلة الأسنان الموجودة في فمه حتى لا تخرج من مكانها عن طريق تحريك شفتيه باستمرار.

في يده حقيبة جلدية سوداء اللون. وكأنني أتذكر هذه الحقيبة من مكان ما. اتخذ أحد الأرائك الموجودة مقابلي مكانًا للجلوس بعد أن صافحني بشكل أنيق ومحترم للغاية.

- سيدتي، اسمي (ممتاز يارغِلي). في الواقع أردت أن آتي قبل ذلك ولكنها الشيخوخة.. مرضُ الإنسان ووجعُه وألمه لا ينتهي. في الواقع، لم آتِ إلى هنا من أجل نفسي. أحضرت من صديق قديم لحضرتكِ سلامًا وأمانة.

- تفضلوا ممتاز بيك. أثارني الفضول. من هو هذا الصديق القديم؟

- كنان، كنان باران!

أنفعل بمجرد سماعي اسم كنان بيك. إذن في النهاية سيأتيني خبر منه. كما أنه أحضر لي أمانة! وقبل أن أسأل أي شيء، يبدأ بالكلام مرة أخرى.

- لقد حكى عن حضرتكِ الكثير. حكى عنكِ لدرجة تثير فضول الإنسان. لقد فقدنا كنان بيك قبل عشرة أيام للأسف.

أشعر وكأنني تلقيت لكمات على صدري. لقد مات كنان بيك!

- أعلم مدى حزنكِ. فكما قال الشعراء (إن كل موتٍ هو موت مبكر) يا سيدتي الطبيبة. ولكنه قانون الدنيا.

يغمرني حزن عميق جدًا. لقد مات! مات ولا علم لأحد بذلك. مات غريبًا دون أحد. أساسًا كان يسير نحو الموت. كم كان يهاب الموت! هل تألم كثيرًا يا ترى؟ هل مات وحيدًا؟ آآه...

- قال: ادفنوني ثم أخبروا الطبيبة بعد ذلك.

إذن فهو لم يُردني بجانبه حتى أثناء موته. لقد زعل مني. آه...

- هل هذا ما قاله حقًا؟

- قال: لقد أرهقت الطبيبة طوال سنوات. لا أريد أن آخذ من وقتها أيضًا بموتي..

-

- لا، لا تحزني على هذا. لا يوجد عتاب في كلامه. إنني هنا لأتمم وصيته.

وصية؟ وأي وصية؟ يشحب لوني، ترتعش يداي وقدماي. كم يؤثر على الإنسان وصول أخبار من شخص ميت.

انحنى الرجل المسن لفتح الحقيبة التي بجانبه. أتعرف فورًا على هذه الحقيبة. إنها الحقيبة التي كانت بيد كنان بيك في كل زيارة يأتيها. يُخرج ممتاز بيك من الحقيبة دفترًا كبيرًا، وسميكًا، وغلافه أخضر اللون. وأثناء مده الدفتر نحوي، كانت يداه ترتجفان. يداه ذات عروق أرجوانية، متجعدة، ما بقي منها سوى العظام... ولكن رغم كل شيء كانت نظراته عميقة وحيوية.

أتناول الدفتر وأنا ارتعش من الداخل. أُقلّبه قليلًا. ثمة في الدفتر كتابات طويلة مكتوبة بقلم حبر. وفي بدايتها تواريخ. إنه دفتر مذكرات ميت.. فقشعريرة تنتشر داخلي. يثير انفعالي معرفتي أن كنان بيك هو من كتب هذا.

- ما سبب موته؟ هل تألم كثيرًا؟
- أزمة قلبية... أساسًا كان متعبًا ومرهقًا في الأشهر الأخيرة. أعتقد أنه شعر بشيء ما. في تلك الليلة ساءت حاله. أرسلناه فورًا بسيارة الإسعاف إلى أقرب مستشفى. وفي الصباح فقدناه. كانت زوجته وابنه بجانبه. لا تقلقي، فهو لم يعان. لقد مات كنان بيك بسلام.
- هل أتت هاندان خانم؟
- لا، ليست هي.
- من قصدت حضرتكَ بابنه؟ لم يكن لكنان بيك أي طفل.
- أجوبة هذه الأسئلة مكتوبة في الدفتر. أراد مني إحضار هذا الدفتر لكم. آخر كلماته كانت "أوصلوا سلامي ومحبتي لغول سيران خانم". وعند موته كان ما يزال مبتسمًا.

كان مبتسمًا؟ تمنيت لو رأيت ابتسامته أنا أيضًا؟ لا أعرف ماذا أقول فأصمت. لقد مات بسلام مبتسمًا. كانت هذه الأشياء مهمة جدًا لي.. تدمع عيناي على الفور. يلفّني حزن عميق. يسكت كلانا لبعض الوقت. لولا الحياء من هذا الرجل المسنّ الجالس أمامي لانفجرت بالبكاء. يبدأ ممتاز بيك بالحديث مجددًا.

- أدرك أنني أحزنتكِ. ولكن وجب عليّ أن أنجز هذه المهمة.

- أشكركَ ممتاز بيك. أتعبتَ نفسكَ بالمجيء إلى هنا.
- وأي عذاب! إنها مجرد خدمة بسيطة جدًا أقدمها لصديقي. لقد مكثنا في دار رعاية المسنين ذاتها سنين طويلة، ونشأت بيننا صداقة جيدة. أ أنا أيضًا فقدتُ صديقًا مقربًا.
- أتيت حضرتكَ من طريق طويل. ماذا تشرب، شاي أم قهوة؟
- أشكرك سيدتي، لا أريد شيئًا. سائق المؤسسة ينتظر عند الباب. قلنا لنأت ساعة انتهاء العمل ولذلك تأخرنا. قبل الذهاب هل لي بطلب، هلّا وقّعتِ هذه الكتب؟

بعد قوله هذا يخرج ممتاز بيك من الحقيبة الجلدية السوداء ثلاثة كتب رثة قديمة. إنها الكتب التي كتبتُها أنا. أُصاب بالدهشة. تبدو وكأن عمرها مئة عام. وأثناء مده الكتب نحوي، يجيب ممتاز بيك وكأنه فهم ما أفكر فيه.

- وهل هذا بالأمر السهل؟ كم مسنًّا قرأ هذه الكتب؟ صارت كلها قديمة ورثة. ولكن عندما يحصل هذا، فإن قيمتها تزداد. كنان أيضًا قرأها. تناقشنا كثيرًا فيما كتبتِه حضرتك فيها.
- لقد قرأها كنان! ولكنه لم يكن يقرأ الكتب كثيرًا..
- مرت فترة عليه قرأ فيها. وكان يردد باستمرار قائلًا أتمنى لو تكتب عني.

هذه المرة أندهش تمامًا. هل حقًا أراد ذلك؟

- هل هو من كان يقول ذلك؟
- نعم، ويا لعدد المرات الذي ذكر ذلك فيها. في فترته الأخيرة لم يكن خائفًا من الموت، بل كان خائفًا من أن يُنسى. ولذلك كان يغلق الغرفة على نفسه كثيرًا ويكتب أشياء من أجلكِ دون توقف.
- يا له من شيء غريب! إنني أكتب أساسًا. والكتاب على وشك الانتهاء!
- هل تكتبين عن كنان بيك؟
- نعم.

- آه، لو عرف ذلك هو أيضًا. أتمنى من الله أن يُقدِّر لي العيش حتى إتمامك الكتاب. أتمنى كثيرًا أن أستطيع قراءته.

لا أعرف ماذا أقول مرة أخرى. ينهض الرجل المسن على قدميه، وينحني نحوي، منتظرًا مني توقيع الكتب. ترتبط يداي وقدماي، ولا أعرف ماذا أكتب. يتدخل ممتاز بيك مرة أخرى.

- سأكون سعيدًا لو كتبتِ حضرتكِ "إلى الأستاذ وعائلته الكبيرة" ووقّعتِه.

أوقع الكتب دون أن أكتب أي شيء آخر سوى: "إلى الأستاذ وعائلته الكبيرة مع أعمق احتراماتي وسلاماتي..." معنى هذا أنهم في المؤسسة ينعتون ممتاز بيك بـ "الأستاذ". إذن فقد قادهم وأنار طريقهم جميعًا، وإلا فلا يمكن أن يكون أستاذًا.

- أشكركِ غول سيران خانم. أترك لحضرتكِ رقم هاتفي. عندما يصدر الكتاب سأكون ممتنًا جدًا لو اتصلتِ.

- طبعًا ممتاز بيك، سأرسل أول نسخة لك بكل سرور. سأوقعه تحت "إلى الأستاذ وعائلته الكبيرة".

- سنكون ممتنين. لأذهب أنا الآن. سُررت جدًا بالتعرف إلى حضرتكِ. لا تحزني يا سيدتي الطبيبة. الحياة هكذا. ندخل من باب ونخرج من آخر. تمضي الحياة بلمح البصر. انظري لقد عشت كل هذه السنين ولكن كل شيء يبدو وكأنه حدث بالأمس. ومع ذلك فالعيش شيء مثير. المهم هو أن نشعر بهذه الإثارة إلى أبعد حد. لا أحد يعرف نفسه ما إذا كان قد دخل من ذلك الباب أم خرج منه. نحن أيضًا سنخرج ذات يوم. على الرغم من أن بعض الأشياء يفهمها الإنسان، ولكن أحيانًا يكون الوقت متأخرًا قليلًا. ربما هذا من طبيعة العمل. ففي الوقت الذي نقول فيه ها قد فهمنا الآن، ننظر وإذا بباب ثانٍ يُفتح على الفور. وبما أنني ما زلت هنا إلى الآن، فهذا يعني أنه ما زال هنالك الكثير من الأشياء لأتعلمها.

- أين دفنتم كنان بيك؟

- في مقبرة الغرباء. هذا ما أراده. قال: لا تخبروا أحدًا. ونحن بدورنا فعلنا ذلك، ولكن رغم هذا فقد كانت الجنازة مزدحمة. صلّينا عليه في جامع القرية القريبة من هناك، ثم أعلنوا عنه في المكبرات. فهرع كل السكان. زرعنا على قبره أزهارًا صفراء. إن شاء الله تبقى. سقاها ابنه أيضًا.

ويقول "ابنه" مجددًا. من أين ظهر هذا الصبي؟

بعد أن يضع ممتاز بيك الكتب في الحقيبة الجلدية السوداء بعناية، يصافح يدي وهو مرتجف. هاتان اليدان صغيرتان ومليئة بالعظام، ولكنهما دافئتان. أبقى في الغرفة وفي يدي الدفتر ذو الغلاف الأخضر. أريد أن أقرأه فورًا. حتى قبل أن أذهب إلى المنزل، أريد قراءته هنا، الآن فورًا.

إذن ثمة سبب لعدم إرسالي الكتاب إلى دار النشر. ربما ما كُتب في هذا الدفتر سينهي الكتاب. يا للحياة كم هي غريبة، ومبهمة، ومليئة بالأسرار!

أنادي تونا فورًا.

- هل تعلمين من هذا القادم؟

- من؟

- إنه صديق كنان بيك من دار الرعاية. لقد غادر كنان بيك هذه الدنيا قبل عشرة أيام.

جرّت تونا يدها إلى فمها وأطلقت صرخة صغيرة. أعلم، رغم غضبها من كنان بيك في الفترة الأخيرة، إلا أنها كانت هي الأخرى تحبه.

- أحضر هذا الدفتر لي. دفتر مذكرات كنان بيك.. أرسله لي.

تجحظ عينا تونا وهي تنظر إلى الدفتر.

- واخ، واخ... وهل كنان بيك رجل يموت؟ لم يتصل أو يسأل في السنوات الأخيرة. في الحقيقة لم أخبركِ، ولكن هذا الرجل كان يخطر في بالي كثيرًا. كنت أتساءل ما إذا كان علينا الاتصال به والسؤال عنه.

- وأنا أيضًا...

- هل كان مريضًا؟
- لا أعتقد. لقد مات بسبب نوبة قلبية مفاجئة.
- إذن فقد أرسل لحضرتك هذا الدفتر! لقد أذهلنا مرة أخرى هذا الرجل. أشعر بالغرابة. من الواضح أنكِ أنتِ أيضًا قد حزنتِ. لأغلي لكِ البابونج فورًا، وأضع فيه العسل. فالسكر جيد عند الحزن.
- سلِمتِ يا تونا. افعلي ما قلتِه، أما أنا فأرغب بقراءة هذا الدفتر فورًا الآن. لا تُدخلي أحدًا إلى الغرفة، أو تربطي أحدًا على الهاتف، وعندما ينتهي عملكِ اخرجي.
- جيد، ولكن قراءة هذا الدفتر ستستغرق وقتًا طويلًا. ماذا ستفعلين وحدكِ هنا؟ ثم إنه من الواضح أنكِ حزنتِ كثيرًا. يستحيل أن أتركَكِ هنا وحدكِ وأذهب.
- أرجوكِ تونا!

وبعد قولي هذا، أُغلق الباب. لا أستطيع أن أجلس إلى طاولتي فترة من الوقت. أتجول في الغرفة ذهابًا وإيابًا. ثم أفتح النوافذ مجددًا. أرغب بأن أستنشق هواء نظيفًا من جهة، وأحاول أن أستجمع قواي من جهة أخرى. لا يذهب من بالي خروج كنان بيك الأخير من هذه الغرفة قط.

أتأمل أنقرة مطولًا، والأضواء الملونة التي تغمزني من بعيد. ثم أرفع رأسي نحو السماء. يا لكثرة النجوم في السماء هذه الليلة. أقول في داخلي "نجمة أخرى قد هوت". نجمة كانت لامعة في البداية ولكنها مع الوقت انطفأت...

في تلك الأثناء يُفتح الباب، فتدخل تونا وبيدها صينية فيها بابونج رائحته جميلة جدًا، وبجانبها بعض الكعك الطازج.

- أضفتُ إليها عودًا من القرفة والقرنفل أيضًا. أووه، إنها لذيذة جدًا. ويا للعسل كم يليق بالبابونج!
- سلِمتِ يا تونا. لقد فكّرتِ فيّ مجددًا.

- طبعًا سأفكر. كما أفكر بأن أبقى أنا أيضًا في الواقع. فأنتِ الآن ستبقين وحدكِ هنا.. لا أشعر بالرائحة نهائيًا. ستحزنين أكثر كلما قرأتِ.
- ليكن.. اذهبي أنتِ. سلمت يداكِ.

تقترب مني تونا وتحتضنني بخفة. عيناها ممتلئتان. أشعر بدفء يملؤني. أحتضنها أنا أيضًا. عند خروجها تغلق الباب بإحكام. في البداية أطفئ أضواء غرفتي واحدًا تلو الآخر، باستثناء الضوء الموجود على طاولتي. ثم أتجه نحو طاولتي وأجلس إليها، وأتناول الدفتر في يدي. آه... أمسكه في يدي لبعض الوقت وكأنني أداعبه، ثم أفتحه وأبدأ بالقراءة.

12 شباط / فبراير 2010

عزيزتي الطبيبة،

في ذلك اليوم كنتُ بجانب حضرتكِ. قلتِ لي أشياء مختلفة جدًا. سألتِني "عندما تذهب إلى الطرف الآخر، ماذا ستأخذ معك؟" وماذا أملك غير سيئاتي لآخذها معي؟... صعقتِني بذلك. لا أعرف ما إذا حضرتك فعلت ذلك بسبب الصداقة، أم لأنكِ ما عدتِ تريدينني. في الواقع، قلت في نفسي إنها بشر، فمن الطبيعي أن تغضب، لقد أزعجتها بما فيه الكفاية طوال سنوات. ولكنكِ قلتِ لي إن هذا كله كذب. قلبتِ أحلامي وآمالي رأسًا على عقب. كما قلتِ لي "أنا أيضًا لم أعد موجودة بعد الآن" هذا أكثر شيء أحبطني. قلت في نفسي "تخلّت الطبيبة أيضًا عنكَ في النهاية، بقيتَ في هذه الدنيا مثل ساق النبات اليابس". في البداية شعرت بالإهانة منكِ. كنت قد اعتدت على الإهانة، والانكسار، والاحتقار، ولكن ما فعلتِه كان ثقيلًا جدًا.

ولاحقًا فكرت، فكرت كثيرًا. قلت إن ما فعلَتْه قليل حتى. فلو كنت مكانها لما استقبلت رجلًا كهذا كل ذلك الوقت. أنتِ أكثر مَن يدرك هذا الأمر. حتى لو

طردتِني وغضبتِ مني، ولكنكِ رغم كل شيء لم تتخلي عني. على الأقل أنت تغضبين وتحاولين إيقاظي من نومي العميق الذي غطّيت فيه. أثناء غضبكِ مني، وحتى طردكِ إياي، كان ثمة جانب من قلبكِ لا يرفضني. أعرف ذلك. قلبكِ رقيق. أنا أيضًا كنت هكذا في السابق. ولكن ماذا أصابني؟

حتى أنا لم أصدق ما تحدثنا به في ذلك اليوم. أتذكر من ناحية، وأنسى فورًا من ناحية أخرى. هذه الحقائق التي تحدثتِ عنها تحطّم قلبي.

عندما وصلت إلى المؤسسة كان باب المدخل عالقًا. ساعدت البواب عثمان أفندي في فتحه. لم يكن من السهل رفع ذلك الباب الحديدي. في الليل آلمني كتفاي كثيرًا، ولكنني مع ذلك فقد فعلتُ شيئًا مختلفًا للمرة الأولى في ذلك اليوم. ساعدت أحدًا ما بعد سنوات مضت. فأنا كنت قد نسيت هذه الأمور.

عندما أتيت إلى غرفتي استلقيت فورًا. سحبت اللحاف على وجهي، وفكرت، على مدى أيام، بل شهور، بما تحدثنا به في ذلك اليوم. كيف قاومت حتى لا أرى بعض الأشياء، أو أفهمها! بكيت طويلًا تحت ذلك اللحاف. أردت أن أقطع كل ما يربطني بالحياة. حتى إنه خطر في بالي أن أقتل نفسي.

هل تستطيعين تخيّل ذلك؛ أنا الذي أخاف من الموت إلى تلك الدرجة، أردت أن أموت في تلك الأيام، لأن الحياة بالنسبة لي كانت فارغة وبلا معنى نهائيًا...

لاحقًا خطرت في بالي الآلام التي عانيت منها طوال سنوات. كنت أنسحق بالمعنى الحقيقي للكلمة، ولكن مع ذلك كانت لدي أحلام في ذلك الوقت. غضبت منكِ قائلًا: لقد تناولت غول سيران خانم الفأس في يدها، وحطمتها كلها، الواحد تلو الآخر. تلاشى الألم في داخلي تاركًا مكانه للفراغ والعدم، ولم أكن أستطيع تحمل ذلك. وإضافة إلى ذلك فإنني، ولسبب لا أعرفه، لم أعد أرتجف، أو أئن، أو أتأوه. كان جسدي كله يؤلمني كما لو أنني ضُربتُ.

أعتقد بأنني لم أنهض من ذلك السرير ما يقارب ثلاثة الأشهر. لم أعد أريد الطبيبة أو الدواء. فأنا لم أعد خائفًا من الموت...

غير أنني ماذا فعلت بنفسي يا غول سيران خانم؟ تشوش عقلي كثيرًا. صرت أقول لنفسي أحيانًا بأن هذا هو قدري، وأحيانًا أخرى أشعر بأنني أنا من كتب هذا القدر. كان أكثر ما أحرقني من الداخل هو تفكيري بهذا الشكل.

ثم فكرت في حضرتكِ. أثناء قولِك "أنا أيضًا لم أعد موجودة" جعلتِني، من ناحية أخرى، أشعر بمدى اهتمامكِ بي. حتى لو لم تقولي ذلك صراحة، فهل تعتقدين بأنني لا أعرف بأنكِ قدّرتِني، واهتممتِ بأمري، ووقفتِ بجانبي بغض النظر عما فعلتُ؟ ولكن رأسي السميك لم يرغب بإدراك قيمة هذه الأشياء في ذلك الوقت.

والآن أدرك بأنني شخص جبان. وكما يغني الناس ويصفّرون عندما يبقون في الظلام وينتابهم الخوف، أنا أيضًا بدأت أغني إحدى أغاني (أورهان بابا)، وحاولت أن أماطل نفسي لسنوات بهذه الأشياء، وأردت دائمًا "سلوانًا".[1] لأن الظلام الذي وقعت فيه لم يكن من النوع الذي يُستهان به. ولكيلا أرى مدى خوفي في ذلك الظلام اختلقت الكثير من الحجج بقولي إن حظي تعثر، لقد حسدوني، عملوا سحرًا، وما إلى هنالك.

أعلم الآن بأنني وحيد، والظلام يحيط بكل مكان!

18 آذار / مارس 2010

في البداية توقف بكائي. قلت لم يبق دموع في عينيّ بعد الآن، ولاحقًا تلاشت أوجاعي. في أحد تلك الأيام نهضت من الفراش وارتديت ثيابي. في تلك الأثناء أتت الممرضة (غول ناز) التي تتفقدني باستمرار. تعجّبت عندما رأتني مرتديًا ثيابي، وهي التي اعتادت أن تراني مستلقيًا دائمًا.

الممرضة غول ناز تبلغ من العمر حوالي الخمسة والثلاثون، شعرها خرنوبي مجعد، عيناها زرقاوان، ممتلئة الجسم قليلًا. تحب التحدث. في هذه الساعة عادة

(1) أغنية لأورهان بابا (اسمه: أورهان غينجه باي) وواحدة من أغانيه اسمها "أعطني سلوانًا". (المترجم)

توزع الأدوية على المضافين واحدًا واحدًا في صينية بيدها. ولأن أكثر المضافين يكونون في الصالة في هذه الساعة فإنها لا تأتي سوى إلى غرفتي وإلى غرفة جميل بيك الموجودة في نهاية الممر. قالت "خير يا كنان بيك! هل حضرتكَ ذاهب إلى مكان ما؟". ثم قالت "اخرج إلى الصالة أنتَ أيضًا إن أردتَ" وأمسكتني من ذراعي وصحبتني إلى الصالة، حيث يجلس المضافون الآخرون.

إنها صالة كبيرة. أكثر المضافين من النساء أما الرجال فقلائل. ما من داعٍ لمجيئهم إلى هنا، لأنهم يموتون باكرًا. أعمارهم تقارب الثمانينيات. إنني أصغرهم جميعًا، ولكن ما بقي فيّ شيء كالسابق. قلبي مسنّ أكثر منهم جميعًا..

كانت النساء جالسات أمام التلفاز يشاهدن برنامجًا عن الزواج. يا لمدى فضول النساء في هذا الموضوع! ولكن ولا واحدة منهن لا تتكلم. فالنساء في العادة يتكلمن كثيرًا. ماذا أصابهنّ؟ لم أستطع أن أفهم..

ثمة رجلان يلعبان طاولة الزهر في إحدى الزوايا. وبجانبهما آخران يتفرجان عليهما. اتجهت نحوهم. عندما اقتربت منهم التفتوا جميعًا ونظروا إليّ. نهض أكبرهم سنًّا وأعطاني مكانه. شعرت بالغرابة. فلو كنت مكانه لما فعلت ذلك. ثم سحبنا كرسيًا آخر وانضممت إليهم.

ذاك الرجل المسن هو سفير متقاعد. اسمه ممتاز. يقيم هنا منذ سنتين. يبدو مسرورًا من حياته. يكبرني كثيرًا ولكنه محترم ومتواضع إلى أبعد حد. قلت في نفسي "وما عمل شخص بحجم السفير في هذا المكان؟". ثم ضحكت على نفسي.

ثمة موظف بنك سابق يبدو أصغر منه سنًّا، يتفرج على لاعبَي الطاولة، يرتدي كنزة صوفية حمراء، هزيل، شاحب اللون. اسمه (لطيف). يقول "ابنتي وصهري هما من رماني هنا". إنه مثلي، تعيس جدًا. ربما أولئك الذين سقطوا هنا وهم في سن مبكرة ينتابهم شعور أسوأ مما ينتابني بكثير.

أحدُ لاعبي الطاولة يتحدث عن نفسه وهو يخض النرد في يده من ناحية، ويضحك من ناحية أخرى. يقول "أنا لا أريد أن أجلس مع ابنتي أو ابني مثل لاجئ.

لقد أسسوا حياتهم الخاصة على أمزجتهم. أحيانًا يأتون إلى هنا في أيام الأحد. يأتون على الرغم من عدم رغبتي بذلك. كنت تاجر بقوليات. وأفلست لاحقًا. اجتهدت كثيرًا ولكن العمل لم يتحسن. وجد كل طفل من أطفالي عملًا، أما أنا فأتيت إلى هنا. رضي الله عمن أنشأ هذا المكان". اسمه (رجب). رجل مسنّ ولكنه نشيط! وكأن الإفلاس لم يؤثر فيه بمقدار شعرة. كيف نجح بذلك يا ترى؟

أحد لاعبي الطاولة موظف دولة سابق، أقرع الرأس، سمين، كبير الفم، يرتدي نظارتين صغيرتين. ترقى حتى وصل إلى رئاسة الدائرة. عندما تغيّرت الحكومة أحالوه إلى التقاعد. تزوج ثلاث مرات. يقول "لم أتمكن من التعايش مع اثنتين منهن، وفقدت الثالثة قبل أوانها. لدي أربعة أطفال. كل واحد منهم في مكان. أساسًا هم لا ينسجمون مع بعضهم نهائيًا. سيمضي عام واحد على مجيئي إلى هنا. الشكر لله نتدبر أمورنا. نأكل ما نشتهيه. أما لطيف هذا فما استطعنا إضحاكه بأي وسيلة، أمره عجيب". اسمه (ثريّا). لم أستطع نهائيًا أن أفهم كيف استطاع هذا الرجل البشع أن يتزوج ثلاث مرات. وماذا تجد النساء في هؤلاء الرجال البدينين ذوي الكروش الضخمة. من ناحية النقود فهو لا يملك نقودًا أيضًا.

عندما انتهوا من الحديث عن أنفسهم، حان دوري. لم أعرف ما أقوله. في النهاية قلت "أنا مهندس. أعمل حرًا. أفلستُ مثل رجب بيك. لا أملك أطفالًا. كنت مريضًا، ولذلك لم أتمكن من الخروج من غرفتي". قالوا "عليك العافية" ولم يسألوا شيئًا آخر. عندما فُتح موضوع المرض حكى الجميع عن أمراضهم. لا أحب هذه المواضيع. ألا أحب هو أمر، وأن أكون أنا هو أكثر المتكلمين أمر مختلف.

سيحل أحد المتفرجين محل الخاسر في الطاولة. سألوني إن كنت أجيد اللعب. أجيده، ولكنني لم ألعب منذ سنوات. حتى هذا أثار انفعالي. إذ كانت ثقتي بنفسي معدومة..

في ذلك اليوم، كانت المرة الأولى التي أتناول فيها طعام العشاء مع الآخرين على طاولة الطعام الكبيرة الموجودة في الصالة. رحبت النساء بي قائلات "أهلًا

وسهلًا بك". كنّ مسنّات جدًا. يردن التحدث معي ولكنني لم أشف غليلهن. لم أكن راغبًا بالكلام نهائيًا. بعد الطعام بدأت النساء بالاستعداد لمشاهدة مسلسل تلفزيوني هذه المرة. يردن المشاهدة سوية من جهة، ولكنهن ما استطعن بأي وسيلة اتخاذ قرار فيما يخص المسلسل الذي سيشاهدنه. وفي النهاية قررن أن يشاهدن مسلسلين في آن واحد. أما أنا فاستأذنت وانسحبت إلى غرفتي.

عندما دخلت إلى غرفتي فتحت الدفتر ذا الغلاف الأخضر وبدأت بالكتابة. إنه شيء غريب، فالكتابة تشعرني بتحسن. كانت فادي قد أهدتني قلم الحبر هذا في عيد ميلادي. خسرتُ كل شيء، ولكن تلك المرأة المجنونة لم تستطع العثور على هذا القلم. حتى إنني نسيت كيفية الكتابة، ولكن مع ذلك كانت الكتابة جيدة. أشعر بنفسي وكأنني أمامكم. فلا بأس حتى إن لم آتِ إليكم بعد الآن. من الواضح أنه يمكن الحديث عن طريق الكتابة. سأكتب حتى أموت. ثم بعد ذلك سأرسل لكم هذا الدفتر.

عند ذكر الموت ترتبط يداي وقدماي. لم أعد أمتلك قوة حتى لكي أخاف. هذا هو الاستسلام بعينه...

29 نيسان / أبريل 2010

لم أعد طريح الفراش. صرت مثل الآخرين، أنهض في الصباح، أستحم، ثم أحلق، وأرتدي قميصًا وفوقه صدرية جلدية، وأخرج إلى الصالة. أحيانًا أنا أيضًا أتكلم ولكن قليلًا. أساسًا كنا خمسة رجال نجلس معًا طوال الوقت. نلعب الطاولة عادة. صرت ألعب دون خوف. أخسر أحيانًا، وأفوز أحيانًا أخرى. لم أعد أغضب عند خسارتي كما اعتدت.

أكثر مَن أتفق معه هو السفير المتقاعد ممتاز بيك. الرجل مر بالكثير. إنه كالفيلسوف. غرفته مليئة بالكتب. يعطي كتبًا لمن أراد. أكثر كتبه فلسفية. مضت سنوات على عدم قراءتي أي كتاب. أساسًا لم أكن مهتمًا بأشياء كهذه في شبابي. أنتَ

لم تقرأ منذ وقت طويل، ثم تعال وتناول كتابًا في الفلسفة واقرأه! سأكون كاذبًا إن قلت إنني فهمت شيئًا، ولكنني يا طبيبتي العزيزة قرأتُ كتبكِ التي كتبتِها هنا. إن قراءتها أسهل. لم تذكري لي شيئًا عن هذه الكتب. أعلم أنكِ لا تتحدثين هباء. فأنت على أية حال تعلمين بأنني لن أقرأها. ثم هل تعلمين مَن أعطاني الكتب؟ إنه ممتاز بيك. الرجل يعلم بكل شيء وهو جالس في مكانه.

لكنكِ أبليت بلاء حسنًا أيتها الطبيبة. أبليت بلاء حسنًا بالكتابة. قلتُ لربما تكتب عني الطبيبة ذات يوم. لا بد من الكتابة عني لأكون عبرة للعالم. ليقرأوا وليخافوا من هذه الدنيا، ولا يثقوا بأموالها. فلو شاء الله ذات يوم لأخذ كل شيء. وأبقاكم هكذا كالرجل الأجرد. ثم يقول بما أنك لم تعرف قيمتها، خذ لنرى.

في السابق كنت أخاف من الموت كثيرًا. الآن أيضًا أخاف، ولكن ليس من الموت بل من أشياء أخرى. في الحقيقة كنت أخاف من هذه الأشياء في الماضي، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يقول ذلك صراحة. لم أكن أستطيع الاعتراف بذلك لنفسي أيضًا وليس لكم فقط. ألم تقولي لي حضرتك "ماذا ستأخذ معك إلى الطرف الآخر؟" لقد أثر ذلك في قلبي. الآن أفكر بيني وبين نفسي. كما أنكِ قلتِ أيضًا "إن الله يمنحك فرصة". إنه يمنحني فرصة، ولكنني لا أعرف كيفية استغلالها.. فكيف يمكن مغفرة كل هذه السيئات؟

على الأقل كنا نذهب معًا نحن؛ الرجال الخمسة، إلى صلاة الجمعة. لم أكن أعرف كيفية أداء الصلاة نهائيًا. لم أرغب بالذهاب في البداية. وكأنني أخدع الله، ولكن ممتاز بيك أدرك أنني لا أعرف. أصرّ كثيرًا. فذهبت. انفعلت قليلًا، صرت أفعل ما يفعله الجميع. ولكن شعورًا سيئًا جدًا انتابني. لأكن صريحًا، فإنني لا أجيد الوضوء حتى. في اليوم الأول ذهبت كما أنا. ولاحقًا تعلمته. في الصباح وأثناء الاستحمام كنت أتوضأ ثم أخرج من الحمام. إنه أمر جيد. يشعر الإنسان بنفسه أكثر نظافة.

كنت في السابق أذهب إلى المسجد من أجل صلاة الجنازة دائمًا. لم أدخله قط. عند الدخول إلى المسجد، تشعرين بأنكِ وحيدة مهما كان بجانبك بشر.

ولكن، لست أنا فقط مَن كان وحيدًا، بل كل مَن كان هناك مثلي. الله فقط هو الذي كان موجودًا. يبدو أنني كنت محقًا بهروبي من الجامع حتى اليوم. يشعر الإنسان بالحزن عندما يقف بين يدي الله. فمهما كنت تعرفين عن نفسك، فهو يعرف أكثر. لا مهرب. وكأنك عارية. مثل يوم ولادتك، ومثل يوم موتك.. قلت لنفسي لن آتي مرة أخرى أبدًا، ربما لأنني خجلت قليلًا. ليس قليلًا، فأنتِ تفهمينني، لقد خجلت كثيرًا.

قلت لنفسي "ولاه، زيّنك الله وجمّلك، ثم أرسلك إلى هذه الدنيا، لتفعل أشياء جيدة. ولكن ماذا فعلت؟ بأي وجه تخرج أمام الله!". ولكن لاحقًا أنصتنا للإمام. قال إن الله غفور. يكفي فقط أن تعرفوا التوبة، وأن تدركوا أخطاءكم، وتكفّوا عنها. قلت "وماذا لو كففت؟ بعد أن وصلت إلى هذا العمر مع أخطائي، فمن يستفيد من كفي عنها؟".

ثم خطرتِ أنتِ في بالي مرة أخرى. قلت لو سمعت غول سيران خانم ما أقوله لقطّبت حاجبيها مجددًا. بما أنها قالت إن الله يمنحني فرصة، فهذا الأمر لا يعرف عمرًا أو حدًا. لقد قلتُ إنكِ خطرتِ في بالي، ولكنكِ، في الواقع، لا تغيبين عن بالي أبدًا. إياكِ أن تسيئي فهمي، فأنا لم أعد كنان القديم. كنان ذلك الذي يتبسم لكِ ابتسامة (كلارك).[1] لم توبخينني حتى بما فعلته في ذلك الوقت. الآن أخجل كلما خطر لي ذلك. ولكن هكذا كانت حالي، وهذا ما كنتُ أتقنه في ذلك الوقت. لطالما كان هذا هو الطريق الذي أرتني إياه الحياة. كنت أعتقد بأن وسامتي تكفي لكل شيء. كل النساء مغرمات بي. طبعًا هذا ما سيحدث. فأين سيجدن رجلًا مثلي؟ حتى غول سيران خانم ستُغرم بي. ستُغرم ثم تفعل أكثر مما يجب. فهذه الأمور هي من حقي الطبيعي.

لم تُغرمي بي، ولكنكِ، مع ذلك، فعلتِ لأجلي أكثر مما يجب. على الأقل لو أدركتُ بعض الأشياء في ذلك الوقت، ولكنني لم أستطع. وماذا حدث عندما لم

---

(1) كلارك: المقصود بذلك ابتسامة الممثل الأمريكي "كلارك غيبل" حين يرفع أحد حاجبيه مع ابتسامة خفيفة. (المترجم)

أفهم؟ الله أحيانًا لا يتراجع عن الضرب إلى حين انجلاء بعض الأمور. اضرب يا الله، اضرب.. ومع ذلك لم يفهم عبدك الغبيّ هذا شيئًا مما حدث. في وقت لاحق أنصفَني بعض الشيء، إذ أرسلني إليكِ في ذلك اليوم الأخير. لم يكن لدي يومئذ حول ولا قوة للمجيء. أتيت وأنا ممتلئ بالخوف، خشية سقوطي في الطريق. وفوق هذا فقد ذهبت إلى مكان عملكِ القديم. الفتاة التي كانت هناك اعتقدت أني مجنون. يبدو أنني لم أكن مختلفًا بشيء عن المجانين...

يا للأحلام التي أتيت بها إليكِ. كانت أول مرة أخرج فيها من المؤسسة. ورغم صعوبة الأمر إلا أنني شعرت بنفسي كالمحكوم الذي خرج من خلف القضبان الحديدية. أحببت الحرية. كنت أفكر بالمجيء إليك كل أسبوع. أي أن آتي إليك كل أسبوع وأتأفف. ولكن ما توقعته لم يحدث. وكأنكِ ضربتِني في كل مكان تصل إليه يدكِ. هذا ما شعرت به. في الحقيقة اعتدت طوال سنوات على الضرب، ولكن عندما كان الضارب هو أنتِ، شعرت بالغرابة. وكأن خنجرًا طعنني. مع أنكِ كنتِ تقولين الحقيقة، كما في كل مرة. بقيت سنين أحكي لكِ عن أحلامي السخيفة. وماذا عساي أفعل؟ كنت أشعر بالعجز الشديد!

وكالعادة استمعتِ إليّ مطولًا، وبعدها بدأتِ بالضرب. تمنيتُ لو ضربتِني قبل ذلك. لو صفعتِني صفعة على رأسي، أو عيني أو في أي مكان كان. في الواقع كنت قد ضربتِني قبل ذلك، ولكنها كانت بالنسبة لي مثل قرصة بعوضة. أما في تلك المرة فقد كانت تمامًا تليق بي، إذا صح التعبير. صفعتِني بقوة لدرجة أن الصواعق برقت في عيني.

عندما خرجت من عندكِ، كان الألم منتشرًا في كل جسدي. لم أعرف كيف وصلتُ إلى هنا. ولكن يا للعجب! فقد قومت تلك الصفعة هذا الرجل المعوجّ. وبعد ذلك، وبغض النظر عن طريقة الضرب، لم أعد أرتجف أو أئن. توقفت كلها في لحظة واحدة. كانت تلك الصفعة قد دمرت آخر الآمال.

اتضح لي أن الأمل يمكن أن يكون خطيرًا في بعض الأوقات. عندما ينتهي يعرف الإنسان شمال الدنيا من غربها. أعتقد الآن بأنني عانيت كثيرًا من ذلك الأمل.

فبينما كنت أتذمر، اعتقدت بأن شخصًا ما سيسمع صوتي. يبدو أن الناس كانوا يهربون مني لهذا السبب. بحثوا عن حفرة للهرب مثل الفئران. لو كنت أنا مكانهم، لهربت أيضًا.

ذاك السفير المتقاعد، كان هو الوحيد الذي لا يتذمر. الرجل لم يُمضِ حياته هباء مثلي. حتى إنه الآن ترك كل شيء وأصبح مشغولًا بي. في البداية لم أعرف لماذا شغل نفسه بي إلى هذه الدرجة. ولاحقًا نظرت، وإذا به منشغل بكل من كان هناك وليس بي وحدي. يحاول أن يساعد الجميع، أي إنه مثلكِ.. لاحقًا اكتشفت أنه لم يفعل ذلك عن عبث. الرجل يدّخر. هل تعلمين، حضرتك، ماذا يدّخر؟ عندما يذهب إلى العالم الآخر فلن يذهب خالي الوفاض مثلي. يملأ جيبه بما يستطيع إيجاده. كما أنه حكى لي قصة حياته، بدت لي أنها لا تُحتمل...

هو قد صُقل، أما أنا فما زلتُ خامًا، لم أستطع أن أصقل.. أتيت إلى الدنيا خامًا، وسأغادرها خامًا. قلت له ذلك أيضًا، هو أيضًا يضحك مثلكِ. ألا تضحكين أنتِ أيضًا على كلمات كهذه؟ قال لي "الرجل الذي يُدرك هذا كله لن يذهب خامًا، لا تقلق".

مر كثير من الوقت على انتصاف الليل. لقد كانت جلسة طويلة معكِ، ولكنني لا أرغب بالنوم هذه الليلة. نمت شهورًا، يكفي ذلك. أريد متابعة الحديث معكِ. أريد أن أحكي لكِ عن جميل بيك ذاك. جميل بيك الذي ينام في نهاية الممر! إنه مريض! قاضي جنايات متقاعد. تجاوز عمر الثمانين منذ زمن طويل، بقي منه، المسكين، جلد وعظم.

في أحد الأيام الماضية ذهبت مع ممتاز بيك إلى غرفة جميل بيك لزيارته. تعرفتُ إليه. صافحني بيده اليسرى لأنه لا يستطيع تحريك اليمنى. ثم حرك قليلًا يده اليمنى مومئًا بأنها تُشفى شيئًا فشيئًا. تألمت من أجل الرجل. ينام في هذه الغرفة وحده منذ أشهر. يفعل الأطباء والممرضات ما بوسعهم، ولكن الرجل وحيد. لا أحد يتصل به أو يسأل عنه. قلت في نفسي "وما عمل رجل بحجم قاضي الجنايات

هنا". ثم غضبت من نفسي. في إحدى الفترات كنت أقول عن نفسي ذات الشيء. قلت لنفسي "ولاه، وهل يفرّق الله بين عباده الذين خلقهم؟" يبدو أنني كنت أعتقد بأنه يفرّق. إنه غباء...

سأنام الآن. نفدت طاقتي، لقد تعبت. عندما أستلقي على الفراش كل ليلة أطلب التوبة. هذا ما علمني إياه إمام الجامع. قال إن الله يغفر.

11 تموز / يوليو 2010

أعمل في الحديقة منذ حلول فصل الصيف. تبين لي أن حديقة المؤسسة جميلة للغاية. أنزل إلى الحديقة مع ممتاز بيك. ولاحقًا تبعتنا بعض النساء اللواتي رأيننا. (جاهدة خانم)، و(مسرورة خانم)، و(شادية خانم)، وأخريات. للحديقة بستانيّة، اسمها (صالحة). لم أرَ في حياتي بستانية امرأة. إنها قروية خشنة وقوية. تملك كوخًا في مكان قريب. تعيش مع حفيدها فيه. قبل سنتين تعرضوا لحادث مرور في طريق ذهابهم في السيارة إلى قريتهم. توفي كل من زوجها، وابنها، وكنّتها في هذا الحادث. زوجها كان عامل بناء، أي أنه لا يملك راتبًا شهريًا. وكان ابنها بائعًا متجولًا. يبيع هنا وهناك جوارب وملابس داخلية وما إلى هنالك. بقيت وحيدة مع حفيدها.

جُرح كلاهما في ذلك الحادث، ولكن جروح الطفل كانت عميقة أكثر. مكث في المستشفى ثلاثة أشهر. أعطتهما الدولة "البطاقة الخضراء"[1]، أي أن بإمكانهما تلقي العلاج مجانًا. ولكن الطفل كان متضررًا جدًا. شُلّت قدماه لأنهما انسحقتا في ذلك الحادث. حتى إنه لا يستطيع الذهاب إلى المدرسة.

في ذلك الوقت وفرت مؤسستنا عملًا لهذه المرأة. سألوها عن العمل الذي يمكنها القيام به، فقالت إنها تستطيع الاعتناء بالحديقة، كما أنها كانت تملك حديقة

(1) البطاقة الخضراء: هي بطاقة تأمين صحي تُمنح من الدولة التركية لمن ليس لديهم دخل، أو أن وضعهم المادي سيء. يمكنهم باستخدامها التداوي مجانًا في المشافي الحكومية. (المترجم)

أمام منزلها، تعتني بها جيدًا. وعندها قبلوها في العمل. لا أحد يسألها متى تأتين ومتى تذهبين. فهي تذهب وتأتي في الوقت الذي تشاء. ثم إن طريقها طويل. تقطع تلك الطريق سيرًا على الأقدام كل يوم. في البداية تُطعم الطفل، وتؤمّن احتياجاته، وبعدها تأتي. الآن ستضحكين، إذا أخبرتك أني أصبحت صديقًا لهذه المرأة. إنها امرأة قروية بكل معنى الكلمة! حتى إنها لا تجيد القراءة والكتابة، ولكنها إنسانية حقًا. مسنّة بشكل لا بأس به. ومع ذلك لا تتذمر من وضعها. لو رأيتِها، إنها تعمل بشكل جميل. نتحدث من جهة، ونحرث الحديقة من جهة أخرى.

أصررتُ على زراعة (البوغنفلية).[1] في الحقيقة. لم أكن أعلم بأن اسم تلك الزهرة هو البوغنلفية. لقد أخبرني ممتاز بيك بذلك. تلك الزهرة الأرجوانية الشائعة جدًا في مدينة (بودروم)، والتي تتسلق الجدران! اتضح أن هذه الزهرة لا تنمو في أنقرة. فهي لا تحب الرياح والبرد. ولكن صالحة فعلت ما بوسعها لتعثر على الزهرة وتزرعها. يجب أن تُزرع في الجهة الجنوبية. كبرت الشجرة، حتى إنها بدأت تتفتح. ولدينا ورود أيضًا. اشتريت الكثير من الورود، ولكنني لا أجيد رعايتها. صالحة تتقن هذه الأمور جيدًا. قلت إن كان ولا بد فلتكن من كل الألوان. أساسًا الورود منتشرة في الأطراف، ولكننا أنشأنا مكانًا خاصًا عند المدخل، على يمين الباب الحديدي. البواب عثمان أفندي يقف بجانبنا على الدوام.

نزحت الكثير من العرق لكي أحفر ذلك المكان وأحوّله إلى حديقة. تألم جسدي لأيام، ولكن في النهاية صار لدينا حديقة ورود. اشترينا ورودًا من جميع الألوان وزرعناها. كما يوجد وردة صفراء لا يمكن للمرء أن يتحمل النظر إليها. في الصباح وقبل تناول وجبة الإفطار، أنزل باتجاه حديقة الورود. أريد أن أرى أي واحدة تفتحت قبل الجميع. أتناول النربيش وأسقيهنّ الماء بهدوء. لا يجوز أن ندفق الماء دفقًا عليهن. لكل شيء منهج. اكتشفت أن البستنة عمل ممتع للغاية.

---

(1) جنس من النباتات يتبع القرنفليات. تسمى أيضا الجهنمية (المترجم)

أحب الصنوبر أيضًا. لقد كبرت أشجاره، وصارت ضخمة، ولكنها بحاجة للاهتمام. إن لم يتم تقليم الأغصان السفلية لا تنمو. أقلّمها بعناية. حتى إنني أملك مقصًا خاصًا لذلك. إنه مقص لي وحدي فقط. اشتريته أنا بنفسي، وأحمله في جيبي على الدوام. أحيانًا نقطف بعض الأزهار معًا، ونحضرها إلى نساء المؤسسة. للفت النظر فقط. لا أجعل أحدًا يقطع الأزهار. لا يجوز أن تُقطف وهي مبرعمة. بل يجب أن تكون قد تفتحت تمامًا. وإلا سيكون ذلك مؤسفًا.

أحيانًا أقول لصالحة خانم "لا تأتي، سأفعل اللازم غدًا. اهتمي أنت بحفيدكِ". فتُسعد. في ذلك الوقت تنزل قطرة أخرى في المحيط. فأسعد أنا لسعادتها. حفيدها عمره ثماني سنوات. تقول لي "إنه صبي وسيم مثلك". يجلس في المنزل وحيدًا. في المساءات، عندما نتمشى أنا وممتاز في الحديقة، نفكر فيه، ولكننا لم نجد حلًا لوضعه بعد. أثناء تفكيري بإيجاد حل يقول لي ممتاز "أنت رجل طيب". لو حكيت لكِ هذا، فهل كنتِ ستقولين لي ذلك؟

28 تشرين الثاني / نوفمبر 2010

عندما بدأت بكتابة هذا الدفتر، كنت أقول إنني سأكتب كل يوم، ولكنني لم أستطع. ستضحكين إن قلت بأنني لا أملك وقتًا. أشعر وكأنني أسمعكِ تقولين: "ولاه، ماذا تفعل هناك منذ الصباح وحتى المساء؟ ماذا تفعل غير الأكل والشرب؟" ولكنكِ مخطئة. إنني رجل مشغول. فمن ناحية هناك أعمال البستنة، ومن ناحية أخرى دروس الفلسفة التي يعطيني إياها ممتاز بيك. وإن أضفتِ الجلسات التي نعملها مع جميل بيك كل يوم تقريبًا، فلن يبقى من الوقت شيء.

فقد ممتاز بيك ابنه الكبير وزوجته قبل عشر سنوات من الآن في حادث بحري. الأصح أن ابنه نجا بجروح بالغة، ولكن لا يمكننا تسمية ذلك نجاة. بقي في العناية المشددة في أحد المستشفيات سنتين كاملتين. ووالده بجانبه.. الرجل قضى سنتين من حياته في المستشفى. اعتنى بولده مثل الاعتناء برضيع، ولكنهم مع ذلك

لم يستطيعوا إنقاذه في النهاية. حتى إنه عندما مات دماغيًا اتخذ بنفسه قرارًا بأن يُسحب المقبس. بكى وهو يحكي هذه الأمور. كنا نتجول في الحديقة. بكيتُ معه أنا أيضًا. ثم أغلق المنزل على نفسه. ولم يخرج طوال سنوات.

في أحد الأيام، عندما كان وحيدًا في المنزل عانى من نوبة قلبية حادة. لم يستطع حتى أن ينهض من مكانه ويطلب المساعدة. عندئذ قرر المجيء إلى هذا المكان. إنه شخص يحب القراءة، ومولع بالفلسفة والتصوف بشكل خاص. يقول إن هذه القراءات هي من أنقذته. هو أيضًا لم يكن يعرف كيفية أداء الصلاة عندما أتى إلى هنا. جميل بيك هو من علمه.

بالنسبة لجميل بيك، ذكرت لكِ سابقًا بأنه قاضي جنايات. الرجل المسكين يستلقي في غرفته وحيدًا. بدأت بالذهاب إليه كل يوم بعد تناول الطعام. أما الآخرون فكانوا يتجهون إلى غرفهم بعد تناولهم الطعام، ويأخذون قيلولة مدة ساعة تقريبًا. وأنا في هذه الأثناء كنت أذهب إلى جميل بيك. أسحب كرسيًا وأجلس بجانبه. تنتابه السعادة عندما يراني. نعم، يُسعد. إن رؤيتي تسبب السعادة لأحد ما في هذه الدنيا. إنه شيء مهم جدًا بالنسبة لي، أنتِ أيضًا تعرفين هذا. أليس كذلك؟ بقي الناس سنوات يبحثون عن حفرة للهرب مني عندما يرونني.

لطالما تساءلت عن كيفية المعاقبة. يقول "إن المعاقبة ليست عملًا مناسبًا للإنسان". وخاصة العقوبات الكبيرة، فقد كانت تُرهب القضاة. يقول "إن عاقبت فتلك مصيبة، وإن لم تعاقب فالمصيبة أعظم". بعض الناس يعاقبون أنفسهم قبل أن يحكم عليهم القاضي. يفهم القاضي هذا من خلال النظر في عيني المحكوم. وإن معاقبة هذه الأنواع من الناس أصعب من غيرها. من حسن الحظ أنني لم أكن قاضيًا. لربما حَكمت بعقوبات سيئة على الناس. الآن لا يمكنني الحكم بذلك، ولكن في السابق كان ذلك ممكنًا.

ومرة أخرى، خطرتِ حضرتك في بالي. في آخر زيارة قلتِ لي متى سينتهي عقابك؟ يبدو أنني أنا أيضًا حكمت على نفسي. ربما لهذا السبب فإن

من في الأعلى قد تخلى عن محاكمتي في الوقت الحالي. ربما منحني استراحة قبل إنزال العقوبة. لم يضربني أحد منذ وقت طويل. التوبة، التوبة، أبعد الله الحسد!

في بعض الأحيان يأتي ممتاز بيك، فنصبح في الغرفة ثلاثة أشخاص. نخوض ثلاثتنا في محادثة قوية. هذه المحادثات جيدة لنا جميعًا. ولأن الممرضات أصبحن يعرفن أين نكون في تلك الساعة، فقد صرن يُحضرن لنا بعضًا من الشاي الذي يحضرنه لأنفسهن. أساعد جميل بيك بين الحين والآخر في شرب الشاي. في الواقع هو يُفلح في عمل الكثير من الأشياء في يده اليسرى، ولكن الشاي ساخن. أخاف أن ينسفح فيصاب بحروق. أحرك كأسه قبل كأسي، وأسحب طاولة الطعام إلى أمامه تمامًا وكأنني أفعل ذلك من باب الاحترام. في ذلك الوقت يضحك عليّ. رجل في حاله يضحك. لتسقط دمعة أخرى...

ألم تقولي بأنني بعد أن عانيت كل هذا، لن أعود كنان القديم أبدًا؟ يبدو أن ما كنت تقولينه يتحقق واحدًا تلو الآخر. هل كان كنان القديم سيذهب في أحد الأيام إلى رجل مريض، ويستمع إليه، وينسيه وحدته ولو قليلًا؟

بالنسبة للخجل فأنا خجل كثيرًا، ولكن هل برأيكِ سينفع الخجل بعد كل هذا الوقت؟

17 كانون الثاني / يناير 2011

فقدنا جميل بيك. شعرت وكأنني فقدتُ والدي. كنا بجانبه حتى الرمق الأخير أنا وممتاز بيك. لم أشهد حادثة موت بهذا القرب في حياتي. رحل الرجل كالنائم. أساسًا كنا بجانبه قبل ليلة من ذلك. وقد ودعنا. في البداية شكرنا على كل شيء، ثم ودعنا. قال "سامحوني". قال لي ذلك، فقلت له ثلاث مرات "سامحتك". ما لي عليه شيء أساسًا... لا بد أنه قدّر كثيرًا بقاءنا بجانبه. قال "لم تتركوني وحيدًا، سلِمتم". شعرت بالغرابة. لا أعرف ما هو هذا الشعور. وفي اليوم التالي مات.

رافقناه أنا وممتاز بيك حتى منطقة (كارشي ياقة). ردمنا التراب فوق قبره. وزرعنا وروداً حضّرَتها لنا صالحة خانم، وسقيناها. في الحقيقة يجب أن توضع هذه الأزهار عند إنشاء القبر، ولكن ربما لا يوجد من ينشئ له قبراً. إن بقينا على قيد الحياة ولم نمت، سنزوره في الأعياد أنا وممتاز بيك معًا. في هذه الفترة ثمة الكثير ممن ماتوا في المؤسسة. ماتت أيضًا جاهدة خانم التي كانت تنزل معنا إلى الحديقة في بعض الأحيان، وصالحية خانم التي مكثت في المستشفى مدة شهر. حضرنا جنازتيهما أيضًا. لم أعد أخاف من الموت بعد الآن. فالموت ليس شيئًا مخيفًا على الإطلاق. أعتقد أنه أسهل من الولادة!

07 شباط / فبراير 2011

في هذه الفترة حدثت مشكلة تتعلق بي في المؤسسة. لم أعرف تمامًا ما حدث، ولكن يبدو أن هنالك جمعية خيرية تتكفل ببقائي هنا. أي أنها هي من يدفع نقودًا من أجلي. وكانت هاندان هي من رتب كل ذلك. مَن يدري؟ ربما أصدقائي أيضًا قدموا المساعدة. أشعر بأنني ظلمتهم أيضًا قليلًا. وعلى أية حال، فقد خفت كثيرًا في البداية. إلى أين أذهب في الوقت الذي اعتدت فيه على هذا المكان؟ ولاحقًا تلاشى خوفي. قلت لنفسي أنت لم تعد خائفًا حتى من الموت، فلا تخف من هذا أيضًا. ولكن لاحقًا فعلت المؤسسة شيئًا ما، وقررت الجمعية الاستمرار بالدفع. ألم تقولي لي ذات مرة، غيّر نفسك، تتغير الدنيا، وتفتح لك أبوابًا جديدة؟ الأبواب تُفتح، ولكن هل تغيرتُ أنا بما فيه الكفاية يا ترى؟

إنني أشعر بالحزن على وضع صالحة خانم. أمضت الشتاء بصعوبة. كان المجيء إلى المؤسسة صعبًا وكذلك مغادرتها. والحقيقة أنه في الشتاء لا يوجد الكثير من العمل في الحديقة، ولكن المرأة المسكينة لا تستطيع تدفئة منزلها. وهذا الشتاء أتى قاسيًا جدًا. لديها واحدة من تلك المدافئ الصغيرة. إنني أجمع الصنوبر اليابس دائمًا. يقال بأنها توقد النار جيدًا. الصبي الصغير يحب حرقها. فهي تتأجج تأججًا. ورائحتها جميلة أيضًا.

ذهبنا أنا وممتاز بيك إلى البازار الذي يُقام كل يوم أربعاء في مكان قريب من مؤسستنا. اشترينا بعض الأشياء وأرسلناها إلى صالحة والصبي. ولا بد لنا في كل مرة أن نشتري لهما كستناء، فهما يجعلانها تفرقع فوق المدفأة. كما أن الصبي يحب الجزر والبرتقال. كانوا يبيعون ملابس أطفال في السوق. وكان لدي القليل من المال. والواقع أنني لا أحتاج المال كثيرًا، فقد أقلعت عن التدخين، كما أنني لا أنزل إلى المدينة كثيرًا. اشتريت بما أملك بعض الملابس، كنزة صوفية، جوربين سميكين، وسروالًا. ممتاز بيك لا يملك نقودًا. يعطي راتبه كله تقريبًا للمؤسسة. فالمكان هنا باهظ التكلفة. ومن لا يملك نقودًا لا يأتي إلى هنا. ممتن لهاندان وأصدقائي، فقد عملوا ما بوسعهم حتى يتيحوا بقائي هنا. رضي الله عمن ساعد في ذلك. كان المرحوم جميل بيك أيضًا يعطي راتبه للمؤسسة.

أرسلت ما اشتريته للصبي. سُعد الملعون كثيرًا. هذا ما قالته صالحة. لا يجيد القراءة والكتابة لأنه لم يتمكن من الذهاب إلى المدرسة. في الحقيقة لو كان يملك كرسيًا متحركًا لربما تمكن من الذهاب. عمره الآن تسع سنوات. فكرت بأن أذهب وأرى هذا الصبي ولكنني لم أستطع. يشعر الإنسان بعجزه في أوقات كهذه. كم كان لدي من المال في الماضي. دعكِ من الكرسي المتحرك، كنت أستطيع شراء أفضل منزل لهما، ولكن عيني ما كانتا تريان مثل هذه الأشياء في ذلك الوقت. كان عقلي وفكري مشغولًا بأشياء أخرى.

في النهاية، صحبني السائق محمد إلى هناك في أحد الأيام. كان الطقس ماطرًا بغزارة، وكان يجب على صالحة خانم أن تعود إلى المنزل. رجوت محمد قائلًا "سآتي أنا أيضًا، دعنا لا نهلك المرأة على الطرقات في هذا المطر. لنوصلها إلى منزلها ثم نعود". الولد لم يكسر خاطري. قفزنا في سيارة المؤسسة ثلاثتنا دون أن نخبر أحدًا، وذهبنا إلى منزل صالحة. إذ أقول منزلًا، لا تعتقدي بأنه منزل حقيقي. إنه منزل بالاسم فقط.. اتضح أن المرأة فقيرة إلى أبعد حد! إنه مكان متهالك. يدخل البرد إليه من كل مكان. ويا لذلك الطفل! عيناه سوداوان، يبلغ من العمر

تسع سنوات، ولكنه يبدو أصغر من ذلك بكثير، نظرته حزينة. لم يغب عن عيني بعد ذلك. أحببته، وداعبته، وتحدثت معه، ولكنه لم يكن كثير الكلام. ينظر في وجه الإنسان بحزن.

عدنا إلى المؤسسة بسرعة. إنني أدعو الله كل يوم بأن يساعد ذلك الطفل. تحدثت مع الأطباء والممرضات والجميع هنا ولا أعرف ما أفعله. سيخبرون الجمعيات الخيرية. لا أعرف الآن متى ستُمد إليهما يد العون. ماذا سيحدث لو كنت ميسورًا ومددت يدي لذلك الطفل؟

18 حزيران / يونيو 2011

وجدتُ عملًا جديدًا لنفسي. نعم، ما أقوله صحيح، لقد وجدتُ عملًا. مؤسستنا تبحث عن موظف جديد في المحاسبة. شخص يجيد الكومبيوتر ويستخرج بيانات بعض الأشياء كل يوم. ثمة فتاة تستطيع عمل ذلك، ولكنها حامل. تركت العمل عندما اقترب موعد ولادتها. قلت لهم أنا أفعلها ولا أريد أجرة. ولكنني تراجعت لاحقًا وطلبت أجرة. قالوا لنجربك. الجميع متفاجئ من حالتي هذه. فرغم كل شيء هم يعرفون حالة التذمر التي أصابتني. مرت فترة كان طبيبنا خلالها يهرب مني. أعلم، لم يكن مسرورًا مني نهائيًا في ذلك الوقت. الآن حتى هو يسأل عن حالي أحيانًا. مع أنه في الواقع يعاينا جميعًا مرة كل أسبوع بشكل منتظم، ولكنه لم يكن يتكلم معي نهائيًا. كان يخشى أن أتفوه بشيء ما. لقد أُنهكت قوى الرجل المسكين بسبب نقلي إلى المستشفيات. إنه على حق...

عمومًا، أنا أجبرت نفسي على العمل. وفي النهاية أعجبتهم. في البداية لم أتقن العمل تمامًا، ولكنني كنت أريد العمل بشدة، الأمر الذي جعلني أتقنته في النهاية. اشتريت نظارتين لهما عدستان مقربتان، لكي أستطيع قراءة الكلمات بشكل جيد. والعمل سهل على أية حال! يجب عليّ أن أسجل بعض الأشياء على الكومبيوتر بشكل مستمر، ودون تخطّي أي شيء.

وبالنظر إلى سبب رغبتي الشديدة لهذا العمل، فإنني أريد أن أدخر نقودًا لأشتري كرسيًا متحركًا لـ (وداد) ذلك الصبي الصغير.[1] اسمه وداد. تعلمين بأن نصف راتبي يُقتطع بسبب الديون. كما يبدو أنه لا نهاية لهذه الديون. ففي النهاية إنه راتب تقاعدي. لدي الكثير من المستحقات التي يجب أن أحصّلها من عدة أماكن. كنت أعتقد أنني أستطيع تحصيلها في ذلك الوقت. كنت أخطط لأن أحصلها وأسدد ديوني التي أخذتها من هنا وهناك، وأولها دينكِ. صدقيني، لو استطعت تحصيلها لكان هذا ما سأفعله، ولكنني لم أستطع. سأذهب إلى العالم الآخر وأنا مديون، ولكن ليس بوسعي فعل المزيد. أتمنى لو أستطيع القيام بأعمال تربحني نقودًا كثيرة، ولكن ليس بالإمكان أكثر من ذلك.

مع ذلك، يسعدني الإحساس بأنني مفيد في شيء ما. أكون في المكتب الموجود في الطابق السفلي في الساعة الثامنة صباحًا. نعمل حتى الساعة الخامسة مساء باستثناء ساعة استراحة الطعام. إننا ثلاثة أشخاص. الاثنان الآخران هما خبيران، يحملان شهادة محاسبة. يحترمانني، ويساعدانني عندما أتعثر في مكان ما. لم أعد ألتقي بممتاز بيك إلا في المساء وفي عطلات نهاية الأسبوع. يقول لي أحسنت. هو يعرف ماذا سأفعل بهذه النقود. وهو أخبر من في المؤسسة أيضًا. عندما سمعوا بذلك قاموا بزيادة راتبي قليلًا. يمكنهم أن يعطونني أكثر بقليل، لأنهم لا يدفعون التأمين الصحي. أي إنني أعمل بشكل غير قانوني.

22 أيلول / سبتمبر 2011

لدي خبر جميل لكِ. لقد اشتريت أخيرًا الكرسي المتحرك. هل تستطيعين تخيل ذلك، رجل مثلي عمل في تلك الغرفة الصغيرة شهورًا من أجل هذا. يبدو أنني لم أعد شخصًا سيئًا. أوصلت الكرسي إلى وداد بنفسي. ابتسم ذلك الصبي ذو العينين السوداوين والنظرة الحزينة عندما رآه. يعني أنني نجحت أخيرًا بإضحاك

(1) وداد: يُستخدم هذا الاسم من أجل الذكور في تركيا. (المترجم)

ذلك الصبي. يبدو أن القطرات تكثر...

لو تعلمين كم أنا سعيد بهذا! حتى إنني فرحتُ أكثر من وداد، ومن سعادتي لم أستطع النوم في تلك الليلة. الأصح أن عيني ذلك الصبي السوداوين لم تغيبا عن مخيلتي أبدًا. لطالما شعرت برغبة بالبكاء. وقد بكيت بالفعل. يا له من شيء جميل البكاء بسبب السعادة من أجل أمر كهذا. شعور مختلف لم أذُقه أبدًا!

كما تعلمين، كانت لي أيام سعادة قديمة، إن هذا الأمر أجمل منها حتى. في تلك الأيام كان ثمة شيء ما يتحرك في داخلي عندما أكون سعيدًا. وإذا كان واحد مما كنت أفعله يومها صحيحًا فإن خمسة من أفعالي كانت خاطئة. هنالك أشياء يدركها الإنسان جيدًا. في تلك الليلة، عندما كنت أبكي لم يكن إلا لأن شعور السعادة ينتابني.

في اليوم التالي نهضت من الفراش متحمسًا، لأنه كان يوم السبت، وكنا نحن المقيمون في دار الرعاية قد خصصنا هذا اليوم لوداد. سُعد الآخرون مثلي لهذا الكرسي المتحرك. أرسلنا تاجر البقوليات رجب إلى السوق. يعرف كيف يشتري الأفضل من كل شيء. ذهب معه لطيف أيضًا. اشتروا كل ما يلزم وأتوا. وسرعان ما اتجهت النساء إلى المطبخ. بخصوص النساء حدثت تغييرات كبيرة لهن. إنهن يتحدثن الآن، ومن دون أن يصمتن. يقوم (ثريا) بأعمال التنظيم. زينّا الصالون، وفرشنا الموائد. ويا لما مدته النساء، صنعن ما استطعن إيجاده من كعك و(كيك) ومعجنات. وخاصة ذلك (الكيك) الضخم الذي وضعوه في المنتصف، لا تستطيع حتى المخابز عمل واحد مثله. وكتبن عليه "إلى ابننا وداد". حتى إن ثريا تدبر أمر الموسيقى.

بعد ذلك أتى وداد بكرسيه المتحرك. فكرت بذلك من قبل، فاشتريت للصبي ثيابًا يرتديها. فعلى أية حال، إنني أربح نقودًا هنا. كنزة صوفية كحلية بلا أكمام، قميص أبيض، تحتهما بنطلون جينز من أجود الأنواع. ارتدى الصبي الثياب وبدا في غاية الجمال. مشطت صالحة أيضًا شعر الصبي. أكلنا وشربنا وتسلّينا معًا حتى المساء. حتى إننا رقصنا.

لو رأيتِ وداد، كانت عيناه تضحكان. تعلّم الصبي الملعون فورًا استخدام الكرسي المتحرك. والآن حان دور تسجيله في المدرسة. أنا من سيكون وصيًا عليه. ثم إن المدرسة قريبة. سأشتري له دفاتر وأقلامًا وكل ما يلزم. طلبت إذنًا ليوم الاثنين صباحًا، لكي أذهب إلى المدرسة وأتحدث معهم. سنجد حلًا مع بعضنا البعض. الصبي من حيث العمر يبدو كبيرًا، أما من ناحية المظهر فهو صغير. حتى إنه يبدو بعمر سبع سنوات. سيكون من الواجب الاهتمام بدروسه من الآن فصاعدًا. وليكن، سنجد حلًا لكل ذلك، ولكنني لست مرتاحًا للمنزل الذي يعيشان فيه، فهو بارد. أدعو الله كل ليلة، لو تحدث معجزة ما وينجو هذا الطفل من ذلك المنزل، ولكنني لا أعرف إن كان الله سيسمع كل ذلك.

16 شباط / فبراير 2012

سمح المدير للصبي بأن يبدأ الدراسة في المدرسة. لم يستطع حل معضلة القراءة بعد، ولكن ذلك وشيك. تصحبه صالحة كل عطلة نهاية الأسبوع إلى المؤسسة. نجلس سوية ونراجع الدروس. الحمد لله أن ليس في يديه أية إعاقة. يمسك القلم بشكل جيد جدًا. أعطوه رقعة في المدرسة، نسحب منها تمامًا كما نسحب من لعبة الطومبالا، ونطالعها سوية.(1)

أقرأُ له بين الحين والآخر كتبَ حكايات. أشتري الكتب مع ممتاز بيك. عندما تكثر الرسومات يُسرّ الصبي أكثر. نقرأ من جهة ونشاهد الرسومات من جهة أخرى. أحيانًا نشاهد الرسوم المتحركة سوية في التلفاز. صرت أنا أيضًا أحب تلك الرسوم المتحركة.

النساء في المؤسسة أيضًا يحببن وداد كثيرًا. لم يعد أحد يجلس خاملًا. جميعهن ارتدين النظارات وصرن يَحُكنَ شيئًا ما لوداد. لا يمكنكِ إيجاد ما يَحكن

(1) الطومبالا: هي لعبة حظ على غرار اليانصيب، يتم لعبها عن طريق سحب أحجار مرقمة من الحقيبة. (المترجم)

حتى في المتاجر. عندما ترينهن خارجات يبدين لك مسنّات، ولكنهن يتغيرن عندما يتعلّق الأمر بوداد. حتى إن هنالك من يحكي له الحكايات. إنني أيضًا سعيد بتلك الحكايات التي كن يروينها له. أجلس مع وداد جنبًا إلى جنب ونستمع إلى تلك الحكايات. ولا بد أن تكون إحدى يديَّ على كتفه.

لا نلتقي مع وداد كثيرًا في أيام الأسبوع. فهو يكون في المدرسة، وأنا في العمل. أشتاق إلى ذلك الملعون. لا يوجد هاتف في منزلهم. ولهذا السبب لا أستطيع حتى سماع صوته. سأدخر بعض النقود، وسيكون أول شيء أفعله هو شراء هاتف له.

20 آب / أغسطس 2012

حتى أنتِ لن تصدقي ما سأقوله الآن. ربما قد غفر الله لي! الأبواب التي كانت مغلقة في وجهي طوال سنوات تُفتح واحدًا تلو الآخر. صدقيني لا أعرف ما هذه المعجزة. أخبرتكِ سابقًا عن أموالي تلك التي لم أستطع تحصيلها بأي شكل. لقد وصل إليّ أحد مديونيَّ. في أحد الأيام أتى إليّ أحدهم يحمل في يده شيكًا مكتوبًا عليه اسمي. يقول بأن أحد المديونين، وهو مالك مصنع، قبل موته قال "سددوا كل ديوني، لا أريد الذهاب إلى العالم الآخر وأنا مديون". أي مثلي.. أحضر ابنه شخصيًا الشيك. في البداية لم أصدق، ثم بدأت بالبكاء. عندما يشيخ الإنسان يصبح بكّاءً. عندما بكيت ظن الفتى أنني أريد النقود من أجل نفسي. وكيف له أن يعرف! قال "سامِحوه" وغادر. كان حزينًا أيضًا، فقد خسِر والده على أية حال.

في البداية خطر في بالي أن أسدد دَينكِ. لا تؤاخذيني فقد تراجعت لاحقًا. فالناس الذين استدنت منهم كلهم وضعهم جيد. قلت لنفسي لأذهب إلى العالم الآخر وأنا مديون، ولكن ليعش وداد هذا مرتاحًا في الدنيا. الطفل بائس في ذلك المنزل. يمكن شراء منزل لهم من أفضل المنازل بهذه النقود. ناديت صالحة على الفور. قلت لها "خذي هذا الشيك، اشتري المنزل الذي ترغبينه، واسكني فيه مع وداد". في البداية لم تصدق المرأة ما سمعته، ولكنها لاحقًا عانقتني، وبدأت بالبكاء.

لو رأيتِ صالحة، لن تدركي أبدًا مدى حساسيتها. إنها امرأة ضخمة وخشنة، ولكنها مضحية وإنسانية إلى حد كبير. لا تتهرب من التضحية من أجل حفيدها. قطعُ ذلك الطريق سيرًا على الأقدام، وفي ذلك العمر، بحد ذاته يعد عذابًا. مع أن الأمر يتعدى ذلك، فهي تعمل حتى المساء أيضًا في الحديقة. وبعد ذلك تعود إلى منزلها راكضة. ثم ستعدّ الطعام لوداد، وتغسله، وتنظفه. كما أن تدفئة ذلك المنزل بحد ذاته أمر يتطلب المهارة. سوف توقد تلك المدفأة الصغيرة كل يوم وتطهو الطعام فوقها.

عندما بدأت تبكي، بدأت أنا بالبكاء. أحب هذه البكاءات. لا تشبه البكاءات القديمة نهائيًا. ثم قال لي مَن في المؤسسة "بما أنك عملت شيئًا بهذا الحجم، فلنحتفل به جميعًا". أساسًا كلهم يبحثون عن ذريعة للاحتفال بشيء ما.

مرة أخرى قطع رجب الطرقات. اشترى كل ما هو ضروري وأحضره. تدب فيه الروح عندما يكون الأمر متعلقًا بشيء كهذا، ويذهب إلى السوق راكضًا. اشترى وجاء. انتشرت النساء مجددًا. نظمنا احتفالًا صغيرًا. أعطيت الشيك لصالحة في ذلك الحفل. وهذه المرة بكى الجميع وليس أنا فقط. وأساسًا فإن عيني صالحة مبللتان دائمًا. أتى وداد أيضًا. كان من الأفضل لو لم نبكِ أمام هذا الطفل، ولكننا لم نستطع إمساك أنفسنا.

ثريا جاء لنجدتنا، وشغل الموسيقى فورًا. تغيّر الجو. وبدأ الجميع هذه المرة بالضحك والرقص. نساء مؤسستنا لسن ماهرات فقط في الطبخ، بل بالرقص أيضًا. ستفاجئين لو أنك شاهدتِ جمال رقصهن.

وكأننا صرنا إخوة مع كل من في المؤسسة. كائنا ما كان ما أفعله يهبون، في آن معًا، لمساعدتي. يبدو أن هؤلاء الرجال والنساء يحبونني. لم يكن أحد يحبني منذ فترة طويلة. والأسوأ من ذلك أنني لم أكن أحب أحدًا أنا أيضًا. أما الآن فقد بدأت أشعر بالحب. أكثر مَن أحبه هو وداد.

استنفر كل من في المؤسسة الآن للبحث في هذه الأرجاء عن شقة صغيرة لوداد وصالحة. نجلس كل مساء في الصالة ونتحدث حول هذا الموضوع. نفكر بأن تكون شقة في طابق أرضي، قريبة من المدرسة، صغيرة ولكن تحتوي على تدفئة

مركزية. ولو كان لها حديقة سيرتاح وداد فيها أكثر. في الحقيقة، حتى لو صار عندهما منزل، ولكنهما لا يملكان المال الكافي لمصروفهما الشهري. الراتب الذي تأخذه صالحة من المؤسسة زهيد جدًا. أسأل وداد عما سيكونه في المستقبل فيهزّ كتفيه. إنني أريده أن يكون محاميًا، لا قاضيًا، عندما يكبر. ليقف مع الحق بدل أن يُعاقِب. يضحك علي. من يدري؟ لربما يحدث. فهو قد فك معضلة القراءة، ولو متأخرًا. إنه يأتي إلى مؤسستنا مع صالحة خانم في الأيام التي لا توجد فيها مدرسة. نتمشى في الحديقة معًا. أناوله النربيش بيده، ويسقي حديقة ورودنا. أطلب منه ألا يترك الماء يتدفق، وأن يسقي بهدوء. يتعلم كل شيء بسرعة.

25 تشرين الأول / أكتوبر 2012

اليوم تزوجت. لا تظني بأنني ما زلت أفكر بتلك الأمور. لقد تزوجت بصالحة. لكي يبقى راتبي لها عندما أموت. إنه نصف راتب، ولكن ليكن، فهو أفضل من لا شيء. أتى الموظف المأذون إلى المؤسسة. ألبست النساء العروس بعضًا من الألبسة الجميلة التي يملكنها. وأنا أيضًا ارتديت قميصًا أبيض. أخذت ربطة عنق من ممتاز بيك. كل من كان في المؤسسة بدا متحمسًا، وليس أنا فقط. ظلوا يتجهزون من أجل هذا الاحتفال لأيام. أتى وداد أيضًا. ألبسوه هو الآخر، كان مظهره لا يُصدق. وقد تبين أن صبينا هذا شديد الوسامة. عندما تعرفت بصالحة قالت ذلك، ولكنني لم أصدق. بغض النظر عن عينيه السوداوين، فإنه يشبهني كثيرًا. شعرت وكأنني وجدت ابني الذي فقدته سابقًا.

بعد الاحتفال أكلنا وشربنا، ثم غادر وداد وصالحة إلى منزلهما. أما أنا فانزويت إلى غرفتي. أستمر بعملي في المحاسبة. مصاريف المدرسة لا تنتهي. النقود التي أجنيها تكفي ولكن بشق النفس. الصبي يحب السيارات. إنني أشتري له كل شهر لعبة سيارة. وهو يضعها فوق الطاولة، ويلعب. يحتاج الكثير من السيارات من أجل وضعها في الكراج. لا بد أن نشتري...

07 كانون الثاني / ديسمبر 2012

وجدنا منزلًا كما نريد تمامًا، في طابق أرضي جميل، ومؤلف من غرفتين. دافئ جدًا، لدرجة أنه لا يمكننا ملامسة جهاز التدفئة باليد. ولكن هذه المرة لا يوجد أثاث. لم يكفِ الأثاث الذي أحضراه من ذلك المنزل العشوائي. استنفرت النساء مرة أخرى. اتصل كل شخص بابنه، وبابنته. كل من يملك أثاثًا زائدًا أحضره. والمؤسسة ساهمت أيضًا. اشتريت أنا الأدوات الكهربائية من مكان واحد بالتقسيط. والآن يوجد في منزل ابني ثلاجة، وغسالة، وتلفاز، وكل ما يلزم. لم يبقَ أي نواقص. أصبح المنزل جميلًا جدًا. صار يشبه المنازل الموجودة في كتب الحكايات.

وضعت طاولة للدراسة في الغرفة التي ينام فيها الصبي. وهو بدوره صفّ كتبه وأقلامه فوقها. وسياراته موجودة في أحد أطراف الطاولة أيضًا. صنعت سياجًا من البلاستيك. يصف السيارات داخل ذلك السياج. إنها أكثر الأشياء التي يهتم بها.

تعلم العمل في الحديقة جيدًا، وزرع ورودًا فيها مع جدته. يسقيانها كل مساء. تمامًا كما علمته. يتراجع الملعون عن دروسه أحيانًا، ولكنني موجود فوق رأسه دائمًا. فلا مكان للإهمال، سيصير محاميًا.

بقي على عاتقنا عمل الختان. بلغ الصبي العاشرة، وما يزال غير مختون. سنحل هذا الأمر في هذا الصيف إن شاء الله.

غول سيران خانم، أعلم أنكِ ستسرّين عندما تقرئين هذه الأمور. عندما كنتِ تقولين لي تغيّر وطور نفسك، لم أكن أعلم ما كنتِ تقصدينه، أما الآن فإنني أنفذ ما قلتِه تمامًا. لم أعد أفكر بنفسي أبدًا. لا يهمني أن أكون وسيمًا، أو أن تعجب بي النساء، أو أن يحببنني. اتضح أن هذا هو العيش، وبهذا الشكل تأتي السعادة.

بدأت أُعجب بنفسي دون النظر إلى المرايا. أنام في الليل بطمأنينة أكبر. لو تعلمين كم اشتقت لهذه الطمأنينة. لدي قميصان، وبنطلونان، وصدرية واحدة. أرتدي أحدها أثناء غسيل الآخر. لست بحاجة لأكثر من ذلك. حرقت أحلامي

ودمرتها، الواحد تلو الآخر، بدعوى أن أكون سعيدًا، وأن أعيش كما في السابق. إنني ممتن لهذه العيشة.

26 شباط / فبراير 2013

منذ شراء البيت لم يعد بالي مشغولًا على الصبي كما في السابق. ولكن يجب أن يُحل أمر الختان. رافقتُ الصبي إلى المستشفى. وبما أننا أتينا، قلت لنفسي لأجعلهم يفحصونه من رأسه حتى قدميه. لطالما شعرت بالأمل في داخلي. أذوب من الداخل عندما أرى الصبي على الكرسي المتحرك. فبينما كان أقران هذا المسكين يتراكضون ويلعبون، يكتفي هو بالنظر إليهم من بعيد. ثمة طبيب كنت أعرفه سابقًا. سلمَه الله، اهتم بنا. في الواقع عاد وزن الطفل طبيعيًا، ولكن ساقيه بقيتا ضعيفتين. قلّب الطبيب الصبي وفحصه بدقة. قال بأنه يستطيع الوقوف على قدميه بعملية أو عمليتين وطرفين صناعيين داعمين.

لم أفرح في حياتي بهذا الشكل. سيستطيع الوقوف على قدميه! جعلت كل من في المؤسسة يستنفر. فهنالك من اتصل مجددًا بابنه أو ابنته، أو من اتصل بجاره، وجدنا حلًا له. الآن سيخضع الصبي لعملية في مشفى خاص. في غضون ذلك سيتم الختان أيضًا. إن لم تتدخل المؤسسة فلن نتمكن من إنجاز هذه الأمور. ولهذا السبب جهزنا مأدبة لمديري المؤسسة. دبّت الروح حتى في لطيف الذي لا يضحك وجهه نهائيًا. فهو على أية حال أصغرنا. نجعله يركض في كل عمل يحتاج الركض. وفي النهاية حددنا يوم العملية. إننا الآن جميعًا ننتظر هذه العملية بانفعال. سيساعدنا الله تعالى. تنهض النساء جميعًا كل صباح ويقرأن الأدعية معًا. ليتقبّل الله...

25 تموز / يوليو 2013

خضع ابني للعملية أخيرًا. لم أبتعد عنه نهائيًا. حتى لطيف كان يزوره باستمرار. أحضروا أشياء من خارج البلد ليركبوها على ساقيه؛ إحداها كان طويلًا،

والأخرى كانت أقصر بقليل. لن يستطيع الذهاب إلى المدرسة هذه السنة لأن عليه أن يبقى في المستشفى فترة طويلة.

لم أترك ابني وحيدًا أبدًا. عيناه كانتا تمتلئان بالدموع عندما أتأخر عليه ولو قليلًا. لقد عانى الطفل كثيرًا، ولكنه لم يقل حتى آه. إنه مسرور جدًا لأنه سيمشي.

وفي تلك الأثناء لم آخذ استراحة للنوم حتى. كما أنني من ناحية أخرى لا أريد أن أهمل أعمال المؤسسة. فعلى الأقل تعطيني المؤسسة نقودًا من أجل هذا. في غضون ذلك يحين وقت المعالجة الفيزيائية. تم الشهر الأول من هذه المعالجة في المستشفى، ثم أخرجوا الصبي إلى المنزل. كان من الصعب الذهاب كل يوم إلى هناك من أجل المعالجة الفيزيائية. عمومًا، عندما انتهى القسم الذي يجب أن يتم بواسطة الآلات، تعلمت الممرضة غول ناز ما يجب أن يُفعل. الآن هي التي تساعد الصبي على القيام بتلك الحركات.

في السابق كان يمكث في المؤسسة حتى من ليس فيهم خير لأنفسهم. أما الآن فقد تغيّرت الأمور. لدى الجميع هدف. إنه التمكن من وقوف وداد على قدميه.. في السابق كان هذا هدفي أنا فقط، أما الآن فقد ركز الجميع عليه. ومجددًا أبكي أثناء كتابتي هذه الأشياء. أصبحت رجلًا ذا عينين مليئتين بالدموع، ولكن هذه الدموع جيدة من أجل روحي. ربما أتطهر من أوساخي، ولكن يبدو أنني تعبت...

12 أيار / مايو 2014

لم أكتب منذ فترة طويلة، لأن الحياة هنا سريعة، وممتلئة، وذات معنى. إنني أنسى الدنيا عندما أكون مع ابني. لقد وقف وداد على قدميه أخيرًا. رؤيته يمشي تساوي عندي الدنيا وما عليها. يقول الأطباء إنه سوف يتحسن بالمشي أكثر قريبًا. النساء في المؤسسة راجعن للصبي دروسه طوال السنة. خاصة أن إحداهن كانت مدرسة رياضيات في الماضي، لم تدع الملعون يتلهى أبدًا. وبهذا الشكل سيتمكن من التسجيل في الصف الأعلى دون أن يكون قد ضيّع سنة. أذهب مرة كل أسبوع

إلى المدرسة، وأحصل على برنامج دروسه. وندرّسه على ضوئه. صبيًا لا يبدو هكذا، ولكن عقله يعمل جيدًا. هذا ما قالته الآنسة (ملَك). مدير المدرسة أيضًا رجل طيب. إنه يهتم بأمر وداد بنفسه.

تستمر صالحة بالمجيء إلى الحديقة مجددًا. الشقة التي تسكنها مع وداد الآن قريبة من المؤسسة. لم يعد يجب عليها المشي مسافات طويلة. بما أنني أعمل في المحاسبة أصبحت هي تهتم بالحديقة وحدها. قلت للطيف بأن يساعد المرأة. في البداية قطب وجهه، ولكن عندما ساندني ممتاز بيك لم يكسر خاطرنا. الآن يعملان معًا في الحديقة. كان العمل جيدًا للطيف البغيض ذاك أيضًا. أقول له "يا ابني اعتنِ بالورود جيدًا، ستتخاصم إذا ذبلت"، فيضحك. لم يعد يئن كما كان يفعل في السابق.

نستمر بالذهاب إلى الجامع كل يوم جمعة. عندما نعود إلى المؤسسة نحكي للنساء ما حكاه إمام الجامع. إنهن في الأصل يقرأن الأدعية معًا عندما نذهب نحن إلى الجامع. ينصتن إلينا بانتباه تام. ما أود قوله لكِ إن شيئًا ما قد حدث في المؤسسة. يبدو أننا صرنا عائلة كبيرة. وضعوا لي اسمًا جديدًا هنا. إنهم ينادونني بـ "الأستاذ". يحبونني. ألم تقولي لي افعلْ أشياء أكثر قيمة، يبدو أنني فعلت. لا أعرف حتى أنا كيف نجحت في ذلك. ثمة شيء أدركته، هو أنه قد غُفر لي.

لا أعرف كيف أشكركِ. أعلم أن كلمة شكر جافة لا تكفي لقاء عملكِ الشاق الذي قمتِ به على مدى سنوات. ولذلك أكتب هذه الأشياء. أساسًا أنتِ تعرفينني وأنا أعرفكِ، وموقن أن قراءة هذه الأمور، عندك، أفضل من سماع كلمة الشكر.

لن أذهب إلى العالم الآخر صفر اليدين. القطرات كثرت. إنني خجل من نفسي. في جيبي الآن أشياء لا يمكن لأحد أن يأخذها بعد الآن.

عزيزتي الطبيبة، في ذلك اليوم؛ اليوم الأخير للقائنا، أعلم أنه ورغم ما تقولينه حول مسامحتكِ لي، إلا أن ما تودّين سماعه أساسًا هو هذه الأمور. بفضلكِ عشت أكثر أيام حياتي سلامًا في هذه المؤسسة. رحل كنان القديم، المضطرب، كنان الذي

لا يعرف الشبع، ولا يفكر بأحد غيره، وحل محله كنان المفعم بسلام داخلي، المتصالح مع نفسه ومع المحيط الذي يعيش فيه.

أما بالنسبة لذلك الفراغ المظلم الذي في داخلي، فقد سقطتُ في البداية إلى أكثر القيعان عمقًا في ذلك المنحدر. كما يُقال في الأغنية تمامًا "علقت في آبار عمياء دون أدراج". قلت لنفسي بأن الحياة انتهت بالنسبة لي. عندما يسقط الإنسان في ذلك البئر، يكون الموت مجرد ترهة. ولاحقًا بدأ ضوء رفيع يتسرب من الداخل. البواب عثمان أفندي، جميل بيك، ممتاز بيك، الأزهار، الحشرات، الورود، الصنوبر، رائحة التراب التي أستنشقها عندما أحرثه، ضحكات النساء اللواتي كنّ صامتات عندما قابلتهن أول مرة، الصنوبرة المتصدعة صالحة، وداد؛ أي ابني... أما الآن فإن كل مكان يلمع لمعانًا، مثل عيني وداد..

آمل أن تغفر لي كل النساء اللواتي أخطأت بحقهن. وخاصة هاندان، وفادي... إنني أعلم كم أنهما طيبتان، أريد منهما أن تغفرا لي الآن. أترك ذلك لعظمة الله ومغفرته.

لطالما أردتِ أن تسمعي هذه الأشياء مني. الآن أنتِ أيضًا كوني سعيدة يا عزيزتي الطبيبة، سعيدة جدًا. بعد ذلك اجلسي واكتبي عني. ليكن ما عشته منارة ونورًا للآخرين. ليقرأ الكثير من الناس كتابك، ولتسدد ديوني بهذا الشكل.

لا أعرف إن كنت سأتمكن من الكتابة إليك بعد الآن، لأنني أشعر بتعب في الأشهر الأخيرة. ثم لا بأس حتى إن لم أكتب. إن كنتِ تقرأين هذه الأشياء فاعلمي أنني هجرت الدنيا قبل وقت طويل. صدقيني لم أعد وحيدًا الآن. وفوق ذلك فإنني أذهب إلى العالم الآخر وفي جعبتي بعض الأشياء ولو كانت قطرات قليلة. إن نصف ما في جعبتي هو لكِ. سامحيني يا عزيزتي الطبيبة، سامحيني...

كنان باران

آه!...

ينتهي الدفتر. آه!...

أغمض عيني وأجلس هكذا لفترة من الوقت. الدموع التي تتدفق من عيني تسقط أولًا في حضني بتثاقل. اعتقدت أن هذه الدموع ستتوقف، ولكنني لا أستطيع إيقافها. ومع مرور الوقت أختنق بهذا النحيب المملوء بالحزن، والغم، والبهجة والسلام.

إذن لقد أصبح كنان بيك أستاذًا.

آه!...

إذن إن جملة "إلى الأستاذ وعائلته الكبيرة" التي جعلني ممتاز بيك أكتبها على الكتب التي وقعتُها لم تكن لممتاز بيك نفسه، بل لكنان بيك!

كنت أعتقد بأنه أتى إلى الدنيا غريبًا وسيغادر غريبًا. لم يكن لدي أمل منه نهائيًا، لقد فاجأني مرة أخرى!

يا لهذه الدنيا؟ العاهرة تصبح فيلسوفة، والغريب يصبح أستاذًا...

بعد ذلك أمسح دموعي وأنهض من مكاني. يتشنج كل جسدي. أتجه مباشرة بهدوء إلى أمام النافذة المفتوحة مقابلي، وأرفع رأسي وأنظر إلى السماء.

آه!...

النجوم كلها متلألئة. لم تعد هناك نجمة خاملة. أشعر بالراحة. أرفع إصبع سبابتي إلى السماء وكأنني أرفع إشارة النصر وأقول "سامحتكَ يا (أستاذي)، سامحتكَ عن كل شيء".

يمكنني الآن أن أنهي كتاب كنان بيك الذي كتبته. وكيف يمكن كتابة "النهاية" قبل أن ينتهي الأمر.. ولكنه انتهى الآن.

أخرج من الغرفة وفي إحدى يدي حقيبتي، وفي الأخرى الدفتر الأخضر.

كنت أعتقد أنني وحيدة هنا، ولكن تونا تجلس إلى طاولتها. ننزل إلى الأسفل ونحن متعانقتان. تونا دافئة جدًّا...

الخاتمة

قرّائي الأعزاء،

حكاية هذا الكتاب وقعت، إنها مستوحى من قصة حياة حقيقية. أعتقد أنكم أنتم أيضًا بكيتم في الأجزاء التي كتبتها وأنا أبكي، وضحكتم على ما كتبته وأنا أضحك، ولكن الآن، أي بعد انتهاء الكتاب، لا بد أن حزنًا عميقًا قد لفّكم.

لو مات كنان بيك دون أن يتمكن من تحقيق كل ذلك، لكانت مشاعرنا مختلفة كثيرًا، أليس كذلك؟ لا أعرف رأيكم، ولكن بالنسبة إليّ لو لم ينتهِ هذا الكتاب بهذا الشكل لاستمريت بالحكم على نفسي وتحميل نفسي المسؤولية. كلما غضبت من كنان بيك أكثر كلما حاربت نفسي أكثر، وكلما حاربتها أكثر زاد غضبي أكثر. أي إن كنان بيك لم ينقذ نفسه فحسب، بل أنقذني أنا أيضًا من الكدر، من خلال مواجهة نفسه والتغيير والنضج.

هذا ما يسمى الطب النفسي.. إنه شيء مؤثر، ويؤثر فيكم أيضًا.

في لقائي الأخير مع كنان بيك، وعلى الرغم من أنني حاولت تحطيم آماله الزائفة التي لا نهاية لها، اتضح أنني، في نفس الجلسة، حطمت آمالي به أيضًا. ومع أنني إنسانة رأت في الحياة أملًا مباشرًا، منذ اليوم الأول في حياتها، فقد أرهقني اليأس. لقد كان الأمر مرهقًا للغاية، ألا أستطيع التعامل مع اليأس بنفسي، اتضح أنني حاولت - فقط - التخفيفَ من حدته، من خلال مشاركته مع القرّاء.

هذا هو تحليل شخصيتي. فحتى لو كان الإنسان طبيبًا نفسيًا، لا يمكنه تفسير نفسه بهذه السهولة. الطبعة الأولى والثانية من هذا الكتاب لا تحتوي هذه الكلمات. حتى إنها لا تحتوي على أية خاتمة، بل فيها مقدمة، أي إنه يحتوي على كلمات لمؤلفة كتبت هذا الكتاب على أنه قصة فشل.

في الواقع، إن لكل شخص حكايته الخاصة جدًا. الأمر ليس متعلقًا بعيش أشياء غير عادية، بل أن تعيش الحياة مثل القصص الخيالية من خلال الشعور بما تعيشه. في القصص الخيالية لا يكون الأبطال مستمتعين، أو سابحين في السعادة بشكل دائم. من أجل العثور على السعادة غالبًا ما يتعين عليهم المعاناة، والعمل الجاد، والصراع مع الحياة. السحر يبدأ مع بداية الحكاية، وليس فقط في نهايتها عندما يحقق الأبطال هدفهم وتغمرنا السعادة. بل نشعر بهذا السحر حتى عندما تتلوى الأميرة بالألم. في داخلنا نريد أن نكون مكان الأميرة. هدفنا ليس المعاناة، فنحن ننغمس في سحر الحكاية. على الرغم من علمنا بأنها ليست حقيقية، إلا أننا ننسى أحيانًا أن الحكايات تتدفق في داخلنا، في أعماق أرواحنا. لا الفضائيون ولا غير البشر من الكائنات الحية الأخرى هم من اختلقوا هذه الحكايات. تلك الحكايات هي رغبات، وتمنّيات، وأحلام، ومخاوف العقل البشري التي يريد الإنسان أن يعيشها، ولكنه لا يستطيع.

عندما كنتُ طفلة كنت أحب الاستماع للحكايات الخيالية. عندما كبرت لم يكن هنالك من يحكي لي الحكايات، ولكن هذه المرة بدأ مرضاي بسرد القصص. وفوق ذلك كنتُ أستمع من الأبطال الحقيقيين لهذه القصص.

حتى اليوم، أعتقد بأنني أمضيت من حياتي مائة ألف ساعة على الأقل في الاستماع إلى مرضاي، أو ربما أكثر من ذلك، لأن هذه الرحلة ما زالت مستمرة. من يدري كم عدد الأشخاص الجدد والحكايات الجديدة التي سمعتُها. في السابق كنت أعتقد بأن هذه القصص والسرديات ستكون متشابهة، مع زيادة عدد الأشخاص، لكنني كنتُ مخطئة. كل واحد منهم فتح لي أبوابًا لعوالم أخرى. منهم من اختصر هذه الحكايات، عندما حُلّت مشكلته، وضاع في الخفاء، ومنهم من لم يتخلّ عن هذه الجلسات لسنوات، واكتشف نفسه وغيّر مصيره.

بالنسبة إلي، لربما كنت أنا مَن قام بالاكتشاف الحقيقي. وجدت أشياء مماثلة في حياتي الخاصة، عندما كنت أتفحص حياتهم بالمجهر، وأُظهر لهم أشياء يعتقدون

بأنها ليست مهمة. أي إن مرضاي قد خضعوا للتحليل النفسي آلاف المرات. لذلك لم تكن تلك المائة ألف ساعة قد ذهبت هباء. لقد كبرت معهم وتطورت قليلًا، ولربما نضجت أيضًا.

طوال حياتي، وحتى عندما كنتُ طبيبة، لم أنفصل عن الأدب نهائيًا. في الواقع إن الأدب هو تركيز داخلي قوي على النفس البشرية وتجارب صاحبها. كما أننا أساسًا نرى الملاحظة والسرد المكثفين هذين في العوالم الداخلية للأفراد في جميع الروايات العظيمة التي أصبحت كلاسيكيات.

يصعب على الإنسان فهم شخص آخر واستيعابه. في الواقع، لا يرغب البشر بأن يُعْرَفُوا بكامل تفاصيلهم. ناهيك عن الآخرين، حتى هو، لا يحب النظر إلى نفسه عن كثب، بل يخاف.. في الواقع تتطور معظم الأمراض العقلية بسبب هذا الخوف.

إن نظر الناس فإن ما يرونه سيخيفهم. عدد الأشخاص الذين يفضلون أن يكونوا مرضى بدلًا رؤية هذه الحقائق مرتفع للغاية. على الرغم من أن هذا الموقف ليس اختيارًا واعيًا، إلا أن ما أجبرهم على اتخاذ هذا الخيار هو مخاوفهم؛ تلك المخاوف الموجودة فينا جميعًا، ولكننا لا نريد أن نعرفها، أو نراها، أو نفهمها، مخاوف إنسانية إلى أبعد درجة.

مع تقدم الحضارة، ودخول معطيات معينة في العلاقات الإنسانية، وتزايد العار، والذنوب والممنوعات، تتعمق مخاوفنا أكثر، يصبح من غير الممكن أن نتكلم عن عالمنا الداخلي مع شخص آخر. ومع ذلك، فإن القدرة على فهم ما يمر به الشخص الآخر، وكيف يعيش، وكيف يشعر، يعني بلوغ سر العالم.. لأن الحقيقة مخفية في مكان ما. وإن محاولة رؤية مشاكل الآخرين، وهمومهم، وآلامهم، وليس فقط رؤية ما يخصنا، يقرّب الناس خطوة واحدة من هذه الحقيقة.

والأهم من ذلك أننا، عندما نتسامح مع الآخرين، ونفهم ماذا يفعلون، ومتى، ولماذا، فإننا نتعلم النظر إلى مشاكلنا من منظور مختلف، ونتطور، وننضج، ونلاحظ أن الآلام التي تمزقنا، تتلاشى قليلًا.

إن فهم الآخر يقرّبنا خطوة أخرى من أنفسنا؛ تلك الأنفس التي غضبنا منها، ولم تعجبنا أبدًا، ولمناها بشدة، ولم نحمِها في كثير من الأحيان، ولم نشعر بالأسف تجاهها، أو نرحمها.

حتى لو اختفت عن ناظرنا من حين لآخر، ولكن الحياة في الحقيقة قاسية جدًا. اعتاد والدي الراحل، وأنا صغيرة، ترديد كلمات "الفلك الظالم".[1] في ذلك الوقت لم يكن الموت / البقاء أمرًا يهمني كثيرًا. فأنا لم أرَ موتًا أو ظلمًا.

كنت أقول "ماذا تعني الفلك الظالم يا أبي؟" فيقول لي "أنتِ ما زلتِ صغيرة لا تستوعبين ذلك. اكبري قليلًا وستدركين ذلك تلقائيًا". ومع ذلك فقد كنت أتساءل عن هوية ذلك الظالم الذي أزعج والدي كثيرًا. خاصة عندما أستلقي على السرير وتطفئ والدتي الأنوار، عندئذ أشعر بالرعب من ظهوره أمامي. لم أذهب إلى المدرسة حتى في ذلك الوقت. كنت أود أن أكبر، ولكنني كنت أخشى الكبر في حال واجهت ذلك الفلك الظالم. وفي النهاية كبرتُ.

في البداية ماتت جدتي أم والدي. كنت أعتقد بأنها مسنّة، فعلى أية حال قد تجاوزت سن الستين، ولاحقًا جدتي أم أمي. في الواقع كان عمرها ما يزال في الخمسينيات، ولكنني قضيت معها أيامًا أقل. كانت تعيش في مكان بعيد عنا. أي أن الألم لامسني ملامسة. مات والدي وأنا ما أزال في العشرين من عمري. هذه المرة لم يمر الموت ملامسة. بل أخذ قطعة مني وذهب. في ذلك الوقت تمامًا خطر في بالي "الفلك الظالم" الذي اعتقدت بأنني نسيته تمامًا. كما أنني لاحقًا تعرفت إلى هذه الظالم عن كثب. فعلى أية حال أصبحت طبيبة. والموت صار قريبًا جدًا مني. وكان الأطفال والشباب أيضًا يموتون، ليس المسنون فقط. وكما قال أبي فإن الفلك كان ظالمًا حقًا، بل وشديد الظلم.

كنت شابة جدًا، لا أتحمل الألم، رقيقة القلب لدرجة أن كل موت رأيته في المستشفى جعلني أرتجف حتى النخاع، وأمسك نفسي في المدرسة فأعود إلى

(1) الفلك الظالم: اسم أغنية تركية. (المترجم)

المنزل وأبكي. وخاصة أولئك الذين يموتون وهم شباب، فلم أكن أستطع تحمل ذلك، وكنت أقيم الحداد على مدى أيام. مرت سنوات عديدة وثمة أشياء لم أنسها إلى الآن. أثناء تدريبي في قسم اختصاص الأمراض المُعدية، من يستطيع أن يُنسيني العروس الجديدة التي كانت ضفائرها تتمايل على الجانبين؟ لم أتمكن من ترك سريرها لأيام، ثم ذات صباح وجدت سريرها فارغًا.

مع تقدمي في العمر، واختلاطي بالآلام، صرت أفكر كثيرًا بالحياة، والموت، والفلك الظالم. درست الدين، والفلسفة، والتصوف، والفيزياء، والفيزياء الفلكية، وعلم الفلك، والرياضيات، وتاريخ العالم والكون، وكل ما يمكن أن أصادفه. إنني إنسانة فضولية حيال كل شيء. لقد عرفت مدى صغر كوكبنا بالنسبة للكون بأكمله، وكيف انفجرت سحابة غازية منذ ملايين السنين، ثم وجد عالمنا الصغير نفسه في إحدى الزوايا، بينما يتشكل الكون بأكمله. وكتبت الكتب على أن هذا الكوكب الصغير، الذي ظلّ صامتًا ملايين السنين، بدأت تتشكل فيه كائنات حية دقيقة نطلق عليها اليوم اسم الميكروبات، ثم مع اتحادها مع بعضها تحولت إلى كائنات حية أكبر. نحن، مثل كل الكائنات الحية، وفي المحصلة، كنا أبناء تلك الكائنات الحية الدقيقة.

فكرت في ذلك الرجل الأول، كم كان وحيدًا، وعاجزًا! لم يكن لديه حتى إله يلجأ إليه، لأن فكرة الإله تكونت بعد مئات بل آلاف السنين.

مع مرور الوقت، وتطور البشر، وتفكيرهم وشعورهم بعمق أكبر، ظهر علم الطب النفسي. يمكننا أيضًا أن نسمي هذا العلم "فن تصالح الإنسان مع نفسه". فأن تذهبوا إلى مُعالج، وتتكلموا معه عن حياتكم، أمر يختلف تمامًا عن التكلم مع شخص قريب منكم. فهو لا يحكم عليكم، بل يستمع إليكم كما أنتم. هذا هو الاستماع النشيط. إنه يحاول التعرف إليكم، وفهمكم، ومعرفة مصدر مشاكلكم.

كلنا نريد من يستمع إلينا ويفهمنا، لأن الحياة لا تفهمنا، ونحن لا نفهمها. أما المعالج فهو موجود دائمًا من أجل مساعدتكم. إنه صديقنا وكاتم أسرارنا. لطالما

كان قدَرنا مخفيًا في شخصياتنا؛ أي في عاداتنا، وحقائقنا، أو ما نعرف أنه حقيقي. لو استطعنا النظر إلى ماضينا بشكل أفضل، واستطعنا رؤية أين ومتى وما الذي نكرره باستمرار، لأمكننا قراءة مستقبلنا مثل عرافة.

أشبّه هذه التكرارات بالتطريزات التي كانت أمي تطرّزها عندما كنت طفلة. في كل منها نقشة مختلفة. في البداية تكتشف أمي تلك النقشة، ثم تطرزها باستمرار، وبالتالي، وتصنع منها أغطية طاولات.

مصير الناس تمامًا هكذا. ننهي حياتنا من خلال عيش النقش نفسه مرارًا وتكرارًا. ومع كل تكرار نعتقد بأننا هذه المرة سنجد الحقيقة. والواقع أنه لا يمكننا أن نجد الحقيقة من خلال حياكة النقوش نفسها مرارًا وتكرارًا، بل من خلال تغييرها. لو تمكنا من رؤية هذا النقش، آه لو تمكنا من ذلك.. وبعد ذلك كم ستتغير حياتنا. لو استطعنا التغيير قليلًا حتى ولو من الحافة فقط.

في الواقع، وبعد الاستماع إلى الناس سنوات عديدة، فإنني أعرف كيف يمكن أن تكون الحياة مجهولة، ومليئة بالمفاجآت المختلفة، والتي تجعل من الإنسان وزيرًا، أو رذيلًا. علمتني هذه الحكاية شيء آخر مختلفًا؛ عدم فقدان الأمل من الحياة مهما حدث...

لذا لم يفت الأوان على أي شيء في هذه الحياة يا قرائي الأعزاء.

يأتي بعض الناس ويمرون عبر هذه الدنيا كالنسيم. أما كنان بيك فدائمًا ما كان عاصفة وإعصارًا. هذه العاصفة دمرت الآخرين أولًا ثم دمرت نفسها. ولكن بالرغم من كل شيء، لم يكن يرغب بأن يُلقى به في الزاوية، والأهم من ذلك، أن يُنسى.

أعتقد أن بعض الذين قرأوا الحكاية غضبوا من كنان بيك بقوة، وربما قالوا وأخيرًا تحققت العدالة الإلهية. وربما كان هنالك مَن فهمه. أما أنا وبصفتي إنسانة مؤمنة بعلم فرويد، وطالما أعجبتُ بإبداعاته العقلية، فإنني أسمي ذلك: عدالة اللاوعي.

قبل مائة عام من الآن، قال سيغموند فرويد إن مسيرات اللاوعي أثرت على أفكارنا وسلوكياتنا وكتبت قدَرنا دون أن ندرك ذلك. إنني أستمع إلى هذه الحكايات منذ سنوات، وكلما سمعتها أكثر يزيد إعجابي بفرويد. في الواقع إن اللاوعي، الذي نملؤه منذ اليوم الأول لولادتنا، ومع عيشنا أكثر، هو الذي يكتب أقدارنا. لربما كان الله هو من يجعلنا نكتب أقدارنا.

وبدءًا من الطفولة، فإننا نجمع في داخلنا كنزًا من الذكريات لكل يوم نعيشه. نحن لا نتذكر معظمها، ولكن اللاوعي لا ينسى، بل يسجل كل شيء واحدًا تلو الآخر.

كل شخص منا تمت الإشادة ببعض أفعاله من ناحية، وتم خزيه ومعاقبته على بعض أفعاله من ناحية أخرى. البعض كان محبوبًا بسهولة دون حتى أن يضطر لتحريك إصبعه، والبعض لم يتمكن من بلوغ هذه السعادة على الرغم من بذله الجهد طوال حياته. البعض يجد الطمأنينة في رائحة الخبز الطازج، والبعض تذكره هذه الرائحة بأيام الجوع التي عاشها. بعبارة أخرى إن هذا طريق طويل ورفيع وشخصيّ وصل إلينا على مدى سبعة أجيال.

كلما عاش المرء أكثر، كلما شعر أن للدنيا لغة، تحاول من خلالها أن تقول لنا شيئًا ما. ويدرك أن يفهم بشكل غامض وجود صيغة أخرى ونظام غامض.

يجب علينا جميعًا أن نتعرف إلى اللاوعي لدينا، والذي يختبئ في أحلك زوايا عقولنا، حتى نتمكن مقدمًا من معرفة المكان الذي ستأخذنا إليه الحياة.

بعد كل هذه السنوات التي قضيتها في الطب النفسي، أفكر أحيانًا بأننا، نحن البشر، نعتقد بأننا أذكياء جدًا. نعم، صحيح أننا أذكياء مقارنة مع الكائنات الحية الأخرى الموجودة في الدنيا، ولكن عقولنا ما تزال يافعة جدًا. ستقولون الآن "وهل للعقل سن يفاعة!" إذا التفتنا قليلًا، وألقينا نظرة على تاريخ الإنسانية، فقد مرّ ما يقارب الاثنين ونصف إلى ثلاثة ملايين سنة منذ أن توقفنا على أن نكون مخلوقات

ذات أربع أرجل، ثم انتصبنا واقفين على قدمين اثنتين. إذن فهل يمكننا الحديث عن عقل مخلوق مسكين لم ينجح في المشي على قدمين إلا بعد مرور كل تلك السنوات؟ بعد ملايين السنين، وقبل خمسة وأربعين ألف سنة فقط، أصبح هذا الكائن أخيرًا مخلوقًا يشبهنا ولو قليلًا. وعندها بدأ العقل يتشكل شيئًا فشيئًا. عندما أفكر في الخمسة وأربعين ألف سنة، أجدها طويلة جدًا! ولكن بالعودة إلى الوراء قليلًا وتذكر ملايين السنين، فإني ألاحظ بدهشة أن مدة التقاء العقل والإنسان لم تكون طويلة بالنسبة لتاريخ البشرية.

لقد بدأ العقل الحقيقي بالظهور قبل عشرة آلاف سنة على ما أعتقد، أي عند اكتشاف الإنسان الزراعة. تطور الإنسان وتطور حتى وصل في النهاية إلى ما هو عليه اليوم. أعتقد أن تطور أذهاننا هذا ما يزال مستمرًا. يقول العلماء إننا لم نستخدم إلى الآن سوى واحد بالمائة من عقولنا. لا يسعني إلا أن أتساءل كيف سيكون شكل العالم عندما يصل استخدام عقولنا إلى مائة بالمائة.

يوضح هذا لنا ما يلي: ظل الإنسان واسمه ووجوده، ولملايين السنين، محكومين باللاوعي المكتشف حديثًا. أي إن عقولنا ما تزال حديثة ويافعة، ومن يدري كم من ملايين السنين تحتاج هذه العقول للتطور والنضج.

وإذا كان الأمر كذلك، وعلى الرغم من قِدَمه، يجب علينا بأسرع وقت ممكن أن نقبل هذا اللاوعي الذي اكتشفناه حديثًا، وأن نوليه الأهمية، وأن نتعرف ونفهم تأثيره علينا، لأنه هو "سيد عقلنا العريق" الذي حكمنا لملايين السنين. وبهذا الكتاب أخبرتكم ما يمكن لسيدنا العَريق هذا أن يفعله بالإنسان.

كلما استمعت لكنان بيك، وشهدت ما مر به، ورأيت كيف أن القدر واللاوعي شبكا أيديهما مع بعض، تصيبني القشعريرة حول كيفية كتابتنا لمستقبلنا وأقدارنا بأنفسنا. لو أن والدة كنان بيك لم تتركه عندما كان صغيرًا لمدة عام أو ربما أكثر، فهل كان قدره سيكون على ما هو عليه؟ ولو أعاله والده واهتم به قليلًا، ولو كانت الجدة التي ائتمنها على ابنه قد أبدت بعض الحب والشفقة لذلك الطفل، فهل

كانت ستكون هذه الجروح بهذا العمق؟ وهل كان هذا الطفل، مع تقدمه في العمر، سيخاف من التعلق والهجر إلى هذه الدرجة؟

لو لم يحدث ذلك، فهل كان سينتظر اليوم الذي تعود فيه فادي، مثل والدته تمامًا، لإنقاذه من هذا العذاب حتى بعد سنوات؟ لو أظهر والده له في ذلك الوقت بعض الحب والشفقة، فهل كان سيغضب من أصدقائه باستمرار ويظل يوبخهم مهما فعلوا؟ عندما توضع هذه الأشياء فوق بعضها البعض، فكم سيفهم الناس كنان بيك بشكل أفضل، أليس كذلك؟

قرائي الأعزاء، وكما ترون فإن الحياة تبدأ منذ طفولتنا بكتابة قدرنا.

آمل لكل من يقرأ هذا الكتاب أن يجد في أقرب وقت ممكن طريقة للالتقاء والتعامل مع اللاوعي الخاص به، أي سيد روحه العتيق. خاصة إذا تمكن من اكتشاف النقوش المتكررة لقدره، فإن قدره في ذلك الوقت سيتغيّر.

أتمنى ألا يشتت كتاب "إذا خسر الملك" انتباهكم، ويهدر وقتكم الثمين. وأتمنى أيضًا أن تلقوا نظرة فاحصة على نفسكم وحياتكم من خلال هذا الكتاب. وخاصة لو استطعتم أن تلقوا القبض على نقوش قدركم ولو من حافتها، فكم سيسعدُني ذلك...

بعد الاستماع إلى أعمق الأجزاء في الناس لعدة سنوات، ولكي أكون أنا أيضًا سعيدة، أحتاج أن أرى أنني أستطيع جعل الآخرين سعداء.

هدفي من كتابة هذه الكتب هو الوصول بلغة بسيطة جدًا ومن خلال القصص الحية إلى الأشخاص الذين يختلط عليهم الأمر بكتب التنمية البشرية ويبحثون عن أنفسهم فيها. لهذا فإنني أقوم أولًا بغربلة سنوات الخبرة، وتحويل المعرفة النظرية إلى تطبيقية، ثم الكتابة بهذه الطريقة.

إذا تمت القراءة بعناية، فأعتقد بأن الكثير من الناس سيجدون أنفسهم في مكان ما من هذه الكتب، وبالتالي سيكونون قادرين على تطوير وعيهم الداخلي الذي يُعتبر العنصر الأساسي في الطب النفسي.

لقد بذلك قصارى جهدي لضمان عدم تعرف المجتمع على بطل هذا الكتاب، كنان بيك، أو أبطاله الآخرين وفي الوقت ذاته حرصتُ كثيرًا على عدم تغيير مجرى الحياة.

في الواقع، لو كان كنان بيك على قيد الحياة ورأى هذا الكتاب، فمن يدري كم سيكون سعيدًا.

طيّب الله روحه.

مع أعمق احترامي وحبي لكم جميعًا...

الطبيبة غول سيران بودايجي أوغلو

شكر

في البداية أود أن أشكر كنان باران بطل هذا الكتاب الذي شارك معي أكثر من عشرين عامًا من حياته لإعداد هذا الكتاب. كان من الجميل التعرف إليه رغم وإغضابه، وإزعاجه لي في بعض الأوقات..

لا يمكن أيضًا تجاهل جهود ابنتي يَغمور وابني حسن، اللذين قرآ كل نسخة جديدة من الكتاب قبل نشره وتبادلا آراءهما معي؛ فشكرًا لهما.

أود أن أعرب عن شكري للسيد إيرول أردوران الذي يعتبر فردًا من أفراد عائلة دار نشر رمزي، الذي ساهم بشكل كبير في تحويل هذه الذكريات الملونة إلى كتاب، والذي أفتخر دائمًا بالعمل معه، وللسيد عمر أردوران الذي يتقرّب من عمله بحساسية فنان، ولمحررتي العزيزة ذات الصوت العذب، والشعر الجميل (نجلاء فير أوغلو) التي جعلت من هذه الوظيفة معنى لحياتها وأضافت معنى لعملها بحضورها والتي تتمتع بروح فنان، ولـ (عمر جيراف أوغلو) على اهتمامه الوثيق بكل جانب من جوانب الكتاب، ولـ (نسرين بالا بيك) و(خديجة طاش) اللتين نظمتا صفحات الكتاب.

يقول بعض قراءي، عبر الهاتف أو البريد الإلكتروني، إنه أتيحت لهم الفرصة للتعرف على بعض مشاكلهم، والتي كانت تسبب لهم المعاناة طوال سنوات، من خلال الشعور بالشخصيات الموجودة في هذه الكتب. يقول العديد من المفكرين أن فهم الآخر والشعور به هو الطريقة التي تجعل الشخص أقرب إلى الحقيقة وتقوده إلى حقائقه الشخصية. أساسًا فإن كتابة هذه الكتب تتم لتسليط الضوء على الروح البشرية.

كطبيبة وكاتبة، فإنني أتمنى لقرائي تحويل هذا الضوء إلى عالمهم الداخلي. أود أيضًا من هنا أن أشكر قرائي على تشجيعهم لي لكتابة المزيد من قصص المعالجة من خلال قراءة كتبي.

كما أود أيضًا أن أعبر عن خالص شكري لجميع العاملين في مركز ماداليون للطب النفسي الذين خلقوا لي بيئة هادئة أثناء تأليف هذا الكتاب، وساهموا فيه من خلال معرفتهم وآرائهم.



هذه قصة صياد وقع فريسة صيده.
كثيراً ما يتأثر الإنسان بما يعيشه خلال سنوات طفولته الأولى، فيبدو مثل تمثال لم يكتمل تشكيله، وتأتي الحياة، على هيئة نحات ماهر يحاول تشكيله بعناية. يتناول (النحاتُ) الإزميل في يده، ويباشر النحت برويّة. ولكنه، في بعض الأحيان، يضرب ضربة يجذّ بها كسرة حجر، ولا يستطيع أحدٌ، بعد ذلك، إعادةَ هذه الكسرة مكانها.
لطالما رأى الإنسان نفسه في القمة معتقداً أنه لن يسقط أبداً. ولكن في أحد الأيام، يضربه نحاتُ الحياة بإزميله فيُحطم قلبَه...
إنها قصة ملك أقام عرشَه على قلوب نساء كثيرات... ويمضي زمن طويل، وهو نفسه لا يستطيع تصديق أنه خُلع عن العرش، ولا حتى نساؤه يصدقن ذلك، ولكنهن يكنَّ أول مَن يشعر بأن شيئاً ما قد تغير؛ النساءُ اللواتي أطعنه كما العبيد، على مدى سنوات.
تقص علينا الطبيبةُ النفسية غول سيران بوضايجي أوغلو، في روايتها «إذا خسر الملك» سيرة صياد يعتقد أنه لن ينزل عن القمة، ولكنه يتدحرج، ويصبح فريسةً لفريسته. وتخبرنا كيف تتحول امرأةٌ تعيسة إلى صيادة، بعدما كانت فريسة أقنعت نفسها بأنها لن تكون محبوبة قط.



ولدت في أنقرة عام 1947. بعد أن أنهت تعليمها الأول والمتوسط في كلية جمعية التعليم التركية في أنقرة (TED - Ankara College) دخلت كلية الطب في جامعة أنقرة عام 1966. وخلال سنوات دراستها الطب، نجحت بامتحان الإذاعة الذي نظمته مؤسسة الإذاعة والتلفزيون التركية (TRT) التي كانت قد بدأت البث عام 1968، وتم تعيينها مذيعة فيها، واستمرت بالعمل في هذه المؤسسة مدة خمس سنوات كمذيعة ومقدمة برامج موسيقية تركية.
لاحقاً، تخرجت من كلية الطب عام 1972، وتزوجت عام 1973، ثم تركت العمل في مؤسسة الإذاعة والتلفزيون التركية (TRT) ودخلت كلية الطب، لكن هذه المرة في جامعة (حجي تِبه) قسم الطب النفسي كمساعدة. وبعد أن أنهت الاختصاص عام 1977، عملت عضواً في الهيئة التدريسية حتى عام 1982، وعندها كانت على عتبة أن تصبح محاضرة، لكنها فضّلت أن تكون طبيبة لا أستاذة، وتركت الجامعة.
عملت غول سيران بوضايجي أوغلو كطبيبة مستقلة في أنقرة مدة 23 عاماً، ثم في عام 2005 حققت حلمها الأكبر وأنشأت مركز مادالیون (Madalyon) الخاص للطب النفسي في أنقرة، وهو مركز الطب النفسي الأول والوحيد في تركيا والذي يستقبل أيضاً جميع الناس على اختلاف شرائحهم. وقد قامت بإعداد هذا الكتاب بهدف مشاركة سنوات خبرتها مع المجتمع.








ISBN: 978-614-01-3457-7
9 786140 134577